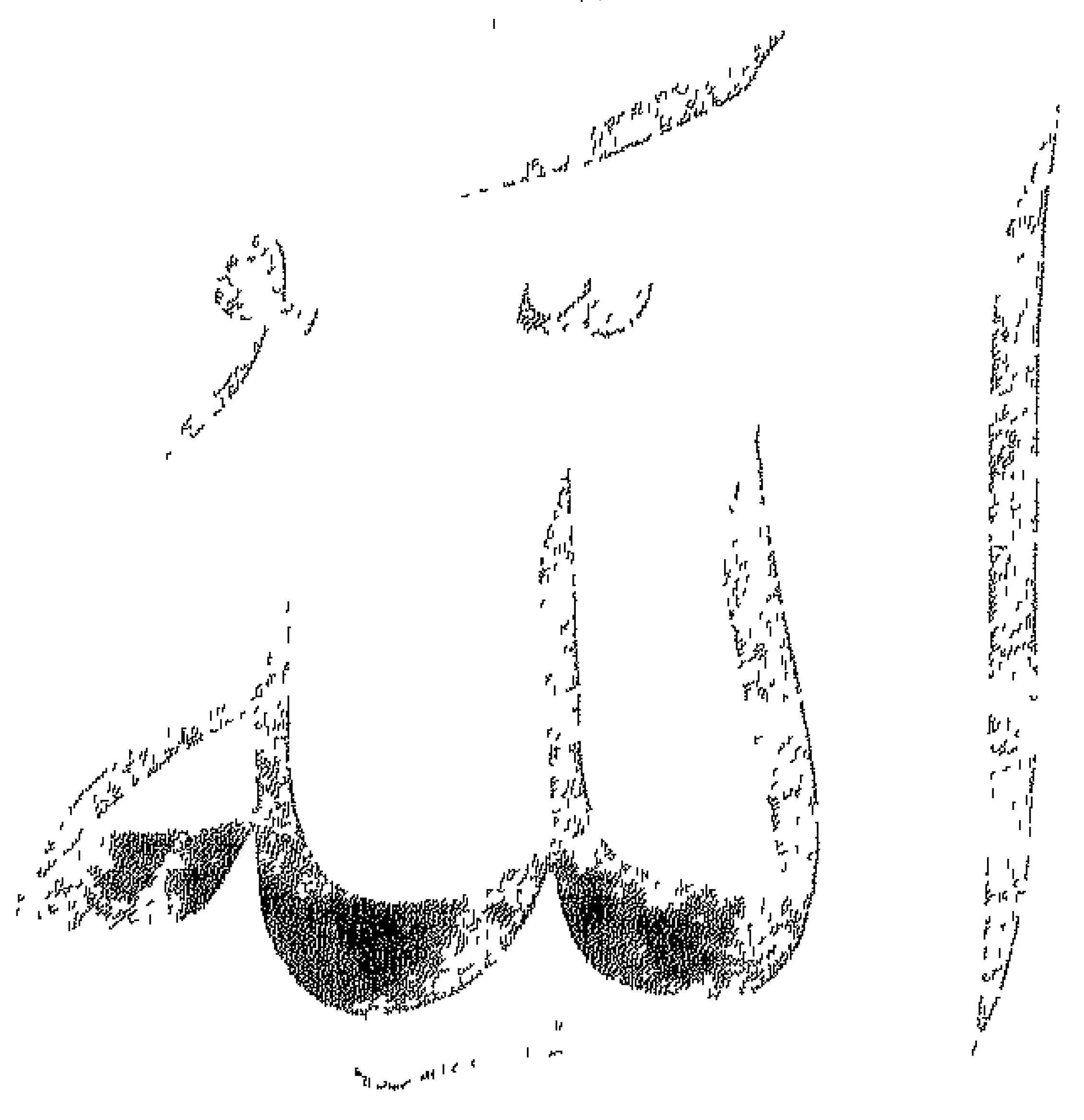
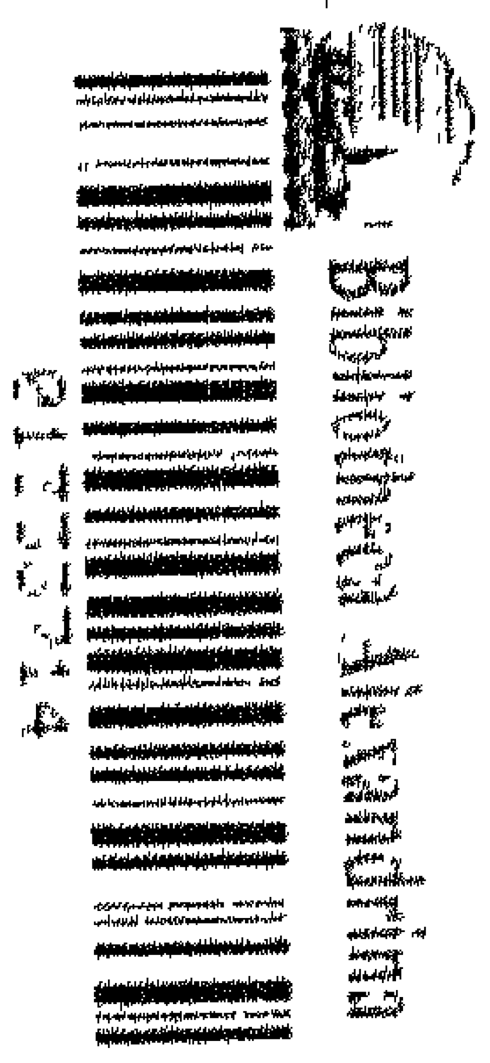
محمد الأنور أحمد البلتاجي



توحيده .. وأسماؤه



مكتبة وهبة

محمد الأنور أحمد البلتاجي

الله جل جلاله

توحيد .. وليس وحدة

● بحث في عقيدة التوحيد في :
الألوهية ، والوحي ، والنبوة ، والولاية ، والمعجزة ، والكرامة ، وغيرها ...
● مع المقارنة بعقيدة الوحدة ..

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعـــة الأولى

١٤٠٦ هـ ــ ١٩٨٦ م

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر / ٣ ميدان الموصلي بجوار جامع الرعاد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ *
لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾

« صدق الله العظيم »

* * *

إهـــداء

الى كل من يشهد أن « لا إله الا الله ، وأن محمداً رسول الله » ..

الى كل مسلم .. ومسلمة ..

الى الذين آمنوا بالله تعالى ربا .. وبالاسلام دينا .. وبمحمد ﷺ نبيا ورســولا ..

الى الذين يعبدون الله وحده .. ولا يتخذون من دونه أنداداً ، أو شفعاء ، أو وسطاء ..

الى الذين يؤمنون بتوحيد الاسلام ، ويكفرون بثنوية الفرس وتثليث النصــارى ..

الى الذين يتمسكون بالقرآن الكريم دستورا .. وبالسنة النبوية الشريفة منهاجا وأسلوبا ، ويرفضون كل مظهــر للشرك ، ويدينــون بعقيدة التوحيد ..

الى الذين يتخذون من الرسول ﷺ الأسوة الحسنة ..

الى هؤلاء جميعا .. أهدى هذا الكتاب .

المؤلف

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ان الحمد لله .. نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ..

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .. من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ..

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له .. له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ..

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفيه وحبيبه ، وخيرته من خلقه .. بعثه الله على فترة من الرسل .. فبلغ الرسالة وأدى الأمانة .. ونصح للأمة وجاهد فى الله حق جهاده .. وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك ..

فاللهم صل عليه وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون »[1] .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا »[2] .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . يصلح لكم

---

(1) آل عمران : ١٠٢ (2) النساء : ١

أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »[٣] .

وبعد .. فان الدين عند الله — منذ خلق آدم الى أن يرث الأرض ومن عليها — هو الاسلام .. يقول تعالى : **« ان الدين عند الله الاسلام »**[٤] .

ويقول جل وعلا : **« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »**[٥] .

ويقول سبحانه : **« أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون »**[٦] .

والاسلام .. دين التوحيد ..

التوحيد الذى نادى به الأنبياء والرسل منذ أرسل الله نوحا عليه السلام أول الأنبياء .. الى أن بعث محمداً ﷺ .. خاتم الأنبياء والمرسلين .

« اعبدوا الله ما لكم من اله غيره »[٧] .

قالها نوح .. كما قالها ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ..

وقالها موسى وهارون وأيوب ويونس ، وسليمان وداوود ، وعيسى ابن مريم عليهم السلام .

وقالها محمد بن عبد الله ﷺ .. وأخذ علينا بها العهد : **« ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله »**[٨]

انه التوحيد الكامل للألوهية ..

توحيد الاسلام .. لا ثنوية الفرس أو تثليث النصارى[٩] ..

التوحيد .. وليس الوحدة !!

---

(٣) الأحزاب : ٧٠ ، ٧١ (٤) آل عمران : ١٩
(٥) آل عمران : ٨٥ (٦) ال عمران : ٨٣
(٧) الأعراف : ٥٩ (٨) آل عمران : ٦٤
(٩) الثنوية ، أو المانوية ، مذهب يقول بالهين اثنين ، اله للخير واله للشر ويرمز لهما بالنور والظلمة ، والتثليث معروف ..

ولهذا .. كان من آواخر الآيات نزولا قوله تعالى : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » [١٠] .

نزلت فى حجة الوداع .. فكانت ايذانا بأن الدين قد كمل ، وأن النعمة قد تمت .. وأن الله تعالى قد ارتضى أن ندين بالتوحيد .. عقيدة الاسلام ..

العقيدة التى لا تتخذ لها ربا والها الا الله وحده .. الله الواحد الأحد .. الذى لا شبيه له ولا ند ولا نظير .. الذى لم يتخذ شريكا ، ولا صاحبة ، ولا ولدا ..

الاله تعالى فى عقيدة التوحيد .. هو الفرد الصمد ، الدائم الباقى .. الذى لم يزل ولا يزال .. المستغنى عن كل أحد . والمحتاج اليه كل أحد .. المقصود فى جميع الرغائب ، والمستعان به فى جميع المصائب ..

يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .. وهو تعالى الكامل المنزه عن العيوب والنقائص .. الذى يصمد اليه الخلق فى النوازل والحوائج ..

وهو تعالى الحى الباقى .. الذى لم يلد ولدا ، ولم يلده والد .. فليس شىء يولد الا وسيموت .. وليس شىء يموت الا وسيورث .. والله تعالى لا يموت ولا يورث ..

ليس كمثله شىء .. وهو السميع البصير .

« **قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد** » ..

فى عقيدة التوحيد : الله تعالى هو الخالق للأشياء كلها .. وليس هو عين هذه الأشياء التى خلقها ، كما تقول عقيدة الوحدة ..

فالوجود — فى عقيدة الوحدة — ليس الا وجودا واحدا ، وما العالم الا مظاهر ومجالى لهذا الوجود الواحد .. فالله سبحانه —

---

(١٠) المائدة : ٣

فى عقيدتهم — هو الموجود الحق ، وكل ما عداه ظواهر وأوهام لا توصف بالوجود الا بضرب من التوسع والمجاز !!

عقيدة التوحيد تقول : « لا اله الا الله » •• أى لا معبود بحق سوى الله تعالى ••

وعقيدة الوحدة •• تدعى أن الكون كله قد انبثق من نواة واحدة •• وأن الله تعالى هو هذه النواة ، وما أسماؤه وصفاته الا أجزاء هذا الكون ومظاهره من كل ناطق وصامت ، وساكن ومتحرك !!

وتزعم هذه العقيدة الضالة : بأن كل عابد مهما عبد •• من انسان أو حجر أو شجر أو كوكب أو حيوان •• فما عبد الا الله !!

وتزعم عقيدة الوحدة أن الكون كله سوف يعود يوم القيامة الى نواته الأولى •• وهى — فى زعمهم — الله تعالى •• فمن ثم لا جنة ولا نار ، ولا ثواب ولا عقاب •• فمن الذى يثيب ، ومن الذى يثاب ؟ •• ومن الذى يعاقب ومن الذى يقع عليه العقاب ؟ •• مادام الكل فى واحد !!

ولهذا •• ترفض عقيدة التوحيد القول الفاجر بأن الله تعالى : خلق الأشياء وهو عينها !!

فالله تعالى هو الخالق لكل شىء •• خلق السموات والأرض والجبال والبحار ••

خلق الملائكة والانس والجن ••

خلق الحيوان والنبات والجماد : « **الله خالق كل شىء** »(11) .

ولا يمكن — فى عقيدة التوحيد — أن يكون الله تعالى الخالق للأشياء كلها هو عين هذه الأشياء !!

ولقد اعتنق التصوف الاسلامى نظرية وحدة الوجود •• التى ابتدعها محيى الدين بن عربى ، فعارض بها تماما عقيدة التوحيد :

---

(11) الرعد : ١٦

ومن هذا المنطلق — منطلق التوحيد لا الوحدة — جاء موضوع هذا الكتاب وعنوانه .. فالاسلام فى حقيقته : دين « التوحيد ، وليس الوحدة » ..

وسنتعرض — بمشيئة الله — فى فصول هذا الكتاب لأصل كلمة التصوف ونشأته وتطوره .

كما نتعرض لبسط نظرية وحدة الوجود .. ومذهب الصوفية فى التفسير الباطنى للقرآن الكريم .. بالاضافة الى موقفهم من الوحى والنبوة ، وعقيدتهم فى المعجزة والكرامة والولاية ..

كما نتحدث عن ادعائهم معرفة الغيب وانكشاف الحجب عنهم .. وتعظيمهم للقبور وتقديس المقبورين ، وتفسيرهم للتوسل والوسيلة ..

بالاضـــافة الى طريقتهم فى أداء الذكر ، وتحويل حلقاته الى حفلات للزار .. يأتون فيها كل شىء الا الذكر الذى أمرنا به الرسول ﷺ وأرشدنا اليه ..

هـــذه الأمور وغيرها .. مما نختلف فيه مع الصوفية ويرفضها الفكر الاسلامى الصحيح لمجافاتها لعقيدة التوحيد التى جاء بها الرسول ﷺ ، وأعلى رايتها الاسلام .. هى موضوع هذا الكتاب ..

* * *

ونحب — ونحن نختتم هذا التقديم — أن نقول :

اننا لا نهدف — بهذا الكتاب — الى محاربة الصوفية ، ولا نريد هذه الحرب معها .

ولا رغبة لنا فى معاداة الصوفية ، أو جلب هذا العداء علينا .

نقرر هذا بالوضوح كله ، حتى لا ندع مجالا لأى شك أو لبس .

نحن لا نبغى سوى الحقيقة وحدها ..

والحقيقة الوحيدة أن الاسلام هو دين التوحيد ..

والتوحيد .. هو الكلمة الطيبة : أصلها ثابت وفرعها فى السماء ..

هو الشجرة الوارفة التى يستظل بظلها المســلمون فى أركــان الدنيــا كلهــا ..

التوحيد .. هو الجذور الضاربة فى أعماق الأرض ، وهو الجذوع التى ترتفع فوق ظهرها ..

هو الأغصان التى تمتد فى الفضاء ، وهو الثمرة الطيبة التى أهدتها هذه الشجرة المباركة الى البشرية جمعاء ..

التوحيد .. هو الماء الذى يروى الجذور ، والفضاء الذى تخترقه الجذوع ، والهواء الذى تتنسمه الأغصان . .

وأخيرا .. التوحيد هو روح الاسلام ، وسر وجوده .

ولهذا حرصنا — فى هذا الكتاب — على التزام الحياد الكامل : بقدر الوسع والطاقة .. فلم نعرض لرأى يختلف مع الصوفية ، الا وعرضنا فى مقابله رأى الصوفية فى المسألة نفسها .. وان كنا — بحكم عقيدتنا فى الاسلام — نقف فى صف التوحيد ونستظل برايته ..

ولا نحب أن نتعصب لرأى دون آخر .. الا اذا كان معه ما يسنده من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ..

وقد كان الامام أبى حنيفة يقول : « رأينا هذا صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب .. هذا رأينا ، فمن جاءنا بأحسن منه قبلناه » ..

ويقول الرسول ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » ..

وخير ما نختتم به .. هو قول الله تعالى : **« قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ »**(١٢) .

والله الموفق ، وهو المستعان .

القاهرة فى ٣ جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ

١٢ فبراير ١٩٨٦ م

محمد أحمد أبو النور البلتاجى

* * *

---

(١٢) الأنعام : ١٠٤ .

الفصل الأول

ما هو التصوف ؟

● **أصل كلمة التصوف :**

اختلف الناس فى أصل كلمة « التصوف » •• فمن قائل بأنها قد اشتقت من « الصوف » •• بعد أن رأى الصوفيين يخالفون الناس ويلبسون الصوف بدلا من الثياب الفاخرة تقشفا وزهدا !!

ومن قائل بأن الكلمة اشتقت من « الصفاء » •• بمعنى أن قلب المريد يصفو ويتطهر باطنه وظاهره عن مخالفة ربه •

وقيل : بأنها مأخوذة من « الصـــفة » التى ينسب اليها فقراء الصحابة على عهد الرسول ﷺ •• وعرفوا فى التاريخ بأهل الصفة ••

وفى هذا يقول القشيرى : « هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة •• فيقال : رجل صوفى ، وللجماعة : صوفية •• ومن يتوصل الى ذلك يقال له : متصوف ، وللجماعة : المتصوفة •

وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق •• والأظهر فيه أنه كاللقب ••

فأما قول من قال : انه من الصوف •• وتصوف الرجل اذا لبس الصوف كمـــا يقال : تقمص اذا لبس القميص •• فذلك وجه : ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف •

ومن قال : انهم منسوبون الى صـــفة مسجد رسول الله ﷺ . فالنسبة الى الصـــفة لا تجىء على نحو الصوفى ••

ومن قال : انه من الصفاء •• فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة ••

وقول من قال : انه مشتق من الصف •• فكأنهم فى الصف الأول من حيث المحاضرة من الله تعالى •• فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضى هذه النسبة الى الصف ••

ثم ان هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم الى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق •

تكلم الناس فى التصوف ما معناه ؟ •• وفى الصوفى من هو ؟ •• فكل عبر بما وقع له •• واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود من الايجاز »[1] •

وهكذا •• لم يبين لنا القشيرى — رحمه الله — أصل هذه الكلمة بعد أن استعرض جميع الأقوال فيها ••

● أما الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى — شيخ مشايخ الطرق الصوفية — فانه يلقى الضوء على أصل هـذه الكلمة بعد أن يقرب الينا معناها ، فيقول تحت عنوان : « خواطر صوفية »[2] :

« حين ظهرت حركة التخصص فى العلوم فى العالم الاسلامى — حوالى القرن الثالث الهجرى — تخصص فريق من علماء المسلمين فى دراسة العقيدة من حيث تقريرها على وجه عقلى •• ومن حيث الدفاع عنها ضد الآراء المخالفة لها •• فعرف هؤلاء العلماء باسم علماء التوحيد ، أو الكلام •• أو علماء أصول الدين ••

وظهر نفر آخر من العلماء •• اختصوا بدراسة الأحكام العملية ، وكيفية استنباط هـذه الأحكام من أدلتها ، وهى : القرآن والسنة والاجماع والقياس •• وعرف هؤلاء باسم الفقهاء •• وعرف علمهم باسم علم الفقه ••

---

(١) الرسالة القشيرية ، ط • مطبعة التقدم العلمية ، ١٣٤٦ هـ • ص ١٢٦

(٢) انظر مجلة التصوف الاسـلامى — العدد ٧٠ — ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ (ديسمبر ١٩٨٤ م) ص ٥ — ٧

وفى نفس الوقت .. ظهر فى العالم الاسلامى علماء آثروا أن يخصصوا جهودهم لدراسة الأخلاق .. ولكن كانت هذه الدراسة من نوع خاص .. فلم تكن نظرية بحتة ، وانما اقترنت بالتجربة والذوق ..

وقالوا : ان الأخلاق هى روح الدين .. ولكى يكون الانسان مسلما صحيح الايمان صحيح العمل ، يتعين عليه أن يتوخى الأهداف الأخلاقية ، وأن يتحقق فى عبادته وسلوكه ، وفى أقواله وفى أحواله .. بما كان عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام ..

ولهذا .. اتجهوا الى البحث العميق فى النفس الانسانية وقواها وأمراضها .. وكيفية علاج هذه الأمراض ، وكيفية السلوك الى الله بوجه عام .. مع الميل الى ما كان عليه السلف من تقلل وزهد فى كثير من مباهج الحياة التى يقبل عليها العاديون من الناس ..

وهؤلاء .. عرفوا — منذ القرن الثالث الهجرى — باسم الصوفية ، وعرف علمهم باسم علم التصوف ..

ودونوا علومهم فى ذلك الوقت .. فكتب المحاسبى (ت ٢٤٣ هـ) رسائل فى محاسبة النفس .. وكتب الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) رسائل متعددة .. وكتب كثير غيرهم . وكانت هذه الصورة الأولى لمؤلفات الصوفية الأوائل .. وكانوا جميعا علماء اشتهروا بعلوم الشريعة » ..

ثم يقول فضيلته بعد هذا التمهيد :

« ولكن .. قد يسأل سائل هنا : لماذا ظهرت هذه التسمية .. تسمية التصوف أو الصوفية ؟

والاجابة على هذا السؤال من الناحية العلمية هى الاجابة التى أجاب بها القشيرى فى الرسالة .. قال : لقد كان جيل المسلمين ممن صحبوا النبى ﷺ يجدون شرفا لا يدانيه شرف فى أن يسموا بالصحابة .. وكذلك جيل التابعين ، كانوا يرون شرفا لا يدانيه شرف فى أن يطلق عليهم هذا الاسم ..

ثم بانقضاء جيل الصحابة والتابعين .. عرف المقبلون على العبادة .. المترسمون خطى النبى ﷺ وصحابته بأسماء مختلفة ..

عرفوا تارة باسم الزهاد .. وتارة باسم البكائين — لأنهم كانوا من فرط ايمانهم يبكون بين الحين والآخر لخشيتهم وخوفهم من الله — .. وعرفوا تارة باسم النساك .. ثم عرفوا أخيرا باسم الصوفية .. وقبل ذلك كان كثير منهم يلبس الصوف اظهارا للزهد والتقشف » .

الدكتور التفتازانى — هنا — يرجع أصل التسمية الى أن الكثير منهم كان يلبس الصوف اظهارا منهم للزهد والتقشف .. ولكن القشيرى — كما تقدم — مع اقراره بهـذا الوجه ينفى عن القوم اختصاصهم بلبس الصوف ..

ثم يقول الدكتور التفتازانى : « وقيل : سموا صوفية نسبة الى « الصفاء » .. حتى أن أبا الفتح البستى يقول : تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا فيه .. وظنوه مشتقا من الصوف ، ولست أنحل هذا الاسم غير : فتى صافى فصوفى : حتى لقب الصوفى ..

وقال البعض : انهم نسبة الى أهل الصفة من الصحابة رضوان الله عليهم .. ولكن النسبة الى أهل الصفة : صفى ..

ثم نجد كثيرا من أوائل الصوفية لم يعودوا يربطون بين لبس الصوف وبين التصوف من حيث هو خلق وسلوك .. وقالوا ان لبس الصوف قد يكون لباس شهرة ، ولباس الشهرة منهى عنه » ..

نرى الدكتور التفتازانى هنا .. يتفق مع القشيرى فى نفى نسبة الصوفية الى أهل الصفة .. وان كان يميل الى قول « البستى » بانه مشتق من الصفاء ..

ويختتم الدكتور كلمته بقوله : « هكذا كان الأوائل .. اذن التسمية حادثة ، ولكن مضمون التصوف مردود الى شواهد من القرآن والسنة ، وحياة النبى ﷺ ، وحياة أصحابه رضوان الله عليهم » ..

● بينما يرى الدكتور ابراهيم هلال : أن كلمة صوفي بمعناها عند صوفية المسـلمين •• هى نفس كلمة « ثيوصوفيا » اليونانية •• التى كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحى يعتنقه النساك والزهاد السابقون قبل الاسلام بعدة قرون •

ويدلل بهذا الرأى على أن التصوف فى الاسلام •• هو استيراد من خارج الاسلام وليس من صميمه •• مستندا فى تدليله بما ورد فى دائرة المعارف البريطانية من أن « الثيوصوفيين » كانوا معروفين فى أزمان بعيـدة •• وكانوا يزهدون فى الدنيا وينقطعون الى النسك والعبادة ، واستنزال الحكمة الالهية على قلوبهم •• وأن هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيبا مزجيا •• وهما لفظ « ثيو » ومعناه : « اله » ، و « صوفيا » ومعناه : « الحكمة » ••

أى أن أولئك القوم كانوا بزهدهم وعبادتهم يتطلعون الى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأسا •• فهناك تشابه كبير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الواسطة والغاية [٣] •

***

● مفهوم التصوف عند الصوفية :

التصوف فى عمومه — كما يراه الصوفية — : « هو السير فى طريق الزهد •• والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها •• وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر •• فى صلاة أو تلاوة حتى يضعف فى الانسان الجانب الجسدى • ويقوى فيه الجانب النفسى أو الروحى ••

فهو اخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم •• سعيا الى تحقيق الكمال الأخلاقى للنفس •• والى معرفة الذات الالهية وكمالاتها •• وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة »[٤] •

---

(٣) التصوف الاسـلامى بين الدين والفلسفة للدكتور ابراهيم هلال • نشر مكتبة النهضة العربية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠ وما بعدها ••

(٤) المرجع السابق ص ١ وما بعدها ••

وقيل : « ان مفهوم التصوف عند الصوفيين هو : « ارسال النفس مع الله على ما يريده الله » ..

وقيل : هو مناجاة القلب ومحادثة الروح .. وفى هذه المناجاة طهرة لمن شاء أن يتطهر .. وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس .. وفى تلك المحادثة عروج الى سماء النور والملائكة .. وصعود الى عالم الفيض والالهام ..

وما هـذا الحديث والنجوى .. الا ضرب من التأمل النظرى ، والتدبر فى ملكوت السموات والأرض .. بيد أن الجسـم والنفس متلازمان ، وتوأمان لا ينفصلان .. ولا سبيل الى تهذيب أحدهما بدون الآخر .. فمن شاء لنفسه صـفاء ورفعة .. فلابد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن .. فالتصوف اذن — فى مفهومهم — فكر وعمل ، ودراسة وسلوك »[٥] .

ويقول الامام القشيرى : « الصفاء محمود بكل لسان .. ضده الكدورة ، وهى مذمومة » ..

كما يقول : « جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه .. وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم .. وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره ..

فهم الغياث للخلق .. والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق .. صفاهم من كدورات البشرية .. ورقاهم الى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية .. ووفقهم للقيام بآداب العبوديه .. وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية ..

فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف .. وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف .. ثم رجعوا الى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ، ونعت الانكسار .. ولم يتكلوا على ما حصل

---

(٥) التفسير والمفسرون ، للدكتور محمد حسين الذهبى — نشر مكتبة وهبة — ١٩٨٥ ، جـ ٢ ص ٣٢٤

منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال .. علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار ما يشـاء من العبيد .. لا يحكم عليه خلق ، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق .. ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم بعدل .. وأمره قضاء فصل »[٦] .

والامام القشيرى .. من أئمة الصوفية المعتدلين .. ولهذا نراه ينقل عن أقطاب الصوفية آراءهم للتعريف بمعنى الصوفية .. فينقل عن أبى محمد الحريرى قوله : « التصوف : هو الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى » ..

ويقول الجنيد : هو أن يمنعك الحق عنك ويحييك به ..

وسئل الحسين بن منصور الحلاج عن الصوفى فقال : وحدانى الذات .. لا يقبله أحد ولا يقبل أحدا ..

ويقول أبو حمزة البغدادى : علامة الصوفى الصادق : أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة .. وعلامة الصوفى الكاذب : أن يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ، ويشتهر بعد الخفاء ..

وعندما سئل عمر بن عثمان المكى عن التصوف . قال : أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى به فى الوقت ..

ويقول محمد بن على القصاب : التصوف أخلاق كريمة ، ظهرت فى زمان كريم ، من رجل كريم مع قوم كرام ..

وسـئل سمنون عن التصوف فقـال : أن لا تملك شـيئا ولا يملكك شىء ..

ويقول الجنيد : هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة ..

ويقول رويم بن أحمد البغدادى : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والايثار .. وترك التعرض والاختيار ..

---

(٦) الرسالة القشيرية — مرجع سابق ، ص ٢

وسئل عن التصوف فقال : هـو استرسال النفس مع الله على ما يريد ..

كما يقول معروف الكرخى : هو الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق »[٧] .

* * *

ويعتقد الصوفيون أن مضمون التصوف مردود الى شواهد من القرآن والسنة .. وحياة النبى ﷺ ، وحياة أصحابه رضوان الله عليهم ..

وشواهد القرآن عندهم .. تنحصر فى قصة الخضر مع كليم الله موسى عليهما السلام .. ويعتقدون أن الخضر كان ولياً آتاه الله علما من لدنه .. ويستدلون بذلك على أن الولى أعلم من النبى .. مادام موسى عليه السلام — وهو نبى — يذهب الى الخضر ليتعلم منه .. وقد تعلم منه بالفعل علما كان يجهله !!

ويدلل ابن كثير على نبوة الخضر عليه السلام بقول الله تعالى « **رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى** »[٨] .. ففى هذا الدليل على أنه كان نبيا ، وأنه ما فعل شيئا من تلقاء نفسه .. بل بأمر ربه فهو نبى .. وقيل رسول ..

يقول ابن كثير : « دل سياق القصة على نبوته من وجوه :

أحدها قوله تعـالى : « **فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** »[٩] وفى هذا دليل على نبوته ..

الثانى قول موسى : « **هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال فان اتبعتنى فلا تسالنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا** »[١٠] .

---

(٧) الرسالة القشيرية — مرجع سابق ، ص ١٢٦ . ١٢٧

(٨) الكهف : ٨٢ (٩) الكهف : ٦٥

(١٠) الكهف : ٦٦ — ٧٠

فلو كان وليا وليس بنبى لم يخاطبه بهذه المخاطبة •• ولم يرد على موسى هذا الرد ••

بل موسى انما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذى اختصه الله به دونه •• فلو كان غير نبى لم يكن معصوما •• ولم تكن لموسى — وهو نبى عظيم ورسول كريم واجب العصمة — كبير رغبة ولا عظيم طلبة فى علم ولى غير واجب العصمة •• ولما عزم على الذهاب اليه والتفتيش عنه •• ولو أنه أمضى حقبا من الزمان — قيل ثمانين سنة — ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه •• واتبعه فى صورة مستفيد منه ••

فدل ذلك على أنه نبى مثله يوحى اليه كما يوحى اليه •• وقد خص من العلوم اللدنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم •• نبى بنى اسرائيل الكريم •• وقد احتج بهذا المسلك الرمانى على نبوة الخضر عليه السلام ••

الثالث : أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام •• وما ذلك الا للوحى اليه من الملك العلام ••

وهذا دليل على نبوته •• وبرهان ظاهر على عصمته ، لأن الولى لا يجوز له الاقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى فى خلده •• لأن خاطره ليس بواجب العصمة ، اذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق ••

ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذى لم يبلغ الحلم •• علماً منه بأنه اذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له فيتبعانه عليه •• ففى قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته •• صيانة لأبويه عن الوقوع فى الكفر وعقوبته •• دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته ••

وقد رأيت — يقول ابن كثير — الشيخ أبا الفرج ابن الجوزى طرق هذا المسلك بعينه فى الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه •• وحكى الاحتجاج عليه الرمانى أيضا ••

الرابع : أنه لما فسر الخضر — عليه السلام — تأويل الأفاعيل

لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلى •• قال بعد ذلك كله : « **رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمرى** »(١١) •• يعنى ما فعلته من تلقاء نفسى •• بل أمر أمرت به وأوحى الى فيه •• فدلت هذه الوجوه على نبوته »(١٢) •

لقد دلتنا قصة الخضر عليه السلام كما رواها القرآن الكريم •• على أن الله تعالى قد أطلعه على شيء من الغيب •• وما كان الله ليطلع على هذا الغيب الا الرسل عليهم السلام •• يقول تعالى : « **وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء** »(١٣) •

كما يقول جل شأنه : « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً • إلا من ارتضى من رسول** »(١٤) •

والخضر عليه السلام كان نبيا ولم يكن وليا •• والاستدلال على أن مضمون التصوف مردود الى هذا الشاهد من القرآن فى غير موضعه •• لأن القاعدة الأصولية تقول : اذا انتفى الدليل انتفى المدلول ، وبطل — بالتالى — المستدل عليه لبطلان المستدل به ••

أما شواهد السنة — كما يرونها — ففى أن الرسول ﷺ دخل مرارا على أهل الصفة ورآهم يتذاكرون العلم ويقرأون القرآن ويذكرون الله فلم ينكر عليهم مقامهم بمسجده وانقطاعهم الى العبادة والزهد فى الدنيا ومتعها •• فهم بذلك يرون أن انشاء الدور التى ينقطع فيها الناس للعبادة ويقوم بشئونهم اخوانهم القادرون من المسلمين ليس جديدا فى الاسلام ••

نقول : جاء فى دائرة المعارف الاسلامية عند التعليق على مادة « تصوف » — بالجزء التاسع طبع دار الشعب — : « أما الصفة التى ينتسب اليها أهل الصفة من أصحاب النبى — ﷺ — فكانت فى مؤخرة

---

(١١) الكهف : ٨٢

(١٢) قصص الأنبياء — لابن كثير ، نشر دار التراث العربى ، ١٩٨١ ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣

(١٣) آل عمران : ١٧٩ (١٤) الجن : ٢٦ ، ٢٧

مسجد النبى ﷺ فى شمال المسجد بالمدينة النبوية •• كان يأوى اليها من فقراء المســلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوى اليه •• ويكثر المهاجرون الى المدينـــة من الأغنياء والفقراء ، والآهلية والعذاب •• فكان من لم يتيسر له مكان يأوى اليه ، يأوى الى تلك الصفة التى فى المســجد •• ولم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون فى وقت واحد ، بل منهم من يتأهل أو ينتقل الى مكان آخر يتيسر له ، ويجىء ناس بعد ناس •• وكانوا تارة يكثرون وتارة يقلون •• وجملة من أوى الى الصفة من الصحابة مع تفرقهم فقد قيل : كانوا نحـــو أربعمائة من الصحابة ، وقيل كانوا أكثر من ذلك ••

وكان فقراء المسلمين من اهل الصفة وغيرهم يكتسبون عند امكان الاكتساب الذى لا يصدهم عما هو أوجب الى الله من الكسب •• وأما اذا أحصروا فى سبيل الله عن الكسب فكانوا يقدمون ما هو أقرب الى الله ورسوله •• وكان يبعث اليهم النبى ﷺ بما يكون عنده ، وان الغالب عليهم كان الحاجة : لا يقوم ما يقدرون عليه من الكسب بما يحتاجون اليه من الرزق » ا هـ •

أهل الصفة — اذن — هم نفر من الفقراء والمساكين الذين هاجروا الى المدينة ، ولم يجدوا لهم مأوى الا فى جانب من مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام •• ويعيشون على الصدقات التى كانت ترد الى الرسول فيبعث بها اليهم ••

ويصف أبو هريرة حالهم فيقول : « كنت فى سبعين رجلا من أهل الصفة •• ما منهم رجل عليه رداء ، اما بردة أو كساء قد ربطوها فى أعناقهم . »(١٥) •

وقد كان أبو هريرة رضى الله عنه أحد أعلام أولئك الفقراء من أهل الصفة •• وكان يصبر على الجوع الشديد حتى انه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع •• يطوى نهاره وليله من غير أن يجد ما يقيم

---

(١٥) حلية الأولياء ، لأبى نعيم الأصبهانى ، ص ٢٧٧

صلبه .. ويروى عن نفسه فيقول : « انى كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطنى ، حتى لا آكل الخمير ، ولا ألبس الجديد .. ولا يخدمنى فلان وفلانة ، وان كنت لأستقرىء الرجل الآية من كتاب الله هى معى . كى ينقلب بى فيطعمنى »(١٦) .

هؤلاء هم أهل الصفة .. وهذا كان حالهم .. فاذا كان هذا هو شاهد السنة فى رأى من يقول بأن التصوف منسوب الى أهل الصفة بالرغم من مخالفة هذا الرأى للقياس الصرفى .. فقد كفانا الامام القشيرى والدكتور التفتازانى مشقة الرد عليهم حين نفيا نسبة التصوف الى هذه الفئة من الناس التى كانت على عهد الرسول ﷺ ..

ومرة ثانية نقول : اذا انتفى الدليل ، بطل المستدل عليه طبقـا للقاعدة المشهورة ..

أما اذا كان المقصود من شواهد القرآن والسنة وحياة الرسول ﷺ وحياة صحابته الكرام .. هو التحلى بالأخلاق الفاضلة .. والزهد والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها ، وأخذ النفس بالتقشف والعبادة والأوراد والجوع والسهر فى الصلاة والتلاوة .. فان فى تعاليم الاسلام وأخلاقه ما يغنينا عن اختراع مسمى جديد ننضوى تحت رايته بدلا من اسم الاسلام الذى ارتضاه الله ورسوله لنا .. وأطلقه علما علينا : « **هو سماكم المسلمين من قبل** »(١٧) .

* * *

● من مصطلحات الصوفية :

للصوفية مصطلحات خاصـة ، يتداولونها بينهم .. ويعـرفها السالكون لطريقهم .. وقد عرض الامام القشيرى هـذه المصطلحات وشرحها شرحا وافيا .. فقال : « اعلم أن من المعلوم أن لكل طائفة من

---

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٧٩ ، والحبير — بفتح الحاء — من البرد ما كان موشى مخططا .. يقال بردة حبير ، وبرد حبرة بوزن : عنبة ..

(١٧) الحج : ٧٨

العلماء لهم ألفاظ يستعملونها .. انفردوا بها عمن سواهم وتواطأوا عليها لأغراض لهم فيها ، من تقريب الفهم على المخاطبين بها ، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة فى الوقوف على معانيهم باطلاقها ..

وهـذه الطائفة يستعملون ألفاظاً فيما بينهم .. قصدوا بهـا الكشف عن معانيهم لأنفسهم والاجماع والستر على من باينهم فى طريقتهم .. لتكون معانى ألفاظهم مستبهمة على الأجانب .. غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى غير أهلها .. اذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف أو مجلوبة بضرب تصرف .. بل هى معان أودعها الله تعالى قلوب قوم .. واستخلص لحقائقها أسرار قوم ، ونحن نريد بشرح هذه الألفاظ تسهيل الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم من سالكى طرقهم ومتبعى سنتهم »(١٨) .

ومن هـذه المصطلحات التى أشار اليها القشيرى : الوقف ، والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والهيبة ، والأنس ، والتواجد ، والوجد ، والوجود ، والجمع ، والفرق ، والفناء ، والبقاء ، والغيبة ، والحضور ، والصحو ، والسكر ، والذوق ، والشرب ، والمحو ، والاثبات ، والستر ، والتجلى ، والمحاضرة ، والمكاشفة ، والمشاهدة ، والمعاينة ، واللوائح ، والطوالع ، واللوامع ، والبواده ، والهجوم ، والتلوين ، والتمكين ، والقرب ، والبعد ، والشريعة ، والحقيقـة ، والطريقة ، والنفس (بفتح الفاء) ، والخواطر ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، والوارد ، والشـاهد ، والنفس (باسـكان الفاء) ، والروح ، والسر ... الخ ..

ولهم مقامات هى مدارج أرباب السلوك : كالتوبة ، والمجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ، والتقوى ، والورع ، والزهد ، والصمت ، والخوف ، والرجاء ، والحزن ، والجوع ، وترك الشهوة ، والخشوع ، والتواضع ، ومخالفة النفس ... الخ(١٩) ..

---

(١٨) الرسالة القشيرية ، مرجع سابق ، ص ٣١

(١٩) المرجع السابق ص ٣١ — ٤٥

ولا يتسع أمامنا المقام للاسترسال فى عرض كافة المصطلحات التى تعارف القوم عليها •• أو شرح كل منها — حتى لا نثقل على القارىء غير المتخصص — فالمصطلحات كثيرة ، والمقامات عديدة •• ولكل طائفة منهم مصطلحاتها وأحوالها ومقاماتها ••

انما نهدف للاشارة بأن للصوفية مصطلحاتها التى خصت نفسها بها — حتى تكون معانى ألفاظهم مستبهمة على غيرهم — وأن لهذه المصطلحات تفسيرات وتأويلات تختلف عن جميـع التفاسير اللغوية المعروفة لهذه الكلمات •• غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع فى غير أهلهـا ••

* * *

ويوضح الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى المقصود من كلمة « طريق » •• فيقول :

« كان الهدف أن يرسم الصوفية طريقا للسلوك يجتذبون به العصاة ويقولون لهم : ان عليكم أن تقبلوا على الطاعة وتسلكوا هذا الطريق » ••

فتصوروا الى الله طريقا بدايته جهاد النفس •• ومراحله عندهم تعرف بالمقامات والأحوال •• ونهايته العرفان بالله •

أما عن جهاد النفس •• فنحن مأمورون بهذا الجهاد لقوله تعالى: **« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين »**(٢٠) •
والسبيل •• هو الطريق ••

وكذلك فان كلمة « طريق » استخدمها هؤلاء العلماء من الصوفية بالرجوع الى القرآن الكريم •• وذلك يعنى أن مصـدر الكلمة هو القرآن •• لأن كلمـة « طريق » أو « طريقة » ذكرت فى القرآن بهـذا المعنى •

يقول تعـالى : **« وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا »**(٢١) •

---

(٢٠) العنكبوت : ٦٩ (٢١) الجن : ١٦

ويقول : « إذ يقول أمثلهم طريقة »[٢٢] .

ويقول : « مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين »[٢٣] .

ومجاهدة النفس .. تعنى عند الصوفية مراقبة النفس ومحاسبتها على الفعل .. ونحن محتاج الى هذا المعنى خصوصا فى عصرنا .. ولو أن كل واحد منا حاسب نفسه عما قدم فى يومه لنفسه وللمجتمع .. وحاول أن يصحح أعماله لكان من وراء ذلك خير كثير ..

جهاد النفس — كما يقول الصوفية — يترتب عليه التحقق بالمقامات والأحوال ..

ولكن .. ماذا يعنون بالمقامات ؟ وماذا يعنون بالأحوال ؟

المقام — عندهم — هو الفضيلة الأخلاقية التى يجتهد السالك لطريق الله من أجل تحقيقها : كالتوبة ، والزهد ، والصبر ، والتوكل ، والمحبة لله وللرسول ، وآل بيت رسول الله ﷺ ، وغير ذلك ..

فكل هذه المعانى مستمدة من القرآن الكريم .. ويعمل الانسان الذى يريد التكامل الأخلاقى على تحقيقها فى نفسه وهو ينتقل من مقام الى مقام فى سلوكه .. فاذا رسخت له التوبة ينتقل منها الى الصبر .. ثم الى التوكل .. ثم الى الرضا . وهكذا ..

حتى اذا استوفى هذه المقامات وغيرها .. فانه يصل الى معرفة الله .. أعنى يصل الى معرفة الخالق تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته .. ويرى الحق سبحانه وتعالى متجليا فى هذا الكون بهذه الأسماء والصفات .. وهى معرفة يطمئن لها قلب الانسان »[٢٤] .

ثم يقول فضيلته : « وكل معنى من هذه المعانى التى ذكرتها مستدل عليه بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث للرسول ﷺ صحيحة .. حتى أن شيخ الاسلام ابن تيمية (ت ٧٧٨ هـ) — وقد كتب فى التصوف كتابات يجب علينا جميعا أن نقف عندها وأن نتفهمها — كتب رسالة تسمى بـ « التحفة العراقية » . وكتب رسالة أخرى عنوانها

---

(٢٢) طـه : ١٠٤ (٢٣) البقرة : ٩٧

(٢٤) انظر مجلة التصوف الاسلامى — مرجع سبقت الاشارة اليه .

« الصوفية » و « الفقراء » ، ورسالة أخرى عنوانها « رسالة فى أمراض القلوب » •• مبينا أن التصوف هو علاج لأمراض القلوب ••

يقول فى « التحفة العراقية » : ان ما يتحدث عنه هؤلاء الصوفية من ضرورة مجاهدة النفس ، والتحقق بمعانى التوبة والرضا والصبر والتوكل ، وحب رسول الله — ﷺ — وحب آهل بيت رسول الله •• كل أولئك انما يعتبر واجبا على كل مسلم •• وهذا لأنه لا يتصور أبدا آن المسلم يبتعد عن التخلق •• لأن التخلق كما بينا هو أساس العقيدة وأساس الشريعة ••

وخذ أى حكم من أحكام العقيدة والشريعة •• ستتبين أنه بدون الأساس الأخلاقى يصبح صورة لا روح فيها •• وقد قال ابن عطاء الله فى « الحكم » : الأعمال صور قائمة ، وأرواحها وجود سر الاخلاص فيهـا •

وهذا المعنى مستمد من قوله تعالى : « **ألا لله الدين الخالص** »[٢٥]

اذن •• الاخلاص فى الأعمال الدينية ، والاخلاص فى الأعمال — أياً كانت لأننا لا نفرق بين عمل دينى وعمل دنيوى — هو أســاس التصوف »[٢٦] ••

ويخلص فضيلته الى أن : « التسمية لا شأن لنا بها — وهذا رأى — لأن التسمية مسألة شكلية •• حتى أن ابن تيمية كان يستخدم عدة تسميات •• وكان يستخدم كلمة « التصوف » كما كان يستخدم كلمة أخرى لها دلالة هى « علم السلوك » فى الرسائل والمسائل ••

وكذلك شرح ابن القيم كتاب « منازل السائرين » للامام الهروى الأنصارى الحنبلى •• وكان عنوان الشرح « مدارج السالكين •• بين منازل اياك نعبد واياك نستعين » •• وهو من أجل ما كتب فى التصوف ••

والحقيقة •• أن ابن القيم وأستاذه ابن تيمية من العلماء الذين كانت لهم مع الله أحوال قطعا •• ولا يتصور أن يكون ابن تيمية أو ابن القيم ممن لم يمارس الرياضات الروحية والأخلاقية »[٢٧] ••

---

(٢٥) الزمر : ٣ (٢٦) المرجع السابق •

(٢٧) نفس المرجع •

وأخيرا .. يتساءل فضيلة الدكتور : لماذا الاختلاف بين الطرق ؟ ومتى ظهرت هذه الطرق ؟ .. ثم يجيب على تساؤله فيقول :

« ظهرت الطرق فى العالم الاسلامى ابتداء من القرن الثالث الهجرى .. وأحب أن أقول : ان كلمة « طرق » لا تعنى أكثر من مدارس تعرف بأسماء مؤسسيها .. فنحن أحيانا ننشىء مدرسة وننسبها الى مؤسسها ، وفى دوائر الجامعات مثلا نقول : فلان من الأساتذة ، لأن له منهجا أو طريقة أو مدرسة فى توجيه الطلاب أو فى البحث العلمى ..

وكذلك كثير من العلماء الصوفية الذين قادوا وأرشدوا تلاميذهم الى كمال العلم والعمل .. نسب تلاميذهم اليهم .. فعرفت مدارسهم أو طرقهم بهذه الأسماء المميزة .. فمثلا الخراز (ت ٢٧٩ هـ) من كبار أوائل الصوفية ، عرف تلاميذه بالخرازية .. وعرف أتباع الجنيد بالجنيدية .. وهكذا ..

أما الطرق المتأخرة التى ظهرت منذ القرن السادس الهجرى .. ومن أبرزها طريقة عبد القادر الجيلانى (ت ٥٦١ هـ) وكان عالما فاضلا يحترمه ابن تيمية ويذكره كثيرا .. فقد عرف أبناؤه بالقادرية ، وكذلك أحمد الرفاعى (ت ٥٧٠ هـ) عرف أتباعه بالرفاعية .. وهكذا »[٢٨] ..

ويختتم فضيلة الدكتور حديثه بقوله : « فالطريقة الصوفية مدرسة تلتف حول فكر وتوجيه عالم يوجه تلاميذه الى كمال العلم والعمل .. لا أكثر من هذا ولا أقل .. وحين ظهرت الطرق فى أول أمرها كانت بمثابة مدارس للتوجيه الروحى والأخلاقى والسلوكى ، دون أن يكون بين هذه المدارس تعارض — لا فى العقيدة ، ولا فى الشريعة — انما الاختلاف راجع الى طريقة التربية والأخذ بأيدى التلاميذ الى طريق الحق ، والى الكمال الخلقى »[٢٩] .

* * *

لقد تعددت الآراء فى مسألة التصوف ، وسوف تتعدد ..

واختلف الناس فى شأنه ما بين مغال فى تعصبه له ، ومغال فى تعصبه ضده ..

---

(٢٨) المرجع نفسه .

(٢٩) نفس المرجع السابق .

ونقول : اننا لا نعادى الصوفية ولا نحاربها اذا تمسكت بكتاب الله وسنة رسوله ، واذا دعت الى صفاء النفس ونقاء العقيدة ..

اننا لا نعادى الصوفية ولا نحاربها اذا دعت الى التجرد من علائق الدنيا — دون مقاطعتها — وعملت على التفرغ لطلب الآخرة دون القعود عن عمارة الدنيا ..

اننا لا نعادى الصوفية اذا كانت تدعو الى الرهبة من الخالق لا من الخلق .. واذا ما جعلت يقينها أن ما يصيبنا لم يكن ليخطئنا ، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا ..

اننا لا نعادى الصوفية اذا دعت الى ارجاع كل الأمور الى الله تعالى دون خوف من مخلوق لا يملك لنفسه نفعا ولا أذى ..

وأخيرا .. اننا لا نملك معاداة الصوفية أو محاربتها .. اذا كان السالكون طريقها أطهار الذيل ، أعفاء النفوس ، زاهدين فى كل ما فى أيدى الناس ، مطمئنين الى ما عند مسبب الأسباب ..

والصوفية — حين تحرص على التزام هذا النهج — تصبح حقا ذروة الايمان فى التقى والجرأة ، والاقدام والاخلاص ..

وأين هو العاقل الذى يريد لنفسه أن يحارب أو يعادى هـذه المبادىء الفاضلة ؟ !

أما حين تحيد الصوفية عن أمر الله .. وحين تعرض عن كتابه وسنة رسوله فتستورد العقائد الدخيلة على الاسلام كوحدة الوجود .. أو الحلول .. أو الاتحاد !!

أما حين تتمسك بالخرافات والأساطير !!

فاننا لا نملك أبدا مسالمتها أو مهادنتها .. ولا نستطيع أبدا السكوت على انحرافاتها وزيغها .. مهما كان الثمن غاليا !!

ان الحرص على سـلامة العقيدة .. كما أمر بها الله وجاء بها رسوله .. أثمن وأغلى عندنا من كل عاطفة ، ولو كانت عاطفة القرابة أو وشيجة الدم !!

ومجمل القول : اننا لا نعادى الا الخرافة والأسطورة فى الدين ..

ولا نحارب الا منازعة الله تعالى فى خصائصه ، واشراك عباده فى صفاته ..

* * *

الفصل الثاني

نشأة التصوف .. وتطوره

تحدثنا في الفصل السابق .. عن أصل كلمة التصوف .. وعرضنا مفهومه واصطلاحاته عند الصوفيين .. والتزمنا — في عرضنا لهذه الأفكار والاصطلاحات — الأمانة التامة ، والحيدة والموضوعية الكاملتين ، فلم نتدخل في السياق الا حين يعترضنا من المواقف ما يفرض علينا هذا التدخل بالتعليق البسيط الذي يوضح الكلام ولا يخل بمعناه ..

وفي الصفحات التالية — نسوق بمشيئة الله — آراء لبعض العلماء الأفاضل الذين عرف عنهم الأمانة والموضوعية والحياد .. لنرى كيف يرون التصوف الاسلامي من خلال عرضهم لتاريخه ونشأته وتطوره .. ولنستمع الى حكمهم في المال الذي آل اليه في عصوره المتأخرة ..

● ونقرأ أول ما نقرأ .. رأيا للدكتور ابراهيم هلال .. الذي يدلل على أن التصوف في أصله وفي لفظه ومعناه ، متقدمه ومتأخره .. استيراد أجنبي وليس من الاسلام في شيء !!

يقول الأستاذ الدكتور ابراهيم هلال[1] : « ... يدعو الاسلام — حقيقة — الى اخضاع الجسد أو الحس للنفس وللدين والعقل .. ولكن لا عن اتخاذ كل ما أشار به الصوفية .. وانما عن طريق الايمان بالله واليوم الآخر ، وبالرسل والأنبياء جميعهم .. والعمل بشريعتهم التي تبلورت أخيرا في شريعة محمد ﷺ .. في حدود الطاقة بعد أداء الواجبات .. والانتهاء عن المنهيات ..

---

(1) انظر : التصوف الاسلامي بين الدين والفلسفة ، للأستاذ الدكتور ابراهيم هلال — ط أولى ، ١٩٧٥ ، ص ١ وما بعدها بتصرف ..

« وبهـذا فسلوك التصوف سلوك متزيد •• يظهر فى النفس الانسانية معنوياتها •• ويحاول فى أحوال تطرفه أو تفلسفه أن يباعد بينها وبين الحياة •• والله سبحانه يقول : **« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق »**(٢) •

« واذا كان التصوف فى الاسلام قد غلب عليه هذا الطابع فى التعريف المتقدم [وكان سيادته قد عرفه بأنه : السير فى طريق الزهد •• والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها •• وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر •• فى صلاة أو تلاوة •• حتى يضعف فى الانسان الجانب الجسدى ، ويقوى فيه الجانب النفسى أو الروحى •• لاخضاع الجسد للنفس بهـذا الطريق •• سعيا الى تحقيق الكمال الأخلاقى للنفس •• والى معرفة الذات الالهية وكمالاتها •• وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة] ••

« اذا كان التصوف فى الاسلام قد غلب عليه هذا الطابع •• فان ذلك راجع الى أنه قد تأثر فى ذلك بفلسفات أجنبية عن الدين الاسلامى وعن بيئته •• سواء أكانت هذه الفلسفات فلسفات أجنبية عن البيئة الاسلامية كلها •• أو أنها أخذت من البيئة الاسلامية عن طريق الشيعة وعن طريق الفلاسفة الاسلاميين ••

« فالتصوف الاسلامى قد خلط بالدين الاسلامى ما ليس منه فى جانب العبادة والمعرفة •• وأصبحت معرفة الصوفية فى عمومها معرفة فلسفية أو اشراقية لا معرفة دينية فى كشفها ، الى محض التمسك بالكتاب والسنة ••

« والاشراق — بالمعنى الفلسفى الصوفى — هو تلقى العلم الغيبى ، والمعرفة الالهية عن العالم العلوى الروحانى بعد سلوك طريق التصوف من رياضة روحية ومجاهدة للنفس بحيث تصفو من الكدورات البشرية •• وحينئذ ينعكس عليهـا — أو يشرق فيهـا — من العلوم والمعارف ما هو منقوش فى العالم العلوى الروحانى من الملائكة أو العقـول

---

(٢) الأعراف : ٣٢

والنفوس الفلكية •• والاشراقيون هم الذين يرون أن المعارف تحصل عن هذا الطريق ويطلبونها به [هامش] •

« فالاشراق الفلسفي الذي عرف من قبل عند سقراط وأفلاطون وأفلوطين •• وغيرهم من فلاسفة اليونان والهنود والفرس •• والذي يصل فيه المرء بعد مرحلة التجرد والرياضة والعبادة الى مرحلة الكشف والاخبار عن المغيبات •• هو غاية التصوف الاسلامي في منهجه الفلسفي•

« وقد شاع هذا المنهج بتلك الغاية الاشراقية في البيئة الاسلامية •• وان كنا وجدنا المنهج السني والأصول الاسلامية •• بجانب ذاك المنهج الاشراقي •• تعيش معه جنبا الى جنب عند كثير من المتصوفة •• فأفادوا في علم الأخلاق وفي أصول تربية النفس •• وفي مناهج البحث في العلوم » ••

وهكذا •• نرى أن التصوف الاسلامي حين أراد اخضاع الجسد للنفس يسلك طريق الزهد والتجرد من زينة الحياة وشكلياتها •• ويأخذ النفس بالتقشف والعبادات والأوراد والجوع والسهر •• حتى يضعف الجانب الجسدي في الانسان ويقوى فيه الجانب النفسي والروحي ••

ولكنه حين أراد ذلك •• خلط بالدين الاسلامي ما ليس منه في جانب العبادة والمعرفة •• اذ اعتقد أن الطريق الى تلقي العلم الغيبي والمعرفة الالهية لن يتأتى الا عن الرياضة الروحية ومجاهدة النفس حتى تصفو من الكدورات البشرية •• فينعكس عليها من العلوم والمعارف ما هو منقوش في عالم الملائكة !!

ولكن التصوف الاسلامي — في سبيل هذه الغاية — مال عن طريق العلوم الشرعية ، واحتضن بدلا عنه أفكار سقراط وأفلاطون وأفلوطين •• وبهذا أصبحت المعرفة الصوفية معرفة فلسفية اشراقية لا معرفة دينية •• وظهر لأول مرة في الفكر الاسلامي اصطلاح أهل الحقيقة •• في مقابل أهل الشريعة المتمسكين بالكتاب والسنة ••

ويدلل الدكتور ابراهيم هلال على تأثر التصوف الاسلامي بالفلسفات الأجنبية فيقول :

« أدى ولع الصوفية المسلمين بالمنهج الاشراقي •• أن أخذوا

المعرفة عن مخالفيهم من أبناء الديانات الأخرى التى رثت وبليت ودخلها التبديل والغنوص •• فهذا ابراهيم بن أدهم يفصح لنا عن أصـول التصوف وغايته فيقول : « تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان » !!

« ويحدثنا أبو يزيد البسطامى ، أنه سافر مرة حاجا •• فلقيه القطب فى الطريق وأمره أن يعود قائلا له : ان الله هو ما تراه فى بعين قلبك •• لأنه اختارنى بيتا له •• فاذا رأيتنى فقد رأيته ، وطفت حول الكعبـة •• واذا عبدتنى فقد عبدته وسبحت له •• فلا تظنن أننى شىء غيره » !!

لم يكتف التصوف الاسلامى بالأخذ عن الفلسـفة اليونانية ، انما أخذ أيضا عن المسيحية فاعتنق نظرية الحلول •• ولهذا نراه يصل بتعظيمه للأولياء والأقطاب بعد أن طور من هذا التعظيم الى أن أصبح أقطابه مجلى من مجالى الله سبحانه وتعالى بعد حلوله فيهم — تعالى الله عن ذلك — وهذه أول اشارة الى اعتناق التصوف الاسلامى لمذهب الحلول أو وحدة الوجود ••

لقد كانت نظرية الحلول ذائعة ذيوعا عظيما فى أنحاء فارس حتى زمن الساسانيين •• وكانت هذه النزعة الفارسية الهندية من خصائص التفكير الشرقى •• بينما كانت النزعة « الثيوسوفية » — أعنى النزعة نحو المعرفة الالهية — من خصائص التفكير اليونانى ••

وكأنما لم يقنع التصوف الاسلامى باعتناق الفكر اليونانى فأضاف اليه الفكر الشرقى متمثلا فى فكر فارس والهند قبل الاسلام •• فأصبح المزاج غريبا تماما عن الفكر الاسلامى المنادى بتوحيد الألوهية ••

ويدلل الدكتور هلال على ذلك بقوله : « على أن ثمة شبها ظاهرا بين بعض العقائد والنزعات الفارسـية القديمة ، وبين بعض التعاليم والمذاهب الصوفية الاسلامية •• فالزهد فى التصوف الاسلامى يشبه الزهد والرهبنة المانوية •• كما يشبه الزهد والقناعة والنهى عن ذبح الحيوان فى الديانة المزدكية ••

« ولقد شاعت العقائد فيما شاع بين المسلمين من تراث الفرس القديم ، ووجدت من الشيعة من اعتنقها وتعصب لها .. ومن الصوفية من تلقاها بالقبول وتأثر بها عن قصد أو غير قصد »[٣] .

ويحدثنا الدكتور ابراهيم هلال عن « التصوف الملامتى » فيقول :

« فاذا انتقلنا عن هؤلاء وعن معرفتهم ، وعن فنائهم عن أنفسهم .. وذهبنا الى أبى عثمان الحيرى (ت ٢٩٨ هـ) ، وأبى عمرو بن نجيد (ت ٣٦١ هـ) — وهما من الملامتية — رأينا نمطا آخر من التصوف ، وهو الفناء عن الأعمال .. أو الاستهتار فيها جلبا للملامة وتعرضا لذم الخلق بدلا من مدحهم .. أو الاتجاه دائما — من جانب الشخص نفسه — نحو النفس باللوم والشك فيها دائما — والنظر اليها نظرة التقصير ..

« ونستطيع أن نتبين أن هذا التصوف موجود فى كلا الاتجاهين : الفناء عن النفس والفناء عن الأعمال .. واذا اجتمع هذان الاتجاهان فى شيء ، فانما يجتمعان فى السلبية نحو دين الله ومجتمعه .. فأحدهما لا يبغى من أعماله الا الوصول الى الله أو الاتحاد به والبعد عن الناس .. والآخر لا يبغى من أعماله الا الوصول الى مذمة الناس له على خلقه وعمله ، والعمل على اشاعة الفساد واظهاره بينهم »[٤] .

ونقول : وفى ظل المذهب الملامتى .. رأينا من بين المتصوفة من يسقطون التكاليف الشرعية بحجة وصولهم الى الله واتحادهم به .. فمن ثم لا حاجة بهم الى التكاليف الشرعية الخاصة بالعوام من الناس ..

ويعقب الدكتور هلال بقوله : « نستطيع اذن .. رد هذا كله الى مصادر غير اسلامية .. منها ما تقدم فى تشكيل المذهب الملامتى .. ومنها ذلك العنصر اليونانى والمذهب الغنوصى .. وقد أثر كل منهما تأثيرا كبيرا فى الفكر الفلسفى والدينى فى الاسلام . وقبل الاسلام وخاصة فى التصوف .. والظاهرة الكبرى التى تؤكد لنا صلة التصوف

---

(٣) المرجع السابق ص ٨ .   (٤) نفس المرجع ص ١١ : ١٢

بالمصادر الأجنبية — لسيطرتها على اتجاه المتصوفة عموما — هى ما نراه من المغالاة فى الاهتمام بالعرفان »[٥] .

وعن « العرفان » .. أو « المعرفة عند الصوفية » .. يحدثنا الدكتور هلال فيقول مدللا على أجنبيته عن الفكر الاسلامى ، وبالتالى على أجنبية التصوف عن الاسلام :

« ... ومما يحملنا على الجزم بوجود أثر للفلسفة اليونانية فى التصوف الاسـلامى .. أن نظرية « المعرفة » فيه ظهرت فى غربى آسـيا ومصر .. فى بلاد تأصلت فيها الثقافة اليونانية أحقابا طويلة .. وكان بعض المبرزين فى الكلام فيها من أصل غير عربى ..

« وسأكتفى هنا بذكر المعرفة كمثال واحد يوضح ما ذكرناه .. فان ما يسميه الصوفية « المعرفة بالله » ويعتبرونه من أخص صفاتهم .. يرادف فى اللغـة اليونانية كلمة « جنوسيس » التى معناها : العلم بلا واسطة الناشىء عن الكشف والشهود .. وقد عرفها هذا التعريف كثير من صوفية القرن الثالث .. بل ان كلمة تصوف نفسها ليست إسـلامية »[٦] .

ثم يقول : « ... أما أجنبية التصوف عن الاسـلام بالنسبة للتسمى بتلك الكلمة .. فانها فى أصل مضمونها القديم قبل أن تدخل الى الأوساط العربية أو الاسلامية .. لم يكن يراعى فيها لبس الصوف ، أو القوم الذين يلبسون الصوف .. وانما كان يراعى فيها طلب النفاذ الى الأسرار الخفية أو المعـانى الكونية المغيبة .. واتخـاذ الطرق للوصول الى ذلك ..

« ... ان التصوف فى ذاته ليس جديدا فى الاسلام .. وانما هو قد عاش فى كل بلد ذهب اليه الاسلام .. ونما وترعرع قبل أن يفتحه المسلمون .. فهذا الاتجاه الباطنى ، والبحث فيما وراء الطبيعة عن خفايا الكون ، ومحاولة الوصول اليها بطريق المجاهدة النفسـية

---

(٥) نفس المرجع ص ١٤ (٦) المرجع نفسه ص ١٧

والجسمية .. لا يعرفه الاسلام ، ولا يعتبر من سار فى هذا الطريق أنه يسير على صراطه المستقيم .. وانما هو استيراد من خارج الاسلام فى المخبر والمظهر ، أو فى الحقيقة والشكل ..

« الحقيقة أو الاتجاه .. أخذ عن أديان مختلفة سماوية وغير سـماوية ..

« والشكل أو المظهر .. أخذ عن زى الرهبان المسيحيين .. فجاء علماء العربية فنسبوهم الى الشكل الذى هو ألصق شىء باتجاههم ـ هذا اذا قلنا ان الكلمة فى لفظها عربية ـ ومن المحتمل أن تكون أجنبية وجدت منذ القدم علما على هؤلاء الذين يريدون أن يشفوا هوى نفوسهم من ناحية الكون والحياة .. غير مقتنعين بما جاءت به الأديان ، أو جريا وراء الأفكار الفلسفية أو الكهنوتية ..

« ومن الراجح أن تكون كلمة تصوف مشتقة من كلمة «ثيوصوفية» اليونانية التى كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحى يعتنقه النساك والزهاد والسالكون قبل الاسلام بعدة قرون .. فكانوا ينأون بجانبهم عن الدنيـا .. ويلجأون الى أنواع من الرياضات الروحية والعبادة مما اقتبسوه عن أنبيائهم ورسلهم . حبا فى التقرب بالروح من خالقهم ، وتلقى الحكمة والمعارف القدسية عنه تعالى »[٧] .

والخلاصة : « أن التصوف الاسلامى : أوله المسمى بالزهد ، وآخره المعروف بالتصوف .. انما هو استيراد من خارج الاسلام ، وليس من صميمه ..

« وأن تسميته بالزهد فى أوله .. انما هى بالنسبة الى جانب منه ، مثل تسمية العباد والنساك والجوعية المتقدمة والحكماء ..

« وأن كل هذه أسماء ملحوظ فيها جانب من جوانب التصوف ، وهو يجمعها كلها .. وكل منها يتطابق معه فى وجه من وجوهه أو مذهب من مذاهبه .

---

(٧) المرجع السابق ص ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ .

« ومن هنا •• يمكن أن ننظر الى تلك الكلمة « صوفى » و « صوفية » فى اطلاقها المبكر قبل الاسلام ، وبعده فى القرن الأول — فى المجال العربى — على جماعة المتعبدين أو الفرد العابد — وأن لا نكذب تلك الروايات التى تقول باطلاقها فى اللغة العربية فى ذلك الوقت المتقدم على الاسلام — على أنها من باب الكلمات الدخيلة فى اللغة العربية •• كما نعرف تطرق تلك الألفاظ اليها من القديم فى لغات الأمم المختلفة •• ثم جاء المتأخرون واعتبروها منسوبة الى الصوف فى أصح أقوالهم •• خاصه وأن لباس الصوف شاع فى عصر الجمع والتدوين والتأليف ••

« على أن اطلاق هذه الكلمة فى العصر الأول على العباد والنساك ليس ببعيد •• اذا عرفنا أن اتصالا حقيقيا نشأ فى العالم الاسلامى اتصل فيه المسلمون بالفلسفة اليونانيه فى العقود الاسلامية الأولى •• ذلك أن « ابن كثير » — وهو مؤرخ ممتاز — ذكر لنا فى بعض النصوص أن علوم الأوائل انتشرت فى العالم الاسلامى فى القرن الأول الهجرى •• والمقصود بعلوم الأوائل : الفلسفة اليونانية وعلم النجوم وغيرهما من معارف يونانية لم يوافق عليها العقل الاسلامى ••

« فلا مانع أن تكون هذه الكلمة قد استوردت فى ذلك الوقت المتقدم الذى غزت فيه علوم هذا الصنف من الأجانب العالم الاسلامى فى ذلك الوقت أو قبله •• اذا تذكرنا أيضا أن الأديرة والكنائس كانت منتشرة فى الجزيرة العربية منذ القدم ، وأن العرب لم يكونوا بمعزل منهم ، وكثير منهم خالطهم واعتنق دينهم •• فضلا عن أن العرب كانت لهم صلات تجارية بالعالم المتمدين كله فى ذلك الوقت ، والذى شاعت فيه ديانات سماوية وغير سماوية ، وفلسفات دينية وميتافيزيقية •• كما كانت هناك الى جانب تلك الصلات التجارية صلات حربية وسياسية بين العالم اليونانى من قديم •• حين غزا الاسكندر بلاد الشرق وبين العالم الرومانى والفارسى والحبشى بعد ذلك •• حتى ظهور الاسلام » ••

(٨) المرجع نفسه ص ٣١ ، ٣٢

ومن هنا نصل الى النتيجة الواضحة •• « أن التصوف فى أصله ، وفى لفظه ومعناه — متقدمه ومتأخره — استيراد أجنبى ، وليس من الاسلام فى شىء » ••

* * *

● تصوف الملاحدة :

اشتهر نفر من الصحابة — رضوان الله عليهم — بالزهد ، كأبى ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى •• كما اشتهر به الحسن البصرى ، وعامر بن قيس من التابعين •• وكانوا يصرفون نشاطهم الى تزكية النفس عن نقائصها وصفاء القلوب الى خالقها •• وكانت أعمالهم مشروعة خالصة ، وأقوالهم كانت رشيدة واضحة ، لا عوج فيها ولا التواء ••

يقول الحسن البصرى : « حادثوا هذه القلوب بذكر الله ، فانها سريعة الدثور •• واردعوا هذه النفوس فانها طلعة تنزع الى الشر عادة » •

ويقول ابن قيس : « لقد أحببت الله حبا سهل على كل مصيبة ، ورضانى بكل قضية •• فما أبالى مع حبى له ما أصبحت عليه وما أمسيت » ••

كان هؤلاء النفر من الصحابة والتابعين •• يعملون برسالة الاسلام ، ويعبرون عن الهدف الأخير لها . وهو : حمل النفس على الاطمئنان وعلى التحمل ، وعلى السير فى الحياة فى ثقة ، لأنها تستعين بالله ، وتسلك طريقه فيما تسير نحوه من غاية ••

وعندما لقب الزهاد بالصوفية فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى •• وكان يتقدمهم أبو هاشم الصوفى (ت ١٥٠ هـ) — وهو أول من لقب من الزهاد بالصوفى — كان الزهد يسير على قواعد الدين ، ورعاية آدابه وسلوكه ••

وفى ذلك القرن — الثالث الهجرى — أصبح التصوف مذهبا غنيا ، له قواعد للمحاجة ومصطلحات اختص نفسه بها •• وظهر من بين صفوفه أبو القاسم الجنيد الذى كان يقول : « مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » •• كما ظهر الفضيل بن عياض ، وابراهيم بن أدهم ،

ومعروف الكرخى ، وغيرهم .. ممن كان يطلق عليهم « صوفية أهل العلم » .. لأن تصوفهم كان على النمط الموجود فى كتاب « الزهد والورع » لأحمد بن حنبل .. وهو زهد الاسلام لا تصوف الفلسفة .. ولهذا لم يتعرض لهم ابن تيمية بالنقد فى كتابه « الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » ..

ولكن ابن تيمية — رحمه الله — انتقد نوعا خاصا من التصوف .. ذلك هو النوع الذى عرف به محيى الدين بن عربى ، وابن سبعين ، وعمر بن الفارض ، ومن تتلمذ عليهم من معاصريه .. فقد كان تصوفهم ينادى بعقيدة « الوحدة » — التى لا يزال يقول بها بعض المتصوفة — ولهذا أطلق ابن تيمية على تصوفهم أسم « تصوف الملاحدة » ..

وعن هذا النوع من التصوف — تصوف الملاحدة — يحدثنا المرحوم الدكتور محمد البهى .. فيقول :

« تصوف الملاحدة .. هو ذلك الضرب الذى انحدر اليه الاتجاه الصوفى فى الجماعة الاسلامية .. بعد أن قبل فى شروح المبادىء الاسلامية عقائدا وفكرا ترجع الى المسيحية والأفلاطونية الحديثة والبرهمية ، وبعض الديانات الفارسية القديمة كالمانوية ..

« وتصوف الملاحدة .. يقول بالتثليث .. يقول « بعالم الله ، وكلمة الله ، والفراسة » على أنه عالم الأزل والطهر !!

« أما الله — فى تصورهم — فهو : « **نور السموات والأرض** »[9].

« وأما كلمة الله .. فهو محمد عليه الصلاة والسلام ، أى المخلوقات !!

« وأما الفراسة .. فهى « الالهام الصوفى » .. وصاحبها هو « المريد » أو « الانسان الكامل » .. أو « المتحد بالله » .. وهى التى يعبر عنها القرآن الكريم — فى نظرهم — بقوله : « **ونفخت فيه من روحى** »[10] .. والتى يقول فيها الرسول عليه الصلاة والسلام : « انتقوا فراسة المؤمن ، فانه ينظر بنور الله » ..

---

(٩) النور : ٣٥ (١٠) الحجر : ٢٩ ، وسورة ص : ٧٢

« ويقول تصوف الملاحدة بعقيدة « الوحدة » •• أى عقيدة شمول الألوهية •• وهى التى تترجم فى هذه العبارة : « وجود هذا العالم هو عين وجود الله ، وليس هناك وجود قديم خالق ووجود حادث مخلوق » !! •• أى لا انفصال بينهما !!

« كما يقول بعقيدة « الحلول » •• وهى اعتقاد أن يحل الله فى بعض مخلوقاته من « المريدين » أو « الواصلين » •• فالسالك اذا أمعن فى السلوك ، وخاض لجة الوصول •• فربما يحل الله فيه كالنار فى الفحم !!

« وعن أبى الحسين الحلاج من قوله : « أنا الحق ، وما فى الجبة الا الله » (!!) ، وقد قتل من أجل هـذه المقالة فى خلافة المقتدر عام ٣٠٩ هـ بعد أن أفتى الفقهاء والصوفية المستقيمون بخروجه عن الاسـلام ••

« ويعبر أبو يزيد البسطامى (ت ٣٣٤ هـ) عن الواصل الذى اتحد بالله : بالانسان الكامل •• ويشرحه بقوله : « الخلق أحوال ، ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره وغيبت » !!

« ويقول : « لأن تحس أنك واحد مع الله ، خير من عبادة الناس جميعا من بدء الدنيا الى غايتها » !!

« والحلول •• أو الاتحاد بهذا المعنى •• قاصر على المتفوق فى درجة التصوف ، وهو « العارف » أو « الواصل » من بين درجات الصوفية !!

« والحلول أو الاتحاد •• هو الذى يهيء ما يسمى بالفراسة •• وهو الذى يجعل الانسان العارف جزءا من ذلك الثالوث المقدس : « الله ، وكلمة الله ، وصاحب الفراسة » •• ويرفع عنه بشريته ، ويسقط بالتالى التكاليف الشرعية عنه !!

« والطريق الى هـذا الحلول والاتحاد •• هو احياء الضمير ، والكشف ، والممارسة •• وأما القرآن والسنة فانهما لعوام الناس » !!(١١)

---

(١١) الفكر الاسلامى فى تطوره . للدكتور محمد البهى . نشر مكتبة وهبة ، ص ٣٠ وما بعدها ..

[وهكذا تحول التصوف من مذهب يتقيد بالكتاب والسنة .. الى مذهب غريب تماما عن الاسلام .. مذهب ينادى بالوحدة التى تقول بشمول الألوهية .. و « بالحلول » الذى يقول بحلول الله تعالى فى المريدين والواصلين !!

لقد رفعوا عن « العارف » بشريته بعد أن ابتدعوا ثالوثهم المقدس : « عالم الله ، وكلمة الله ، والفراسة » .. أى نور السموات والأرض ، والمخلوقات ، والالهام الصوفى الذى اختص به المريد المتحد بالله .. فأصبح انسانا كاملا !!

لقد أصبح القرآن والسنة — طبقا لنظريتهم — لعوام الناس .. فما الداعى الى التكاليف الشرعية بعد أن اتحد المريدون بالخالق — سبحانه — عن طريق احياء الضمير ، والكشف ، والممارسة !!

فلتسقط التكاليف الشرعية عن أصحاب الفراسة بعد أن ارتفعوا عن بشريتهم !!

أهذا هو توحيد الاسلام] ؟ !

ثم يقول فضيلة الدكتور محمد البهى :

« ويقول « تصوف الملاحدة » بعقيدة « التجلى » ، أو « الفيض » فى صدور العالم عن الله !!

« وطريق الفيض هو الحب .. فالله تعالى أحب نفسه ، وعن هذا الحب لنفسه خلق آدم .. وهكذا : كل موجود بعده ينشأ عن حبه لنفسه موجود آخر !!

« ويروون حديثا قدسيا فى هذه العقيدة : « كنت كنزا مخفيا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ليعرفونى » !!

« والوحدة .. بمعنى « الشمول الالهى » وعدم انفصال الكون عن موجده والخلق عن الخالق .. عقيدة برهمية !!

« والحلول .. على معنى حلول الله فى انســان ما .. عقيدة مســيحية !!

« والاتحاد مع الله .. على أنه غاية يصل اليها الانسان عن طريق الكشف والممارسة .. فكرة أفلاطونية حديثة !!

« وعقيدة الفيض والتجلي في الصدور — أي في صدور الموجودات عن الله — من فكر الأفلاطونية الحديثة دخل فيها عنصر الأرسطية !!

« فعلى غرار « العلم » في مدرسة أرسطو في تصوير وجود العالم بعضه عن بعض .. كان الحب لدى الصوفية في تصوير الشيء نفسه ، بالاضافة الى الفيض !!

« فالمدرسة الأرسطية .. اكتفت « بالعقل » في تصوير نشأة العالم عن العلة الأولى ..

« والأفلاطونية الحديثة .. استخدمت بدل العقل فكرة الفيض في تصوير ذلك ..

« والتصوف الاسلامي الأخير .. مزج بين الطرفين . وعبر عنهما بالتجلي ، والحب !!

« عقيدة التثليث هنا ترجع الى الأفلاطونية الحديثة .. ولكن تأثرت بالشرح المسيحي لعالم الأصول في تلك المدرسة .. وهو العالم الذي يتكون من : الأول ، والعقل ، والنفس الكلية ..

« والشرح المسيحي لهذا العالم الأصيل .. لاءم بين موجوداته الثلاثة وبين « الله ، وكلمة الله ، والروح القدس » — التي وردت في نصوص المسيحية ..

« فاذا ما عمل التصوف المتأخر .. على خلق عالم مقدس . أزلي أبدي .. فانه سيكون عالما مثلثا قطعا .. طالما يؤمن بالله . وبرسوله — ﷺ — بالاضافة الى ما يضفيه على العارف من صبغة الاجلال والتقديس »[١٢] !!

[لقد قالوا بالتثليث حين ابتدعوا « عالم الله ، وكلمة الله ، والفراسة » !!

---

(١٢) نفس المرجع السابق ..

ثم قالوا بالوحدة •• وبالحلول !!

وها هم يقولون بالتجلى •• أو الفيض !!

فالعالم صدر عن الله تعالى بأن أحب الله نفسه ، وعن هذا الحب لنفسه خلق آدم •• وعن حب كل موجود لنفسه ينشأ موجود آخر !!

وهكذا •• استقوا فكرهم من منابع العقائد الغريبة تماما عن الاسلام •• فأخذوا الوحدة عن البراهمة ، والحلول عن المسيحية ، والاتحاد عن اليونانية الحديثة •• وأخيرا مزجوا بين فكر أفلاطون وأرسطو فابتدعوا عقيدة التجلى !!

ومرة ثانية نقول : هل هذا هو توحيد الاسلام] ؟ !

ثم يقول فضيلة الدكتور محمد البهى رحمه الله :

« أما اسقاط التكاليف الشرعية عن جميع الصوفية فى درجاتهم المختلفة •• فهو نتيجة لاعتقاد أن صدور العالم عن الله بطريق الفيض . وعن حب الله لنفسه •• فليس هناك مكان للقدرة والارادة فى هذا الصدد •• والتكليف الشرعى صــورة لارادة الله •• فاذا انعدمت الارادة : انعدم التكليف !!

« وأما سقوط هذه التكاليف عن طبقة المعارف •• فالاعتقاد بالاتحاد وعدم التمايز بين الانسان الواصل — أو الكامل — وبين الله يسقط التكليف •• لأنه الآن ليس هناك جانبان وطرفان •• أحدهما يكلف . والآخر يقوم بالتكليف !!

« ثم لـــماذا التكليف وقد تمت الغاية ؟ فالتكليف ليس الا وسيلة لغاية •• هو رسم طريق يوصل الى غاية خاصة •• وقد بلغ الانسان هذه الغاية •• فلا معنى لرسم الطريق وطلب سلوكه !!

« ولو لم يكن من نتائج هذه العقائد الا اسقاط التكاليف •• لكانت هذه النتيجة وحدها كافية لنقد هذا المذهب •••• اذ أى اتجاه فكرى أو عقيدى يسقط التكليف صراحة أو يضــع مقدمات تستلزم اسقاطه يكون مجافيا للرسالة الاسلامية »(١٣) .

---

(١٣) نفس المرجع السابق ..

[وهكذا يستطيع ذلك الفكر الغريب أن يحقق هدفه .. وهو اسقاط التكاليف الشرعية !!

لقد أسقط هذه التكاليف عن جمهور المتصوفة — بدرجاتهم المختلفة بنظرية الفيض .. اذ لا مكان للقدرة والارادة نظرا لصدور العالم — في زعمهم — عن الله تعالى بطريق الفيض وعن حبه لنفسه .. والتكليف الشرعى احدى صور ارادة الله ، وقد انعدمت هذه الارادة طبقا لنظرية الفيض .. فلماذا التكليف !!

كما أسقط هذه التكاليف عن طبقة العارفين بنظرية الاتحاد .. فما دام العارف قد اتحد مع الله ، وأصبحا — فى زعمهم — طرفا واحدا . فلماذا التكليف ؟ !

فلتسقط التكاليف الشرعية اذن ، بعد أن تمت الغاية .. وهذا هو بيت القصيد] ..

والخطير فى الأمر .. أن أصحاب هذا النوع من الصوفية — كما يقول الدكتور محمد البهى — : « لم يضيفوا هذه العقائد الى تعاليم الاسلام كشيء مجاور لشيء آخر يضاف اليه ، مع بقاء الانفصالية بينهما .. بل حاولوا أن يحملوا بعض نصوص القرآن هذه العقائد .. ويجعلوا من شرح الفيض والعقيدة التى شرح فى ضوئها وحدة لا انفصال فيها !!

« والآيات القرآنية التى تعلقوا بها فى تبرير اسلامية هذه العقائد الدخيلة .. هى تلك التى تشير الى قرب الله تعالى من الانسان .. مثل قوله تعالى : « **ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد** »(١٤) .

وقوله : « **ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا** »(١٥) .

---

(١٤) سورة ق : ١٦ (١٥) المجادلة : ٧

وقوله : « **ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله** »[(١٦)]

« فهذه الآيات حملوها على « الوحدة » البرهمية بمعنى الشمول الالهى ، وعدم الانفصال بين الخالق والمخلوق !!

« واذا لم يجدوا بين النصوص الصحيحة ما يصح أن يحمل على عقيدة من هذه العقائد .. ابتدعوا بعض الأحاديث للتدليل بها على اسلامية العقيدة المطلوبة — كالحديث القدسى : « كنت كنزا مخفيا ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ليعرفونى » — كى يضيفوا الى الاسلام عقيدة النقيض .. والاسلام ينفر منها »[(١٧)] .

أين الوحدة فى قول الله تعالى : أنه خلق الانسان ويعلم ما تحدثه به نفسه .. فلا يخفى عليه تعالى سرائره وضمائر قلبه .. فهو تعالى أقرب للانســـان من عرق العنق .. فهو أعلم به وأعرف بأحواله ، ولا يخفى عليه شىء من خفياته ؟ !

أين الوحدة فى قوله جل شأنه : أنه يعلم جميع ما فى السموات وما فى الأرض ، لا تخفى عليه صغيرة ولا كبيرة .. فكيف تخفى عنه أعمال العصاة والكافرين ؟ .. الحق أنه ما يكون من حديث وسر بين ثلاثة من خلقه الا هو مشاهدهم .. يسمع سرهم ونجواهم ، ولا يخفى عليه شىء من أسرارهم .. ولا يكون من حديث بين خمسة الا هو — تعالى — سادسهم .. ولا أقل من ثلاثة ولا أكثر من خمسة الا هو معهم اذا تناجوا .. فى أى موضع ومكان كانوا ؟ !

أين الوحدة فى قوله جل وعلا : ان له وحده ملك المشرق والمغرب ، وملك ما بينهما من الخلائق .. فحيثما تولوا وجوهكم — أيها المؤمنون فى صلاتكم فهناك وجه الله يسعكم فضله وأرضه وبلاده .. وأينما تولوا وجوهكم فى دعائكم فهناك وجه الله يستجيب لكم دعاءكم ؟ !

هل تتفق هذه الآيات — التى استدلوا بها — مع الوحدة البرهمية بمعنى الشمول الالهى ، وعدم الانفصال بين الخالق والمخلوق ؟ !

(١٦) البقرة : ١١٥ (١٧) المرجع السابق ص ٥٩ — ٦١

فلا عجب اذن — وهذا فكر القوم وعقيدتهم •• أن ينال التصوف الاســلامى فى نوعه المتأخر استحسان الغرب من جانب •• وسخط المسلمين عليه من جانب آخر] ••

يقول الدكتور البهى : « كان التصوف زهدا •• فأصبح ضربا من ضروب الفلسفة •• ثم مال الى « وحدة » البراهمية ، و « حلول » المســيحية !!

« وهذا المــآل الذى آل اليه •• هو موضع الاختلاف فى التقدير بين الاستحسان والتجريح •• [استحسان الغرب وتجريح المسلمين] •• أما استحسان علماء الغرب له •• فلأنه يميل بالاسلام نحو المسيحية •• فيبعد الاسلام عن مجال الحياة العامة ، ويقصره على الدربة النفسية وما يسمى بالصفاء الروحى للفرد •• فوق أنه يقرب الله — تعالى — بفكرة الحلول الى الانسان على نحو تأليه عيسى المسيح وجعله طبيعة مزدوجة •• الهية الباطن وانسانية الظاهر !!

« وهذا ما ينشده الغرب ويبتغيه من الدين !!

« اذ الدين فى نظره يعالج الفــرد ويضع أمامه المثل الأعلى للاقتراب منه •• هكذا يشرح الدين فى نظر الغرب اقتباسا من وضع المســيحية !!

« أما المسلمون •• فيرون أن فكرة « الحلول » تنقض رســالة الاســلام فى وحدة الله وتنزيهه عن الحق وصفاته •• وهى لكونها تستتبع فكرة « التناسخ » تجعل من الله موجودا منتقلا •• وذلك يتنافى مع بعض صفاته تعالى : كالبقاء والقيام بالنفس •• فالمسلمون يرون الصوفية المتأخرة ضربا من تحريف الاسلام الى المسيحية المحرفة •• وهى مسيحية الحلولية »[١٨] ا هـ •

* * *

● ويتحدث فضيلة الشيخ محمد الغزالى عن « التوحيد » الذى

---

(١٨) نفس المرجع السابق ...

هو جوهر الاسلام ... وخرافة « الوحدة » التى أدخلت على الاسلام زورا ، وأدت الى الزعم بتسوية المخلوق بالخالق وافنائه فيه .. فيقرر أنها شرك يفسد عقيدة التوحيد .. وضلال لا أصل له فى الاسلام ..

يقول الشيخ محمد الغزالى : « التوحيد .. جوهر الاسلام ومظهره ، ولبابه وقشوره .. ودعامة التعاليم التى جاء بها .. بل هو رباط بنائه ، ولون طلائه ، ومعقد أصوله وفروعه ..

« وليس الاسلام بدعا فى الدعوة الى توحيد الله ..

« فرسل الله — قاطبة — بعثوا بهذا الأيمان الخالص ، وجمعوا الناس عليه .. وحذروهم من كل شائبة تعكر صفوه وتطفىء رونقه : « **وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون** »[19] .

« غير أن جماهير غفيرة من البشر أبت الا أن تزيغ عن هذا الصراط .. وأن تتشبث بأوهام سخيفة ، باعدتها عن الله ، وأحلتها البوار ..

« فكان كل نبى سبق .. يجىء بالحق ، ويناشد الأمم أن تتوب اليه .. حتى جاء خاتم المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ ، فصدع صرح الشرك .. وخط فى شغاف القلوب عقيدة الايمان بالله الواحد ..

« وكان القرآن الكريم — ولا يزال — النداء العالى لهذا اليقين الحق ، والمجادل القوى عما يعرض له من شبه أو يلتبس به من تخليط ..

« ومن المؤسف .. أن المسلمين أصابهم مس من داء الأمم السابقة .. فظلموا رسالتهم الجليلة بما شابوا به عقيدة التوحيد .. وبما أقحموه عليها من بدع وخرافات ..

« وهى بدع وخرافات .. تشبه ما انزلق اليه الأولون . أو هى ترديد لما كان من لغو .. حذوك النعل بالنعل : « **كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يوقنون** »[20] .

---

(١٩) الأنبياء : ٢٥ (٢٠) البقرة : ١١٨

« والابتداع •• قد يأتى بالشىء وضده معا •• ليفسد العقيدة الوسط ••

« فتسوية المخلوق بالخالق شرك يفسد عقيدة التوحيد •• وكذلك افناء الخلق فى الخالق •• ضلال لا أصل له فى هذه الملة •• وان كان ظاهره أنه غلو فى تقدير الله ، واغراق فى مبدأ التوحيد »(٢١) •

ثم يقول فضيلته — جزاه الله خيرا — عن « وحدة الوجود » :

« كنا نظن أن هذه الخرافة قد انتهت بانتهاء أصحاب الشطحات الذين اشتهروا فى التصوف القديم ••

« الا أن نفرا من عصاة المسلمين — فى عصرنا هذا — عندما يتركون حيـاة المجون •• ويرغبون فى العـودة الى الله ، تصيبهم لوثات غريبة ••

« فيحسبون أن من تمام توبتهم تغليب ذات الله على كل ما يعرض لهم من أشخاص وأشياء •• فتراهم يخرجون من أنفسهم •• ويسلخون العالم من خصائصه العتيدة •• وقد تتردد على ألسنتهم كلمة « الحلاج » عندما سئل : من فى الجبة ؟ •• فقال : الله !!

« ولـما كان من المتعذر بناء سلوك عملى على هذه الفكرة •• فان الجانحين اليها يكتفون بنوع من الجبر الذى يشـل الارادة •• والتسليم لـما تفد به الأحداث •• ثم الحديث عن الله الكامن فى كل شىء حديث استكانة وذوبان ••

« وقد أصيب جمهور المسلمين برشاش من هذه الخرافة •• أوقف نمو المنطق المـادى فى بلاد الأسلام •• وخلط بالالهيات أمورا كثيرة لا تمت اليها بسبب •

« ان العالم شىء يغاير الله — برغم ما يقوله فريق من المتصوفة — ولله عز وجل : ذاته وأسـماؤه . وحقوقه التى فصلت تفصيلا فى كتبه المنزلة ••

---

(٢١) ليس من الاسلام ، للشيخ محمد الغزالى ، نشر دار الكتب الاسلامية ، ١٩٨٣ ص ١٦١ - ١٦٢

« وهناك فرق كبير بين وحدة الوجود •• ووحدة الشهود •

« ان المرء قد يستغرق فى النظر الى مسألة ما ، استغراقا يذهله عما حوله •• وربما نودى — وهو فى بحار الفكر — فلا يسمع النداء ••

« فهل هذه الصورة من صور الانحصار الذاتى ، تعنى فناء ما حول الانسان لأن الانسان غائب عنه بفكره ؟ !

« والشمس تطلع فتغمر بأشعتها الساطعة أرجاء الكون ، فلا يمكنك أن ترى فى الأفق البعيد أو القريب نجما •• حتى اذا عاد الليـــل وانتشر ظلامه أخذت النجوم المختفية عن العين تلوح فرادى وجماعات ••

« هل غلبة أشعة الشمس عليها تعنى لمن لا يراها أنها معدومة ؟ !

« ان من المؤمنين الأخيار من يعيشون فى أنوار الله معيشة رفيعة •• رسخوا فى مقام الاحسان حتى ألفوا أطواره الزاهية ••

« ومقام الاحسان — كما عرفه رسول الله ﷺ — « أن تعبد الله كأنك تراه •• فان لم تكن تراه فانه يراك »[٢٢] •

« وهذا الالف يصح أن نطلق على حقيقته « وحدة الشهود » •• وهو منحى يغاير تمام المغايرة « وحدة الوجود » •• وان اختلط الأمران على القاصرين ••

« وأكثر الذين يعتنقون فكرة ما •• أو تسيرهم عاطفة خاصة •• يقيسون ما يلقاهم من شئون الحياة على شئونها •• ألا ترى الرجل الغزل يقول :

لا أرى الدنيا على نور الضحى بل أرى الدنيا على نور العيون

« فليس بعجيب أن يوجد مؤمنون تستولى على مشاعرهم عاطفة دينية •• تجعل نشاطهم كله محصورا فى مرضاة الله •• وتجعل نظرتهم للأمور من هذه الزاوية الخاصة وحدها ••

« بل فى هذا يساق الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ •• أن الله تعالى قال[٢٣] : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ••

---

(٢٢) رواه البخارى ومسلم •   (٢٣) اى : فى الحديث القدسى .

وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضت عليه .. وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه .. فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها .. ولئن سألنى لأعطينه .. ولئن استعاذنى لأعيذنه » ..

« فالحديث .. يشير الى مرتبة التفانى فى ارضاء الله تفانيا يجعل حواس المرء وجوارحه مسخرة فى طاعة الله وحده ..

« ولا يعنى — البتة — أن ادمان العبادة ينتهى بحلول ، أو اتحاد — كما يتصوره بعض السذج .. أو ينتهى على القليل بطور خارق للنواميس المعتادة .. كما صور ذلك المتصوفة فى حديث مكذوب : « عبدى .. أطعنى أجعلك ربانيا ، تقول للشىء : كن ، فيكون »[٢٤] .

* * *

● ويعقد المرحوم الشيخ محمد حسين الذهبى المقارنة بين الحال التى كان عليها المتصوفة فى القرون الأولى .. والحال التى أصبحوا عليها فى قرونهم المتأخرة .. فيحدثنا فضيلته عن الزهد الذى كان موجودا فى الصدر الأول للاسلام .. وكيف استفاد منه المتصوفة فى سلوكهم الصوفى .. ثم حالهم بعد أن أدخلوا علوم الفلسفة فى تصوفهم ، وكونوا لهم فلسفة خاصة بهم تدين بأفكار غريبة تماما عن الاسلام .. فدخل فى التصوف رجال من غير أهله .. تظاهروا كذبا بالورع والطاعة والزهد والتقشف .. فأفسدوا التصوف الاسلامى بعد أن حولوه الى مذهب فلسفى ..

يقول صاحب « التفسير والمفسرون » :

« التصوف — بالمعنى السالف [وكان رحمه الله يتحدث عن الزهد والتقشف] موجود منــذ الصدر الأول للاسلام .. فكثير من الصحابة كانوا معرضين عن الدنيا ومتاعها .. آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف .. مبالغين فى العبادة ..

---

(٢٤) المرجع السابق ص ١٦٢ — ١٦٤

« فكان منهم من يقوم الليل ويصوم النهار •• ومنهم من يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيبا لروحه ••

« غير أنهم لم يعرفوا فى زمنهم باسم الصوفية •• وانما اشتهر بهذا اللقب فيما بعد من عرفوا بالزهد والتفانى فى طاعة الله تعالى •• وكان هـذا الاشتهار فى القرن الثانى الهجرى •• وأول من سمى بالصوفى هو « أبو هاشم الصوفى » المتوفى سنة ١٥٠ هجرية ••

« وفى هذا القرن وما بعده •• تولدت بعض الأبحاث الصوفية •• وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التى تواضعوا عليها •• وأخذت هذه الأبحاث تنمو وتتزايد كلما تقادم العهد عليها •• وبمقدار ما اقتبسه القوم من المحيط العملى الذى يعيشـون فيه تطورت هـذه الأبحاث والنظريات »[٢٥] .

ثم يقول رحمه الله : « ولقد اسـتفاد المتصوفة من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ما كان له الأثر الأكبر فى هذا التطور الصوفى •• غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر •• بل وكونوا فلسفة خاصة بهم •• حتى أصبحنا نرى بينهم رجالا أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة •• وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسـفية لا تتفق ومبادىء الشريعة •• مما أثار عليهم جمهور أهل السنة •• وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفى ، ويؤيدون التصوف الذى يدور حول الزهد والتقشف وتربية النفس واصلاحها •• وما زال أهل السنة يحاربون التصوف الفلسفى حتى كادوا يقضون عليه فى نهاية القرن السابع الهجرى ••

« ومن ذلك الوقت •• دخل فى التصوف رجال من غير أهله •• تظاهروا بالورع والطاعة •• وتحلوا بالزهد الكاذب والتقشف المصطنع •• فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأميين يشرفون على الطريق •• ويتولون تربية الأتباع والمريدين •• ووقفت التعاليم الصوفية عند دائرة محدودة .

---

(٢٥) التفسير والمفسرون ، للشيخ محمد حسين الذهبى ، نشر مكتبة وهبة ، ١٩٨٥ ، جـ ٢ ص ٣٢٥

هى دائرة الأوراد والأذكار •• وان تعددتها ، فلا أكثر من بعض الأبحاث الضيقة فى الفقه والتفسير والحديث »[٢٦] •

* * *

● وعن هذا التطور الذى لحق بالصوفية •• نقرأ للامام القشيرى — وهو الرجل الذى لا يمكن أبدا اتهامه بالعداء للصوفية أو بكراهية الأولياء والصالحين — يقول القشيرى : « ثم اعلموا — رحمكم الله — أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم •• ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم •• كما قيل :

أما الخيام فانها كخيامهم ... وأرى نساء الحى غير نسائها

« حصلت الفترة فى هـذه الطريقة ، بل اندرست الطـريقة بالحقيقة ••

« مضى الشيوخ الذين كانوا بهم اهتداء . وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء •• وزال الورع وطوى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رباطه •• وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة •• ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام •• واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصـوم والصلوات •• وركضوا الى ميدان الغفلات ، وركنوا الى اتباع الشهوات ، وقل المبالاة بتعاطى المحظورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان ••

« ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الفعال ، حتى أشاروا الى أعلا الحقائق والأحوال •• وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال •• وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو •• وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم •• وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية ، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية •• والقائل

---

(٢٦) المرجع السابق والصفحة نفسها ••

عنهم غـيرهم إذا نطقـوا ، والنائب عنهم سـواهم فيما تصرفوا بل صرفوا »[٢٧] .

هذا ما يقوله أحد أئمة الصوفية الأجلاء — قاله عام ٤٣٧ هجرية — وليس كلاما جديدا يمكن معه أن يتهم قائله بكراهية التصوف أو العداء للصوفية .. ولكنه التطور الذى لحق بالصوفية فى قرونها المتأخرة ، وأصبح لها فلسفتها الخاصة .. وتحولت من « تصوف أهل العلم » ، الى « تصوف الملاحدة » !!

* * *

● وعن انحراف « التصوف الاسلامى » فى مرحلته المتأخرة .. يحدثنا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فيقول : « ... أدى انحلال أحوال البلاد سياسيا واجتماعيا .. فى أواخر عصر المماليك الى انحراف الصوفية .. وتحولت حياة التصوف عن مثلها الى حياة مليئة بالمفاسد والرذائل الخلقية ..

« وبعبارة أخرى .. فقد تخلى الصوفية عن النظم والآداب التى عرفوا بها بين الناس .. فاختلت أوضاعهم ، وازداد عبثهم .. وصاروا موضع سخرية المجتمع ونقد العقلاء ..

« من ذلك أن أذكارهم غدت بصوت مسموع ويشترك فيها جماعة ، ومن ثم سميت السماعات .. ولم تلبث أن أصبحت الشبابة والمزمار والدف والرقص والتصفيق من مظاهر تلك السماعات .. فاذا دب معه « المتصوف » الطرب قليلا .. حرك رأسه كما يفعل أهل الخمر سواء بسواء .. ثم اذا تمكن الطرب منه .. ذهب حياؤه ووقاره .. فيقوم ويرقص ، وينادى ويبكى .. ويدخل ويخرج ، ويبسـط يديه ويرفع رأسه نحو السماء كأنه جاءه المدد منها .. ويخرج الزبد من فيه .. وربما مزق بعض ثيابه وعبث بلحيته ..

« كذلك أنشأ مشايخ : الخانقاوات يمدون الأسمطة الفاخرة .. ويجمعون فى مجالسهم الأرذال وأصحاب المغانى والملاهى !!

---

(٢٧) الرسالة القشيرية ، مرجع سبقت الاشارة اليه ، ص ٢ ، ٣

« ومنهم من اعتاد أخذ أموال الوقف ليصرفها فى اللهو والخمر مع التجاهر بذلك •• بل ان بعضهم استحضر المرد(*) فى مجالسهم ، وزينوهم بالحلى والصبغات •• وزعموا أنهم انما أرادوا الاستشهاد على قدرة الله ، والاستدلال بالصنعة على الصانع !!

« ولم يلبث أن انتشر تعاطى الحشيش بين الصوفية •• حتى نسب اليهم وأصبح يعرف باسم « حشيشة الفقراء » •• وقد استنكر كثيرون ذلك الوضع الذى آل اليه أمر التصوف •• ومما قيل فى ذلك :

صوفية أحدثوا فى ديننا لعبا
وخالفوا الحق دين المصطفى العرب
من اقتدى بهم قد ضل مثلهم
سحقا لمذهبهم ، ولو كان من ذهب
أهل المراقص ، لا تأخذ بمذهبهم
فقد تمادوا على التمويه والكذب»(٢٨)

ثم يقول : « أما المقريزى •• فقد وصف الصوفية على أيامه — أى فى القرن التاسع الهجرى — بأنهم « لاينسبون الى علم ولا ديانة •• والى الله المشتكى » !

« ثم كان أن ازداد الوضع سوءاً فى العصر العثمانى •• وهو العصر الذى تعرض فيه المصريون لنكبات جمه عكست صورتها فى المجتمع •• ذلك أنه انتمى الى التصوف فى ذلك العصر كثير من الأدعياء ممن لا يوصفون بعلم أو دين •• حتى أن الشعرانى يذكر أنه تتلمذ على سبعين شيخاً •• لا يعرف أحدهم النحو !!

« وأدهى من ذلك وأمر •• أن الصوفية استهانوا بشعائر الدين وأصوله •• فأعرضوا عن الصلاة بدعوى أنهم يؤدونها فى الأماكن المقدسة !! •• كما أهملوا الصيام ، وأوهموا الناس أن التكاليف الدينية تسقط عن كل واصل !!

(*) جمع أمرد : وهو الصبى الذى لم ينبت له شارب أو لحية .

(٢٨)انظر : السيد البدوى .. شيخ وطريقة ، لدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور — سلسلة أعلام العرب (٥٨) ، عام ١٩٦٦ ، ص ٢٢٧ وما بعدها .

« ولا أدل على استهانتهم بشعائر الدين .. أن بعضهم — مثل الشيخ تاج الدين الذاكر — كان يمكث بوضوء واحد سبعة أيام .. امتدت أواخر عمره الى أحد عشر يوما !!

« بل ان الشيخ أبو السعود الجارحي كان يتوضأ فى أول رمضان .. فلا يعيد الوضوء الا بعد العيد بستة أيام !!

« ثم بلغ الاستهانة بالدين أن يلجأ المتصوفة الى اختلاق كلام عديم المعنى يزعمون أنه قرآن !! .. فيحكى الشعرانى أن الشيخ شعبان المجذوب كان يجلس فى المسجد أيام الجمع ويقرأ : « وما أنتم فى تصديق هـود بصادقين . ولقد أرسل الله بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا ، وما لنا من ناصرين » !!

« كل ذلك دون أن يجرؤ أحد من الناس على الاعتراض عليه .. بل كانوا يعتقدون فيه ، ويعدون رؤيته عيدا عندهم !!

« أما الشيخ ابراهيم العريان .. فقد كان يصعد الى منبر المسجد عاريا ويخطب فى الناس قائلا : « السلطان ودمياط ، وباب اللوق وبين الصورين وجامع طولون ، والحمد لله رب العالمين » .. فيخشع الناس لكلامه ، ويحصل لهم بسط عظيم »(٢٩) !! ..

ويقول الدكتور عاشور : « واذا كان هذا هو موقف الصوفية من مبـادىء الدين .. فلا ينتظر منهم عندئذ أية رعاية لأبسط قواعد الأخلاق .. فاستباحوا لأنفسهم المحرمات على مرأى من الناس .. ومارسوا الزنا والخمر واللواط ، والميسر والحشيش .. دون أن يخشوا لومة لائم !!

« ويبـدو أن عامة الناس أصابهم الرعب تحت تأثير الجهل ، وما أشيع عن الصوفية من كرامات كفيلة بأن تسحق من يتعرض لهم بقول أو فعل .. فتركوا الصوفية يمارسون حياتهم المنحرفة على مرأى منهم .. بل ربما بحثوا عن مبررات يبررون بها سلوكهم الشاذ ..

---

(٢٩) المرجع السابق .

« واستمرت هذه الأوضاع طويلا حتى القرن التاسع للميلاد ..
مما جعل الجبرتي يقول في المصريين وتقديسهم للمشايخ :

بعضهم قبل الضريح وبعض　　عتب البـــاب قبلوه وتربا
هكذا المشركون تفعل مع أصـ　　ـنامهـــم تبتغى بذلك قــربا

« وزاد الطين بلة .. أن بعض الصـــوفية تطرفوا في أقوالهم وأفعالهم .. فنشأت عن ذلك طوائف المجاذيب أو الدراويش .. الذين اشتهروا بأفعال غريبة زعموا أنها من الدين ، وما هي من الدين في شيء .. ولكن : العاقل من عرف زمانه على قول الشعراني »(٣٠) ..

ثم يقول سيادته : « وشهد الرحالة « بيرو تافور » — الذي زار مصر في أواخر عصر المماليك — جماعة من هؤلاء الدراويش في مصر ، وقد حلقوا رؤوســـهم ولحاهم وشعر الحواجب ، كما أزالوا رموش أعينهم .. فبدوا في صورة مزعجة تشبه المجانين .. ويزعمون أن ذلك ضرب من التقوى والعبادة !!

« ومن أفعال ذلك النفر من الصوفية · أن يركب الواحد منهم في قفص على رأس حمال .. ويتعمم « بشرطوط » طويل جدا .. ويعاشر سفلة القوم ، ويزعم أن ذلك من الدين !!

« ومنهم من اعتاد أن يركب على قطعة خشب أو جريدة بعد أن يصور لها وجها وعينين ، وأنفاً وفماً .. ويمسك بيده شيئا كأنه سوط ، ويربط الجريدة بخيط كأنه لجام .. ويجرى على هذه الصورة المضحكة وسط شوارع القاهرة ، وهو يضرب دابته والناس يعتقدون في بركته !!

« وقد أشار ابن خلدون الى هذه الطائفة من الصوفية بقوله : « ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون .. أشـــبه بالمجانين من العقـــلاء .. وهم على ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين !!

---

(٣٠) نفس المرجع السابق .

« وكان أن استرعت هذه الأوضاع أنظار الفرنسيين وقت الحملة الفرنسية على مصر •• فأرسل سارى عسكر — وهو « كليبر » لأن « بونابرت » كان قد غادر البلاد الى وطنه — يسأل علمـاء المصريين ومشـايخهم عن أولئك الذين يدورون فى الأسـواق ، ويكشفون عن عوراتهم ، ويصيحون ويصرخون ؛ ويدعون الولاية ولا يصلون ولا يصومون ، ومع ذلك تعتقدهم العامة ••

« سألهم كليبر : هل هذا جائز فى دينكم •• أم محرم ؟

« فأجاب مشايخ المسلمين وعلماؤهم : ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعتنا وسنتنا ••

« فشكرهم كليبر على ذلك •• وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرونه كذلك •• فان كان مجنوناً ربط بالمارستان •• أو غير مجنون فاما أن يرجع عن حالته أو يخرج من البلد !!

« ولكن هيهات أن يتخلى عامة الناس عن عقائدهم فى سهولة •• وبخاصـة فى بلد فشا فيه الجهل ، وعمه التأخر والركود •• وهكذا استمر أولئك الذين يدعون المشيخة فى غيهم وعبثهم ، وشجعهم الناس بالاعتقاد فيهم »(٣١) .

ويقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : « ولا نريد أن نتتبع هذه الظاهرة الخطيرة التى مازالت بعض آثارها باقية ضعيفة حتى اليوم فى أجزاء من مجتمعنا •• وانمـا يكفى أن أختتم الكلام عن هـذه الظاهرة بقصة طريفة رواها الجبرتى ، وحدثت فى القاهرة على أيام محمد على الكبير ••

« ذلك أنه وجدت فى القاهرة عندئذ — أى فى مستهل القرن التاسع عشر للميلاد : امرأة يقال لها الشيخة رقية •• كانت تلبس مئزرا أبيض وبيدها عصا من الخيزران ، وبيدها الأخرى مسبحة طويلة •• وتطوف بهذه الصورة على بيوت الأعيان •• وقد اعتقد فيها نسـاء

---

(٣١) المرجع السابق نفسه .

الأكابر الصلاح والتقوى .. وكانت تدخل البيوت وتخلو بهن ، ويسألنها الدعاء لهن ..

« بل لقد اعتقد الرجال وبعض الفقهاء فى صلاحها وبركتها ..

« وكان أن توفيت الشيخة رقية .. فحزن الناس ، وعم القاهرة حزن عميق على وفاة تلك الشيخة الصالحة .. وأخذ الناس يتحدثون عن بركتها وكراماتها ..

[ويفاجئنا الجبرتى — فى عبارات جريئة نمسك عن ذكرها حرصا على حياء العذارى — يفاجئنا بالمفاجأة القاسية التى حدثت بعد ذلك .. اذ أنهم لما أرادوا تغسيل الشيخة رقية اكتشفوا أنها كانت رجلا احتال بهذه الحيلة ليتمكن من مخالطة النساء فى خدورهن !! وأترك لكم — أيها الاخوة — أن تتخيلوا كيف كان حال الرجال الذين كانت الشيخة تتردد على نسائهم ، وتقضى الأوقات الطويلة فى خدورهن .. بعد أن انكشفت الحقيقة المذهلة لهذه الشيخة التى اعتقد الناس فيها الصلاح والتقوى .. يلتمسون بركتها ويسألونها الدعاء] !!

ويختتم الدكتور عاشور كلامه بقوله : « على أنه اذا كانت غالبية الصوفية منذ أواخر عصر سلاطين المماليك قد انحرفت عن جادة الصواب .. فانه ينبغى أن نذكر دائما أن هناك قلة منهم حافظت على صلاحها ومبادئها المثالية النقية .. وهؤلاء ظلت زواياهم مراكز للعبادة والتثقيف ، وتطهير القلوب ، وتنقية الضمائر وتهيئة النفوس بعد تصفيتها لاذاعة الخير والمعروف »[٣٢] ا هـ .

* * *

● وينبرى فضيلة الشيخ « محمد زكى ابراهيم »[٣٣] للرد على اتهام الصوفية بالانحراف الى العقائد المتعارضة مع عقيدة « التوحيد» كالحلول ، والاتحاد — ولكن فضيلته لم ينف فى دفاعه — وجود مثل

---

(٣٢) المرجع السابق ص ٢٢٣

(٣٣) شيخ الطريقة المحمدية الشاذلية ، ورائد العشيرة المحمدية .

هذه الأفكار ، وان راح ينسبها الى الحفريات التاريخية التى اندثرت وعفا عليها الزمن ..

يقول فضيلته : « ... أما أن التصوف يدعو الى عقائد الحلول والاتحاد والوحدة .. فليس هذا هو تصوف المسلمين .. وانما هو تصوف أجنبى أعجمى مدسوس .. والمتهمون به نفر معدود محدود .. انتهى أمرهم وليس لهم اليوم تابع ولا وارث .. وأصبح ما نسب اليهم — بحق أو بباطل ، سواء قبل التأويل أو لم يقبله — نوعا من الحفريات التاريخية التى لا يتابعها الا الهواة والمتخصصون — ان وجد اليـوم هواة ومتخصصون فى البحث عن مقابر الأفكار المهملة — والا أصحاب الهوى الذى يعمى ويصم .. ولا اعتبار لأولئك ولا هؤلاء ..

« وقد أصبح الكلام اليوم فى هذا الجانب .. نوعا من مجرد الاثارة والتشويه ، والعبث واضاعة الأوقات والتشويش على أفاضل الناس .. وشراء العاجلة بالآجلة ..

« وانما يقول الصوفية بنوع معين من الفناء .. فصله الشيخ « ابن تيمية » فى رسائله بشىء من الانصاف .. وأشار اليه الشيخ « ابن القيم » فى شرحه على كتاب « الهروى » .. وشتان ما بين هذا والقول الفاجر بالحلول ، والاتحاد ، والوحدة المنكرة »(٣٤) .

* * *

---

(٣٤) راجع مجلة « التصوف الاسلامى » العدد ٧٠ — مرجع سبقت الاشارة اليه — ص ٤٥

رأينا •• فى مسألة التصوف الاسلامى

كان ابن تيمية ــ رحمه الله ــ مع وفرة اطلاعه وشدة اخلاصه لاسلامه ولجماعته الاسلامية حاد المزاج •• وسرعان ما تنتقل حــدة المزاج الخصومة والحكم فى مجال الجدل العقلى ، أو الدينى •• الى مجال الأشخاص وحياتهم الخاصة •• وما يدور فى نفوسهم أو يخلد فى قلوبهم من عقيدة وايمان ••

ولهذا كان ــ ابن تيمية ــ عنيفا فى مهاجمته لتصوف الملاحدة ــ كما أســماه ــ ، فحين هاجم العقائد •• هاجم الأشــخاص الذين أسندت اليهم ••

أما ولى الدين العراقى •• فقد سلك مسلكا آخر فى تعرضه لأفكار ابن عربى •• فقال فى « الأجوبة المرضية » : « أما ابن عربى •• فلا شك فى اشتمال « الفصوص » المشهورة عنه على الكفر الصريح الذى لا شك فيه ؛ وكذا « فتوحاته المكية » •• وينبغى عنــدى أن لا يحكم على ابن عربى فى نفسه بشىء ؛ فانى لست على يقين من صدور هذا الكلام عنه ، ولا من استمراره عليه الى وفاته •• ولكنا نحكم على هذا الكلام بالكفر » ••

ونحن •• نؤثر مسلك « ولى الدين » على ما سلكه ابن تيمية •• فنقول : « ان المبادىء التى نادى بها أولئك الناس . وأدخلوها على تصوفهم •• تشتمل على الكفر الصريح الذى يضاد توحيد الاسلام •• ولكنا لا نتعرض لأشخاصهم بكفر ولا ايمان •• انما نكل أمرهم الى الله تعالى •• يحكم فيهم بما يشــاء . فقد أفضوا اليه وقدموا على ما قدموا ••

ولا يمنعنا هذا من أن نقول : ان الله تعالى قد قال وهو أصدق القائلين : « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل**

فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدى القوم الكافرين »(١) .

فأمر رسوله ﷺ أن يبلغ للناس ما أنزل اليه ، ولا يكتم منه شيئا .. فان لم يفعل فما بلغ الرسالة ، ولا أدى الأمانة ..

ثم أمرنا تعالى باتباع ما أمر به الرسول ﷺ ، واجتناب ما نهى عنه .. فقال تعــالى : **« وما آتاكم الرســول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »**(٢) .

بل انه تعالى أقسم بذاته .. نافيا الايمان عمن يأبى الرجوع الى الرسول ﷺ فيما يعترضه من خلاف فى الرأى أو العقيدة أو الدين ، وفى سائر العبادات والمعاملات .. ويكون ذلك بتحكيمه ﷺ حال حياته ، وبالرجوع الى سنته بعد وفاته ..

وغلظ تعالى فى ذلك ، فنفى الايمان عمن يحكم الرسول فى شأن من شئونه ، ثم يجد فى صدره ضيقا مما يقضى به الرسول أو تقضى به السنة المطهرة ..

فالمؤمن كامل الايمان ــ كما وصفه الله تعالى ــ هو الذى يرجع الى الرسول ﷺ .. والى سنته المطهرة فى كل شأن من شئونه .. مستلهما الحل لمــا يعترضه من أمور فى كتاب الله وسنة رسوله .. ثم يرضى كل الرضا بالحل الاسلامى ويسلم تسليما ..

يقول تعــالى : **« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »**(٣) .

والتسليم لا يكون الا بنبذ الارادة تماما اذا تعارضت مع حكم الله أو حكم رسوله .. وقد وصف تعالى من لا يحكم بما أنزله بالكفر ، والظلم ، والفسوق .. نعوذ بالله من ذلك ..

---

(١) المــائدة : ٦٧ (٢) الحشر : ٧
(٣) النساء : ٦٥

.. وقد أدى الرسول ﷺ الأمانة : وبلغ الرسالة ، ونصح للأمة ، وجاهد فى الله حق جهاده .. ولم يكتم شيئا مما أنزله الله عليه .. ولهذا نراه يكرر أكثر من مرة فى حجة الوداع ، وبعد تقرير كل أصل من أصول العقيدة .. يكرر كلمته المشهورة : « ألا هل بلغت » ؟ .. فيقول الناس : نعم يارسول الله . فيقول ﷺ : « اللهم فاشهد » ...

ويقول ﷺ : « تركتكم على المحجة البيضاء .. ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها الا هالك » ..

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »(٤) .

وفى رواية لمسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ..

وعن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم .. ويقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » — ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى — ويقول : « أما بعد .. فان خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد — ﷺ — وشر الأمور محدثاتها .. وكل بدعة ضلالة »(٥) .

وقال ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ .. واياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .. رواه الستة وزاد أبو داوود : « وكل ضلالة فى النار » ..

فليس هناك بدعة حسنة وأخرى سيئة .. انما كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ..

ولهذا يقول الامام مالك رضى الله عنه : « من ابتدع فى الاسلام بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة ، لأن الله

---

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه مسلم .

جل شـأنه يقول : **« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »**(٦) .

لقد أكمل الله لنا الدين •• وأتم النعمة •• ورضى لنا الاسلام دينا ، وأطلق علينا اسم المسلمين دون سـائر الأسماء •• فقال وهو أصدق القائلين : **« هو سماكم المسلمين من قبل »**(٧) .

تعالوا الى كتاب الله •• هل جاء فيه ذكر للتصوف أو الصوفية ؟ لم يرد ذلك فى آية واحدة منه !!

تعالوا الى سنة رسـول الله ﷺ •• هل فيهـا ذكر للتصوف أو الصوفية ؟

لم يذكرها ﷺ مرة واحدة !!

والقرآن الكريم •• لم يغادر كبيرة ولا صغيرة الا أحصاها ••

والرسول ﷺ لم يترك كبيرة ولا صغيرة •• سواء فى أمر ديننا أو دنيانا الا وتعرض لها وبينها ••

فلماذا لم يرد ذكر للتصوف أو الصوفية فى كتاب الله أو فى سنة رسوله ان كان لهما أصل فى الاسلام ؟ !

هل عرف الصحابة رضوان الله عليهم الصوفية أو التصوف ؟ !

هل قال الصحابة رضوان الله عليهم بوحدة الوجود •• وأن الوجود حقيقة واحدة لا فرق فيها بين الحق والخلق ؟ !

هل قال واحد من الصحابة أن خالق الأشياء هو عين هذه الأشياء ؟ !

لم يقل بذلك واحد منهم !!

يقول تعالى : **« وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »**(٨) .

فلماذا لا نتبع الصراط المستقيم ؟ !

---

(٦) المـائدة : ٣ — (٧) الحج : ٧٨

(٨) الأنعام : ١٥٣

ويقول جل شأنه : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** »(٩) .

فلماذا لا نتبع الرسول فنظفر بحب الله ونفوز بغفرانه ؟ !

يقول سبحانه : « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر** »(١٠) .

فلماذا لا نتأسى بالرسول ونتخذ منه الأسوة الحسنة ؟ !

ويقول جل وعلا : « **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** »(١١) .

فلماذا نخالف عن أمره ، ونتعرض للفتنة تصيبنا وللعذاب الأليم ينزل بنا ؟ !

الله تعالى يقول لنا : « **انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون** »(١٢) .

فلماذا ننأى عن الفلاح .. ونأبى أن نقول لله ولرسوله « سمعنا وأطعنا » ؟ !

لماذا نترك الطريق الواضح . والمحجة البيضاء .. ونتبع الطرق المتشعبة ، والمسالك الوعرة ؟ !

لماذا لا نتدبر قول الله تعالى : « **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الألباب** »(١٣) ؟ !

---

(٩) آل عمران : ٣١
(١٠) الأحزاب : ٢١
(١١) النور : ٦٣
(١٢) النور : ٥١
(١٣) آل عمران : ٧

فلمـــاذا نبتغى الفتنة ، فندع الآيات المحكمات ونســـير وراء المتشابهات ؟ !

لمـــاذا لا نعقل تحذيره تعالى لنا : « **ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا** »[١٤] ؟ !

فلماذا نحل عرا الاسلام بأيدينا .. ونفسد أعمالنا بأنفسنا ؟ !

لمـــاذا نأبى الا أن نحشر أنفسنا مع « **الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** »[١٥] ؟ !

عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : حفظت عن رسول الله ﷺ قوله : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك »[١٦] .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان الحلال بين ، وان الحرام بين .. وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس .. فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .. ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام : كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه .. ألا وان لكل ملك حمى .. ألا وان حمى الله محارمه .. ألا وان فى الجســـد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله .. واذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهى القلب »[١٧] .

فلماذا ننأى عن الصراط المستقيم ، ونبعد عن الطريق الواضح ؟ !

لمـــاذا نتبع السبل التى تبعدنا عن تعاليم الاسلام الذى شرفنا الله بالانتساب اليه ؟ !

لمـــاذا ندخل على عقيـــدتنا الخرافات والأســـاطير التى تجعلنا أضحوكة للأمم ؟ !

لمـــاذا ينسب البعض منا لأنفسهم المعجزات والخوارق فيدعون القدرة على التصرف فى أمور الناس .. يعطونهم ويمنعونهم ، يحيون من يشاءون ويميتون من يريدون ، ويسلبون الناس ايمانهم ويمنحونهم

---

(١٤) النحل : ٩٢ — (١٥) الكهف : ١٠٤

(١٦) رواه الترمذى . — (١٧) متفق عليه .

اياه ؛ يمشون على المـاء ويطيرون فى الهواء ، يحولون التراب ذهبا ويحيلون خصومهم مسوخا وحيوانات ؟ !

لمـاذا يدعى البعض منا العلم بالغيب وانكشاف الحجب عنهم ، فيشركون أنفسهم فى خاصية هى لله وحده ، لم تتأت لملك أو نبى ، ولم تتح لانسى أو جنى ؟ !

هل هذا هو الدين الحق منذ بعث الله الرسل الى أن يرث الأرض ومن عليها ؟ !

هل هذا هو الاسلام الذى أنزله تعالى على محمد بن عبد الله ﷺ ؟ !

* * *

وبعد .. فأياً ما كان الأمر بالنسبة لما يسمى بالتصوف الاسلامى .. فانه ليس أمامنا الا التسليم بالوجود الصوفى فى المجتمع الاسلامى قديما ، وبتواجده فيه حديثا !!

واذا كنا نسلم بأن للصوفيين عقائدهم وأفكارهم ومصطلحاتهم وتصوراتهم — بغض النظـر عن خروجها على تعاليم الاسـلام أو اتفاقها معه !!

واذا كان لنا التسليم — مع الدكتور سعيد عاشور — بأنه لا تزال قلة منهم تحافظ على صلاحها ومبادئها المثالية النقية .. وبالرغم من كل شيء !!

فاننا لا نملك — أبداً — التسليم ببعض هذه العقائد والأفكار ، بحكم أننا ندين بالاسلام .. دين التوحيد الكامل ..

ان ما يعنينا هو أمر الكثرة الساحقة وليس القلة التى لا تزال تحافظ على صلاحها ومبادئها المثالية النقية ..

لهـذا .. نختلف مع الصوفية فى زعمهم بوحدة الوجود ؛ كمـا نخالفهم فى مذهبهم فى التفسير الباطنى للقرآن الكريم ..

نختلف معهم فى عقيدتهم فى الوحى والنبــوة ، ونخالفهم فى رؤيتهم للمعجزة والولاية والكرامة ••

نختلف معهم فى مذهبهم فى تعظيم القبور وتقديس المقبورين •• ولا نقرهم فى تصورهم للتوسل والوسيلة ••

نختلف معهم فى طريقة أداء الأذكار التى يتبعونها ، فيحولون حلقات الذكر الى حفلات للزار يأتون فيها كل شىء الا الذكر الذى دلنا على كيفيته الرسول ﷺ ••

هــذه العقائد والأفكار التى نخالفهم فيها ولا نقرهم عليها •• يرفضها الفكر الاسلامى الصحيح لمجافاتها لعقيدة التوحيد التى أعلا الاســلام رايتها ••

* * *

الفصل الثالث

القول بوحدة الوجود !!

نشطت حـركة الترجمـة والنقل خـلال العصر العباسى الأول (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ) •• بعد أن شجع الخلفاء العباسيون الترجمة •• فأخذ العرب ينقلون التراث اليونانى والسريانى والفارسى ، وغيره الى اللغـة العربية ••

بل ان بعض المفكرين ألفوا من عند أنفسهم أشياء لا تحمل من التراث الأجنبى الا العناوين •• سعيا وراء الربح بعد أن راجت سوق الترجمة والنقل ••

ولا غضاضة فى نقل النتائج التى يتوصل اليها العقل الانسانى الناضج •• ولكن لا يجب أن يزاحم به وحى السماء ••

ولكن •• حدث هذا ، فكان للتوسع فى الترجمة الشر الكبير على الثقافة الاسلامية ••

غير أن عناصر المقاومة التى نهضت فى الكيان الاسلامى لصد هذا الغزو الثقافى لم تنجح تمـاما فى القضاء عليه •• فبقيت فى بعض المؤلفات الدينية آثار لهذا الغزو الوافد ••

يقول فضيلة الشيخ محمـد الغزالى : « كان أشد النواحى الدينية استقبالا للغزو الأجنبى : علم الكلام والتصوف •• ولا يصعب أن يميز الدخيل من الأصيل فى هذه الميادين •• الا أن المزج يبلغ أحيانا درجة كبيرة من المهارة ••

« فانكار المعتزلة لصفات المعانى •• تأثروا فيه بتفسير أرسطو للوحدانية المطلقة •• لقد ظل أرسطو يشرح الوجود الالهى الأعلى ،

وينزه هذا الوجود من كل شيء الا التأمل الذاتي •• فالاله ـ من ذاته ـ يعلم ويقدر ولا شيء الا الذات ••

« وكلام أرسطو لا يسلم له •• وفيه مبالغات ظاهرة •• ومع ذلك فان بعض علماء المسلمين مالوا اليه •• وقالوا : ان القول بوجود الصفات قول بتعدد القدماء •• وعقدوا مباحث سخيفة لهذه القضية وشغلوا بها جمهور الأمة !!

« ولأرسطو منطق ذكي يساعد على الجدل ، ولا تزيد به المعارف الانسانية •• وقد رحب المسلمون ترحيبا حارا بهذا المنطق •• حتى جاءت الحضارة الحديثة فأنزلته عن عرشه ••

« ثم ان التصوف الاسلامي تأثر بالتصوف الهندي والتصوف النصراني وبعض الأفكار الاغريقية •• ومن السهل أن تذم الدنيا بحجة الاقبال على الآخرة •• وأن تحارب الجسد بحجة الاقبال على الروح •• وأن تتبل مبادىء من وحدة الوجود بحجة الاستغراق في وحدة الشهود ••

« وقد حمل علم التصوف جملة من هذه الأخطاء النفسية والفكرية وأشاعها بين جمهور المسلمين •• وكان له أثر عميق في بلبلة العقل الاسلامي ومخاصمته للفقه الموزون ••

« وأعان التصوف على بلوغ هذه الغاية اخلاص رجاله وحماسهم ، وغلبة الصناعة والارتزاق على نفر من أهل الفقه والفتوى ••

« والغريب أن خرافات الفلسفة الالهية عند الاغريق وغيرهم تبناها بعض المفكرين العرب ، فوجد بينه من يقول بالأفلاك والعقول والعنقاء والغول !! تقليدا لليونان ، والموضوع كله هزل !!

« أين كانت الخلافة العباسية في أثناء الهجوم على الفكر الاسلامي بهذه الطريقة الوضيعة ؟

« لم تكن تكترث بالنتائج !!

« وعنـدما تحركت الخلافة تحركت لتنصر انحراف المعتزلة فى بعض القضايا الكلامية •• وأمرت بسجن وجلد ابن حنبل الذى كان يعتبر زعيم المحافظين فى ذلك الوقت ••

« على أن علماء الاسلام ، ووراءهم السواد الأعظم من الأمة •• قاوموا هذا الغش المفروض على ثقافتهم الدينية مقاومة ناضجة ••

« وأمكن حصر الاسرائيليات والنصرانيات والاغريقيات •• وكل القمامات الفكرية التى أرادت الالتصاق بالرسالة الخاتمة •• وتم تحذير الناس منها ••

« والواقع أن أصول الاسلام بقيت معصومة •• غير أننا لا ننكر أن أوهاما ومبتدعات ومرويات واهية وآراء سقيمة لا تزل تحيا بين ظهرانينا •• ما يبصرها الا أولوا النهى »[1] •

فى هذا العصر •• ظهر أبو بكر محيى الدين بن عربى (٥٦٠ — ٦٣٨ هـ) •• وكان ابن عربى شيخ المتصوفة فى وقته •• وكان له أتباع ومريدون يعجبون به الى حد كبير •• حتى لقبوه فيما بينهم بالشيخ الأكبر ، والعارف بالله ••

كما كان له أعداء ينقمون عليه ويرمونه بالكفر والزندقة •• وذلك لمـا كان يدين به من القول بوحدة الوجود ، ولمـا كان يصدر عنه من المقالات الموهمة التى تحمل فى ظاهرها كل معانى الكفر والزندقة •• وبلغ من عداوة بعض الناس له أنهم حاولوا اغتياله بمصر ••

وابن عربى •• هو أول من قال فى الفكر الاســلامى بوحدة الوجود •• « ومذهبه فى وحدة الوجود أنه يرى الوجود حقيقـة واحدة •• ويعد التعدد والكثرة أمرا تقضى به الحواس الظاهرة ••

وقد أداه القول بوحدة الوجود الى القول بوحدة الأديان •• لا فرق بين أديان ســماوية أو غير ســماوية •• فالكل يعبدون الاله

---

(١) الدعوة الاسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر — للشيخ محمد الغزالى ، نشر مكتبة وهبة ، ص ٢٩ ، ٣٠

الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات .. والغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه هو التحقق من وحدته الذاتية معه .. وانما الباطل من العبادة أن يقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره ويسميه الهـاً »(٢) .

وقد تأثر ابن عربى بالنظريات الفلسفية الكونية .. وراح يطبق كثيرا من الآيات القرآنية على هذه النظريات ..

● يقول تعالى فى شأن ادريس عليه السلام : « **ورفعناه مكانا عليا** »(٣) .. أى أنه تعالى رفع ادريسا الى مكان عال مرتفع — وقيل انه رفع وهو حى الى السماء الرابعة — ويفسرها البعض بأنه تعالى رفع ذكره وأعلا قدره بشرف النبوة والرسالة ..

ولكن ابن عربى يفسر هذه الآية بقوله : « وأعلا الأمكنة : المكان الذى تدور عليه رحى عالم الأفلاك ، وهو فلك الشمس .. وفيه مقام روحانية ادريس .. وتحته سـبعة أفلاك ، وفوقه سـبعة أفلاك .. وهو الخامس عشر » ..

وبعد أن يذكر الأفلاك التى تحته والتى فوقه يقول : « وأما علو المكانة فهو لنا — أعنى المحمديين — كما قال تعالى : « **وأنتم الأعلون والله معكم** »(٤) فى هذا العلو .. وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة » !!

[الفصوص جـ ١ ص ٢٦] .

● ويقول تعـالى : « **ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسـول بما لا تهـوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون** »(٥) .

---

(٢) التفسير والمفسرون — للدكتور محمد حسين الذهبى . نشر مكتبة وهبة ، جـ ٢ ص ٤٠٨

(٣) مريم : ٥٧ (٤) محمد : ٢٥

(٥) البقرة : ٨٧

والمعنى — والله أعلم — أن الله تعالى أعطى موسى عليه السلام التوراة •• وأتبع الرسل بعضهم بعضا على منهاج واحد وشريعة واحدة •• وآتى عيسى ابن مريم المعجزات الواضحات الدالة على نبوته من احياء الموتى وابراء الأعمى والأبرص ونحو ذاك من الآيات •• وأنه تعالى قواه وأعانه بالروح المطهرة — وهو جبريل عليه السلام — أفكلما جاءكم يامعشر اليهود رسول من الرسل بغير الذى تهواه نفوسكم استكبرتم عليهم بغيا وتجبرا ، فكذبتم بعضا منهم . وقتلتم البعض الآخر •• وهكذا فعلتم أبدا برسل الله !!

هذه الآية الواضحة •• يفسرها ابن عربى بقوله : « والظاهر أن جبرائيل هو العقل الفعال •• وميكائيل هو روح الفلك السادس وعقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة بأرزاق العباد •• واسرافيل هو روح الفلك الرابع وعقله المفيض للنفس الحيوانية الكلية الموكلة بالحيوانات •••••• وعزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الانسانية كلها ، يقبضها بنفسه أو بالوسائط التى هى أعوانه ويسلمها الى الله تعالى » !! [تفسير ابن عربى ج ١ ص ٥١]

● ويقول تعالى : **« مرج البحرين يلتقيان • بينهما برزخ لا يبغيان »**(٦) •

أى أنه تعالى ترك وأرسل بحر السماء وبحر الأرض يلتقيان •• وجعل بينهما حاجزا وبعدا لا يفسد أحدهما صاحبه فيبغى بذلك عليه ، ولا يتجاوزان حد الله الذى حده لهما ••

يقول الطبرى : « عنى به بحر السماء وبحر الأرض ، وذلك أنه تعالى قال : **« يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان »**(٧) ، واللؤلؤ والمرجان انما يخرجان من أصداف بحر الأرض عن قطر السماء . فمعلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء » ••

ولكن ابن كثير يدفع هذا التفسير فيقول : « ••• وهذا لا يساعده

---

(٦) الرحمن : ١٩ ، ٢٠ (٧) الرحمن : ٢٢

اللفظ فانه تعالى قد قال : « **بينهما برزخ لا يبغيان** »[٨] •• أى وجعل برزخاً — وهو الحاجز — من الأرض لئلا يبغى هذا على هذا ، وهذا على هذا •• فيفسد كل واحد منهما الآخر •• وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخاً وحجرا محجورا ••

يقول تعالى فى سورة الفرقان : « **وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا** »[٩] •• فالمقصود هنا بالبحرين : الحلو والمالح •• وهو الأوضح ••

هذا هو التفسير الذى يقبله العقل ويتفق مع سياق اللغـــة •• ولكن ابن عربى يفسر هاتين الآيتين بقــوله : « **مرج البحـرين** » : بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج ، وبحر الروح المجرد الذى هو العذب الفرات •• «**يلتقيان**» فى الوجود الانسانى •• «**بينهما برزخ**» هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة ولطافتها ، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها •• « **لا يبغيان** » : لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته •• فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله من جنسه ، ولا البدن يجسد الروح ويجله ماديا » !!

[تفسير ابن عربى ج ٢ ص ٢٨٠]

ويتضح لنا جليا •• من هذا التفسير العجيب لهذه الآيات الثلاث •• تأثر ابن عربى بالنظريات الفلسفية الكونية ، والتى تقول بأن الأفلاك هى التى تســيطر على مصائر المخلوقات وتحركها ، كما يتضح تأثره بنظرية العقول الفعالة التى قال بها أرسطو ••

ويقول فضيلة الشيخ محمد حسين الذهبى رحمه الله : « ••• كذلك نرى ابن عربى يتأثر فى تفســيره للقرآن بنظرية وحدة الوجود •• التى هى أهم النظريات التى بنى عليها تصوفه •• فنراه فى كثير من الأحيان يشرح الآيات على وفق هذه النظرية •• حتى انه ليخرج بالآية عن مدلولها الذى أراده الله تعالى »[١٠] •

---

(٨) الرحمن : ٢٠ (٩) الفرقان : ٥٣

(١٠) التفسير والمفسرون ، المرجع السابق ج ٢ ، ص ٣٢٨

ولهذا نرى ابن عربى حين يفسر فاتحة الكتاب يقول : « ... فاذا وقع الجدار ، وانهدم الصور ، وامتزجت الأنهار ، والتقى البجران ، وعــدم البرزخ .. صار العذاب نعيما ، وجهنم جنة .. ولا عذاب ولا عقاب .. الا نعيم وأمان ، بمشاهدة العيان » !!

ويعقب الآلوسى على ذلك قائلا : « وهذا وأمثاله محمول على معنى صحيح يعرفه « أهل الذوق » ، ولا يناغى ما وردت به القواطع » !! ثم يقول : « واياك أن تقول بظاهره مع ما أنت عليه .. وكلما وجدت مثل هذا الأمر من « أهل الله تعالى » .. فسلمه لهم بالمعنى الذى أرادوه مما لا تعلمه أنت ولا أنا .. لا بالمعنى الذى ينقدح فى عقلك المشوب بالأوهام .. فالأمر — والله — وراء ذلك »(١١) !!

هذا ما يقوله الآلوسى تعقيبا على رأى ابن عربى .. والآلوسى صوفى يدين بوحدة الوجود ، فلا عجب أن نراه يسلم بما قاله ابن عربى!!

ويعلق النابلسى على ذلك بقوله : « وأما ما ذهب اليه الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فى كتابه « الفتوحات المكية » وغيره .. من أن عذاب الكفار ينقلب عذوبة ، فيتلذذون به بعد انقضاء مدة الآلم ، فهو أمر مبنى على الكشف عن أسرار الحقــائق الأخروية ، وليس فيه مخالفة لــا ذكرناه من مذهب الجمهور : أن عذاب الكفار فى النار دائم أبدى ، وانما فيه الاخبار عن أحوالهم وقت العذاب الأبدى بحسب النشأة الأخروية !!

فان الله تعالى حين يضع قدمه فى النار — كناية عن التجلى لأهل النار بصفات الجلال — ينزوى بعضها الى بعض كما ورد فى الحديث فتقول : « قد .. قد » وفى رواية : « قط .. قط » .. يعنى : يكفينى .. يكفينى ، وذلك حين يشــتد غضب الله تعالى على أهل النار ، فيزداد العذاب عليهم ، وحين يشتد الغضب تشتد الرحمة أيضا ، لأنها سبقت

---

(١١) تفســير الآلوسى جـ ١ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، وانظــر المرجع السابق ص ٣٦١

الغضب كما ورد التصريح بذلك [يقصد حديث : « رحمتى سبقت غضبى »] ، فيتعذبون من جهة اشتداد الغضب ، ويتلذذون من جهة اشتداد الرحمة !!

أرأيت أن الانسان اذا كانت له قرحة يكثر أله بسببها ، وقد علم شفقة الطبيب عليه عند قصده فيها ، ربما يتلذذ بما يدركه منها من الألم عند مباشرة الطبيب لذلك القصد ، مع أنه أكثر ألما مما كان من قبل ؟ !

فعذاب أهل النــار لا يزول أبدا ، وكذلك تالمهم بذلك العذاب لا يزول أبدا أيضا .. ولكن اذا غاب الادراك عنهم من شدة العذاب لا يدركون العذاب .. ويغيبون عن أنهم يتألمون به غاية التالم ، لاشتغالهم بجمال الجلال الالهى .. كما أن أهل الجنة اذا رأوا ربهم ينسون نعيم الجنة ، ولا يشــعرون بأنهم مدركون له ، لاشتغالهم بجمال الجلال الالهى .. فان الله تعــالى له هاتان الصفتان : صفة الجلال ، وصفة الجمال .. فيتجلى لأهل الجنة بصفة الجمال ، ولأهل النار بصفة الجلال .. وكل صفة من هاتين الصفتين فيها من الصفة الأخرى ، لأن الموصوف بهما واحد ، فالجمال باطنه جلال ، والجلال باطنه جمال .. ولا يزال الأمر هكذا أبد الآبدين ، ودهر الداهرين !!

واياك أن تظن أن الشيخ الأكبر ابن عربى ، يقول بانقضاء العذاب عن الكفار وزواله عنهم ، وانما مراده ما ذكرناه فى حقيقة أمره .. ولكن اختلفت عباراته ، وتوزعت اشاراته ، وضاقت عن معنى ما أراده ساحة الكلمات ، فظن الجاهل بمراده أنه يقول بانقطاع العذاب الأبدى عن الكفار ، ورتب على هذا انكار النصوص القطعية . . وحاشاه من ذلك »[١٢] .

أين هذا الزعم الضال من قول الله تعــالى : « **ان الذين فتنوا**

---

(١٢) انظر « حقائق الاسلام وأسراره » لعبــد الغنى النابلسى . نشر دار التراث العربى ، ١٩٧٦ ، ص ١٢٣ — ١٢٥

المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ذلك الفوز الكبير . ان بطش ربك لشديد »(١٢) . **هل** يصير العذاب نعيما ، وتصير جهنم جنة ، ويئول الأمر الى أنه لا عذاب ولا عقاب .. الا نعيم وأمان بمشاهدة العيان ؟ !

أليس هذا كلام الله ؟ .. ألم يتوعد القرآن الكافرين بالعذاب الأليم فى نار جهنم . ويبشر المؤمنين بالنعيم المقيم فى الجنة ؟

.أم أن القرآن يخص عوام الناس : أهل الشريعة ، فى حين تخص عقيدة الوحدة الخواص وخواص الخواص من أهل الحقيقة ؟ !

سبحانك ربى .. هذا افك عظيم !!

● ويقول تعالى : « **ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم »**(١٤) .

أى ان الذين جحدوا بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ .. قد تساوى عندهم الانذار أو تركه .. فانهم لا يؤمنون بعد أن طبع الله على قلوبهم وأسـماعهم .. فلا يكون للايمان اليهـا مسلك .. ولا للكفر منها مخلص ..

لقد طبع الله على قلوبهم وأسـماعهم .. كما يطبع ويختم على الأوعية والظروف .. وجعل على أبصارهم غطاء فلا يبصرون سبيل الهدى ، ولهم العذاب العظيم على تركهم طاعة الله وفرائضه ..

وقد كان الرسول ﷺ يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى .. فأخبره تعالى أنه لن يؤمن الا من سـبق له من الله السعادة فى الذكر الأول .. ولا يضل الا من سـبق له من الله الشقاء فى الذكر الأول ..

---

(١٢) البروج : ١٠ — ١٢ (١٤) البقرة : ٦ ، ٧ .

ولكن ابن عربى يفسر هذه الآية من منطلق وحدة الوجود .. فيقول :

« يامحمد .. ان الذين كفروا ستروا محبتهم فى .. دعهم فسواء عليهم أنذرتهم بوعيدك الذى أرسلتك به ، أم لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك .. فانهم لا يعقلون غيرى .. وأنت تنذرهم بخلقى ، وهـم ما عقلوه ولا شاهدوه (!!)

« وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعا لغيرى ، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاما فى العالم الا منى .. وعلى أبصارهم غشاوة من بهائى عند مشاهدتى فلا يبصرون سواى (!!)

« ولهم عذاب عظيم عندى : أردهم بعد هـذا المشهد السنى الى انذارك ، وأحجبهم عنى ــ كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قربا ، أنزلتك الى من يكذبك ، ويرد ما جئت به اليه منى فى وجهك ، وتسمع ما يضيق له صدرك .. فأين ذلك الشرح الذى شاهدته فى اسرائك ؟ .. فهكذا أمنائى على خلقى الذين أخفيتهم رضاى عنهم » !!

[الفتوحات المكية جـ ١ ص ١١٥]

ونقول : أى افك وأى افتراء .. تريد هذه النظرية الضالة أن تبثه فى عقول الناس ؟ !

المشركون ــ فى هـذا النص الخطير ــ لا يعقلون سـوى الله تعـالى !! ..

وقلوبهم مملوءة بمحبته ، فليس فيها متسعا لغيره !!

وأسماعهم ختم الله عليها فلا يسمعون كلاما فى العالم الا منه !!

وأبصارهم .. لا تبصر سـوى بهائه تعـالى .. فلا يبصرون سـواه !!

والعذاب الذى أعده الله لهم .. هو أن يردهم بعد هذه المشاهد السنية الى انذار الرسول .. فيحجبهم ذلك الانذار عن الله تعالى !!

سبحانك ربى .. هذا بهتان عظيم !!

● ويقول جل شأنه : « **والهكم اله واحد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم** »[١٥] .

ومعناها — والله أعلم — أن معبودكم — أيها الناس — الذى يستحق العبادة ، معبود واحـد لا رب سواه ؛ فلا تعبدوا غيره ، ولا تشركوا به سواه .. فانه تعـالى لا مثيل له ولا نظير .. وهو الرحمن الرحيم ..

والله تعالى .. يقيم للناس — بهذه الآية — الحجة والبرهان على وحدانيته .. فقد نبه بآثار مخلوقاته على وجوده ووحدانيته بأبلغ حجة وأوضح بيان ..

غير أن ابن عربى يفسر الآية بقوله : « ان الله تعالى خاطب فى هذه الآية المسلمين .. والذين عبدوا غير الله قربة الى الله فما عبدوا الا الله .. فلما قالوا : « **ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى** »[١٦] ، فأكدوا ذكر العلة ، فقال الله لنا : ان الهكم والاله الذى يطلب المشرك القربة اليه بعبادة هذا الذى أشرك به واحد .. كأنكم ما اختلفتم فى أحديته .. فقـال : « والهكم » .. فجمعنا واياهم اله واحـد .. فما أشركوا الا بسببه فيما أعطاهم نظرهم (!!)

« ومن قصد من أجل أمر ما .. فذلك الأمر على الحقيقـة هو المقصود لا من ظهر أنه قصد .. كما يقال : من صحبك لأمر أو أحبك لأمر ولى بانقضائه ..

« ولهذا ذكر الله أنهم يتبرأون منهم يوم القيامة .. وما أخذوا الا من كونهم فعلوا ذاك من نفوسـهم .. لا أنهم جهلوا قدر الله فى ذاك (!!)

« ألا ترى الحق .. لمـا علم هذا منهم كيف قال : « **والهكم اله واحـد** » ونبههم فقال : « **قل سموهم** »[١٧] .. فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله ..

---

(١٥) البقرة : ١٦٣ .
(١٦) الزمر : ٣ .
(١٧) الرعد : ٣٣ .

« ثم وصفهم بأنهم فى شركهم قد ضلوا ضلالا بعيدا ، أو مبينا .. لأنهم أوقعوا أنفسهم فى الحيرة لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم .. وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنهم من الله شـيئا .. فهى شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم !!

« ثم أخبرنا الله .. أنه قضى ألا نعبد الا اياه .. بما نسبوه من الألوهية لهم ، أى جعلوهم كالنواب له والوزراء كأن الله استخلفهم !!

« ومن عادة الخليفــة .. أن يكون فى رتبة من استخلفه عند المستخلف عليه .. فلهذا نسبوا الألوهية لهم ابتداء من غير نظر فيمن جعل ذلك ..

« وقول من قال : « **أجعل الآلهة الها واحدا** »[١٨] ؟ .. انما كان من أجل أعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة دون الله المشهود له عندهم بالعظمة على الجميع .. فأشبه القول ما ثبت فى الشرع الصحيح من اختلاف الصور فى التجلى !!

« ومعلوم عند من يشــاهد ذلك أن الصورة ما هى الصورة .. وكل صورة لابد أن يقول المشاهد لها : انها الله .. لكن لمــا كان هذا من عند الله ، وذلك الآخر من عندهم .. أنكر عليهم التحكم فى ذلك ، كما ثبت من قوله تعــالى : « **فأينما تولوا فثم وجــه الله** »[١٩] .. هذا حقيقة ، فوجه الله موجود فى كل جهة يتولى أحد اليها !!

« ومع هذا .. لو تولى الانسان فى صلاته الى غير الكعبة ، مع علمه بجهة الكعبة ، لم تتقبل صلاته .. لأنه ما شرع له الا استقبال هذا البيت الخاص بهذه العبادة الخاصة .. فاذا تولى فى غير هذه العبادة التى لا تصح الا بتعيين هذه الجهة الخاصة ، فان الله يقبل ذلك التولى !!

« كما أنه لو اعتقد أن كل جهة يتولى اليها ما فيها وجه الله لكان كافرا وجاهلا .. ومع هذا فلا يجوز له أن يتعدى بالأعمــال حيث شرعها الله ..

---

(١٨) سورة ص : ٥ .

(١٩) البقرة : ١١٥ .

« ولهذا اختلفت الشرائع .. فما كان محرما فى شرع ما ، حلله الله فى شرع آخر ، ونسخ ذلك الحكم الأول فى ذلك المحكوم عليه بحكم آخر .. فى عين ذلك المحكوم عليه ..

« قال الله تعالى : « **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** »[٢٠] .. فما نسخ من شرع واتبعه من اتبعه بعد نسخه ، فذلك المسمى هوى النفس الذى قال الله فيه لخليفته داوود : « **انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق** »[٢١] .. يعنى الحق الذى أنزلته اليك ، « **ولا تتبع الهوى** »[٢١] وهو ما خالف شرعك ، « **فيضلك عن سبيل الله** »[٢١] .. وهو ما شرعه الله لك على الخصوص » ..

ثم يقول : « فاذا علمت ذلك ، وتقرر لديك .. علمت أن الله اله واحد فى كل شرع عينا ، وكثير صورة وكونا .. فان الأدلة العقلية تكثره باختلافها فيه .. وكلها حق ومدلولها صدق .. والتجلى فى الصورة كثرة أيضا لاختلافها .. والعين واحدة !!

« فاذا كان الأمر هكذا فما تصنع ! .. أو كيف يصح لى أن أخطىء قائلا ؟ ..

« ولهذا لا يصح خطأ من أحد فيه .. وانما الخطأ فى اثبات الغير وهو القول بالشريك ، فهذا القول بالعدم .. لأن الشريك ليس ثم ، وذلك لا يغفره الله .. لأن الغفر الستر ، ولا يستر الا من له وجود .. والشريك عدم فلا يستر .. فهى كلمة التحقيق : « **ان الله لا يغفر أن يشرك به** »[٢٢] .. لأنه لا يجده .. فلو وجده لصح وكان للمغفرة عين تتعلق بها ..

« وما فى الوجود من يقبل الأضداد الا العالم من حيث ما هو واحد .. وفى هذا الواحد ظهرت الأضداد .. وما هى الا أحكام عين الممكنات فى عين الوجود .. التى بظهورها علمت الأسماء الالهية المتضادة وأمثالها » !! [الفتوحات المكية جـ ٤ ص ١٠٦ ، ١٠٧]

---

(٢٠) المائدة : ٤٨ .　　(٢١) سورة ص : ٢٦ .
(٢٢) النساء : ١١٦ .

ونقول : هنا تتجلى وحدة الوجود بأجلى صورها •• فالمؤمنون والمشركون — طبقا لهذا التأويل الفاسد — لا يختلفون فى أحدية الله !! •• وانما يعبدون الها واحدا !! •• وما عبادتهم للأصنام الا من قبيل اتخاذها نواباً ووزراء لله !! •• واعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة من دون الله أشبه ما يكون — فى نظرهم — بما ثبت من الشرع الصحيح من اختلاف الصور فى التجلى !!

هل لمسلم — مهما كان أمره — أن يقبل مثل هذا التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود ؟ أو ذلك التفسير الذى يقوم على نظريات الفلاسفة الذين بحثوا فى الطبيعة وما وراء الطبيعة ؟

اننا لا يمكن — أبدا — أن نقبل مثل هذا الكلام •• لأنه لا يتفق مع مراد الله تعالى ومقصوده الذى جاء القرآن من أجله ••

ومرة ثانية •• نقول : أى افك وأى ضلال تريد هذه النظرية أن تبثه فى عقول الناس ؟ !

● ويقول تعالى : « **وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه** »(٢٣) .

أى : أنه تعالى •• حكم وأمر ألا نعبد سواه ••

ولكن ابن عربى يفسر الآية بقوله : « ••• علماء الرسوم يحملون لفظ « قضى » على الأمر •• ونحن نحمله على « الحكم » كشفا ، وهو الصحيح •• فانهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء الا لتقربهم الى الله زلفى •• فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم •• وما ثم صورة الا الألوهية فنسبوها اليهم •• ولهذا يقضى حوائجهم اذا توسلوا بها اليه غيرة منه على المقام أن يهتضم ، وان أخطأوا فى النسبة فما أخطأوا فى المقام •• ولهذا قال : « **ان هى الا أسماء سميتموها** »(٢٤) •• أى أنتم قلتم عنها انها آلهة ، والا فسموهم ••

« فلو سموهم لقالوا : هذا حجر أو شجر ، أو ما كان •• فتتميز عندهم بالاسمية •• اذ ما كل حجر عبد ولا اتخذ الهاً ، ولا كل شجر ،

---

(٢٣) الاسراء : ٢٣ (٢٤) النجم : ٢٣

ولا كل جسم منير ، ولا كل حيوان .. فلله الحجة البالغة عليهم بقوله :
« قل سموهم »[٢٥] !! [الفتوحات جـ ٣ ص ١١٧]

ونقـول : ها قد انكشف المخبوء ، وانفضح المستور .. فهـذا ابن عربى يبرر لعبـدة الأحجار والأشـجار عقيدتهم .. فانهم — فى تصـوره — لم يعبدوها لذاتها ، وانما اتخذوها وسائل لقضـاء الحوائج !!

ثم يزعم أن الله تعالى يقضى هذه الحوائج اذا اتخذ الناس هذه الوسائل .. وهو مدخل خطير لتقديس القبور وعبادة المقبورين .. فانهم — فى زعمه — ما عبدوهم فى الحقيقة وانما اتخذوا المقبورين وسائل لقضاء الحاجات !!

● ويقول تعالى : « **واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا . رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا** »[٢٦] ..

أى : اذكر اسـم ربك فادعه به .. وانقطع اليـه انقطاعا تاما لحوائجك وعبادتك .. أى أخلص له المسألة والدعاء .. لأن الله تعالى رب المشرق والمغرب وما بينهما من العالم .. فلا ينبغى أن يعبد سواه .. ففوض اليه جميع أمورك ، واقصده فى كل حوائجك ..

ولكن ابن عربى يفسر الآية بقوله : « ... واذكر اسم ربك الذى هو أنت .. أى اعرف نفسك .. واذكرها ولا تنسها فينسك الله .. واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها ..

« رب المشرق والمغرب » .. أى الذى ظهر عليك نوره .. فطلع فى أفق وجودك بايجادك .. أو المغرب الذى اختفى بوجودك ، وغرب نوره فيك واحتجب بك » !! [تفسير ابن عربى جـ ٢ ، ص ٣٥٢]

أرأيتم كيف قادته عقيدة الوحدة الى أن الرب عبد والعبد رب ؟ !
أرأيتم كيف يقول مبتدع نظرية الوحدة أن ربك هو أنت ؟ ! وأنك حين تعرف نفسك فقد عرفت ربك .. وأن المشرق والمغرب ليس مشرق العالم ومغربه .. انما هما ظهور نور الله عليك حين أوجدك .. وغروبه فيك واحتجابه بك ؟ !

---

(٢٥) الرعد : ٣٣ (٢٦) المزمل : ٨ ، ٩

أرأيتم ماذا يريدون أن يغرسوا بعقيدتهم — الشاذة — في عقول المســلمين ؟ !

● ويقول تعالى « فادخلي في عبادي • وادخلي جنتي »(٢٧) ••

أي : فادخلي في عبادي الصالحين ، وادخلي جنتي دار المتقين ••

ولكن ابن عربي يفسرها بقوله : « ادخلي جنتي التي هي ستري ، وليست جنتي سواك •• فأنت تسترني بذاتك الانســانية فلا أعرف الا بك •• كما أنك لا تكون الا بي •• فمن عرفك عرفني •• وأنا لا أعرف فأنت لا تعرف •• فاذا دخلت جنتي دخلت نفسك فتعرف نفسك معرفة أخرى غير المعرفة التي عرفتها حين عرفتك ربك بمعرفتك اياها •• فتكون صاحب معرفتين : معرفة به من حيث أنت ، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت •• فأنت عبد رأيت ربا ،وأنت رب لمن له فيه أنت عبد •• وأنت رب وأنت عبد لمن له في الخطاب عهد » !!

[الفصوص جـ ١ ، ص ١٩١ — ١٩٣]

هل فهمتم شــيئا ؟ !

الجنة — عند ابن عربي — هي النفس الانسانية — أي الستر — فليست الجنة سوى أنفس الناس •• فالناس يسترون الله بذواتهم فلا يعرف الا بهم ، كما أنهم لا يكونون الا به تعالى !!

فمن عرف نفسه عرف الله ، واذا لم يعرف الله لم تعرف النفس ••

فاذا ما دخل العبد جنته — أي نفسه — فانه يعرف ذاته معرفة أخرى غير المعرفة التي عرفها حين عرف ربه بمعرفته اياها ••

وبهذا يكون العبد صاحب معرفتين : معرفة بالله تعالى من حيث هو عبد ••

ومعرفة بالله بمعرفته لنفسه من حيث كونه الها •• لا من حيث نفس العبد ••

---

(٢٧) الفجر : ٢٩ ، ٣٠

وبهذا يكون العبد بمعرفته لنفسه ، قد عرف ربه •• فالعبد رب لمن للرب فيه هو عبد •• وهو رب وفى نفس الوقت عبد لله تعالى •• فالوجود وحدة واحدة لا فرق فيها بين عبد ورب ••

ويظهر لنا من هذا النص تأثر ابن عربى بنظرية الفيض التى قال بها « أفلوطين » والتى تقول : بما أن الله واحد ، والوجود واحد •• فان هـذه الكائنات قد صـدرت عن الواحـد بفيض منه •• اذن فهما واحـد ••

لذا نراه يقول : أن العبد يعرف نفسه بنفسه أولا••فهذه معرفة••

ثم يعرف الله عن طريق نفسه الموجودة ، التى لابد لها من موجد وهو الله تعالى •• وهذه معرفة ثانية ••

كما أن الله يعرف نفسه بنفسه •• وهذه معرفة ••

وقد صدر عنه هذا الوجود حتى يعرفوه عن طريق وجودهم •• فهذه معرفة ثانية ••

واذا أردنا مزيدا من التبسيط •• نقول مع بعض الفلاسفة : ان « العملة ذات وجهين » •• وهى فى الحقيقة عملة واحدة تحمل وجهين •• ويشترك هذان الوجهان فى كونهما عملة واحدة ، وهكذا تكون المعرفة واحدة ولكن لها وجهان •• وجه من جهة الله للعبد ، ولله لله •• ووجه آخر من جهة العبد للعبد ، والعبد لله ••

ما كان أغنانا عن هـذا التمنطق الذى يقود الى التزندق •• ولا يضيف الى العقيدة السليمة شيئا •• فنقول : ان الله تعالى يقول للنفس المطمئنة : « **فادخلى فى عبادى • وادخلى جنتى** » • فالمعنى — والله أعلم — ادخلى فى عبادى الصالحين ، ادخلك جنتى التى هى دار المتقين ••

● **ويقـول جل شـأنه : « قد أفلح من زكاها • وقد خاب من دساها »**(٢٨) •

---

(٢٨) الشمس : ٩ ، ١٠

أى قد أفلح من زكى نفسه بتطهيرها من الكفر والمعاصى .. وأصلحها بالطاعات من الأعمال .. وقد خاب وخسر من دسس نفسه فأخملها بركوب المعاصى وترك طاعة الله ..

ولكن ابن عربى يفسرها بقـوله : ... « تحقيق هذا الذكر أن النفس لا تزكو الا بربها .. فبه تشريف وتعظيم فى ذاتها .. لأن الزكاة ربو .. فمن كان الحق سـمعه وبصره وجميع قواه . والصورة فى الشاهد صورة خلق .. فقد زكت نفس من هذا نعته ، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .. كالأسماء الالهية لله ..

« والخلق كله بهذا النعت فى نفس الأمر .. ولولا أنه هكذا فى نفس الأمر ما صح بصورة الخلق ظهور ولا وجود .. ولذلك خاب من دساها لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دسها فى هذا النعت ، وما علم أن هذا النعت لنفسه نعت ذاتى لا ينفك عنه ويستحيل زواله .. لذلك وصـفه بالخيبة حيث لم يعلم هـذا .. ولهـذا قال : « قد أفلح » ففرض له البقاء .. والبقاء ليس الا لله .. أو لمـا كان عند الله ، وما ثم الا الله أو ما هو عنده .. فخزائنه غير نافدة ، فليس الا صور تعقب صوراً » . [الفتوحات جـ ٤ ، ص ١١٩]

ومع هذا .. يطلب منا الآلوسى عدم القول بظاهر هذه الأذكار الشـاذة .. مع ما نحن عليه من قصور .. وأنه يجب علينا كلما وجدنا مثلها لواحد منهم أن نسـلمه لهم بالمعنى الذى أرادوه مما لا نعلمه بعقولنا المشوبة بالأوهام .. ثم يكلفنا بأن نعتقد ــ بعد ذلك ــ أن الأمر هو ــ كما أقسم عليه ــ وراء ذلك ؟ !

لا والله .. اننا لا نملك أبدا الاستجابة لطلب الآلوسى ؛ وليست لدينا القدرة على الخضوع لتكليفه .. انما ندين بالطاعة لله ولرسوله ، ولا شىء وراء ذلك ..

ويقول عبد الغنى النابلسى ــ من هذا المنطلق : « ما ثم الا ذات : وصفات ، وصفات صفات ، وهى : الأفعال ، والمنفعلات ..

فالأول : هو المعبود ، والثاني : هو الموصل اليه وهو الواسطة ، والثالث : هو العابد ، والرابع : هو العائق والمانع ..

والأول : مرتبة الله تعالى . والثانى : مرتبة محمد ﷺ ، والثالث : مرتبة المؤمنين ، والرابع : مرتبة الشيطان ..

وهذه الأربعة في الحقيقة .. شيء واحد ، ولكنه تنزل وتفصل ، فظهرت هذه الأطوار ، وتعددت وجوداته ..

فالوجود العينى : مرتبة الذات ، والوجود العلمى : مرتبة الصفات ، والوجود القولى : مرتبة الأفعال ، والوجود الرقمى : مرتبة الانفعالات..

وهذه الأربع وجودات .. هى صورة الحق ، وقد خلق الله آدم مشتملا على هذه الصورة . قال النبى ﷺ : « أن الله خلق آدم على صورته » . وفى رواية : « على صورة الرحمن » فهو مرآة الحق .. فيوجد آدم فى عينه ، فهى مرتبة الذات .. ويوجد آدم فى علم الله تعالى ، وهى مرتبة الصفات .. ويوجد فى القلم الأعلا ، وهى مرتبة الأفعال .. ويوجد فى اللوح المحفوظ ، وهى مرتبة الانفعالات .. فقد تمت لآدم هذه الوجودات الأربع ..

وكل عالم من عوالم الله تعالى له آدم وبنوه من جنسه .. وكل نبى ورسول من جنسه ، ويقرب ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنه فى آية : « **ومن الأرض مثلهن** »(٢٩) .. قال : فى كل أرض مثل ابراهيم ونحو ما على الأرض من الخلق ، قال ابن حجر : اسناده صحيح .. وأخرجه الحاكم والبيهقى : « فى كل أرض آدم كآدمكم ، ونوح كنوحكم ، وابراهيم كابراهيمكم ، وعيسى كعيسى ، ونبى كنبيكم » ..

هذه الوجودات الأربعة المذكورة لهذا الشيء الواحد ، وهو الوجود الذاتى على التنزيه ، وهو العينى .. والوجود الصفاتى على التنزيه ،

---

(٢٩) الطلاق : ١٢

وهو العلمي .. والوجود الأفعالى على التنزيه ، وهو القولى .. والوجود الانفعالى على التنزيه ، وهو الرقمى ..

فهو الله فى عالم الذات العلية ، ومحمد ﷺ فى عالم الصفات السنية ، والمؤمن فى عالم الأفعال ، والشيطان فى عالم الانفعال ..

قال الله تعالى : **«سبحان ربك رب العزة عما يصفون»**(٣٠) ، وقال : **« من يطع الرسول فقد أطاع الله»**(٣١) .. وقال فى الحديث القدسى : « ... كنت سـمعه وبصره » الحديث .. وقال : **« ويحذركم الله نفســه »**(٣٢) .. وفى الحديث : « أعوذ بك منك »(٣٣) .

لقد سلك ابن عربى — فى تفسيره للقرآن الكريم — مسلكا غريبا .. فهو يقسر الآيات ويخضعها لنظرية وحدة الوجود التى يدين بها .. وقد نسلك غيره — أمثال البسطامى والحلاج والنابلسى — المسلك نفسه أو قريبا منه ..

والمعنى الذى يقصدونه من وحده الوجود .. انه « ليس هناك الا وجودا واحدا .. وكل العالم مظاهر ومجال لهذا الوجود .. فالله سـبحانه هو الموجود الحق ، وكل ما عداه ظواهر وأوهام لا توصف بالوجود الا بضرب من التوسع والمجاز » !!

لقد سرت هذه النظرية الى التصوف الاسلامى — كما قدمنا — عن طريق الفلاسفة ، وعن طريق الاسماعيلية والباطنية الذين خالطوهم وأخـذوا عنهم مذهبهم القائل بحلول الاله فى أئمتهم .. وصـوره الصوفيون بصورة أخرى تتفق مع مذهب الباطنية فى الحقيقة ، وان اختلفت فى الاصطلاح والألفاظ ..

---

(٣٠) الصافات : ١٨٠ (٣١) النساء : ٨٠

(٣٢) آل عمران : ٢٨

(٣٣) انظـر : « الفتح الربانى : والفيض الرحمانى » لعبد الغنى النابلسى ، حققه عبد القادر احمد عطا ، ونشرته دار التراث العربى باسم : « حقائق الاسلام واسراره » ١٩٨٦ ص ٣٥ ، ٣٦

وهذا ما سوغ لابن عربى أن يقول : « ان عجل بنى اسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحل فيها » .. وحاشا لله !!

وهذا ما جره — فيما بعد — الى القول بوحدة الأديان كلها .. لا فرق بين سماوى منها وغير سماوى .. اذ الكل — فى نظره — يعبدون الاله الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات .. وسبحان الله عما يأفكون !!

وهذا ما سوغ للحلاج أن يقول : « أنا الله » — تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا !!

وبعد .. فان الله تعالى يقول : « **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير** »(٣٤) .

* * *

يقول الدكتور يوسف القرضاوى — جزاه الله خيرا — : « اذا عرفت أن الايمان بالله هو جوهر العقائد الاسلامية جميعا .. فواجبك أن تعرف هنا كذلك أن توحيد الله هو جوهر الايمان بالله تعالى .. واذا تجرد عن التوحيد الحق كان كفراً وشكا ، ورجساً وزوراً ، وظلما عظيما وضلالا مبيناً ..

« ولهذا كان لزاما عليك أن تعرف حقيقة التوحيد الذى أمر الله به ، وأقام عليه دينه ، وأنزل به كتابه ، وبعث به رسوله ، وعلق خيرى الدنيا والآخرة على تحقيقه وتجريده ، وجعل الجنة لأهله وأنصاره ، والنار لخصومه وأعدائه .. فان كثيرا من الطوائف نسبوا أنفسهم الى التوحيد وادعوا أن ما هم عليه هو التوحيد الخالص .. وما عليه غيرهم هو الباطل »(٣٥) .

---

(٣٤) الحج : ٦٢

(٣٥) حقيقة التوحيد ، للدكتور يوسف القرضاوى ، نشر مكتبة وهبة ١٩٨٥ ، ص ١٢ وما بعدها ..

ثم يقول فضيلته — وهو بيت القصيد : « وهل أتاك نبأ دعاة وحدة الوجود ؟ ••

« انهم يزعمون أنهم وحـــدهم الموحدون •. ومن عداهم فهم المعددون ! ••

« فهل علمت ما توحيدهم المزعوم ؟ ؟

« توحيدهم أن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه !! •• وأنه سبحانه هو عين وجود كل موجود وحقيقته وماهيته !! •• وأنه آية كل شيء ؛ وله فيه آية تدل على أنه عينه !!

« وهذا عند محققيهم من خطأ التعبير •• بل هو نفس الآية . ونفس الدليل ، ونفس المستدل ، ونفس المستدل عليه !!

« فالتعدد بوجود اعتبارات وهمية لا بالحقيقة والوجود •• فهو — عنــدهم — عين الناكح وعين المنكوح ، وعين الذابح وعين المذبوح ، وعين الآكل وعين المأكول !!

« وهذا عندهم هو السر الذى رمزت اليه هوامس الدهور الأولية •• ورامت افادته الهداية النبوية •• كما قال محققهم ابن سبعين !!

« ومن فروع هذا التوحيد — أى الوحدة — وثماره : أن فرعون ونمروذ وأمثالهما مؤمنون كاملو الايمان •• عارفون بالله على الحقيقة !!

« وأن عباد الأصنام •• انما عبدوا عين الله لا غيره ، فهم على الحق الصواب !!

« وأن لا فرق فى التحليل والتحــريم بين الأم والأخت وبين الأجنبية !! ، ولا بين المــاء والخمر ؛ ولا بين الزواج والزنا !!

« انكل عين واحدة ، بل هو العين الواحدة •• وأن الأنبياء ضيقوا الطريق على الناس ، وبعدوا عليهم المقصود •• والأمر وراء ما جاءوا به ودعوا اليه »[٣٦] !!

---

(٣٦) المرجع السابق ...

ثم يضيف فضيلته : « ••• وهل يجهل ذو بصيرة توحيد الضالين من عوام المسلمين •• وتوحيد مضليهم ممن يدعون المشيخة ويتزيون بزى الدين ورجاله الصالحين ؟

« انهم يدعون غير الله •• ويرجون ويخافون غير الله ممن أدعوا لهم أنهم أولياء أو أقطاب أو أوساط أو أبدال •• أو غير ذلك من الألقاب !!

« فهم يطوفون بأضرحتهم •• يسألونهم أكثر مما يسألون الله •• ويستعينونهم أكثر مما يستعينون الله •• ويهرعون اليهم فى الملمات ، ويطلبون منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات •• بدعوى أنهم وسطاء بينهم وبين الله •• ولولا الواسطة لذهب ــ كما قيل ــ الموسوط »[٣٧] !!

* * *

ونقول : ان الزعم بوحدة الوجود •• هو ادعاء فاجر ، بنى على خرافة أن الكون كله قد انبثق عن نواة واحدة •• وأن الله تعالى هــو هذه النواة •• وما أسماؤه وصفاته الا أجزاء هذا الكون ومظاهره من كل ناطق وصامت ، وساكن ومتحرك !!

وتزعم هذه النظرية الضالة •• بأن كل عابد مهما عبد من انسان أو حجر أو شجر أو كوكب أو حيوان •• فما عبد الا الله !!

وأن الكون كله •• سوف يعود يوم القيامة الى نواته الأولى •• وهى ــ فى زعمهم ــ الله تعــالى •• فلا جنة ولا نار ، ولا ثواب ولا عقاب •• بل يصير الى ما يزعمه مبتدع هذه النظرية : يصير العذاب نعيماً •• وجهنم جنــة ، ولا عذاب ولا عقاب •• الا نعيم وأمان ، بمشاهدة العيان » !!

أرأيتم كيف قادهم القــول الفاجر بوحــدة الوجود الى الزيغ والضلال ؟ !

وأى زيغ وأى ضلال •• أكبر من ادعاء أن الله تعالى هو عين

---

(٣٧) نفس المرجع ••

الناكح وعين المنكوح ، وعين الذابح وعين المذبوح ، وعين الآكل وعين المأكول ؟ ! — تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ..

ان هذه النظرية الضالة .. هى التى سوغت للحلاج أن يقول : « أنا الحق .. وما فى الجبة الا الله » !!

وهى التى سوغت لأبى يزيد البسطامى .. أن يخترع قصة التقائه مع القطب ، وقوله له : اذا رأيتنى فقد رأيته وطفت حول الكعبة .. واذا عبدتنى فقد عبدته وسجدت له ، فلا تظنن أننى شيء غيره » !! وهو قول لا يجرؤ عليه الا « ابليس اللعين » ، فما رأى أبو يزيد الا شيطانه !!

هذه العقيدة .. هى التى سوغت للشاذلى أن يقول :

وان عبد النار المجوس وما انطفت   كما جاء فى الأخبار فى كل حجة
فما عبدوا غيرى وما كان قصدهم   سواى وان لم يضمروا عقدنيتى (!!)

وسوغت لابن عربى أن يقول : « سبحان من خلق الأشياء وهو عينها » !!

وأن يقـول :

فيحمـدنى وأحمـده   ويعبـدنى وأعبـده (!!)

وأن يقـول :

وقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى   اذا لم يكن دينى الى دينه دانى
فأصـبح قلبى قابلا كل صـالة   فمرعى لغـزلان ودير لرهبـان
وبيت لأوثان وكعبـة طائف   وألواح توراة ومصحف قرآن (!!)

هذه العقيدة .. هى التى سوغت للجيلى أن يقول :

لى الملك فى الدارين لم أر فيهما   سواى فأرجو فضله أو فأخشاه
وقد حزت أنواع الكمال واننى   جمال جلال الكل ما أنا الا هو (!!)

ثم يقـول :

وانى رب للانام وسـيد   جميع الورى اسمى وذاتى مسماه

وسوغت للحلاج أن يقول :

أنا من أهـوى ومن أوهـوى أنا نحـن روحـان حللنـا بـدنا
فـاذا أبصرتنـى أبصرتـه واذا أبصرتـه أبصرتنا (!!)

وهى التى سوغت لبهاء الدين البيطار أن يقول :

وما الكلب والخنزير الا الهنـا وما الله الا راهب فى كنيسة (!!)

هل لا يزال « الآلوسى » يطلب منا عدم القول بظاهر هذه الأفكار مع ما نحن عليه ؟ !

هل لا يزال يطلب منا أن نسلم لهم القـول بالمعنى الذى يريدونه مما لا نعلمه نحن ولا يعلمه هو ؟ !

هل لا يزال يقسم بالله تعالى .. أن الأمر وراء ذلك ؟ !

ليس لمخلوق أدنى حق فى لومنا حين نقول : ان هـذه العقائد والأفكار الدخيلة على الاسلام .. لا تخدم معتنقيها بل تخرجهم عن الايمان ان لم يتوبوا منها ويقلعوا عنها ..

انهم يسمون هذا التجديف شطحا .. ويدعون أنهم تنتابهم أحوال ومواجيد فلا يدرون بما ينطقون !!

ويزعمون أن عقيدتهم هذه لا تقرأ فى الكتب ، ولا تتلقى عن الأنبياء والرسل .. انما هى معانى يقذفها الله تعالى فى قلوبهم !!

ان هذا هو الجنون بعينه . ان لم يكن هو الضلال نفسه !!

لقد كان أبو يزيد البسطامى عندما يسمع القارىء يتلو قول الله تعالى : ((أن بطش ربك لشديد))[٣٨] ، يقول : وعزتى وجلالى .. ان بطشى لأشد من بطشه !!

ويروى عنه أنه قال : قلت يوما : سبحان الله .. فنادانى الله فى سرى : هل فى عيب تنزهنى عنه ؟ قلت : لا يارب .. فقال : فنفسك

---

(٣٨) البروج : ١٢

نزه عن ارتكاب الرذائل .. فأقبلت على نفسى بالرياضة حتى تنزهت عن الرذائل وتحلت بالفضائل .. فصرت أقول : سبحانى سبحانى ، ما أعظم شأنى ، الجنة لعبة صبيان !!

ماذا نسمى مثل هذه الأقوال الشاذة ؟ .. أهى تجليات وكشف ، أم شطحات ووجد ، أم جنون وخبال ؟ ؟

ولكنها عقيدة الوحدة ، والزعم بوحدة الوجود ، وادعاء أن العبد رب والرب عبد .. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..

ان الدين عند الله الاسلام .. والاسلام دين التوحيد الكامل ..

ومع هـذا يسمون توحيدنا أوحالا .. ويبتهلون الى ربهم أن ينتشلهم من أوحال التوحيد ، وأن يغرقهم فى بحار الوحدة .. ويقولون فى أورادهم : « اللهم انشلنى من أوحال التوحيد ، وأغرقنى فى عين بحر الوحدة .. حتى لا أرى ، ولا أجد ، ولا أحس الا بها » ..

اللهم انهم يسمون توحيدنا أوحالا .. ويسمون عقيدتهم الضالة وحـدة ..

اللهم أغرقنا فى أوحال التوحيد — كما يسمونها — وأنقذنا يارب من بحار الوحدة التى يزعمونها .

انهم يدعون المحبة لله تعالى ، وأنهم قد بلغوا فى حبهم المزعوم درجة العشق والوجد !! .. وكتبوا فى عشقهم ووجدهم أشعارا بالغة الغرابة ، انفردوا بها من دون الناس جميعا .. فيجيزون للشاعر منهم باسم الشطح والوجد والعشق الالهى أن يطلق نفسه على سجيتها .. فاذا هو ينطلق مع حبه المزعوم لله انطلاقا يعبر فيه عن ذات قلبه تعبيرا غزليا انسانيا مستفيضا .. بل ويعبر عن تلك المحبة تعبيرا حسيا عما يجرى بين المحبين فى بعض المواقف ويستحى الناس من ذكره !!

فلا نكاد نعرف من أى أنواع الحب ينطلق معه صاحب هذا القلب .. ولا من أى أنواع الغزل هذا الشعر ؟ !

فهل يجوز — مثلا — لابن الفارض — أن يخاطب الله عز وجل بقـوله :

تـه دلالا فأنت أهـل لذاكـا وتحكم فالحسن قد أعطاكا (!!)

أو بقـوله :

قلبى يحـدثنى بأنك متلفـى ، روحى فداك عرفت أم لم تعرف (!!)

وهل يصح أن يذهب به الوجد والشطح الى قوله :

ان كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد رأيت فقـد ضيعت أيامى
أمنيـة ظفرت روحى بهـا زمنا واليوم أحسـبها أضغاث أحلام
وان يكن فرط وجدى فى محبتكم اثما فقد كثرت فى الحب آثامى
ولو علمت بأن الحب آخـره هـذا الحمام لمـا خالفت لوامى
أودعت قلبى الى من ليس يحفظه أبصرت خلفى وما طالعت قدامى
لقد رمانى بسـهم من لواحظه أصمى فؤادى فواشوقى الى الرامى (!!)

وهل يصح أيضا أن يتحدث المحب عن محبوبه الالهى بمثل ما يتحدث الشاعر نفسه عما يهوى من ردف ثقيل فى محبوبه .. وذلك فى قوله :

أهـواه مهفهفـا ثقيـل الردف كالبدر يجل حسـنه عن وصف
ما أحسن واو صدغه حين بدت يارب عسى تكون واو العطف (!!)

وأخيرا .. هل يصـح فوق هـذا كله .. أن يتحدث المحب عن اتصـاله بمحبوبه الأسمى ، هذا الحديث المسرف فى ألفاظه المـادية وصوره الحسية .. وذلك على نحو ما يتحدث نفس الشـاعر فى هذين البيتين :

ما أطيب ما بتنا معـا فى برد اذ لاصق شـده اعتناقا خـدى
حتى رشحت من عرق وجنتـه لازال نصيبى منه ماء الورد (!!)

أهذا هو بحر الوحدة ، الذى يرجون أن يغرقوا فى عينه حتى لا يروا ولا يجدوا ، ولا يحسوا الا بها ؟ !

وصدق الله تعالى اذ يقول : « **والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر انهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . الا الذين**

آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »(٤٩) .

* * *

● صاحب النظرية .. بين خصومه وأنصاره :

من الطبعي — وهذه أفكار ابن عربي — أن يقابلها الفقهاء بالحملات القاسية فى حياته وبعد مماته .. فقد تصدى لهذه الأفكار الكثير من علماء الشريعة — أهل السنة — أمثال : ابن الخياط ، والحافظ الذهبى ، وابن تيميــة ، وابن اياس ، والتفتازانى ، وعلى القارى ، والامام جمال الدين بن محمد بن نور الدين .. وغيرهم ..

فقد وقفوا عند هذه الأفكار ولم يستطيعوا استساغتها : كمذهبه فى وحدة الوجود ، وقوله بايمان فرعون ، وما زعمه من التقائه بأرواح الأنبياء والأولياء السابقين ..

بالاضافة الى ما كان يفيض به من تعبيرات الشوق والهيام فى قصائد غزلية .. يظنها السامع أوالقارئ ، موجهة الى انسان ، ولكنها فى حقيقتها موجهة الى المعانى الروحية التى يحس بها ، وان استعمل فيهــا الألفاظ الحســية — جريا على طريقة الصــوفية فى رموزهم واشاراتهم ..

كما كان من الأسباب التى أدت الى مهاجمته : ما كان يحدث به عن التجليات والاشراقات التى يزعم حدوثها له ، ولا يجد لها الناس علة عقلية ممكنة ..

ومن الطبعى أيضا .. أن يجد له أنصارا ومريدين ، يدافعون عنه ويتحمسون لأفكاره أمثال : الفيروزابادى ، والمخزومى ، والزملكانى ،

---

(٣٩) الشعراء : ٢٢٤ — ٢٢٧ ؛ وانظر كتاب : ابن الفارض .. سلطان العاشقين ، للدكتور محمد مصطفى حلمى ، سلسلة اعلام العرب (١٥) ، ١٩٦٣ ، ص ٢٤٠ — ٢٤٣

والحموى ، والصفدى ، والسهروردى ، والخجندى ، والكاشى ، والرازى ، ومحمد المغربى ، وابن جماعة ، والبلقينى ، والسبكى ، والجلال السيوطى ، والقاشانى وغيرهم ..

● ويزعم المدافعون عن نظرية وحدة الوجود .. أنها ناتجة لديهم عن طول تأملهم فى آيات الله وآلائه التى أبدعها ، فبدا عليها أثر خلقه وانشائه وابداعه ..

فنور الله وقدرته وجلاله وجماله .. يبدو على هذه الآيات كما يبدو تأثير المؤثر فى الأثر ..

ويقرب من هذا المعنى — فى نظرهم — ما أراده ذو النون المصرى حين هتف يناجى ربه : « الهى ، ما أصغيت الى صوت حيوان ، ولا الى حفيف شجر ، ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقعة رعد .. الا وجدتها شاهدة بواحدنيتك ، دالة على أنه ليس كمثلك شىء » ..

وعلى هذا .. فوحدة الوجود فى رأيهم غيرها فى رأى الغربيين والمستشرقين .. لأنهم — كما يدعون — يفرقون بين الله والعالم ، ولكنهم يرون أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا ، وانما الوجود الحق لله تعالى ، فليس هو العالم ولا العالم هو ..

أما غيرهم فيرون أن الروح والمادة شىء واحد ..

ووحدة الوجود — عندهم — قائمة على المعرفة الحقيقية لله .. وفى هذا يقول معروف الكرخى : « اذا انفتحت عين بصيرة العارف نامت عين بصره فلا يرى الا الله » ..

ويعبر عنها حسن رضوان فى كتابه « روض القلوب المستطاب » بقوله :

وكل ما سواه نجم آفل　　　بل فى شهود العارفين باطل

ثم يعلق على ذلك بقوله : « ان كل ما سوى الله تعالى من الأعيان الظاهرة والماهيات الممكنة ، علويه أو سفليه ، باطل فى شهود العارفين

من حيث ذاته ، فلا حقيقة له أزلا وأبدا ، وانما الموجود حقيقة كذلك هـو ذات الحق تعالى ، وليس لتلك الأعيان والماهيات الظاهرة وجود حقيقى ذاتى لها » ..

وعلى هذا الفهم .. يفسرون كلام ابن عربى ، الذى يفهم منه فكرة وحدة الوجود ، والذى يتلخص فى قوله فى الفتوحات : « سبحان من خلق الأشياء وهو عينها »[٤٠] .

وقوله فى الفصوص :

ياخالق الأشياء فى نفسـه — أنت لمـا تخلقـه جـامع
تخلق ما لا ينتهـى كونه — فيك فأنت الضيق الواسـع

فالمعنى الذى يقصده ابن عربى — فى رأيهم — وان كان يوهم فى ظاهره فكرة الوحدة بين الخالق والمخلوق ، لا ينبغى أن يفهم الا على أسـاس فهمهم من هـذه الوحدة ويقصدون منه أنه لا موجود على الحقيقة الا الله تعالى !!

هذا ما يقوله أنصار ابن عربى ومريدوه !!

* * *

● وأول ما يدفع به الصوفيون انكار المنكرين على ابن عربى ، هو زعمهم بأنه قد دست عليه الكثير من الآراء التى لم يقلها !!

يقول الشعرانى — وهو من أقطاب الصوفية — : « وقد توقفت حال الاختصار — يعنى للفتوحات — فى مواضع كثيرة منه ، ولم يظهر لى موافقتها لمـا عليه أهل السنة والجماعة ، فحذفتها من هذا المختصر .. وربما سهوت فتبعت ما فى الكتاب ، كما وقع للبيضاوى مع الزمخشرى ، ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضـع التى حذفت ثابتة عن الشـيخ محيى الدين ، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد ابن السيد أبى الطيب — المتوفى عام ٩٥٥ هـ — فذاكرته فى ذلك ، فأخرج الى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محيى الدين نفسه بـ « قونيه » ، فلم أر فيها شيئا مما توقفت فيه وحذفته ، فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من

---

(٤٠) الفتوحات المكية جـ ٢ ص ٦٠٤

النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة ، كما وقع له ذلك فى كتاب الفصوص وغيره » ..

ونحن نقول : هكذا الشأن معهم دائما : الانكار ، ثم التشكيك ، ثم التأويل !!

ولنا فى هذا تجربة ..

حدث ذلك عندما نقلنا عن « الطبقات الكبرى » للشعرانى بعض النصوص التى تخالف العقيدة ، ولا تتفق مع بدائه العقول ، لمناقشتها فى كتابنا « من وصايا القرآن الكريم » .. فقوبلنا أولا بالانكار .. اذ نفوا وجود هذه الأفكار التى تعرضنا لها ، بل وأنكروا وجودها تماما .. معتمدين فى ذلك على ندرة هذه المراجع أو ارتفاع أثمانها ، بحيث يتعذر الحصول عليها أو الرجوع اليها !!

فلما جابهناهم بالمراجع التى أخذنا عنها .. عمدوا الى التشكيك ، فادعوا أنها من الدخيل عليهم مما دسه خصوم الشعرانى عليه !!

فلما قلنا : كيف يكون هذا ، وأنتم تعتمدون على هذه المراجع نفسها .. تنقلون عنها وتحتجون بها ؟ ! ..

أيكون الدليل صحيحا اذا كان فى أيديكم ، ثم يصبح هذا الدليل نفسه زائفا اذا انتقل الى أيدينا ؟ !

ولماذا لم ترفعوا هذا الدخيل المدسوس من مراجعكم اذا كان ما تدعون صحيحا ؟ !

عندئذ لجأوا الى التأويل .. فقالوا : ان هذه النصوص تحوى من المعانى الباطنة والعلوم اللدنية ما لا يدركه سوى الخواص من الصوفيين — لأنهم أهل الحقيقة — أما طبقة العوام — وهم أهل الشريعة — فانهم لن يصلوا أبدا الى أسرار هذه الأفكار لكونها محجوبة عنهم !!

وهكذا دأبهم دائما !!

* * *

● ويذهب البعض — ومنهم الشيخ محمد عبده ، والدكتور محمد حسين الذهبي — الى أن تفسير ابن عربى للقرآن الكريم من عمل عبد الرزاق القاشانى ، ونسبه لابن عربى ترويجا له بين الناس ، وتشهيرا له بشهرة ابن عربى !!

ويقول الشيخ محمد عبده : « وقد اشتبه على الناس فيه — أى فى التفسير الاشارى — كلام الباطنية بكلام الصوفية . ومن ذلك : التفسير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، وانما هو للقاشانى الباطنى الشهير ، وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز »(٤١) .

وقد أيده فيما ذهب اليه الدكتور الذهبى عندما تعرض لتفسير ابن عربى فى الجزء الثانى من كتابه « التفسير والمفسرون » ..

ونحن اذا سلمنا بهذا القول ، وأن هذا التفسير من عمل القاشانى ، — وأنه قد نسبه لابن عربى ترويجا له بين الناس ، وتشهيراً له بشهرة المنسوب اليه — فلا نملك أبدا اغماض عيوننا عن موافقة ما جاء بهذا التفسير من آراء وأفكار تتفق مع المبادىء التى بثها ابن عربى فى مؤلفاته كلها كالفتوحات ، والفصوص .. وغيرها ..

* * *

● وينبرى الشعرانى للدفاع عن زعم ابن عربى بايمان فرعون .. فيقول فى اليواقيت والجواهر : « ذكر فى الباب الثانى والستين من الفتوحات ، بأن فرعون من أهل النار الذين لا يخرجون منهـا أبد الآبدين .. والفتوحات من آخر مؤلفاته ، على أنه اذا ثبت ذلك فى وروده عنه ، فانه لم ينفرد وحده بهذا الرأى ، فقد ذهب بعض السلف الى قبول ايمانه — أى فرعون — لما حكى عنه الله أنه قال : ((**آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين**))(٤٢) وكان هـذا آخر عهده بالدنيا .. وقال أبو بكر الباقلانى : قبول ايمانه هو الأقوى

---

(٤١) تفسير المنار . ج ١ ص ١٨ (٤٢) يونس : ٩٠

من حيث الاستدلال ، ولم يرد لنا نص صريح أنه مات على كفره ، ودليل السلف والخلف على أنه آمن عند اليأس ، وايمان أهل اليأس لا يقبل »[٤٣] .

ويقول صاحب نفح الطيب في معرض الدفاع عن ابن عربى : « ان بعض العلماء ، تأول قول محيى الدين بايمان فرعون ، أن مراده بفرعون : النفس .. بدليل قوله :

قلبــى « قطبى » وقالبى أجفــانى
سرى « خضرى » ، وعينه عرفانى
روحى «هارون» ، وكليمى «موسى»
نفسى «فرعون» ، والهوى «هامانى»

ولهــذا يحملون كلامه على محمل الاشارات الصوفية التى يدق فهمها على كثير من العقول !!

● ويعللون ما يزعمه من لقائه بأرواح الأنبياء والأولياء السابقين ، بأن هذه حالة خاصة لبعض الذين اصطفاهم الله من عباده ، لأن الأرواح جنود مجندة . ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف .. وليس هناك تعارف أعظم من الاجتماع على معرفة الله ، فتلك هى الألفة التى تربط بين الأرواح العارفة برباط المعرفة المتين ، وليس ما يمنع لقاء هذه الأرواح التى لا يقف أمامها حجاب ، ولا يحول دون لقائها حس !!

● أما تعبيرات الشــوق والهيام التى كانت تفيض بها قصائده الغزلية .. فيقول أنصاره بأنه لم ينفرد وحده بهذه الرموز فى التعبير عن روحانياته .. ولكن كثير منهم لجأ الى ذلك لأن الكثير من نزعات الصوفية يخالف ظاهر الشريعة ، فلا يمكن الافصاح عنها خوفا من سلطان الفقهاء الذين كانوا يتبعون الصوفية بالنكير والتشهير "

بالاضافة الى أن اللغة العادية تقصر عن أداء كل ما عندهم من معان .. لأنها تقوم على الذوق أكثر مما تقوم على المنطق !!

---

(٤٣) اليواقيت والجواهر : للشعرانى : ص ٦٦

فليس أمام الصوفية من وسـيلة يمكن التعبير بها عن معانيهم وأذواقهم الا الرمز الذى لم يجر على قاعدة واحـدة سار عليهـا الصوفية .. وانما تختلف باختلاف الموضوعات التى يتناولونها !!

● وينسب المدافعـون عن التجليات والاشراقات ــ التى كان ابن عربى يزعم حدوثها له ــ بانها من الخوارق التى تظهر للأولياء .. وهى فى حقيقتها من اكرامات الله لهم .. يفيضها عليهم تقوية لعزائمهم، وحثاً لهم على الجهاد ، وتأنيسا لهم فى مضيهم نحو غايتهم ، وأن ما يحدث لهم من اشراق على بعض الأجسام المـادية انما هو أثر من آثار تجلى الجمال الالهى الذى يحيل الظلام نورا ، والحس معنى ، والمـادة روحا !!

وفى هذا يقول الشعرانى عنه : « انه من أكابر أهل العطايا الذين كشف لهم الحق عن جمال وجهه الباقى ، فتلألأت سـبحاته بالأنوار الساطعة الى يوم التلاق .. وحكم على من تعرض لتخطئته أو تكفيره بالجهل والحرمان ، وعدم الفهم وضعف الايمان »(٤٤) !!

ويقـول ابن العماد : « وقع له فى تضاعيف كتبه كلمات كثيرة أشكلت ظواهرها .. وكانت سـببا لاعراض كثيرين ممن لم يحسنوا الظن به ، ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة المحققين ، والعلماء العاملين ، والأئمة الوارثين : ان ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد ، وانما أمور اصطلح عليها متأخرو أهل الطريق غيرة عليها حتى لا يدعيها الكذابون ، فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الألفاظ الموهمة خلاف المراد ، غير مبالين بذلك لأنه لا يمكن التعبير عنها بغيرها » !!

هذا هو ابن عربى .. صاحب نظرية وحدة الوجود .. وهذه هى خلاصـة آراء أعدائه وأنصاره .. أوردناها حتى لا نتهم بالتحيز ضد الرجل ..

وفى الوقت الذى أعجب به أتباعه ومريدوه حتى لقبوه فيما بينهم

---

(٤٤) المرجع السابق ص ١٥

بالشيخ الأكبر ، والعارف بالله .. كان أعداؤه والناقمون عليه يرمونه بالكفر والزندقة .. وما ذلك الا لما كان يدين به من القول بوحدة الوجود ، ولما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة .. التى تحمل فى ظاهرها كل معانى الكفر والزندقة ..

ويقول السيوطى : « والقول الفصل فى ابن عربى ، اعتقاد ولايته ، وتحريم النظر فى كتبه ، فقد نقل عنه هو أنه قال : « نحن قوم يحرم النظر فى كتبنا » .. قال السيوطى : « وذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلحوا عليها ، وأرادوا بها معانى غير المعانى المتعارفة ، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر .. نص على ذلك الغزالى فى بعض كتبه وقال : انه شبيه بالمتشابه من القرآن والسنة ، من حمله على ظاهره كفر » !!

والسيوطى — رحمه الله — كان من أشد المتحمسين لابن عربى .. حتى لقد صنف كتابا فى الدفاع عنه أسماه « تنبيه الغبى ، على تنزيه ابن عربى » !!

* * *

الفصل الرابع

مذهب الصوفية فى التفسير الباطنى للقرآن

وكما لا نملك التسليم للصوفية فى ادعائهم بوحدة الوجود .. فاننا لا نستطيع أن نسلم بمذهبهم فى التفسير الباطنى للقرآن الكريم ..

والتفسير الباطنى — أو الاشارى — للقرآن الكريم .. ليس أمرا جـديدا فى ابراز معانيه .. بل هو أمر معروف من لدن نزوله على رسـول الله ﷺ ..

أشار اليه القرآن الكريم .. ونبه عليه الرسول ﷺ .. وعرفه الصحابة رضوان الله عليهم وقالوا به ..

أما اشارة القرآن اليه .. ففى قوله تعالى : « **فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا** »(١) .

وقوله : « **أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** »(٢) .

وقوله : « **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** »(٣) .

فهذه الآيات كلها .. تشير الى أن القرآن له ظهر وبطن ، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا ، ويحضهم على التدبر فى آيات القرآن الكريم .. لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام ، أو حضهم على فهم ظاهره .. لأن القوم عرب والقرآن لم يخرج عن لغتهم ، فهم يفهمون ظاهره ولا شك ..

وانما أراد بذلك .. أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ..

---

(١) النساء : ٧٨ (٢) النساء : ٨٢
(٣) محمد : ٢٤

وحضهم على أن يتدبروا فى آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده .. وذلك هو الباطن الذى جهلوه ولم يصلوا اليه بعقولهم ..

وأما تنبيه الرسول ﷺ .. فذلك فى الحديث الذى أخرجه الفريابى من رواية الحسن مرسلا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع » ..

وفى الحديث الذى أخرجه الديلمى .. من رواية عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه مرفوعا الى الرسول ﷺ أنه قال : « القرآن تحت العرش له ظهر وبطن ، يحاج العباد » ..

ففى هذين الحديثين ، تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن .. ولكن ما هو الظهر ، وما هو البطن ؟

اختلف العلماء فى بيان ذلك .. فقيل : ظاهرها — أى الآية — لفظها .. وباطنها تأويلها ..

وقال أبو عبيدة : ان القصص التى قصها الله تعالى على الأمم الماضية ، وما عاقبهم به ، ظاهرها : الاخبار بهلاك الأولين ، وحديث حدث به عن قوم .. وباطنها : وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم فيحل بهم مثل ما حل بهم ..

ولكن هذا خاص بالقصص .. والحديث يعم كل آية من آيات القرآن الكريم ..

وحكى ابن النقيب قولا ثالثا : وهو أن ظهرها : ما ظهر من معانيها لأهل العلم .. وباطنها : ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أهل الحقائق ..

وأما الروايات التى تدل على أنهم فسروا القرآن تفسيراً اشارياً .. فما رواه البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر .. فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ .. فقال عمر : انه من حيث علمتم .. فدعانى فى ذات يوم فأدخلنى معهم .. فما رأيت أنه دعانى يومئذ الا ليريهم ..

قال : ما تقولون فى قوله تعالى : « **اذا جاء نصر الله والفتح** » ؟(٤) ..
فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره اذا نصرنا ونتح علينا ..
وسكت بعضهم فلم يقل شيئا .. فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ ..
فقلت : لا .. قال : فما تقول ؟ .. قلت : هو أجل رسـول الله ﷺ
أعلمه له فقال : « **اذا جاء نصر الله والفتح** » ، وذلك علامة أجلك ،
« **فسبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا** » . فقال عمر : ما أعلم
منها الا ما تقول »(٥) ..

فبعض الصحابة .. لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر ..
أما ابن عباس وعمر — رضى الله عنهما — فقد فهما معنى آخر وراء
الظاهر .. هو المعنى الباطن الذى تدل عليه السورة بطريق الاشارة ..

ولمـا نزل قوله تعالى : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** »(٦) فرح الصحابة وبكى عمر رضى
الله عنه وقال : ما بعد الكمال الا النقص .. مستشعرا نعيه ﷺ ..
فقد أخرج ابن أبى شيبة .. أن عمر رضى الله عنه لمـا نزلت
الآية بكى .. فقال النبى ﷺ : « ما يبكيك » !! قال : أبكانى أنا كنا فى
زيادة من ديننا .. فأما اذ كمل ، فانه لم يكمل شىء قط الا نقص ..
فقال عليه الصلاة والسلام : « صدقت »(٧) .

فعمر رضى الله عنه .. أدرك المعنى الاشارى ، وهو نعى الرسول
ﷺ .. وأقره النبى على فهمه هذا .. وأما باقى الصحابة ، فقد فرحوا
بنزول الآية لأنهم لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهر لها ..

ويقول فضيلة الشيخ الذهبى — رحمه الله : « غير أن هذه المعانى
المتكاثرة التى يشتمل عليها باطن القرآن .. لم تكن فى متناول المفسرين
جميعا .. كما أنهم لم يكونوا متساوين فى القدر الذى أدركوه منها ..
بل تفاوتوا فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت فى الأخذ بالأسباب .

---

(٤) النصر : ١ — (٥) رواه البخارى .
(٦) المـائدة : ٣ — (٧) تفسير الآلوسى ج ٦ ص ٦٠ .

« كما أنهم لم يكونوا جميعا مصيبين فيما وصلوا اليه منه وأدركوه .. بل أصابوا فى بعض منها وأخطأوا فى البعض الآخر .. وما أخطأوا فيه .. بعضه عن جهل ، وبعضه عن تعمد خبيث ونية سيئة ..

« فالامامية .. مع قولهم بالظاهر على ما به .. قالوا بالباطن أيضا ، ولكنهم .. تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق وعقيدتهم الفاسدة ..

« والباطنية .. لم يعترفوا بظاهر القرآن ، واعترفوا بالباطن فقط .. ولكنهم أيضا تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق ونواياهم السيئة ..

« أما الصوفية — أهل الحقيقة وأصحاب الاشارة — فقد اعترفوا بظاهر القرآن ولم يجحدوه .. كما اعترفوا بباطنه ، ولكنهم حين فسروا المعانى الباطنة خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .. فبينما تجد لهم أفهاما مقبولة سائغة .. تجد لهم بجوارها أفهاما لا يمكن أن يقبلها العقل .. أو يرضى بها الشرح »[8] .

* * *

وينقسم التصوف — كما يرى الدكتور محمد حسين الذهبى[9] — الى قسمين أساسيين : تصوف نظرى ، وتصوف عملى ..

فالتصوف النظرى هو الذى يقوم على البحث والدراسة .. أما التصوف العملى ، فهو الذى يقوم على التقشف والزهد والتفانى فى الطاعة حسب مفهومهم فى الطاعة ..

وقد كان لكل من القسمين أثره فى تفسير القرآن الكريم .. مما جعل التفسير الصوفى ينقسم أيضا الى قسمين : تفسير صوفى نظرى .. وتفسير صوفى فيضى ، أو اشارى ..

---

(٨) التفسير والمفسرون ، للشيخ محمد حسين الذهبى ، نشر مكتبة وهبة ، ١٩٨٥ ، ج ١ ص ٣٥٢ وما بعدها ..

(٩) المرجع السابق ، ص ٣٢٩

وقد جنى التصوف النظرى على المباحث النظرية والتعاليم الفلسفية التى يعتنقها أولئك المتصوفون .. ولما تعذر على المفسرين منهم أن يجدوا فى القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمهم أو يتماشى مع النظريات التى يقولون بها — اذ القرآن قد أنزله الله تعالى بلسان عربى مبين لهداية الناس لا لاثبات نظرية من النظريات ربما تكون مستحدثة أو بعيدة عن روح الدين وبداهة العقل — لذا حاول أولئك المفسرون حرصا منهم على اثبات تعاليمهم ونظرياتهم .. أن يجدوا فى القرآن ما يشهد لهم أو يستندوا اليه ..

لهذا نراهم يتعسفون فى فهمهم للآيات القرآنية ، ويشرحونها شرحا يخرج بها عن ظاهرها الذى يؤيده الشرع ، وتشهد له اللغة ..

ويعتبر محيى الدين بن عربى — كما مر بنا — شيخ هذه الطريقة .. وقد رأينا كيف تأثر تفسيره بنظرياته الفلسفية لاثبات وحدة الوجود .. كما أنه يقيس الغائب على الشاهد بمقاييس خيالية منتزعة من المشاهد المحسوسة .. كما يحاول اخضاع قواعد النحو لنظرياته الصوفية .. ولكنه الخضوع الذى يكيفه على حسب ما يرضى روحه ويوافق ذوقه ..

أما التفسير الصوفى الفيضى — أو الاشارى — فهو الذى يؤول آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها ، بمقتضى الاشارات الخفية التى تظهر لأرباب السلوك .. ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ..

وعلى هذا .. فالتفسير الفيضى — أو الاشارى — يفترق عن التفسير النظرى من وجهين :

فالنظرى .. يجرى على مقدمات علمية يعتقدها الصوفى ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك ..

أما الفيضى .. فانه لا يرتكز على مقدمات علمية .. بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفى نفسه .. حتى يصل الى درجة تتكشف له فيها — حسب زعمه — الاشارات القدسية ، ويصل الى المعارف الربانية عن طريق خواطره والهامه القلبى ..

كما أن صاحب التفسير النظرى •• يرى أنه كل ما تحتمله الآية من معان ، وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل الآية عليه بحسب طاقته : فى حين أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولا وقبل كل شىء •• وهو المعنى الظاهر الذى ينساق اليه الذهن قبل غيره ••

وما كان للمسلم الحق أن يقبل التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود بأى حال •• ومهما كان قائله !!

كذلك ليس له الحق أن يقبل التفسير الذى أسس على نظريات الفلاسفة الذين بحثوا فى الطبيعة وما وراء الطبيعة — والذى جرى عليه ابن عربى وغيره من المتصوفة فى تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم — على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذى جاء القرآن من أجله ••

كما أن التفسير الذى يبنى على قياس الغائب على الشاهد ، كتفسير ابن عربى لحقيقة الميزان الذى توزن به الأعمال يوم القيامة •• ليس تفسيرا مقبولا لدى المسلم الحق ، لأنه ضرب من التخمين ، والتخمين لا يجوز أن يدخل فى فهم الأشياء التى لا يتوصل الى حقيقتها الا من طريق السمع عن المعصوم ﷺ ••

يفسر ابن عربى الميزان الذى توزن به الأعمال يوم القيامة فيقول : « ان الله تعالى خلق الانسان على صورة الميزان . وجعل كفتيه يمينه وشماله ، وجعل لسانه قائمة ذاته ، فهو لأى جانب مال •• وقرن الله السعادة باليمين ، وقرن الشقاء بالشمال •• وجعل الميزان الذى يوزن بالأعمال على شكل القبان •• ولهذا وصف بالثقل والخفة ليجمع بين الميزان العددى وهو قوله تعالى : « **بحسبان** » ، وبين ما يوزن بالرطل •• وذلك لا يكون الا فى القبان •• فلذلك لم يعين الكفتين ••• » الخ !!

كما لا يقبل المسلم الحق قول ابن عربى أن : « الشمس والقمر والنجم والشجر يسجدون لهذا الميزان — أى من أجل هذا الميزان •• فمنه ذو ســاق وهو الشــجر •• ومنه ما لا ساق له وهو النجم —

فاختلفت السجدتان .. « **والسماء رفعها** » وهى قبة الميزان « **ووضع الميزان** » ليزن به الثقلان « **ألا تطغوا فى الميزان** » بالافراط والتفريط من أجـل الخسران ، « **وأقيموا الوزن بالقسط** » مثل اعتدال نشـأة الانسان .. اذ الانسان لسان الميزان ، « **ولا تخسروا الميزان** »(١٠) ، أى لا تفرطوا بترجيح احدى الكفتين الا بالفضل ... » الخ !!

يرفض المسلم الحق هـذا التفسير لأنه ضرب من التخمين .. فالآيات قد ساقها تعالى فى معرض التدليل على نعمه تعالى التى أنعم بها على الناس .. ومعناها : أن الله الرحمن قد علمنا القرآن برحمته ، فأنعم بذلك علينا .. اذ بصرنا به الى ما فيه رضاه تعالى ، وعرفنا ما فيه سخطه .. لنطيعه فنستوجب جزيل ثوابه ، وننجو من أليم عقابه .. ثم امتن تعالى علينا بأنه خلق آدم والناس ، وعلم الانسان ما به الحاجة اليه فى أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام ، والمعايش والمنطق .. ثم لفتنا الى آياته ، فالشمس والقمر يجريان بحساب ومنازل ، وما نجم من الأرض من نبات مما ينبسط عليها كالبقل ولم يكن له ساق ، وما قام على ساق من النبات يسجدان لله تعالى .. وكل هذه الأشياء المختلفة الهيئات تسجد له .. لقد رفع الله السماء فوق الأرض ، ووضع العدل بين خلقه فى الأرض .. فلهذا يأمرهم ألا يظلموا ويبخسوا فى الوزن ، وأن يقيموا لسان الميزان بالعدل ، ولا ينقصوا الوزن اذا وزنوا للناس فيظلموهم ..

هـذا — والله أعلم — هو تفسير هذه الآيات ولا صلة لهـا بالميزان الذى توزن به أعمال الناس يوم القيامة .. ولهذا يرفض المسلم الحق ذلك التأويل المبنى على التخمين فى أمور لا يتوصل الى حقيقتها الا عن السنة الصحيحة التى جاء بها الرسول ﷺ ..

كما لا يقبل المسلم الحق التفسير المبنى على القواعد النحوية أو البلاغية .. الا اذا ساعده القياس والسياق .. فاذا خالفهما وجب الاعراض عنه والأخذ بما يصححه النظر ويقويه الدليل ..

---

(١٠) الرحمن : ٥ — ٩

ان خير ما يقال فى معنى الظاهر والباطن •• أن ظاهر القرآن — وهو المنزل بلسان عربى مبين — : هو المفهوم العربى المجرد •• وباطنه : هـو مراد الله تعـالى وغرضه الذى يقصد اليـه من وراء الألفاظ والتراكيب ••

ولا يشترط فى فهم ظاهر القرآن زيادة على الجريان على اللسان العربى •• كما أن كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربى فليس من تفسير القرآن فى شىء •• لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به •• ومن ادعى فيه غير ذلك فهو مبطل فى دعواه ••

أما المعنى الباطن •• فلا يكفى فيه الجريان على اللسان العربى وحده •• بل لابد منه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى فى قلب الانسان يصير به نافذ البصيرة ، سليم التفكير ••

فالتفسير الباطن •• ليس أمرا خارجا عن مدلول اللفظ القرآنى •• ولهذا يشترط فيه أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب ، بحيث يجرى على المقاصد العربية •• وأن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض ••

فاذا توافر هذان الشرطان فى معنى من المعانى الباطنة قبل ، لأنه معنى باطنى صحيح •• والا رفض رفضا باتا •• لأنه معنى باطنى فاسد ، وتقول على الله تعالى بالهوى والتشهى ••

فاذا ما ذهبنا نستعرض — على ضوء هذه المقدمات — أقوال القوم فى معانى القرآن الباطنة ، فاننا نجد الكثير منها يمكن أن يكون من قبيل الباطن الصحيح •• كما أن الكثير منهـا أيضا من قبيل الباطن الفاسد المرفوض ••

وقبل أن نتعرض لأقوال الصوفية فى معانى القرآن الباطنة •• نحب أن نسوق بين يدى الموضوع أهم كتب التفسير الصوفى الباطنى •• حتى يكون القارىء على علم بكتب التفسير التى تعرض له ••

* * *

● **أهم كتب التفسير الصوفى الفيضى (الباطن) :**

نقول وبالله التوفيق •• ان من علماء الصوفية من وجه همته الى التفسير الظاهر ، ولم يتعرض للتفسير الفيضى كالبيضاوى والزمخشرى مثلا ••

ومنهم من جعل غالب همه فى التفسير الظاهر ، وتعرض للتفسير الفيضى بقدر •• كما فعل النيسابورى والآلوسى ••

ومنهم من غلبت عليه ناحية التفسير الفيضى •• ومع ذلك فهو يتعرض أحيانا للتفسير الظاهر •• كما فعل التسترى ••

ومنهم من وجه همته كلها للتفسير الفيضى ، ولم يحم حول المعانى الظاهرة •• كما فعل أبو عبد الرحمن السلمى ••

وأخيرا •• منهم من أعرض عن الظاهر وجمع فى تفسيره بين التفسير الصوفى النظرى ، والتفسير الصوفى الاشارى •• كما فعل محيى الدين بن عربى ••

ومن أهم كتب التفســير الفيضى : « تفســير القران العظيم » للتسترى (ت ٢٧٣ هـ) ، و « حقائق التفسير » للسلمى (ت ٤١٢ هـ) ، و « عرائس البيــان فى حقائق القرآن » لأبى محمــد الشــيرازى (ت ٦٦٦ هـ) ، و « التأويلات النجمية » لنجم الدين داية (ت ٦٥٤ هـ) ، وعلاء الدولة السمنانى (ت ٧٣٦ هـ) ، والتفسير المنسوب لابن عربى (ت ٦٣٨ هـ) — ويرى البعض أنه من عمل عبد الرزاق القاشانى (ت ٧٣٠ هـ) ونسبه لابن عربى ترويجا له بين الناس ••

وقد جمع تفسير ابن عربى بين التفسير الصوفى النظرى . وبين التفسير الصوفى الفيضى •• ولم يتعرض للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الأحــوال •• وأغلب ما فيه من التفسير النظرى يقوم على مذهب وحدة الوجود ••

أما ما فيه من التفسير الفيضى فكثير منه لا يفهم له معنى •• وليس له فى سياق الآية أو لفظها ما يدل عليه ••

* * *

● **نماذج من التفسير الصوفى الفيضى للقرآن الكريم :**

تبدأ كل سورة من سور القرآن الكريم بـ : « **بسم الله الرحمن الرحيم** » ••

وقبل أن يشرع المسلمون فى أى عمل من أعمالهم •• يبدأون بالبسملة ، امتثالا للحديث الشريف : « كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر » — أو « أقطع » ••

والغرض من قراءة البسملة •• اعلان من العبد بأنه يبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شىء •• مستعينا به جل وعلا فى جميع أموره ، طالبا العون منه •• فانه وحده الاله المعبود ، ذو الفضل والجود ••

وتسميته تعالى « **الرحمن** » لعموم رحمته جميع خلقه ، وتسميته « **الرحيم** » لخصوص رحمته المؤمنين •• يقول تعالى : « **وكان بالمؤمنين رحيما** »(١١) ••

فالله جل ثناؤه « رحمن » جميع خلقه •• و « رحيم » المؤمنين خاصة فى الدنيا والآخرة ••

وفى ذلك يقول الامام الطبرى : « ان الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه •• أدب نبيه محمداً ﷺ بتعليمه اياه تقديم أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله •• وجعل ذلك سنة لجميع خلقه يستنون بها ، وسبيلا يتبعونه عليها » ••

فقول القائل : « **بسم الله الرحمن الرحيم** » اذا افتتح سورة •• ينبىء عن أن مراده بذلك : أقرأ باسم الله •• وكذلك عند القيام والقعود اذا قال : باسم الله ، فان معناه أقوم باسم الله ، وأقعد باسم الله ، وكذلك سائر الأفعال ••

ولكن « سهل التسترى » يفسر البسملة بقوله :

« الباء » : بهاء الله عز وجل ، و « السين » : سناء الله عز وجل ، و « الميم » مجد الله عز وجل ••

---

(١١) الأحزاب : ٤٣

و « الله » : هو الاسم الأعظم الذى حوى الأسماء كلها ..
وبين الألف واللام حرف مكنى غيب من غيب الى غيب ، وسر من سر الى سر ، وحقيقة من حقيقة الى حقيقة ، لاينال فهمه الا الطاهر من الأدناس ، الآخذ من الحلال قواما ضرورة الايمان ..

و « الرحمن » : اسم فيه خاصية من الحرف المكنى بين الألف واللام ..

و « الرحيم » : هو العاطف على عباده بالرزق فى الفرع ، والابتداء فى الأصل ، رحمة لسابق علمه القديم »!!

[تفسير القرآن العظيم للتسترى ، ص ٩ ، ١٠]

● ويقول بعض المفسرين فى قوله تعالى : « ألم » فى أول سورة البقرة : ان لكل كتاب سر ، وسر القرآن فواتحه ..

ويقول بعضهم : هى أسماء للسور ..

ويقول آخرون ان معناها : أنا الله أعلم ..

ويقول غيرهم : ابتدىء بهذه الحروف المقطعة أوائل السور .. ليفتح لاستماع القرآن آذان المشركين .. لأنهم تواصوا بالاعراض عن سماعه ..

ويرى الطبرى : أن تأويل مفاتح السور التى هى حروف مقطعة .. أن الله تعالى أراد بكل حرف منه الدلالة على معان كثيرة شامل جميعها من أسمائه عز وجل وصفاته ما قاله المفسرون ..

والراجح فى رأينا — والله أعلم — أن هذه الحروف المقطعة .. انما هى للتنبيه على اعجاز القرآن الكريم .. وهو قول المحققين من أئمة علماء التفسير ..

فماذا يقول « التسترى » فى تفسير هذه الحروف ؟

يقول : « ألم » : اسم الله عز وجل ، وفيه معان وصفات يعرفها أهل الفهم به .. غير أن لأهل الظاهر فيه معان كثيرة ..

« فأما هذه الحروف اذا انفردت .. فـ « الألف » : تأليف الله عز وجل .. ألف الأشياء كما شاء ..

و « اللام » : لطفه القديم ..
و « الميم » مجده العظيم » ..

ثم يقول : « لكل كتاب أنزله الله تعالى سر .. وسر القرآن فواتح السور ، لأنها أسماء وصفات مثل قوله : « المص » ، و « الر » ، و « المر » ، و « كهيعص » ، و « طسم » ، و « حمعسق » ، فاذا جمعت هذه الحروف بعضها على بعض .. كانت اسم الله الأعظم ، أى اذا أخـذ من كل سورة حرف على الولاء — أى على ما أنزلت السورة وما بعـدها على النسـق « الر » و « حم » و « ن » — معناه : « الرحمن » .

« وقال ابن عباس : « ألم » معناه : أنا الله أعلم ، وقال على رضى الله عنه : هـذه أسماء مقطعة .. اذا أخذ من كل حرف حرفا لا يشبه صاحبه فجمعن .. كان اسم من أسماء الرحمن ، اذا عرفوه ودعوه به كان الاسم الأعظم ، الذى اذا دعى به أجاب » !!
[المرجع السابق ص ١١ ، ١٢]

● ويقول تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام : « **الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . واذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يـوم الدين** »(١٢) .

أى : الذى خلقنى — وهـو رب العالمين — يهدينى للصواب ، ويسددنى للرشاد .. وهو الذى يغذونى بالطعام والشراب ، ويرزقنى الأرزاق المختلفة .. واذا سقم جسمى واعتل فهو يبرئه ويعافيه .. وهو تعالى الذى يميتنى اذا شاء ، ثم يحيينى اذا أراد بعد مماتى .. وهو تعالى الذى أرجو أن يستر لى خطئى يوم الحساب ..

ولكن التسترى يفسر هـذه الآيات بقوله : « **الذى خلقنى فهو يهدين** » : أى الذى خلقنى لعبوديته يهدينى الى قربه ..

---

(١٢) الشعراء : ٧٨ — ٨٢

« **والذى هو يطعمنى ويسقين** » : أى يطعمنى لذة الايمـان ، ويسقينى شراب التوكل والكفاية ..

« **واذا مرضت فهو يشفين** » : أى اذا تحركت بغيره لغيره عصمنى ، واذا ملت الى شهوة من الدنيا منعها عنى ..

« **والذى يميتنى ثم يحيين** » : أى الذى يميتنى ثم يحيينى بالذكر..

« **والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** » : أى أن ابراهيم عليه السلام قد أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء ، ولم يحكم عليه ــ تعالى ــ بالمغفرة » !! [نفس المرجع ص ١٠٦]

وهذا التفسير يغلب عليه ناحية التفسير الفيضى ، وان كان يتعرض أحيانا للتفسير الظاهر ..

* * *

● أما « السلمى » .. فيفسر قوله تعالى : « ألم » بأول البقرة بقوله : « قيل ان « الألف » : ألف الوحدانية ، و « اللام » : لام اللطف ، و « الميم » : ميم الملك .. معناه : من وحدنى على الحقيقة باسقاط العلائق والأغراض تلطفت له ، فأخرجته من رق العبودية الى الملأ الأعلى ، وهو الاتصال بمالك الملك دون الاشتغال بشىء من الملك ..

وقيل : « ألم » معنى « الألف » : أى أفرد سرك ، و « اللام » : لين جوارحك لعبادتى ، و « الميم » : أقم معى بمحو رسومك وصفاتك .. أزينك بصفات الأنس بى ، والمشاهدة اياى ، والقرب منى » !!

[حقائق التفسير ص ٩]

● ويقول تعالى : « **وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى** »(١٣) أى أنه تعالى بسط الأرض طولا وعرضا .. وجعل فيها جبالا ثابتة وأنهارا من ماء ..

ولكن « السلمى » يفسر هـذه الآية بقوله : « قال بعضهم : هو الذى بسط الأرض وجعل فيها أوتادا من أوليائه وسادة من عبيده ،

---

(١٣) الرعد : ٣

فاليهم الملجأ وبهم النجاة •• فمن ضرب فى الأرض بقصدهم فاز ونجا •• ومن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر » ••

ثم يقول : « سمعت على بن سعيد يقول : سمعت أبا محمد الحريرى يقول : كان فى جوار الجنيد انسان مصاب فى خربة •• فلما مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة ، فلما رجعنا تقدم خطوات وعلا موضعا من الأرض عاليا ، فاستقبلنى بوجهه وقال : يا أبا محمد ، انى راجع الى تلك الخربة ، وقد فقدت ذلك السيد •• ثم أنشد شعرا :

وما أسفى من فراق قوم ... هم المصابيح ، والحصون
والمدن ، والمزن ، والرواسى ... والخير ، والأمن ، والسكون
لم تتغير لنا الليالى ... حتى توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب ... وكل ماء لنا عيون !!

[المرجع السابق ، ص ١٣٨]

● ويقول تعالى : « **فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام** »(١٤) •

أى أن فى الأرض الفاكهة الكثيرة •• وفيها النخل ذوات الليف المتكممة به ، وذوات الطلع النضيد •

فماذا يقول السلمى فى تفسير هذه الآية ؟

يقول : « قال جعفر : جعل الحق تعالى فى قلوب أوليائه رياض أنسه ، فغرس فيها أشجار المعرفة ، أصولها ثابتة فى أسرارهم ، وفروعها قائمة بالحضرة فى المشهد ، فهم يجنون ثمار الأنس فى كل أوان ، وهو قوله تعالى : « **فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام** » : أى ذوات الألوان •• كل يجتنى منه لونا على قدر سعته وما كوشف له من بوادى المعرفة وآثار الولاية » !! [نفس المرجع ، ص ٣٤٤]

وهذا التفسير — كما رأيت — يتجه همته كلها الى التفسير الفيضى ، ولم يحم حول المعانى الظاهرة ••

❊ ❊ ❊

---

(١٤) الرحمن : ١١

● ويقول تعالى : « **ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج** »(١٥) .

أى : ليس على أهل العجز عن الجهاد ، ولا على المرضى ، ولا على من لا يجد نفقة للغزو اثم فى التخلف عن الجهاد ..

ولكن الشيرازى يقول فى تفسير الآية : « وصف الله زمرة أهل المراقبات ، ومجالس المحاضرات ، والهائمين فى المشاهدات ، والمستغرقين فى بحار الأزليات .. الذين أنحلوا جسومهم بالمجاهدات ، وأمرضوا نفوسهم بالرياضيات ، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر ، وجولانها فى الفكر .. وخرجوا بعقائدهم الصافية عن الدنيا الفانية بمشاهدة الباقية ، بأن رفع عنهم بفضله حرج الامتحان ، وأبقاهم فى مجالس الأنس ورياض الايقان .. وقال : « **ليس على الضعفاء** » يعنى : الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة ، « **ولا على المرضى** » : الذين أمرضهم مرارة الصبابات ، « **ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون** » : الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد وحقائق التفريد ، « **حرج** » : عتاب من جهة العبودية والمجاهدة .. لأنهم مقتولون بسيف المحبة ، مطروحون بباب الوصلة ، ضعفهم من الشوق ، ومرضهم من الحب ، وفقرهم من حسن الرضا » !! [عرائس البيان جـ ١ ، ص ٣٢٩]

● ويقول تعالى « **والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** »(١٦) .

أى : أن من نعم الله تعالى عليكم أن جعل لكم من الأشجار ظلالا تستظلون بها من شدة الحر ، وجعل لكم من الجبال مواضع تستكنون فيها كالكهوف ، وجعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف .. تحفظكم من الحر والبرد ، كما جعل لكم دروعا تقيكم فى الحرب .. فالله تعالى كما أنعم عليكم بهذه الأشياء ، فانه يتم نعمته عليكم لكى تخضعوا له بالطاعة ، وتخلصوا له العبادة ..

---

(١٥) التوبة : ٩١ (١٦) النحل : ٨١

يفسر الشيرازى هذه الآية بقوله : « يعنى : ظلال أوليائه ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران ، ويأوون اليها من قهر الطغيان ، وشياطين الانس والجان •• لأنهم ظلال الله فى أرضه ، لقوله عليه السلام : « السلطان ظل الله فى أرضه ، يأوى اليه كل مظلوم » ••

« **وجعل لكم من الجبال أكنانا** » ، أكنان الجبال : قلوب أكابر المعرفة وظلال أهل السعادة من أهل المحبة ، يسكن فيها المنقطعون الى الله ••

« **وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر** » : جعل للعارفين سرابيل روح الأنس لئلا يحترقوا بنيران القدس ••

« **وسرابيل تقيكم بأسكم** » : سرابيل المعرفة وأسلحة المحبة لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين •• ثم زاد نعمته ومنته عليهم بقوله : « **كذلك يتم نعمته عليكم** » •

[المرجع السابق ، ص ٥٣٤ ، ٥٣٥]

ويقول تعالى عن سليمان عليه السلام : « **وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين • لأعذبنه عذاباً شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين** »(١٧) •

أى أن سليمان عليه السلام تفقد أنواع الطير •• فلم ير الهدهد بينها •• فقال : ما الذى جعلنى لا أرى الهدهد ؟ •• أأخطأه بصرى فلا أراه قد حضر ، أم هو غائب لم يحضر ؟

فلما أخبر — عليه السلام — بأنه غائب •• أقسم ليعذبن الهدهد عذابا شديدا ، أو ليقتلنه ، ان لم يأته بحجة واضحة تبين لسامعها صحتها ••

ولكن الشيرازى يقول : « ان طير الحقيقة لسليمان طير قلبه •• فتفقده ساعة وكان قلبه غائبا فى غيب الحق ، مشغولا بالمذكور عن الذكر ، فتفقده وما وجده ، فتعجب من شأنه •• أين قلبه ان لم يكن معه ؟ •• فظن أنه غائب عن الحق • وكان فى الحق غائبا •• وهذا شأن غيبة

---

(١٧) النمل : ٢٠ ، ٢١

أهل الحضور من العارفين .. ساعات لا يعرفون أين هم ، وهذا من كل استغراقهم فى الله ، فقال : « **لأعذبنه عذاباً شـديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين** » : لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية ، وألقينه فى بحر الفكرة من المعـرفة ، ليفنى ثم يفنى عن الفناء .. أو لأذبحنه بسيف المحبـة أو بسيف العشق .. أو ليأتينى من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل » !! [نفس المرجع جـ ٢ ، ص ٨١٣]

وهذا مثل سابقه .. يوجه همته كلها الى التفسير الفيضى .

* * *

● ويقول الله تعالى عن طالوت وجنوده : « **فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده** »(*) ..

أى : فلما رحل طالوت بالجنود من بيت المقدس — وهم ثمانون ألف مقاتل — شكوا اليه العطش .. فأخبرهم بأن الله سوف يختبرهم بنهر يردون عليه .. فمن شرب من مائه فليس من أهل ولايته وطاعته .. ومن لم يذق ماء ذلك النهر فانه من أهل ولايته وطاعته .. الا من شرب غرفة اغترفها بيده فانه منه ..

هذه الآية الواضحة .. يفسرها نجم الدين داية بقوله : « الاشارة فيها : أن الله تعالى ابتلى الخلق بنهر الدنيا وماء زينتها وما زين للخلق فيها لقوله تعـالى : « **زين للناس حب الشهوات من النسـاء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب** »(١٨) .. ليظهر المحسن من المسىء ، وليميز الخبيث من الطيب والمقبول من المردود ..

وكما قال تعـالى : « **انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** »(١٩) .

ثم امتحنهم .. فقال تعالى : « **فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى** » : يعنى من أوليائى ومحبى وطلابى . وله اختصاص

(*) البقرة : ٢٤٩
(١٨) آل عمران : ١٤
(١٩) الكهف : ٧

لقربى وقبولى ، والتخلق بأخلاقى ونيل الكرامة منى •• وكان النبى ﷺ يقول : « أنا من الله ، والمؤمنون منى » ••

« **الا من اغترف غرفة بيده** » : يعنى من قنع من متاع الدنيا على ما لا بد منه من المأكول ، والمشروب ، والملبوس ، والمسكن ، وصحبة الخلق • على حد الاضطرار بمقدار القوام •• كما كان النبى ﷺ وأصحابه •• وكان يقول : « اللهم ارزق آل محمد قوتا » : أى ما يمسك رمقهم » !! [التأويلات النجمية جـ ١]

● ويقول تعالى عن سليمان عليه السلام : « **وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون • حتى اذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** »(٢٠) •

أى : وجمع لسليمان جنوده من جميع الأجناس فى مسير لهم ، فهم يكفون لئلا يتقدموا فى المسير •• حتى اذا أتى سليمان وجنوده على واد للنمل قالت نملة : يا أيها النمل التجئوا الى بيوتكم حتى لا يقتلكم سليمان وجنوده وهم لا يعلمون بكم ••

يفسر نجم الدين هذه الآية بقوله : « **وحشر لسليمان جنوده من الجن** » : أى صفته الشيطانية ، « **والانس** » : أى صفته النفسانية ، « **والطير** » : أى صفته الملكية ، « **فهم يوزعون** » : عن طبيعتهم بالشريعة ليسخروا لسليمان القلب وينقادوا له ••

« **حتى اذا أتوا على وادى النمل** » : وهو هوى النفس الحريصة على الدنيا وشهواتها • « **قالت نملة** » : وهى النفس اللوامة ، « **يا أيها النمل** » : أى الصفات الانسانية ، « **ادخلوا مساكنكم** » : محالكم المختلفة وهى الحواس الخمس ، « **لا يحطمنكم** » : لا يهلككم ، « **سليمان** » : القلب ، « **وجنوده** » : المسخرة له ، « **وهم لا يشعرون** » : لأنهم الحق وأنتم الباطل •• فاذا جاء الحق زهق الباطل ، كما أن

---

(٢٠) النمل : ١٧ ، ١٨

الشمس اذا طلعت تبطل الظلمة وتنفيها •• وهى لا تشعر بحال الظلمة وما أصابها » !! [المرجع السابق جـ ٤]

● ويقول تعالى فى شأن قتال المشركين : « **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين** »(٢١) •

أى : ابدأوا بقتال الكفار •• الأقرب فالأقرب اليكم دارا ، دون الأبعد فالأبعد •• وليجد هؤلاء الكفار منكم شدة عليهم ، وأيقنوا أن الله معكم وناصركم ان اتقيتم ربكم بأداء فرائضه واجتناب نواهيه ••

ويفسر نجم الدين هذه الآية بقوله : « **يا أيها الذين آمنوا** » : أى صدقوا محمداً ﷺ فيما دلهم الى الله باذنه ••

« **قاتلوا الذين يلونكم من الكفـــار** » : أى جاهدوا كفار النفس وصفاتها بمخالفة صفاتها وتبديلها ، وحملها على طاعة الله والمجاهدة فى سبيله فانها تحجبك عن الله ••

« **وليجدوا فيكم غلظة** » : أى عزيمة صـــادقة فى فنائها بترك شـــهواتها ولذاتها ومستحسناتها ، ومنازعتها فى هواها وحملها على المتابعة فى طلب الحق ••

« **واعلموا أن الله مع المتقين** » : بجذبة الوصول ليتقوا به عما سواه ، كما يتقى المرء بترسه عن النشاب والرمح والسيف » !! [نفس المرجع جـ ٢]

● ويقول تعالى ممثلا للثبات بامرأة فرعون : « **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين** »(٢٢) •

ومعناها — والله أعلم — أن الله تعالى يمثل مثلا للذين صدقوا الله : امرأة فرعون التى آمنت بالله وصدقت رسوله موسى عليه السلام •• وكانت تحت عدو من أعداء الله كافر — وهو فرعون — فلم يضرها كفر زوجها اذ كانت مؤمنة بالله تعالى •• لهذا حين دعت الله بقولها :

---

(٢١) التوبة : ١٢٣ (٢٢) التحريم : ١١

رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ؛ وانقذنى من عذاب فرعون ، واجنبنى أن أعمل عمله ناكفر بالله ، ونجنى من عمل القوم الكافرين ومن عذابهم .. عندما دعت الله تعالى بهذا الدعاء ، مؤمنة به ؛ ومخلصة فى دعائها .. استجاب لها تعالى بأن أنقذها من عذاب فرعون ، وعصمها من الوقوع فى الكفر .. ولذا يبشرها تعالى بأنه قد بنى لها بيتا فى الجنة جزاء لايمانها واستجابة لدعائها ..

ولكن « السمنانى » يفسر هذه الآية بقوله : « **وضرب الله مثلا للذين آمنوا** » : يعنى القوى المؤمنة من قوى النفس اللوامة ..

« **امرأة فرعون** »: يعنى القوة الصالحة القابلة تحت القوة الفاسدة الفاعلة المستكبرة .. ما ضرها كفر القوة الفاعلة الفاسدة اذا كانت صالحة هى بنفسها .

« **اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين** » : يعنى اذ قالت اللطيفة الصالحة القابلة فى مناجاتها مع ربها : ابن لى بيتا فى أخص أطوار القلب .. وقالت أيضا فى مناجاتها : نجنى من هذه القوة الفاسدة والفاعلة عملها .. ونجنى من أنوائها وقواها الظالمة » !! [التأويلات النجمية ج ٥]

● ويقول تعالى فى شأن « ثمود » قوم « صالح » عليه السلام :
« **كذبت ثمود بطغواها . اذ انبعث أشقاها** » .. الى آخر السورة(٢٣) ..

أى أن أولئك القوم .. كذبوا بالعذاب الذى توعدهم به نبيهم .. فكان ذلك العذاب طاغيا عليهم .. حدث ذلك حين ثار أشقى ثمود « قدار بن سالف » ، وكان عزيزا شريفا فيهم .. فقال لهم صالح عليه السلام : احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ، وراعوا يوم شربها .. ولكنهم كذبوا صالحا فى خبره بما يحل من نقمته تعالى بهم ان عقروها .. فقتلوا الناقة عن رضا جميعهم .. فدمر الله عليهم بكفرهم وتكذيبهم لنبيه عليه السلام ، وعقرهم للناقة .. فسوى الدمدمة عليهم فلم يفلت منهم أحد .. والله تعالى .. لا يخاف عاقبة اهلاكهم وتدميرهم ،

---

(٢٣) الشمس : ١١ — ١٥

كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون .. لأنه تعالى لا سلطان لأحد عليـــه ..

يفسر « السمنانى » هذه الآيات بقوله : « **كذبت ثمود بطغواها . اذ انبعث أشقاها** » : يعنى اذ انبعثت اللطيفة وأسرعت الى الطاغية ، انبعث أشقى قوى النفس على اثر اللطيفة الصالحة ، ليعقر ناقة شوقها .

« **فقال لهم رسول الله** »: أى اللطيفة ..

« **ناقة الله وسقياها** » : أى احذروا عقر ناقة الشـــوق وشرابها من عين الذكر ..

« **فكذبوه فعقروها** » : بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية ، وعقروا ناقة الشـــوق ..

« **فدمدم عليهم ربهم بذنبهم** » : أى أهلكهم الله .

« **فسواها** » : أى عمهم بذلك العذاب .

« **ولا يخاف عقباها** » : ولا يخاف القوى العاقرة فى عقر ناقة الشوق عاقبة الأمر .. فأهلكهم بطغيانهم لرسوله وتكذيبهم اياه » !!

[المرجع السابق جـ ٥]

● ويقول « السمنانى » : « ان لكل آية سبعة أبطن .. كل بطن يخالف الآخر .. فالمعنى الذى يجرى على هذا البطن يغاير المعنى الذى يجرى على البطن الآخر » !!

ويوضح هـــذه البطون السبعة فيقول : « فبطن مخصوص باللطيفة القالبية ، وبطن مخصوص باللطيفة النفسية ، وبطن مخصوص باللطيفة القلبية ، وبطن مخصوص باللطيفة السرية ، وبطن مخصوص باللطيفة الروحية ، وبطن مخصوص باللطيفة الخفية ، وبطن مخصوص باللطيفة الحقية » !!

ولم يقف « السمنانى » عند هذا الحد .. بل تعداه الى القول بأن لكل آية سبعين بطنا .. بل سبعمائة !!

وهـــذا التفسير أيضا لم يحم حول المعانى الظاهرة .. انما وجه همته كلها للتفسير الفيضى ..

* * *

أما محيى الدين بن عربى .. فانه يجمع فى تفسيره بين التفسير الصوفى النظرى ، والتفسير الصوفى الفيضى .. ولم يتعرض فيه للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الأحوال .. كما بنى أغلب ما فيه من التفسير النظرى على مذهبه فى وحدة الوجود ..

ونلاحظ أن الكثير من التفسير الفيضى لابن عربى لا يفهم له معنى ، بل انه لا يوجد فى سياق الآية أو لفظها ما يدل عليه ، كما قدمنا ..

يقول الله تعالى .. حاكيا عن ابراهيم عليه السلام : **« واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار ، وبئس المصير »**(٢٤) .

أى ان ابراهيم عليه السلام دعا ربه فقال : يارب ، اجعل هذا البلد بلدا آمنا من الجبابرة أن يسلطوا عليه ، ومن عقوبتك أن تناله .. وارزق يارب من الثمرات سكان مكة المؤمن منهم دون الكافر .. فقال له تعالى : ومن كفر فانى أرزقه أيضا .. لأنى أرزق البر والفاجر ، فأمتعه قليلا برزقى من الثمرات فى الدنيا الى أن يأتيه أجله .. ثم أدفعه وأسوقه الى عذاب جهنم سحبا وجرا على وجهه .. فبئس ذلك الموضع الذى يصير اليه فى جهنم بعد ذلك النعيم الذى متعته به فى الدنيا ..

هـذه الآية الواضحة .. يفسرها ابن عربى بقوله : **« واذ قال ابراهيم رب اجعل »** هذا الصدر الذى هو حرم القلب **« بلداً آمناً »** من استيلاء صفات النفس واغتيال العدو اللعين ، وتخطف جن القوى البدنية أهله ، **« وارزق أهله من الثمرات »** : ثمرات معارف الروح أو حكمه أو أنواره ، **« من آمن منهم بالله واليوم الآخر »** : من وحد الله منهم وعلم المعاد ، **« قال ومن كفر »** . أى ومن احتجب أيضا من الذين سكنوا الصدر ، ولا يجاوزون حده بالترقى الى مقام العين لاحتجابهم بالعلم الذى وعاؤه الصدر .. **« فأمتعه قليلا »** من المعانى العقلية ، والمعلومات الكلية النازلة اليهم من عالم الروح على قدر ما تعيشوا به ،

---

(٢٤) البقرة : ١٢٦

« ثم أضطره الى عذاب النار » : نار الحرمان والحجاب ، **«وبئس المصير»** مصيرهم لتعذيبهم بنقائصهم ، وتألمهم بحرمانهم » !!

[تفسير ابن عربى ج ١ ص ٥٧]

● ويقول تعالى : **« ان الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله ، فأنى تؤفكون »**(٢٥) .

أى أن الله — جل وعلا — هو الذى شق الحب فأخرج منه الزرع ، وفلق النوى فأخرج منه الشجر .. ففلق الحب عن السنبلة ، وفلق النواة عن النخلة .. فهو تعالى يخرج السنبل الحى من الحب الميت ، ويخرج الحب الميت من السنبل الحى .. والشجر الحى من النوى الميت ، والنوى الميت من الشجر الحى .. كما يخرج النطفة الميتة من الحى ، ثم يخرج من النطفة بشرا حيا .. ان الذى يفعل ذلك كله هو الله جل جلاله .. فكيف تصرفون عن الحق وتعبدون ما لا ينفع ولا يسمع ، وتتركون عبادة من أخرج لكم الزروع والحروث والثمار ؟

ولكن ابن عربى يفسر الآية بقوله : « ان الله فالق حبة القلب بنور الروح عن العلوم والمعارف ، ونور النفس بنور القلب عن الأخلاق والمكارم .. ويخرج حى القلب عن ميت النفس تارة باستيلاء نور الروح عليها ، ومخرج ميت النفس عن حى القلب أخرى باقباله عليها ؛ واستيلاء الهوى وصفات النفس عليه .. ذلكم الله القادر على تقليب أحوالكم ، وتقليبكم فى أطواركم .. فأنى تصرفون عنه الى غيره » !!

[المرجع السابق ج ١ : ص ٢١٥]

● ويقول جل شأنه : **« وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون . والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا ، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون »**(٢٦) .

أى أن الله تعالى .. هو الذى يرسل الرياح تبشر بالمطر أمام نزول

---

(٢٥) الأنعام : ٩٥ (٢٦) الأعراف : ٥٧ ، ٥٨

غيثه على خلقه .. حتى اذا حملت هذه الرياح سحابا مثقلا بالمـاء .. ساقه تعالى لاحياء بلد ميت أجدب أهله ، فانزل في ذلك البلد الميت المطر الحى ليخرج بذلك المـاء من جميع أنواع الثمرات ..

وكما يحيى الله تعالى هـذا البلد الميت بانزال المـاء بعد موته وجدبه .. كذلك يخرج الموتى من قبورهم بعد فنائهم ودروسهم .. لتعتبروا وتتذكروا .. فتعلموا قدرة الله ..

والبلد الطيبة تربته ، يخرج نباته — باذن الله — طيب الثمر فى وقته وحينه .. والذى خبثت تربته لا يخرج نباته الا بعسر ومشقة .. كذلك يبين الله الحجج ويضرب الأمثال لقوم يشكرون الله على انعامه ..

وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن وعمله الطيب ، والكافر وعمله الخبيث ..

فالبلد الطيب مثل للمؤمن .. والذى خبث مثل للكافر ..

هذا — والله اعلم — هو التفسير المقبول للآية ، ولكن ابن عربى يفسرها على طريقته .. فيذكر أنه لمـا أدركته الفطرة التى لابد منها لكل داخل فى الطريق وتحكمت فيه .. رأى الحق سبحانه (!!) فتلا عليه هاتين الآيتين .. قال : « فعلمت أنى المراد بهذه الآية ، وقلت : ينبه بما تلاه علينا على التوفيق الأول الذى هدانا الله به على يد عيسى وموسى ومحمد — سلام الله عليهم جميعهم — فان رجوعنا الى هذا الطريق كان ببشارة على يد عيسى وموسى ومحمد عليهم السـلام ؛ « **بين يدى رحمته** » وهى العناية بنا .. « **حتى اذا أقلت سحابا ثقالا** » وهى ترادف التوفيق .. « **سقناه لبلد ميت** » وهو أنا . « **فأحيينا به الأرض بعد موتها** »[٢٧] .. وهو ما يظهر علينا من أنوار القبول والعمل الصالح والتعشق به ..

ثم مثل فقال : « **كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** » : يشير بذلك الى خبر ورد عن النبى ﷺ فى البعث — أعنى حشر الأجسام — من أن الله يجعل السماء تمطر مثل منى الرجال .. ثم قال : « **والبلد الطيب يخـرج نباته باذن ربه** » وليس سـوى الموافقة والسـمع والطاعة

---

(٢٧) فاطر : ٩

لطهارة المحل ، « **والذى خبث** »وهو الذى غلبت عليه نفسه والطبع ، وهـو معتنى به فى نفس الأمر « **لا يخـرج الا نكدا** » مثل قوله : «ان لله عبادا يقادون الى الجنة بالسلاسل» ، وقوله تعالى : « **ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها** »(٢٨) •• نقلنا : طوعا يا الهنا» !!

● ويقول جل وعلا : « **ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب • لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق** »(٢٩)

فالله تعالى •• يأمر الناس باجتناب عبادة الأوثان لأنها رجس •• كما يأمرهم باتقاء الكذب والفرية على الله •• ويأمرهم أن يستقيموا له على اخلاص التوحيد له فلا يشركوا شيئا من دونه بقوله :« **فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور •• حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** »(٣٠) •

ثم يقول : « **ذلك ومن يعظم شعائر الله** ••• » أى يعظم هذا الذى أمرتكم به ، ومن يعظم ما جعلته من مناسك الحج ، فان تعظيمه لها من خشية الله •• ولكم فى هذه الشعائر — وهى الذبائح التى تساق هديا للكعبة — منافع ، لأنكم تشربون ألبانها ، وتركبون ظهورها الى أن تنحر •• ثم محل هذه الذبائح الى أرض الحرم ••

الآية سيقت لبيان مناسك الحج •• وجاءت بعد اخباره تعالى لنا أنه يسر وبين لابراهيم عليه السلام مكان الكعبة ليقوم ببنائها •• وأمره ألا يشرك فى عبادته اياه شـيئا ، وأن يطهر بيته من عبادة الأوثان للطائفين به والمصلين الذين هم قائمين وراكعين وساجدين فى صلاتهم حول البيت •• ثم أمره أن ينادى فى النـاس : أن حجـوا بيت الله الحرام ••ووعده أنهم سوف يأتون البيت مشاة على أرجلهم وركبانا على الابل التى تأتى من كل طريق ومكان بعيد •• ليشهدوا ما ينفعهم من العمل الذى يرضى الله والتجارة ، ولكى يذكروا اسم الله تعالى فى أيام التشريق

---

(٢٨) الرعد : ١٥
(٢٩) الحج : ٣٢ ، ٣٣
(٣٠) الحج : ٣٠ ، ٣١

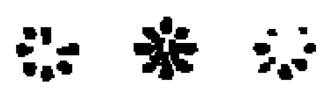
على ما رزقهم من الهدايا والبدن التى أهدوها من الابل والبقر والغنم ٠٠ وأباح لهم أن يأكلوا من هذه البدن والهدايا ٠٠ وأن يطعموا — مما يذبحون أو ينحرون — البائس الذى به ضر الجوع والحاجة ، والفقير الـذى لا شىء له ٠٠ ثم ليقضوا ما عليهم من مناسك حجهم : من الحلق ، والرمى ، والطواف ٠٠ وليوفوا الله بما نذروا من هدى وغيره ٠٠ وليطوفوا طواف الافاضة ببيت الله القديم ٠٠

هـذا الذى أمرنا الله به من الوفاء بالنذور والطواف ٠٠ هو الواجب علينا ٠٠ ووعد تعالى من يجتنب ما أمر الله باجتنابه فى حال احرامه ، تعظيما منه لحدود الله ٠٠ بالخير الكثير عند ربه فى الآخرة ٠٠

ثم يقول تعالى : أنه قد أحل لنا الأنعام بأن نأكلها اذا ذكيناها ٠٠ الا ما يتلى علينا من تحريم شىء منها ، وطلب منا أن نتقى عبادة الأوثان لأنها رجس ، وأن نتقى قول الكذب والفرية على الله ٠٠ وأن نكون مستقيمين لله على اخلاص التوحيد له وألا نشرك به شيئا من دونه ٠٠

ومثل تعالى من يشرك به كمثل من خر من السماء ، فهلك واختطفته الطير ٠٠ أو هوت به الريح فى مكان بعيد ثم قال : « **ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب** » ٠

ولكن ابن عربى يفسر الآية بقوله : « **شعائر الله** » : أعلامه ، وأعلامه الدلائل الموصـلة اليه ٠٠ « **ثم محلها الى البيت العتيق** » : وهو بيت الايمان عند أهل الاشارات ٠٠ وليس الا قلب المؤمن الذى وسع عظمة الله وجلاله » !! [الفتوحات جـ ٤ ، ص ١٠٩]



وبعد ٠٠ فهذا وأمثاله من كلام الصوفية ٠٠ لو قلنا انهم أرادوا به تفسير الآيات القرآنية وبيان معانيها التى تحمل عليهـا لا غير ٠٠ لكان هو بعينه مذهب الباطنية ٠٠

وذلك لأن المعانى التى حملوا عليها الألفاظ لا تعرفها العرب من مدلولات لهذه الألفاظ ٠٠ لا بالوضع الحقيقى ، ولا بالوضع المجازى المناسب ٠٠ وليس فى مساق الآيات ما يدل على هذه المعانى المذكورة ٠٠

ومعلوم أن القرآن عربى .. ومخاطب به العرب الذين يفهمون ألفاظه وتراكيبه . ولا يفهم منه العربى أكثر من المعانى المتبادرة الى فهمه والتى تنساق الى ذهنه ابتداء ..

ولا ننكر أن ثم أفهاما يلقيها الله تعالى فى قلوب أصفيائه وأحبابه.. ويخصهم بها دون غيرهم على تفاوت بينهم فى ذلك .. بمقدار ما بينهم من تفاوت فى درجات السلوك ومراتب الوصول ..

كما لا ننكر أن تكون هـذه الأفهام تفسيرا للقرآن ، وبيانا لمراد الله من كلامه .. ولكن بشرط أن تكون هـذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربى القرآنى .. وأن يكون لها شـاهد شرعى يؤيدها ..

أما أن تكون هـذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآنى . وليس لها من الشرع ما يؤيدها .. فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنه تفسير للقرآن وبيان لمراد الله تعالى .. لأن القرآن عربى قبل كل شىء .. والله سبحانه يقول فى كتابه : « **كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** »(٣١) .. وحاشا لله أن يلغز فى آياته ؛ أو أن يعمى على عباده طريق النظر فى كتابه وهو يقول : « **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** »(٣٢) .

* * *

---

(٣١) فصلت : ٣ (٣٢) القمر : ١٧

وانظر التفسير والمفسرون ، مرجع سابق : جـ ٢ ص ٣٦٥ . ٣٧٤

الفصل الخامس

موقف الصوفية من الوحى ، والنبوة

يزعم الصوفيون .. أن النبى ﷺ اختص بعلومهم وأحوالهم نفرا من قرابته وآل بيته ، وفريقا من أهل محبته .. وذلك بما نفث فى صدورهم من علوم الحقيقة وأسرار الباطن !!

وأنه ﷺ .. أورث هؤلاء الأقارب والأحباب ميراث النبوة الروحى فى شكل ولاية !!

ويزعمون أن شيوخهم قد تناقلوا هـذه الولاية كابرا عن كابر فى سلسلة الآباء الروحانيين الى يوم القيامة !!

ويسمون هـذا النسب الروحى فى أوساطهم : « حسبا » .. ويعرف أهله المحسوبون بأنهم : « أهل الله » !!

فما هو مبلغ تصورهم للنبوة ، وما هو موقفهم من الوحى ؟ ؟

يقول الدكتور التفتازانى عن التصوف فى عهده الأول : « نلاحظ ابان القرنين الثالث والرابع الهجريين اتجاهين واضحين للتصوف ..

الاتجاه الأول .. ويمثله صوفية معتدلون فى آرائهم ، يربطون بين تصوفهم وبين الكتاب والسنة بصورة واضحة .. وان شئت قلت : يزنون تصـوفهم دائما بميزان الشريعة ، وكان بعضـهم من علمائها المعروفين .. ويغلب على تصوفهم الطابع الأخلاقى ..

والاتجاه الثانى .. يمثله صـوفية استسلموا لأحوال الفناء .. ونطقوا بعبارات غريبـة عرفت بالشطحيات .. وكانت لهم تصورات لعلاقة الانسان بالله : كالاتحاد .. وتصوفهم لا يخلو من بعض المنازع الميتافيزيقية فى صورة بسيطة ..

فهم فى هـذه الفترة •• وان كانوا تكلموا فى المعرفة بطريقة نظرية •• الا أنها كانت من زاوية أخلاقية فى الأغلب »[١] •

وتقوم النظرة الصوفية الى المعرفة — ابان هـذه الفترة — على أنها : « العلم بلا واسطة ، الناشىء عن الكشف والشهود » ••

لذا نرى كلامهم بناء على هـذه النظرة — فى المواجد والأذواق مبنيا على الكشف والشهود والخروج بهما وبالفناء الى دائرة تقربهم من الاتجاه الاشراقى •• غير أنهم وقفوا عند حد النظر بعمق الى المعانى الباطنة للألفاظ والنصوص الدينية •• كما راعوا ذلك فى عباراتهم التى تكلموا بها واستعملوها فى علمهم الصوفى •• ونظروا فيها الى كل ما تحتمله هـذه الألفاظ من معنى •• وربما بلغ بهم الأمر الى حد الالغاز والرمز[٢] ••

ويقول الدكتور ابراهيم هلال : ان الاتجاه السنى — فى الفترة الأولى — ظل هو الغالب فى الفكر الصوفى الى أوائل القرن السادس •• وكان لدعوة القشيرى ونشاط الامامين الهروى والغزالى البارز فى هذا المجال أثرهما فى محافظة التصوف على سنيته الغالبة حتى هذه الفترة ••

غير أن الاشراق — كحركة فلسفية — لم يعدم أن يجد له بين المتصوفة أنصارا ومريدين •• فظهر فى الشرق فى فلسفة السهروردى الحلبى ، وفى الأندلس فى مدرسة ابن مسرة التى كان من أبرز رجالها ابن عـربى وابن سبعين •• كمـا تأثر بهـا من الشرقيين الجيـلى وابن الفارض •

واتخذ التصوف عند هؤلاء •• طابعا فلسفيا ، ونحا منحى الفلاسفة فى اتخاذ نظرياتهم فى الفيض والمعرفة الاشراقية لتفسير كثير من المشكلات العقائدية التى تعترضهم فى فكرة الخلق ، وذات الله وصفاته ،

---

(١) مدخل الى التصوف الاسلامى ، للدكتور أبو الوفا التفتازانى ، ص ١١٧

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٢ : ١٦٧ بتصرف •

والعلاقة بين الله والكون ، وبين الله والانسان •• وغيرها مما يتصل بالنبوة والولاية والمعرفة ••

الأمر الذى نتج عنه نظريات فلسفية معقدة ، وبحوث ميتافيزيقية شاعت فى الوسط الاسلامى كنظرية وحدة الوجود ، والحقيقة المحمدية ، ونظرية الحلول والاتحاد بشكلها المكتمل ، ونظرية القطب والأبدال ، وغيرها مما لم يكن معروفا من قبل فى الأوساط الاسلامية السنية[٢] •

***

● **نظرية المعرفة الاشراقية :**

وأول فيلسوف اسلامى نادى بنظرية المعرفة الاشراقية هو الفارابى مبتدع هـذه النظرية •• ثم أخذ بها الفلاسفة والصوفية من بعده ••

ويرى « الفارابى » أن غاية المعرفة هى الاتصال بالعقل الفعال •• والعقل الفعال عنده هو جبريل الموكل بالوحى ، والذى ترتسم فيه كل الصور ، وتنتقش فيه كل العلوم والمعارف الغيبية •• حسب زعمه !!

والانسان — عند الفارابى — لا يبلغ هـذه الدرجة الا بالمجاهدة والرياضة وتصفية النفس •• وذلك يكون بافعال ما ارادية •• بعضها فكرية وبعضها أفعال بدنية ، وليس باى أفعال اتفقت ••

وهـذه الأعمال من شأنها •• أن تنتقل بالانسان شيئا فشيئا •• من حالة البشرية •• الى حالة الملائكية •• ويصير — كما يقول الفارابى — « فى جملة الجواهر المفارقة للمواد » •• وبهذا يكون قد وصل الى درجة المعرفة التامة التى صارت المعلومات فيها منطبعة فى نفسه ، وأصبحت نفسه مع الصور الكلية « عقلا ومعقولا بالفعل » •• وهذه هى رتبة الاتصال بالعقل الفعال ••

وما دام الانسان — فى نظر الفارابى — قد وصل الى هـذه الدرجـة •• فقد صار فى حالة تقبل للمعلومات الجزئية الغيبية ،

---

(٢) التصوف الاسلامى • للدكتور ابراهيم هلال ، ص ٩٩

والمعارف الكلية التى لا يطلع عليها الا الملائكة المقربون ، لأنها منقوشة فى اللوح المحفوظ ــ أو العقل الفعال ــ ويكون ذلك اما فى وقت اليقظة أو فى وقت النوم .. وهى حال الفلاسفة والحكماء الالهيين »[٤] .

وهــذه الآراء نفسها .. هى فحوى نظرية المعرفة الاشراقية عند أتباع الأفلاطونية المحدثة .. التى تقوم على التجرد من ماديات النفس ، واعتزال العالم الخارجى باطالة التأمل والتفكر . والنظر فى النفس أو فى العالم رغبة الوصول الى الاله أو الاتحاد به فكريا . والعيش معا فى العالم الأعلى أو الكينونة الدائمة فى ذلك العالم المجرد أو الالهى . والاطلاع على أسرار تعجز النفس عن الوصول اليها فى حال ماديتها .. وقد أثر هــذا المذهب أولا عن أفلاطون ، ثم قوى واشتد عوده على يد أفلوطين فى القرن الثالث الميلادى ..

واذا ما حاولنا تلخيص النظرية الاشراقية عند الفارابى .. نجد أن الانسان ــ عنده ــ اذا قويت نفسه بالرياضة حتى صار عقلا بالفعل ، وصارت المعقولات منه هى التى تعقل .. حصل له حينئذ عقل بالفعل ، أو عقل مستفاد ..

وعن طريق هــذا العقل .. يمكن للانسان أن يتصل بالعقل الفعال الذى هو جبريل عند الفلاسفة ، واللوح المحفوظ عند الصوفية ، والذى نقش فيه كل شىء : ما كان وما يكون ..

وتكون نفس الانسان ــ فى هــذه الحالة ــ بمثابة المرآة ينعكس عليها كل ما عند الملأ الأعلى ، أو ما فى نفوس الملائكة .. فيكون ذلك الشخص بما يفيض من العقل الفعال الى عقله المنفعل حكيما وفيلسوفا .. وبما يفيض منه الى قوته المتخيلة نبيأ منذرا بما سيكون .. ومخبرا بما هو الآن من الجزئيات بوجود يعقل فيه الالهى ..

والفارابى ــ هنا ــ يجمع بين المعرفة والنبوة فى نظرية واحدة .. ويجعل الأساس الذى تقوم عليه معرفة العلمــاء والفلاسفة الالهيين

---

(٤) المرجع السابق : ص ٣٣ ، ٣٤

نفس الأساس الذى تقوم عليه معرفة الأنبياء •• وان كان قد خص الأنبياء بزيادة فى قوة المخيلة • •

كذلك •• يجعل من هذه النظرية أساسا لمعارف المرضى والمجانين وغيبياتهم فيقول : « وقد تعرض عوارض يتغير فيها مزاج الانسان ، فيصير بذلك معدا لأن يعقل عن العقل الفعال •• اما فى وقت اليقظة ، واما فى وقت النوم » ••

والنظرية الاشراقية •• عندما تتحدث عن كلمة العقل •• فانما يراد بها الحالة التى عليها الانسان من المعرفة ••

فالانسان — عندهم — قبل حصوله على المعلومات يكون فى مرحلة العقل الهيولانى •• أى المجرد من المعارف ••

فاذا بدأت المعارف تشرق فى نفسه من العقل الفعال •• صار عقلا منفعلا •• فاذا قويت هذه المعارف صار عقلا بالفعل •• فاذا زادت عن ذلك صار عقلا مستفادا ، أو فى مرحلة العقل المستفاد ، وهى آخر تطور يمر به الانسان — عندهم — فى تحصيله للمعارف بالطريقة الاشراقية أو الذوقية ••

وفى هذه المرحلة يستطيع الانسان أن يتصل بالعقل الفعال •• أو جبريل الموكل بالوحى وآخر العقول العشرة التى تحكم الكون — فى تصورهم — والذى يعتبر عقلا لفلك القمر ، ويأخذ عنه المعرفة الغيبية والعلم اللدنى كأكمل ما يكون الأخذ والعلم •• ويكون فى هذه الحالة بارادة الانسان نفسه(٥) •

* * *

● كيف يتصورون الوحى والنبوة ؟

يقول فضيلة الشيخ محمد حسين الذهبى فى تعريف الوحى : « أصل الوحى فى اللغة : الاعلام فى خفاء ، ومن هنا كان له فى لسان العرب اطلاقات متعددة ، كلها يدور حول هذا المعنى العام : فيطلق

---

(٥) المرجع السابق ص ٣٥ ، ٣٦

على الالهام ، والاشارة ، والكتابة ، والرســالة ، والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته الى غيرك ..

وفى اطار هــذا المعنى اللغوى الشامل لكل هــذه الاطلاقات ، ورد الوحى فى أسـلوب القرآن الكـريم بمعنى الالهام ، وذلك فى قوله تعــالى : « **وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون • ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سـبل ربك ذللا** »(٦) .

وورد بمعنى الاشــارة .. فى قوله تعــالى حكاية عن زكريا عليه السلام : « **فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** »(٧) .

وورد بمعنى الوسوسة فى قوله ســبحانه : « **وان الشــياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم** »(٨) .

وورد بمعنى القاء الله بما يريد القاءه للملائكة ، كما فى قوله : « **اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا** »(٩) .

وورد بمعنى القاء الله بالقرآن لنبيه محمد ﷺ ، كما فى قوله مخاطبا له : « **وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها** »(١٠) .

وورد بمعنى الموحى به ، كما فى قوله تعالى عن القرآن الكريم : « **ان هو الا وحى يوحى** »(١١) .

أما الوحى بالمعنى الشرعى : فتارة يعرفونه بأنه : « كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه » .. وتارة أخرى يعرفونه بأنه : « اعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه » ..

---

(٦) النحل : ٦٨
(٧) مريم : ١١
(٨) الأنعام : ١٢١
(٩) الأنفال : ١٢
(١٠) الشورى : ٧
(١١) النجم : ٤

وظاهر أن التعريف الأول تعريف للوحى بمعنى الموحى به ، وأن التعريف الثانى تعريف للوحى بمعنى الايحاء ..

وظاهر أيضا أن الوحى بالمعنى الشرعى .. لا يخرج عن نطاق المعنى اللغوى ، والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص .. فالوحى بالمعنى اللغوى عام يشمل كل اعلام فى خفاء ، والوحى بالمعنى الشرعى خاص لا يتناول الا ما كان من الله لنبى من الأنبياء »[١٢] ..

« أما كيفية تلقى جبريل — عليه السلام — للقرآن عن الله تعالى .. فقيل انه كان يؤمر من قبل الله تعالى بحفظه من اللوح المحفوظ .. وقيل — وهو الراجح — أنه كان يتلقفه من الله تعالى تلقفاً ايحائيا لا ندرك كنهه ، ثم ينزل به على النبى ﷺ ..

ومما يشهد لهذا القول الأخير .. ما رواه الطبرانى من حديث النواس بن سمعان مرفوعا الى النبى ﷺ قال : « اذا تكلم الله بالوحى ، أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله ، فاذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجدا فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله بوحيه بما أراد ، فينتهى الى الملائكة ، فكلما مر بسماء سأله أهلها : ماذا قال ربنا ؟ قال : قال الحق ، فينتهى به حيث أمر ..

وأما كيفية تلقى النبى ﷺ للقرآن عن جبريل — عليه السلام — فكان على طريقتين :

احداهما : أن النبى ﷺ كان ينخلع من حالته البشرية الى الحالة الملائكية فيكلمه جبريل بالوحى ، ويعى عنه النبى ﷺ ما يقول .. وهـذه أشق الحالتين على رسول الله ﷺ ..

ثانيتهما : أن جبريل كان ينخلع من صورته الملائكية الى الصورة البشرية فيوحى الى النبى ﷺ ما شاء الله أن يوحى ، والرسول ﷺ

---

(١٢) الوحى والقرآن الكريم ، للشيخ محمد حسين الذهبى ، نشر مكتبة وهبة ، ١٩٨٦ ، ص ٧ وما بعدها .

يعى عنه ما يقول ، وكثيرا ما كان يأتى جبريل عليه السلام الى النبى ﷺ على صورة رجل من أصحابه اسمه : دحية الكلبى »(١٣) .

هـذا هو التصور السليم للوحى وكيفيته .. غير أن لفلاسفة الصوفية فى المسألة رأى آخر .. فالنبوة ــ عندهم ــ ما هى الا تطوير النفوس البشرية .. حتى تصل الى أفق الملائكة .. فهى ــ أى النبوة ــ مكتسبة مثل الولاية ، وليست فطرية باصطفاء الله .. والوحى نفسه ــ فى بعض الحالات ــ عندهم ــ جاء من تطــوير النفس واعدادها ، فينعكس على صفحتها ما فى العقول والنفوس من معان وأخبار .. فالوحى بناء على ذلك ــ فى تصورهم ــ ليس من عند الله !!

ولهذا نراهم يسوون بين الأنبيــاء والكهان والسحرة والمجانين وأولياء الصوفية والمرضى .. وذلك حين فسروا علوم الأنبياء بما فسروا به غيبيات هؤلاء ، وحين أسندوا الى الفريقين القدرة على التأثير فى الطبيعة والكون بقوة النفس الذاتية .. وجعلوا هــذا تفسيرا لمعجزات الأنبياء وبقية الخوارق الأخرى .. وهــذا ــ ولا شك ــ ضرب من الزراية بالمعجزات ، وانكار تدخل العناية والقدرة الالهية فيها توصلا الى الغائها وابطالها(١٤) !!

ونراهم يصورون الوحى .. على أنه شىء يتولد من نفس النبى .. أو صور ــ تشرق فى نفسه وقت الصفاء ، وبعد أن تصل نفسه الى نهاية الصقل دون أن يكون هناك اتجاه أو تنزل من جهة ملك الوحى على الانســان على ما هو معروف فى الوحى ، وأنه هو الذى يتصد الأنبياء ويتنزل عليهم .. لا أنهم هم الذين يقصدونه ويطلبونه !!

يقول تعالى لرسوله ﷺ : **« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم »**(١٥) .

---

(١٣) المرجع السابق .
(١٤) التصوف الاسلامى ، للدكتور ابراهيم هلال ص ٢٢٣ ، ٢٢٤
(١٥) الشورى : ٥٢

ويقول على لسان جبريل عليه السلام : **« وما نتنزل الا بأمر ربك ، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا »**(١٦) .

فالله تعالى .. هو الذى أوحى الى نبيه ﷺ بالقرآن .. وما كان الرسول ﷺ يعرف أى شىء هو القرآن أو الايمان .. ولكن الله تعالى رحمة منه بالناس جعل هذا القرآن ضياء لهم يستضيئون بنوره للنجاة من النار .. وهو تعالى يهدى بهذا القرآن من يشاء من عباده الى سبيل الصواب . والى الطريق المستقيم ..

والرسول ﷺ يهدى العباد بالدعوة الى الله تعالى والبيان لهم الى الطريق المستقيم . طريق الله الذى دعا عباده اليه ..

والمراد بهداية الرسول — هنا — هى هداية الدلالة والارشاد .. أما هداية التوحيد والايمان فهى لله وحده كما قال تعالى لنبيه : **« انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء »**(١٧) .

وجبريل — عليه السلام — ما ينزل بالوحى الى الدنيا الا بأمر الله تعالى .. فلله وحده ما بين أيدينا من أمر الآخرة ، وما خلفنا من أمر الدنيا ، وما بين وقتنا هذا الى قيام الساعة ..

ويروى أن جبريل عليه السلام .. احتبس عن الرسول ﷺ مدة من الزمن .. واشتاق الرسول اليه .. فلما جاءه قال له : « ما جئت حتى اشتقت اليك » .. فنزلت الآية : **« وما نتنزل الا بأمر ربك »** ، وختمها بقوله : **« وما كان ربك نسيا »** .. أى لم يكن ربك ذا نسيان فيتأخر نزولى اليك ..

ولكن .. وآه من لكن هذه !!

لكن القوم حين يتصدون للحديث عن النبوة والوحى .. يعقدون الشبه بين الأولياء — أو الحكماء المتألهين كما يسمونهم — وبين الأنبياء !!

فهم يجعلون الاتصال بالعقل الفعال الذى هو مصدر المعرفة والوحى .. لا يتم — سواء للأنبياء أو الأولياء — الا بعد تطهير النفس

---

(١٦) مريم : ٦٤ (١٧) القصص : ٥٦

بالعبادات البدنية والتأملات الفكرية .. ثم يبتدىء هذين الصنفين — أى الأنبياء والأولياء — فى السير الى المراحل العقلية الى أن يصلا الى مرحلة تقبل الفيض ، وأخذه عن العقل الفعال !!

فالاتصال — فى تصورهم — يبدأ عن الطرفين عند نهاية التطهر والتجرد ، وينتهى عندهما معا بالفيض !! وهو ما يقول به الفلاسفة فى جانب العقل الفعال .. وفى هــذا هبوط بمنزلة الوحى ، فضلا عما فيه من التسوية بين الأنبياء وبين غيرهم من طالبى المعرفة !!

* * *

قلنا : ان الاشراق — كحركة فلســفية — وجد له بين المتصوفة أنصارا ومريدين كالسهروردى فى الشرق ، وابن مسرة وابن عربى وابن سبعين فى الغرب ..

والاشراق عند السهروردى يمثل المرحلة الحاسمة للتطور الفكرى الكامن فى المحيط العقلى الاسلامى .. كنتيجة طبيعية لتطور مذهب ابن ســينا من جهة ، وحكمة أفلاطون من جهة أخرى ..

يقول السهروردى : « وما ذكرته من علم الانوار ، وجميع ما يبتنى عليه وغيره ، يساعدنى عليه كل من سلك سبيل الله عز وجل .. وهو ذوق امام الحكمة ورئيسها أفلاطون صاحب الأيد والنور .. وكذا من قبله من زمان والد الحكمــاء هرمس الى زمانه من عظماء الحكمــاء قبــل أنبا دوقليس »(١٨) .

غير أننا نجد أوجه الشــبه بين السهروردى وبين ابن ســينا والفارابى قوية جدا .. رغم نعيه عليهما عدم الرســوخ فى الذوق أو الحكمة الالهية .. فقد قال بنظرية الفيض التى قالا بها وبنيا عليهــا نظريتهما .. وان كان قد خالفهما أخيرا فى عدم الوقوف بالفيض عند العقل الفعال ..

فالفيض عند السهروردى أوسع مما يتصوره المشاؤون . وأكثر

(١٨) حكمة الاشراق ، للسهروردى ، ص ١١

فى عدد مراتبه بما لا يمكن حصره •• فنور الأنوار •• يفيض على كل ما تحته من الأنوار القاصرة أو المجردة •• وهى بالتالى يفيض كل منها على ما يليها : العالى على السافل !!

والحكمة — فى القرآن الكريم — هى النبوة ، ولم ترد الا مراداً بها النبوة والوحى والتشريع ••

يقول الله تعـالى عن آل ابراهيم : « **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما** »(١٩) •

ويخاطب عيسى عليه السلام قائلا : « **ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل** »(٢٠) •

ويقول للرسول ﷺ : « **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما** »(٢١) •

كما يقول : « **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتـاب والحكمة وان كانوا من قبـل لفى ضلال مبين** »(٢٢) •

ولكن السهروردى يقول : « ولا تظنن أن الحكمة فى هـذه المدة القريبة — أى بعد عصر النبوة — كانت لاغية •• بل العالم ما خلا قط عن الحكمة . وعن شخص قائم بها عنده الحجج والبينات •• وهو خليفة الله فى أرضه : وهـذا يكون ما دامت السموات والأرض »(٢٣) •

والمعـرفة — عند السهروردى — سواء أكانت وحيا أم غيره : مصدرها النفس وآلتها قوة المخيلة •• وكلاهما مصـدر داخلى فى الانسان (!!) •• وسواء أكانت — هذه المعرفة — قد انعكست على

---

(١٩) النساء : ٥٤ — (٢٠) المائدة : ١١٠

(٢١) النساء : ١١٣ — (٢٢) الجمعة : ٢

(٢٣) المرجع السابق ، ص ١١

التفس من العقل الفعال أو من نفوس الأفلاك •• فكلا التعبيرين سواء •• لأن العقول والنفوس — فى نظره — تتجه بأنوارها الى ذلك العقل فتقويه وتؤيده ••

يقول السهروردى : « أن الأنوار المجردة العالية لا يحجب بين السافلة منها وبين نور الأنوار •• اذ الحجاب من خاصية الأبعاد وشواغل البرازخ •• مع أن كل نور قاهر يشاهد الأنوار »(٢٤) !!

فالأمر — كما قال الفلاسفة من قبل — أنه ليس هناك وحى خارجى يأتى عن طريق القاء جبريل •• بل الوحى قد وجد مبدئيا داخل النفس — حسب تأثرهم بنظرية المثل — ، أو أن النفس تستقبله عن صورته التى فى العقل الفعال — حسب نظرية المعرفة الاشراقية — فالواقع أن الثانية فيها عناصر من الأولى ، والأمر ليس الا جلاء وتصقيل ، أو اعداد واستعداد ، أو عملية تذكر — على ما يقول أفلاطون وابن سينا — وهذه ميزة علم الأنبياء والأولياء عند هؤلاء الاشراقيين •• فليست هنا ايجابية الوحى السماوى كما جاء فى القرآن الكريم والأديان السماوية قبله !! بمعنى أنه اتجاه من الله أو من الملك الى الانسان ••

وانما الاتجاه عند هؤلاء هو من الانسان فقط ، ومن أى انسان كان •• وكأن الوحى السماوى شرعة لكل وارد ، وليس اختيارا واصطفاء !!

فهنا طريق كسبى للنبوة •• قد قال به من سار فى هذا الطريق من المتفلسفة أو من كان على شاكلتهم من المتصوفة •• فقد ادعى الحلاج من قبله أحاديث قدسية على نحو الأحاديث القدسية عند الرسول ﷺ •• كما أضاف اليه الشبلى الشفاعة يوم القيامة مع النبى ﷺ ، كما أضافها الشبلى أيضا الى نفسه •• وهذا مقام قد اختص به النبى ﷺ دون الأنبياء جميعا ••

ونسب الى عبد الحق بن سبعين •• أنه تجرأ على هذا المقام —

---

(٢٤) نفس المرجع ص ١٤٠

مقام النبوة — وأنه كان يقول على حديث الرسول ﷺ : « أنا العاقب فلا نبى بعدى » .. يقول عبد الحق : لقد زدت فيه : « نبى عربى »[٢٥]!!

* * *

وكان محمد بن عبد الله بن مسرة (ت ٣١٩ هـ) ، وهو من كبار متصوفى الأندلس — صاحب المدرسة التى كان من أبرز رجالها ابن عربى وابن سبعين فى المغرب .. والجيلى وابن الفارض فى المشرق ..

كان ابن مسرة فيلسوفا أكثر منه متصوفا .. وكان يستر آراءه وراء نسكه وزهادته .. فقد كان معتزليا فى أول أمره ، ثم مال الى مذهب الأفلاطونية المحدثة ..

وقد نسب الى ابن مسرة .. احياء حكمة الفيلسوف الطبيعى اليونانى القديم أنبا دوقليس (المتوفى عام ٤٣٠ ق.م) .. ذلك الفيلسوف الذى ادعى النبوة بل الألوهية !! والذى كان يرى أن وسيلة النجاة هى التطهر والزهد ، وتغليب العقل على الحواس ، والعمل على العودة الى المحبة التى هى أصل الوجود وسره .. اذ تتجمع بها العناصر بعضها الى بعض فتسود الوحدة .. أو توجد الموجودات حسب مبدأه فى المحبة والكراهية ، أو المحبة والقهر !!

غير أن ابن مسرة .. قال بمذهب آخر أقرب الى أن يكون هو مذهب أفلوطين .. حيث قال بنظرية الفيض كأصل للوجود ، أو الكون ، وما فيه من مخلوقات !!

لذا نرى ابن عربى — أبرز رجال مدرسة ابن مسرة — يفضل الولاية على النبوة .. معتمدا على أن الله تعالى تسمى بالولى ولم يتسم بالنبى !! .. فلذلك بقى اسم الولاية وانقطع اسم النبوة .. وما كان لله أن يتسمى باسم وينقطع ، فأسماؤه باقية أبدا وأزلا .. واذلك قال ﷺ : « فلا رسول بعدى ولا نبى » .. ولكن ابن عربى ، بالنسبة لمذهبه فى استمرار النبوة الباطنية — أى نبوة الأنبياء —

---

(٢٥) التصوف الإسلامى . مرجع سابق . ص ١٩١ . ١٩٢

يضيف الى حديث الرسول ﷺ : « نبيا مشرعا ، أو مشرعا له » •• أى نبياً جاء على شريعة رسول قبله ، وأنها ما انقطعت الا من وجه خاص ، وهو مسمى النبى والرسول ؛ ولذلك بقى حكمها وبقيت حقيقتها فى الأولياء(٢٦) !!

ومن مظاهر تنقيص ابن عربى من قدر النبوة بناء على هذه الفكرة : تسويته المطلقة بين نبوة الرسول ﷺ وهدى الأولياء أو نبوتهم الباطنية •• وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : « **أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده** »(٢٧) فيقول : « ان هؤلاء كانوا قد ماتوا وورثهم الله وهو خير الوارثين •• ثم جاد على النبى — ﷺ — بذلك الهدى الذى هداهم به » !!

ثم يقول : « وهذا عين ما قلناه فى علم الأولياء اليوم » !!

فالوراثة — عند ابى عربى — تشبه أن تكون نسخا للشرائع والتنزيل •• اذ يرفع الوحى مرة أخرى الى الله لكى يهبط من عنده بصورة أخرى على هيئة تأويل تجده لدى أصحاب العلم الباطن ، أو لدى من يسميهم هو « ورثاء الله » ••

والوحى عند ابن عربى : خيال وحديث نفس ، وليس فى الواقع الا تصويرا من خيال النبى !!

اسمع اليه وهو يقول : « لقد بلغ بى قوة الخيال : أن كان حبى يجسد لى محبوبى من خارج لعينى •• كما كان يتجسد جبريل لرسول الله ﷺ ، فلا أقدر أنظر اليه ، ويخاطبنى وأصغى اليه وأفهم عنه »(٢٨) !!

وهذا يعنى : أن الوحى ليس الا تصويرا من خيال النبى ؛ كما يصور خيال المحب ويجسد أمامه محبوبه فيخاطبه ويناجيه ويسمع كلامه •• وهو فى الحقيقة لا يخاطب الا نفسه ولا يسمع الا كلامه !!

---

(٢٦) المرجع السابق ، ص ١٩٨ (٢٧) الأنعام : ٩٠

(٢٨) الفتوحات جـ ٢ ، ص ٤٢٩

وإذا كان الوجود عند ابن عربي واحــدا ، فما معنى الثنائية فى الوحدة ؟ .. الواقع أنه ليس هناك ثنائية — عنده — بين الوحى وبين النبى .. وإذا كانت هناك من أخبار يأتى بها الرسول ، أو تشريعات ، فهى ليست شيئا خارجا عن نفسه ، أو ليست شيئا غير نفسه !!

يقول ابن عربى فى الفصوص : « ولا يلقى الوحى فى غير ، ولا تلقى »(٢٩) .. وعلى هــذا فان جبريل عليه السلام شىء اعتبارى لا حقيقة له الا فى الاسم بالنسبة للوحى !!

أرأيت الى أين قادته عقيدة وحدة الوجود ؟ !

ومقام الولاية — عند ابن عربى — يتساوى مع مقام النبوة ان لم يفقه .. يقول ابن عربى : « وليس هــذا العلم — أى معرفة الله — الا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء .. وما يراه أحد من الأنبياء والرسل الا من مشكاة الرسول الخاتم .. وما يراه أحد من الأولياء الا من مشكاة الولى الخاتم .. حتى أن الرسل لا يرونه اذا رأوه الا من مشكاة خاتم الأولياء .. فان الرسالة والنبوة — أعنى نبوة التشريع ورسالته — ينقطعان ، وأما الولاية فلا تنقطع أبدا .. فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرونه الا من مشكاة خاتم الأولياء » !!

ثم يسوق الكلام الى أن يذكر : « ان خاتم الأنبياء موضع لبنة فضة ، وان خاتم الأولياء موضع لبنتين .. لبنة ذهب ولبنة فضة !!

« فهو موضع اللبنة الفضية وهو ظاهره وما يتبعه من الأحكام .. لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلابد أن يراه هكذا !!

وهو موضع اللبنة الذهبية فى الباطن .. فانه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى بــه الى الرســل » !!

لذا نرى ابن تيمية يتصدى لدحض هــذا الفكر الضال فيقول : «دعواه أن الأولياء كلهم حتى الأنبياء يستفيدون من خاتم الأولياء .. فهذا مخالف للعقل والشرع .. فان الأنبياء أفضل من الأولياء ، وخيار

---

(٢٩) فصوص الحكم . الفص السابع ص ٩٣

الأولياء أتبعهم للأنبياء ، كما كان أبو بكر أفضل من طلعت عليه الشمس بعد النبيين والمرسلين ..

« وكذلك دعواه : أن خاتم الأولياء يأخذ العلم الظاهر من حيث يأخذ النبى ، ويأخذ العلم الباطن من المعدن الذى يأخذ منه الملك ما يوحيه الى النبى ، فهذا من أعظم الكفر والضلال .. وهو مبنى على قول المتفلسفة الذين يجعلون النبوة فيضا يفيض على عقل النبى ..

« ويقولون ان الملك هو ما يتمثل فى نفس النبى من الأشكال النورانية .. فيقولون ان النبى يأخذ عن تلك الصور الخيالية .. وهى الملك عندهم .. فمن أخذ المعانى العقلية عن العقل المجرد كان أعظم وأكمل ممن يأخذ عن الأمثلة الخيالية ..

« فهؤلاء اعتقدوا أقوال الفلاسفة الملحدين .. وسلكوا مسلك الرياضة .. فأخذوا يتكلمون بتلك الأمور الالحادية الفلسفية .. ويخرجونها فى قالب المكاشفات والمخاطبات ..

« وما ذكروه فى خاتم الأولياء لا حقيقة له — وان كان قد ذكره الحكيم الترمذى فى كتاب « خاتم الأولياء » — فقد غلط فى ذلك الكتاب غلطا معروفا عند أهل المعرفة والعلم والايمان »(٣٠) اهـ .

ومن هذا المنطلق — أن الولى أفضل من النبى — يقول أبو يزيد البسطامى : « لقد خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله » !!

فالأنبياء — فى نظره — يتلقون رسالاتهم عن جبريل عن الله .. أما الأولياء فانهم — حسب عقيدتهم — يتلقون علمهم عن الله مباشرة .. ويسمون هذا العلم بالعلم اللدنى ؛ لأنه من لدن الله !!

ويقول الجيلى : « الولى يسمع نطق الجمادات والنباتات والحيوانات وكلام الملائكة واختلاف اللغات ، وكان البعيد منه كالقريب » !!

---

(٣٠) علم الحديث ، لابن تيمية ، نشر دار الكتب الاسلامية ، ص ٥١٦

ثم يقول عن نفسه : « وفى هذا التجلى سمعت علم الرحمانية » !!

كما يقول فى تعريف الانسان الكامل : « انه القطب الذى تدور عليه أفلاك الوجود ، وانه واحد لا يتعدد .. وانما يظهر فى الأنبياء والأولياء فى صور وملابسات مختلفة » !!

أى أن النبوة تتناسخ وتظهر فى الأولياء !!

ولهذا كان من اليسير على بعض الصوفية أن يدعوا لأنفسهم سرا وجهرا صفة النبوة والرسالة .. فكان الشبلى يقول لتلميذه : « أشهد بأنى أنا رسول الله » !! .. ويحكون أن تلميذه هـذا كان من أصحاب الكشف ، ولذلك أقر له بالرسالة فقال : « أشهد أنك رسول الله »!!

كما اصطنعوا الأحاديث اللازمة لتأييد فضل الأولياء على الأنبياء مثل قولهم : « الأولياء على منابر من نور ، وانهم فى مقام يغبطهم عليه الأنبياء والشهداء » !!

بل لقد زادوا على ذلك .. فخرجوا بعبارات يتطاولون بها على مقام الرسل الكرام .. فيقول الجيلانى : « أنتم معشر الأنبياء أوتيتم اللقب ، وأوتينا — أى نحن الأولياء — ما لم تؤتوا » !!

وأى عجب فى هذا .. بعد أن تطاول ابن عربى بالالحاد فى أسماء الله تعالى ، فقال : « ان الله لم يتسم بالنبى ولا بالرسول .. ولكن تسمى بالولى » ؟ !

* * *

وبناء على هذه النظرية الغريبة .. اعتبروا النبوة مكتسبة وليست اصطفاء واختيارا من الله تعالى !!

يقول أبو حامد الغزالى : « وأما الأنوار العقلية المعنوية فالعالم الأعلى مشحون بها ، وهى جواهر الملائكة »[٢١] !!

ثم يوضح حقيقة الوحى على هـذا الأساس فيقول : « ان الخيال

---

(٢١) مشكاة الأنوار ، للغزالى ، ص ١٩٩

الكثيف اذا صفى ورفق وهذب وضبط •• صار موازيا للمعانى العقلية وغير حائل عن اشراق نور منها »[٣٢] !!

وبهذا يكونون قد نفوا مبدأ الاصطفاء والاختيار فى النبوة •• وصارت تحصل لمن يتصل بالعقل الفعال بسبب الاستعداد للأشخاص من غير أن يكون من الملأ الأعلى سبب يخص شخصا دون شخص بالخطاب والتكليم !!

كما أنهم خرجوا عن فكرة ختم الرسالة بمحمد ﷺ •• وأنه صار من الممكن — فى عرفهم — أن يرسل الله من بعده رسلا — ويعنون بهم الحكماء المتألهين — كما ذهب الى ذلك السهروردى المقتول ••

وذلك مثل مناجاة ابن الفارض التى يقول فيها :

آنست فى الحى نارا ليلا فبشرت أهلى

الى أن يقول :

وصرت موسى زمانى قد صار بعضى كلى

كما أن فى هذا أيضا انكار لمظاهر الرسالة والوحى •• تلك المظاهر التى ثبتت تاريخيا ودينيا •• محاولين تأويل الديانات الموحى بها تأويلا يمسخها الى مقامات الصوفية[٣٣] ••

* * *

ويقول الأستاذ سميح عاطف الزين فى حديثه عن الولاية والنبوة عند الصوفيين[٣٤] :

« ليس بين شطحات الصوفية شطحة أحفل بدواعى العجب من تلك التى يزعمون فيها أن الرسول الكريم خص بعلومه وأحوالهم نفرا من قرابته وفريقا من أهل محبته ، بما نفث فى صدورهم من علوم « الحقيقة » وأسرار « الباطن » •• وانه أورث هؤلاء الأقارب

(٣٢) المرجع السابق ص ٢١٧
(٣٣) التصوف الاسلامى ، ص ٢٤٤
(٣٤) انظر : الصوفية فى نظر الاسلام ، له ، ص ٩٠

والأحباب ميراث النبوة « الروحى » .. فى شكل « ولاية » يتناقلها السعداء من شيوخ التصوف كابرا عن كابر .. فى سلسلة من الآباء الروحانيين الى يوم القيامة !!

« ويسمى هـذا النسب الروحى فى أوساط الصوفية « حسبا » ويعرف أهله المحسوبون بانهم « أهل الله » .. وهى بدعة ظهرت فى العالم الاسلامى بظهور التصوف ..

« وقد أراد المروجون لها من الشعوبية انتزاع الفضل فى الاسلام من أولئك الذين حملوا اليهم هدايته من الجزيرة العربية ، بشعور ممقوت من كراهيتهم للعرب ، وبدافع من احساسهم بالنقص الشـديد أمام الكمال العربى الاسـلامى .. مما فرض عليهم التطاول على الواقع بالمزاعم والادعاءات ..

« ولكن هـذه البدعة .. لم تنفعهم كثيرا أول الأمر ، ولم ترفع قدرهم أمام أهل العصبية العربية ، فسارعوا الى تلفيق بدعة أخرى تقوم على ادعاء النسب العائلى الى جانب هـذا النسب الروحى الذى أوجده خيالهم .. فزعموا للناس اتصال نسبهم بالرسول — ﷺ — عن طريق الحسين عليه السلام غالبا ، والحسن عليه السلام أحيانا .. مع أن أكثرهم من مجهولى الانساب » !!

ثم يتحدث عن الولاية عند الصـوفية فيقول : « نجح اختراع الصوفية هـذا بين العوام .. فأخـذوا يفاخرون بميراثهم الروحى الموهوم ، ونسبهم الجديد المزعوم .. وحسبوا أنفسهم غاية الله من خلقه ، وصفوة الصفوة من عباده !!

« وكان ذلك سببا فى ادعاء امتيازهم على الناس ، واختصاصهم من دونهم بالولاية ، تعويضا شعوبية عما حرموا أنفسهم من الكسب والطيبات ، وثمن لـمـا تركوه من المباحات !!

« فلما أصبحت الولاية لهم وحدهم .. شـكلوها بما يناسب أهواءهم ، وأخرجوها من مراد الله منها ، وساروا بها فى طريقها الهندى القديم : من تعذيب النفس بالرياضات والمجاهدات .. وسموا ذلك

« طريق الوصول الى الله » •• وجعلوا لهذا الطريق مراحل يقطعها « السالك » •• مرحلة اثر مرحلة •• حتى يصل فى نهايته الى مرحلة « الفناء » التى هى غاية الغايات عند الصوفية ••

« ثم قسموا الولاية الى درجات ومراتب •• بعضها فوق بعض •• أعلاها مرتبة « القطب » أو « الغوث » •• ومن بينها رتب : الصديقين ، والأوتاد ، والأبدال ، والعصب ••

« ولهم فى ترتيب المقامات سلم كثير الدرجات ••

« ثم افتتن الصوفية بالولاية فقالوا : هى مرتبة انتفاء الأخذ بالأسباب ، فيكفى أن يدور الأمر برأس الولى ليكون قدرا مقدورا !!

« وبالغوا فى تعظيم أصحاب الولاية •• فأنزلوهم منزلة فوق منازل النبيين والصديقين والشهداء ، فهم يقولون : أن للأولياء فى حياتهم قوة قدسية ينالون بها العلوم من غير تعلم •• فعندهم سر اسم الله الأعظم ، وعلم اللوح والقلم ، وما فى أم الكتاب •• وأنهم ليسخرون الكون لمشيئتهم ، وأن الأرزاق والنعم توزع على الناس من طريقهم ، ولذلك تجب طاعتهم وطلب « المدد » منهم !! ويقولون انهم معصومون من الذنوب ، فاذا أذنبوا احتجوا بالقدر ، أو اعتذروا بأن الشرائع لم تنزل من أجلهم •• الى غير ذلك !!

« ثم يقولون عنهم بعد الموت : انهم لا يموتون : وانما يرفعون •• وأن أجسادهم لا تبلى فى القبور ، وأنهم فى حياة البرزخ يشرفون على شئون الخلق كما كانوا فى الدنيا »[٣٥] !!

ويحدثنا ــ جزاه الله خيرا ــ عن مفهومهم للنبوة والولاية فيقول : « لم يقتنع الصوفية بما ذهبوا اليه من الشطح والادعاء فى تفسيرات الولاية ، حتى قرنوا بين الولاية والنبوة ، وجعلوا للولاية خصائص وميزات من جنس خصائص النبوة وميزاتها •• فهم يجعلون «الكشف» فى الولاية نظير « الوحى » فى الرسالة » ••

---

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٩١ ، ٩٢

[ونقول : الكشف عند الصوفية •• درجة من درجات المعرفة التى لا تحصل بالعقل ، وقد يسمونه الفيض ، ونظرية الفيض أو « الاشراق » مقتبسة — كما مر بك — من الأفلاطونية الحديثة التى توسعت فى شرحها بعد أن أخذت فيها اراء افلاطون وحكماء الهند] •

« ويقولون : ان الأولياء يتلقون « الفيض » وما يسمونه « العلم اللدنى » عن الله مباشرة •• فلا حاجة بهم الى الرسل لأنهم يأخذون من نفس المورد الذى يأخذ منه الرسل ! ، ويضعون الكرامات التى لا تخرج عن كونها نوعا من التحدس والتصورات الخرافية فى منزلة معجزات الرسل •• ثم يتبعون هذا الادعاء بانتحال معجزات الرسل واحدة واحدة •• ومحيى الدين بن عربى ينعت الولاية بالنبوة •• فيقول : « نبوة الولاية » و « نبوة الشرائع » •• ويقول : هما من معدن واحد »(٣٦) ••

* * *

● ويشرح فضيلة الشيخ عبد الرحمن الوكيل أطوار الوجود الصوفية ، فيقول : « تدين الصوفية بأن الوجود الالهى له أطوار ، أو مراتب ، أو تنزلات ، او تعينات ، أو نسب ، او اضافات •• فكلها ذات مدلول خرافى واحد !!

« وأولى تلك المراتب : «العماء» •• والوجود الالهى فى هذا الطور لا يوصف بوصف ، ولا يسمى باسم ، ولا يعرف بحد ولا برسم !! •• أو كما يقول الدمشخانلى : « اعلم أن حقيقة الذات الالهية من حيث هى هى ، امتدادها — أعنى مدة بقائها — غير مضبوط •• لأنها من حيث هى كذلك لا وصف لها ، ولا رسم •• فهى العماء ، اذ لا يمكن معرفتها بوجه من الوجوه ما لم تتعين بصفة ••

« وأول هذه التعينات عنها بذاتها •• فهذه الصفة تنزل لها من الحضرة الالهية الذاتية التى لا نعت لها الى الحضرة الواحدية التى هى حضرة الأسماء والصفات ، وتسمى : الحضرة الالهية »(٣٧) •

---

(٣٦) نفس المرجع ص ٦٢

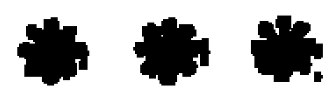
(٣٧) جامع الأصول ، الدمشخانلى ، ص ٩٣

ثم يقول : « نقلت لك النص بتمامه •• ليستيقن قلبك بأننا ننصف الصوفية ، فلا نسميهم الا بما يحبون أن يعرفوا به •• وقد يسمى الرب الصوفى فى تلك المرتبة بالوجود المطلق •• بيد أن النابلسى — فى غلو التجريد الذى ينتهى به الى العدم المطلق — ينزه الوجود فى تلك المرتبة حتى عن الاطلاق •• لأن وصفه بالمطلق قيد ، أو صفة له •• فيستلزم أن يكون المطلق مقيدا ، والمقيد مطلقاً !! فيتوتر التناقض بين وصفيه ، ويستلزم أن تكون له صفة ، وهو مجرد كل التجريد عند ذلك الطور عن الاسم والصفة !!

« ورغم هـذا •• فهو واقع فى التناقض ، لأن الوصف بالسلب — أى عدم الاطلاق — قيد أيضا للوجود كالوصف بالايجاب !!

« ولقد أراد هـذا « العماء » أو « الوجود المطلق » أن يتعين فى صورة••ليعرف وليعرف نفسه!!فتعين فى صورة «الحقيقةالمحمدية» فكانت هى التعين الأول للذات الالهية •• أو الفتق بعـد الرتق •• أو معبر الوجود من الاطلاق الى التقييد •• أو من العماء الى الأحدية ، ثم الواحدية »[٣٨] •

ولهذا نراهم يضعون الحديث الصوفى : « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن أعرف •• فخلقت الخلق •• فبى عرفونى » •• ويفسرون معنى « فبى » بكلمة « محمد » •• لأنها تساويها فى العدد فى حساب الجمل !!



● الحقيقة المحمدية :

يعرف الصوفيون الحقيقة المحمـدية « بأنها الذات مع التعين الأول ، ولها الأسماء الحسنى ، وهى اسم الله الأعظم »[٣٩] !!

يقول الدمرداش : « حقيقة الحقائق •• هى المرتبة الانسـانية

---

(٣٨) هذه هى الصوفية ، لعبد الرحمن الوكيل ، ص ٧٣ ، ٧٤

(٣٩) انظر : جامع الأصول ، للكمشخانلى ، والتعريفات : للجرجانى .

الكمالية الالهية الجامعة لسائر المراتب كلها ، وهى المسماة بحضرة الجمع ، وبأحدية الجمع ، وبها تتم الدائرة ، وهى أول مرتبة تعينت فى غيب الذات ، وهى الحقيقة المحمدية »[٤٠] .

ويقول الكمشخانلى : « صور الحق هو محمد ، لتحققه بالحقيقة الأحدية والواحدية » !!

كما يقول انه : « الجامع لجميع الأسماء ، أو هو اسم الذات الالهية من حيث هى هى .. أى مطلقة »[٤١] !!

والأحدية .. هى : « مجلى الذات الالهيـــة ، ليس للأســـماء ولا للصفات ولا لشىء من مؤثراتها فيه ظهور .. فهى اسم لصرافة الذات المجردة عن الاعتبارات الحقية — أى لا توصف بأنها حق — والخلقية »[٤٢] .

والرسول ﷺ — عندهم — « عبارة عن مجلى ظهور الذات فيها صفة ، والصفة فيها ذات »[٤٣] !!

والفرق بين الاحدية والواحدية : « أن الأحدية لا يظهر فيها شىء من الأســـماء والصـــفات .. أما الواحدية فتظهـــر فيهـــا الأســـماء والصـــفات »[٤٤] !!

فالرسول ﷺ — طبقا لعقيدتهم هذه — « هو الله سبحانه ، ذاتا وصفة .. وهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو الموجود المطلق والوجود المقيد ، كان ولا شىء قبله أو معه ، ثم تعين فى صور مادية سمى فى واحدة منها بجماد ، وفى أخرى بحيوان .. وهكذا حتى اندرج تحت اسمه كل مسمى ، وصدقت ماهيته على كل ماهية »[٤٥] !!

ومبتدع هـــذه النظرية هى محيى الدين بن عربى .. وذلك نتيجة لتأثره بنظريتى الفيض والمعرفة الاشراقية ، وقوله بوحدة الوجود ..

---

(٤٠) رسالة فى معرفة الحقائق . لمحمد الدمرداش . ص ٧
(٤١) جامع الأصول . ص ١٠٧ ، ٩٢
(٤٢) المرجع السابق .   (٤٣) نفس المرجع .
(٤٤) نفس المرجع .
(٤٥) هذه هى الصوفية . مرجع سابق : ص ٧٤ ، ٧٥

ولهذا ابتدع هـذه النظرية واعتنقها ليبنى عليهـا مبدأه فى وحدة الوجود ، ونظريته فى العلم اللدنى للأولياء ، أو لخاتم الأولياء .. وهما جماع مذهبه ..

أبتدع ابن عربى نظريته فى وحدة الوجود .. متصورا ربا عجيبا .. يجمع بين النقيضين المتوترين فى ذاته ، وبين الضدين الحقيقيين فى صفاته ..

فهو الوجود الحق ، وهو العدم الصرف .. هو الخلاق ، وهو المخلوق .. هو عين كل كائن ، وصفاته عين صفات كل موجود وكل معدوم .. هو الحق الكريم ، والباطل اللئيم .. هو الفكرة العبقرية ، والخرافة الحمقاء .. هو الخاطرة الملهمة ، والوهم الذاهل ، والخيال الحيران ، والمستحيل الذى لا يتصور فيه العقل أبدا أن يخطر حتى مرة واحدة فى بال الامكان ، والممكن الذى يرى فيه الفكر أجلى معانى الامكان .. والذى لا يتوهم فيه العقل وهم استحالة .. هو المؤمن ، وهو الكافر .. هو الموحد الخالص التوحيد ، وهو المشرك الأصم الوثنية .. هو الجماد الغليظ ، وهو الحيوان ذو المشاعر المرهفة والحساسية المتوقدة .. هو الملاك الساجد تحت العرش ، وهو الشـيطان الذى يصطرخ فى سـقر .. هو القديس الناسك يذوب قلبـه فى دموع التسابيح ، وهو العربيد يضج الماخور من بغى خطاياه .. هو الراهبة التى تحيا على محبة الله وتقواه ، وهو الغانية التى تحيا للجسد المبذول وتعيش على ثمنه .. هو النور يغمر الوجود بمباهجه ، وهو الظلام موار الكهوف بالفزع والرهبة [٤٦]!!

ولهذا رأينا ابن عربى يؤمن بأن اليهود عباد العجل ناجون .. بل انه يؤمن بأنهم كانوا على علم بحقيقة الألوهية ، ذلك العلم الذى لم ينعم موسى ولا هارون بلمحة من تجلياته .. فانهم — فى نظره — ما قصروا العبادة على فكرة مجردة خاوية كموسى ، وانما عبدوا الرب

---

(٤٦) المرجع السابق ، ص ٣٤

متجليا فى صورة عجل .. فأدركوا من حقيقة الأمر ما لم يدركه موسى وهارون .. وهو أن الذات الالهية لا تعبد إلا حين تتجلى فى صور خلقية !!

ومن هذا المنطلق .. نراه يؤمن بقدسية عبدة الأصنام ، ويمجد صدق ايمانهم واخلاص توحيدهم .. ويؤمن بالصابئة عبادا يوحدون الله ويخلصون له الدين .. كما يؤمن بسمو أيمان النصارى حين عبدوا ثلاثة آلهة ، ولكنه يعيب عليهم قصورهم عن ادراك الحقيقة الكاملة فى تصوره .. فالرب — عنده — ليس هو تلك الأقانيم فحسب ، وانما هو عين ما يرى أو يحس ، وعين ما لا يرى أو يحس .. ولهذا فهم مخطئون — فى نظره — لأنهم عبدوا مظاهر الرب ، أو بعض تعيناته .. وكان واجبا أن يعبدوه فى الكل لأنه هو ذلك الكل فيما ظهر ، وفيما بطن(٤٧) !!

ويؤكد ابن عربى أن كل شىء هو الله سبحانه فيقول : « سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها »(٤٨) !!

ويقول : « ان العارف من يرى الحق — أى الله تعالى — فى كل شىء ، بل يراه عين كل شىء »(٤٩) !!

ويقول : « فما يحد شىء الا وهو حد الحق .. فهو السارى فى مسمى المخلوقات والمبدعات ، فهو الشاهد من الشاهد ، والمشهود من المشهود .. فالعالم صورته . وهو روح العالم المدبر له .. فهو الانسان الكبير »(٥٠) !!

والحد .. هو أتم أنواع التعريف .. فاذا عرفت الصنم مثلا بحد ما .. فهذا التعريف صادق على الرب — فى تصوره — لأنه هو ذلك الصنم نفسه !!

ويقول عن صور العالم : « هى ظاهر الحق اذ هو الظاهر ، وهو باطنها اذ هو الباطن .. وهو الأول ، اذ كان ولا هى ، وهو الآخر ، اذ كان عينها عند ظهورها »(٥١) !!

---

(٤٧) راجع الفصوص لابن عربى ، الفص « العيسوى » ، و « المحمدى » .
(٤٨) الفتوحات ، ج ٢ ص ٦٠٤ (٤٩) الفصوص ج ١ ص ١٩٢
(٥٠) الفصوص ج ١ ص ١١١ (٥١) المرجع السابق ص ١١٢

فالرب — في تصور ابن عربي — هو كل ما نرى من صور العالم .. اسمع اليه وهو يقول : « هو عين ما ظهر ، وهو عين ما بطن في حال ظهوره .. وما ثم من يراه غيره » — أي أنك اذا رأيت انسانا أو حيوانا أو حجرا ، فقد رأيت الرب نفسه !! فالرائي والمرئي هما عين ذلك الرب ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا !!

ثم يقول : « وما ثم من يبطن عنه ، فهو ظاهر لنفسه باطن عنه ، وهو المسمى أبا سعيد الخراز(٥٢) وغير ذلك من أسماء المرئيات »(٥٣) !!

والعارف بالله الحق — عنده — هو من يرى : « سريان الحق — أي الله تعالى — في الصور الطبيعية والعنصرية . وما بقيت له صورة الا ويرى عين الحق فيها »(٥٤) !!

ويصف ابن عربي الرب — سبحانه — بالعجز والنقص ، والسفه والحماقة .. وبأنه مناط مذمة وتحقير ومهانة !! فيقول : « ألا ترى الحق يظهر بصفات المحدثات ، وأخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص وبصفات الذم (!!) .. ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها الى آخرها — وكلها حق له — كما هي صفات المحدثات حق للحق »(٥٥) !!

وهو — عنده — يستغرق كل نسبة عدمية أو وجودية .. فيقول : « فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستغرق به جميع الأمور الوجودية ، والنسب العدمية ، بحيث لا يمكن أن يفوته نعت منها .. وسواء أكانت محمودة عرفا وشرعا ، أو مذمومة عرفا وعقلا وشرعا .. وليس ذلك الا لمسمى الله تعالى خاصة »(٥٦) !!

ويزيح ابن عربي الستار عن مكنون عقيدته حين يقول : « العارف المكمل من رأى كل معبود مجلى للحق يعبد فيه . ولذلك سموه كلهم الها

---

(٥٢) هو أحمد بن عيسى (ت ٢٧٩ هـ) وكان ممن تكلموا في الفناء الصوفي .

(٥٣) المرجع السابق جـ ١ ، ص ٧٧

(٥٤) نفس المرجع ص ١٨١ (٥٥) المرجع نفسه ص ٨٠

(٥٦) نفس المرجع ص ٧٩

مع اسمه الخاص بحجر أو شجر ، أو حيوان ، أو انسان ، أو كوكب ، أو ملك »[٥٧] !!

فهو يعدد فى هذا النص آلهة الذين كفروا من قبل ، حين عبدوا الحجر والشجر والحيوان والانسان والكواكب والملائكة .. فيصوب عبادة الصابئة للكواكب ، وعبادة اليهود للعجل ، وعبادة النصارى للثالوث ، وعبادة الوثنيين للأصنام التى أقاموها لمن مات من أوليائهم .. فالكل — فى نظره — ما عبدوا الا ربا واحدا تجلى فى صورة تلك المعبودات !!

بل ان ابن عربى يوغل فى عبادة الأنثى !!

انظر اليه حين يقول : « ولما أحب الرجل المرأة ، وطلب الوصلة ، أى غاية الوصلة التى تكون فى المحبة . فلم يكن فى صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح . ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها .. ولذلك أمر بالاغتسال منه ، فعمت الطهارة كما عم الفناء فيها عند حصول الشهوة .. فان الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره فطهره بالغسل ليرجع بالنظر اليه فيمن فنى فيه ، اذ لا يكون الا ذلك ..

« فاذا شاهد الرجل الحق فى المرأة كان شهودا فى منفعل .. واذا شاهده فى نفسه من حيث ظهور المرأة عنه شاهده فى فاعل .. واذا شاهده فى نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه ، كان شهودا فى منفعل عن الحق بلا واسطة .. فشهوده للحق فى المرأة أتم وأكمل ، لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل ، ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة ، فلهذا أحب ﷺ النساء لكمال شهود الحق فيهن : اذ لا يشاهد الحق مجردا عن المواد أبدا ، فشهود الحق فى النساء أعظم الشهود وأكمله .. وأعظم الوصلة النكاح »[٥٨] !!

أرأيت بأى اجتراء وأى زندقة يصور الرب تعالى ؟ !

---

(٥٧) نفس المرجع ص ١٩٥

(٥٨) الفصوص ، ط الحلبى ج ١ ، ص ٢١٧

فالحق فى التعريفات الصوفية هو الذات الالهية فى وجودها المطلق !!

أرأيت بأى اجتراء وأى زندقة يزعم أن علة حب الرسول ﷺ للنساء هى اعتقاده أنهن الله تعالى فى أجمل صور تعيناته وتجلياته ، ورغبة فى الالتذاذ الجسدى المتنوع بربه !! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ..

أرأيت كيف زعم أن الله لم يأمر بالغسل الا ليتطهر العبد مما توهمه من أنه كان مع امرأة على حين كان هو مع الربة الصوفية جسدا وخطيئة !!

ان جلدى ليقشعر .. وشعرى ليقف فزعا ، ويكاد قلمى ينقصف وأنا أنقل لك هـذه الصورة البشعة للكفر والزندقة والضلال .. والله تعالى أسأل أن يتجاوز عن ذنبى فى هـذا فما أردت الا تعريفك — أخى القارىء — بمبدأ وحدة الوجود الذى ابتدعه ابن عربى وأقام عليه دينه ومذهبه !!

ان ابن عربى لم يبتدع نظريته فى الحقيقة المحمدية .. الا ليبنى عليها مبدأه فى وحدة الوجود .. ونظريته فى العالم اللدنى للأولياء ..

وقد تحدثنا عن ذلك حين عرضنا للمعرفة الاشراقية فى صدر هذا المبحث ، وآن أن نحدثك عن هذه الحقيقة المحمدية التى افتروها .. والله الكريم يغفر لنا ما نعرض من أفكارهم وافكهم وزورهم ..

قلنا ان الرسول ﷺ — فى عقيدتهم — هو الله سبحانه ، ذاتا وصفاتا !!

وليس الرسول — فى زعمهم — بشرا ولا رسولا .. وانما هو الذات الالهية فى أسمى مراتبها ، وهو الاسم الأعظم : وهو الأحدية والواحدية !!

يقول الله تعالى : **« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »**(٥٩) ؟

---

(٥٩) آل عمران : ١٤٤

ويقولون : هو الذات مع التعين الأول ، وله الأسماء الحسنى ، وهو أسم الله الأعظم !!

ويقول تعالى : « **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحـــد** »[٦٠] .

ويقولون : صورة الحق هو محمد — ﷺ — لتحققه بالحقيقة الأحدية والواحدية ، وهو مجلى الذات الالهية !!

اسمع الى ابن عربى وهو يقول : « اللهم أفض صلة صلواتك وســلامة تسليماتك على أول التعينات المفاضة من العماء الربانى ، وآخر التنزلات المضافة الى النوع الانسانى ، المهاجر من مكة — كان الله ولم يكن معه شيء ثان — الى المدينة ، وهو الآن على ما عليه كان ، محصى عوالم الحضرات الخمس فى وجوده ، سر الهوية فى كل شيء سارية ، الجـامع بين العبـودية والربوبية ، الشـامل للامكانيـة والوجوبية »[٦١] !!

ويعلق على هـذا فضيلة الشـيخ عبد الرحمن الوكيل قائلا : « ... أرأيت الى قطب الصوفية الأكبر فى غى الحاده الأكبر ، يفترى أن محمدا — ﷺ — هو الله ؟ ! ..

وتأمل دهاء مكره فيما يعبر به عن كفره فى قوله : « المهاجر من مكة كان الله ولم يكن معه شيء ثان الى المدينة » .. انك حين تقرأ تلك الجملة دون تدبر ستظن أن فيها خللا .. وأن جملة « كان الله ولم يكن معه شيء ثان » — لا صلة لها بما قبلها ولا بما بعدها !!

ثم يقول : « واعترف أننى خدعت ، فظننت أن هـذه الجملة مقحمة ، وحرت فى ادراك هدف ابن عربى من وضع تلك الجملة التى تبين عن حق كريم بين باطل عربيد ، وآخر لئيم !!

بيد أنى عدت الى النص أتلوه ، وفى فكرى دين ابن عربى ،

---

(٦٠) الكهف : ١١٠ .

(٦١) مجموعة الاحزاب ط . استانبول ، ١٢٩٨ هـ ، ص ٢ .

وثمت بدا لى هدفه فى وضوح وجلاء •• وتبين لى أن الجملة ليست مقحمة ، وانما هى لحمة دينه وسداه ••

فلنعد الى الجمـلة نرتبها كما تحتم قواعد اللغـة الصحيحة : « المهاجر من مكة الى المدينة كان الله ، ولم يكن معه شىء ثان » •• ما زدنا شـيئا على قوله ولا نقصنا منه •• وكل ما فعلناه هو وضع قوله « الى المدينة » موضعه ، بعد أن نأى به ابن عربى عنه ، ليمكر به ويلتوى على القراء فهمه !!

بهذا يبدو لك جليا •• أن ابن عربى يفترى أن المهاجر من مكة الى المدينة لم يكن هو محمدا رسول الله •• وانما كان هو الله متجليا فى صورة اسمه فيها « محمد » !!

ولا ريب فى أنك تعرف : أن صاحب الرسول — ﷺ — فى الهجرة كان أبا بكر •• غير أن ابن عربى يقول : « ولم يكن معه شىء ثان » !! يعنى أن أبا بكر هو الآخر لم يكن الا الله متعينا فى صورة اسمه فيها « أبو بكر » !!

ومات محمد ﷺ •• ومات من بعده أبو بكر — رضى الله عنه — فأى الله هـذا الذى يتجرع غصة الموت مرتين !! •• بل ما ذلك الاله الذى يموت ويحيا فى كل لحظة آلاف المرات » ؟ !

ثم يقول فضيلته : « لقد دانت الصوفية بأن الرب الأكبر هو عين خلقه !! •• وفى كل لحظة يعبر بها الوجود تفنى حياة وتنبثق حياة •• فيا للصوفية ! يعبدون ربا يموت آلاف المرات . ويولد آلاف المرات فى آن واحد !!

« ومحمد الصوفية له مظهران ، أو اعتباران . فهو عبد أو خلق باعتبار ظاهره •• وهو رب أو حق باعتبار باطنه !!

« ولهذا يصفه ابن عربى — باعتبار ظاهره — بأن له العبودية !!

« ويصفه — باعتبار باطنه — بأن له الربوبية !!

« يصفه بأن له الامكانية باعتبار ناسوته .. وبأن له الوجوبية باعتبار لاهوته »(٦٢) !!

ويقول النابلسى وهو يتحدث عن شهادة التوحيد : « وأما بيان الحقيقة ، فان هاتين الشهادتين تداخلتا بحيث صارتا شهادة واحدة ، وبينهما تلازم معنوى ..

فان الله تعالى أظهر محمدا ﷺ عندنا ، ومحمد ﷺ أظهر الله تعالى عندنا أيضا .. كما أن النور لا يعرف الا بالظلمة ، والظلمة لا تعرف الا بالنور .. ولهذا قال تعالى : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله** »(٦٣) .. فجعل اطاعة الرسول هى اطاعة الله تعالى . وقد تكرر لفظ الجلالة مرتين فى الشهادتين ، ووقع بينهما اسم محمد اشارة الى أن الله من حيث هو . والله من حيث محمد واحد ، والفاصل بينهما هو مجرد هذه الصورة المحمدية لا غير .. وهذه الصورة له من حيث محمد ، لا له من حيث هو .. فانه من حيث هو لا يقبل الاشارة مطلقا ، والصورة معدن الاشارة .. ولهذا كانت الشهادة الأولى مشتملة على النفى فى أولها بحرف « لا » اعلاما بالتنزيه الذى ينبغى من أول الأمر ، بخلاف الشهادة الثانية صدرت بالاثبات مؤكدة بـ « أن » ..

ومرادنا بالصورة المحمدية — التى هى حجاب الله تعالى عند قوم ، ومجلاه ومظهره عند آخرين — اللفظ والمعنى جميعا ، فان الظاهر والباطن يدخل تحت مسمى الصورة : فظاهرها عندنا باطنها عند الملائكة ، وظاهرها عندهم باطنها عندنا .. فهو الظاهر من حيث ما هو باطن ، وهو الباطن من حيث ما هو ظاهر .. فأخذت الصورة حكم المتصور بها ، ولهذا قال تعالى : « **فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك** »(٦٤) ، وانما كان ذنبه : اعتقاد المغايرة . والشهادتان فى الحقيقة شهادة

---

(٦٢) هذه هى الصوفية ، لعبد الرحمن الوكيل ، ص ٧٧ — ٧٩

(٦٣) النساء : ٨٠. (٦٤) محمد : ١٩

واحدة .. ولكن حالت الصورة بينهما كما ذكرنا .. فمن نظر اليها قال بالثنوية ، والتوحيد انصرف يأبى ذلك »(٦٥) .

* * *

ونحن .. لا نريد أن نطلق الاتهام كما أطلقه فضيلة الشيخ عبد الرحمن الوكيل .. ولا نقول بمثل قوله ان جميع الصوفية يعبدون ذلك الرب الذى اخترعه ابن عربى بادعاء وحدة الوجود والحقيقة المحمدية .. ذلك الرب الذى يموت آلاف المرات ، ويولد آلاف المرات فى آن واحد !!

نحن لا نقول بمثل هذا القول ..

فما كل متصوف سمع بوحدة الوجود .. وما كل متصوف عرف الحقيقة المحمدية ..

انما كان هذا قول الفلاسفة منهم الذين أسسوا هذه العقيدة الدخيلة على الاسلام — أعنى الحقيقة المحمدية — ليبنوا عليها الزعم بوحدة الوجود ..

ونقول : ان هذه العقائد دخيلة على الاسلام لأنه لم يكن لها أصل فى الصدر الأول له ، قبل أن يهتم المسلمون بنقل الفكر الوثنى لأرسطو وأفلاطون وأفلوطين ثم يخلطونه بعقيدة التوحيد التى قام عليها الاسلام ..

ان هذا الكلام جد خطير .. بل هو الخطر كله !!

ونحن نعرف مدى خطورة هذا الكلام !!

ومعرفتنا لهذه الخطورة هى التى تدعونا للتصدى له !!

ونحن نعرف أننا حين نتصدى لهذا الكلام الخطير نؤلب علينا المئات بل الألوف !!

وأن هذه المئات أو الألوف ، سوف تستعدى علينا كل سلطة .. سواء أكانت سلطة الدهماء ، أو سلطة الحكام !!

---

(٦٥) انظر « حقائق الاسلام وأسراره » ، مرجع سبقت الاشارة اليه ، ص ١٦٨ ، ١٦٩

ولكن .. ما حيلتنا ونحن ندرك خطورة هـذه الأفكار التى تمسخ عقيدة التوحيد وتحيلها الى كائن هزيل لا يصمد أمام الأيام ؟ !

ما حيلتنا .. ونحن نطالع هـذا الكلام الخطير حين نقرأ أفكار فلاسـفة الصوفية الأوائل .. ثم لا نجد من يتصدى لها من العقلاء والمعتدلين من رجال الطرق المعاصرين — وبعضهم قد بلغ بحمد الله أرقى درجات العلم — لا يتحدون لهـذه الأفكار الا بقولهم : ان القائلين بالحلول والاتحاد والوحـدة قد انتهى أمرهم وليس لهم اليوم تابع ولا وارث .. وأن ما نسب اليهم قد أصبح اليوم نوعا من الحفريات التاريخية التى لا يتابعها الا الهواة والمتخصصون فى البحث عن مقابر الأفكار المهملة ، والا أصحاب الهوى الذى يعمى ويصم ؟ !

ما حيلتنا .. ونحن نرى هـذه الأفكار والعقائد — وان لم تبد واضحـة جلية أمام الناس — تتسلل الى حياة وسلوك المئات والألوف من الأتباع والمريدين دون أن يعرفوا لها أصلا ، أو يعلموا لها مصدرا ؟ !

ما حيلتنا .. ونحن نرى البعض — من المسلمين — يعملون بحسن نية — أو بغير ذلك — على هدم عقيدة التوحيد التى جاء بها الأنبياء والرسل منذ بعث الله أنبياء ورسلا ؟ !

ماذا نملك من فعل ونحن نرى المعاول تنهال على التوحيد الذى بنى عليه الاسلام لكى تهدمه من أساسه وتقيم على أنقاضه بناء هزيـلا أساسه وحدة الوجود ؟ !

ان الاسلام — كما قلنا أكثر من مرة ، ولن نكف أبدا عن ذلك القول — هو دين التوحيد الكامل ..

وتوحيد الاسلام .. ليس كتوحيد اليهود الذين عبدوا « يهوه » وجعلوه الها خاصا لا يخص سوى بنى اسرائيل !!

توحيد الاسلام .. ليس كثنائية المجوس الذين عبدوا الها للنور وآخر للظلمة !!

توحيد الاسلام .. ليس كتثليث النصارى .. الذين ادعى فريق منهم أن المسيح ابن الله ، وادعى الفريق الآخر أنه هو الله نفسه !!

توحيد الاسلام .. يقول : لا إله الا الله .. محمد رسول الله ..

فالله تعالى هو خالق السموات والأرض ومن فيهن .. وهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة .. ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير ..

وما محمد — ﷺ — الا رسول قد خلت من قبله الرسل .. بشرا منا .. فضله الله علينا بالوحي .. واختصه من دوننا بالرسالة ..

فمبلغ العلم فيه — كما يقول البوصيري — أنه بشر ، وأنه خير خلق الله كلهم ..

فاذا ما قام من بين صفوفنا — نحن المسلمين — من يدعو الى وحدة الوجود ، وينادي بالحقيقة المحمدية على هذه الصورة .. فان الأمر جد خطير ، ويدعو المسلم الغيور على دينه وتوحيده الى التصدي له ..

وليت الاخوة — من الصوفية المعتدلين — يتصدون لهذه الأفكار الخبيثة المستوردة من الفكر الوثني التي لا تهدف الا لتقويض عقيدة التوحيد !!

ليتنا نواجه الأمر بشجاعة واستشهاد ، بدلا من أن نتأسى بالنعام حين يدفن رأسه في الرمال حتى لا يرى الخطر المحدق به !!

فاللهم اهد قومي ، فانهم لا يعلمون !!

يقول بهاء الدين البيطار : « شأن محمد في جميع تصرفاته شأن الله ، فما في الوجود الا محمد » !!

ويقول : « لا يدرى لحقيقته غاية ، ولا يعلم لها نهاية .. فهو من الغيب الذي نؤمن به » !!

ويقول : « ولما كانت بشريته ﷺ نورا محضا .. كانت فضلاته مقدسة طاهرة ، ولم يكن لجسمه الشريف ظل كالأجسام الكثيفة .. وهذا النور المحمدي ، هو المعنى بروح الله المنفوخ في آدم ، فروح الله نور محمد »[٦٦] !!

ويقول النابلسي في شرحه لصلاة ابن بشيش : « ما صلى على محمد

---

(٦٦) النفحات الاقدسية ، للبيطار ، ص ٩ ، ١١ ، ١٣

الا محمد .. لأن صـلاة العبيد عليه صدرت منهم بأمره من صورة اسـمه »[٦٧] !!

ويقول الدباغ : « اعلم أن أنوار المكونات كلهـا .. من عرش وفرش ، وسموات وأرضين ، وجنات وحجب ، وما فوقها وما تحتها .. اذا جمعت كلها ، وجدت بعضا من نور النبـى .. وأن مجمـوع نوره لو وضع على العرش لذاب .. ولو وضع على الحجب السبعين التى فوق العرش لتهافتت ، ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت وتساقطت »[٦٨] !!

ويقول التيجانى : « لمـا خلق النور المحمدى ، جمع فى هـذا النور المحمدى جميع أرواح الأنبيـاء والأولياء جميعا جمعا أحديا ، قبل التفصيل فى الوجود العينى . وذلك فى مرتبة العقل الأول »[٦٩] !!

ويقول الحلوانى فى قصيدته « المستجيرة » يخاطب رسـول الله ﷺ :

أنشاك نورا ساطعا قبل الورى ... فردا لفرد ، والبرية فى العـدم
ثم اسـتمد جميـع مخلوقاته ... من نورك السامى ، فياعظم الكرم
فلذا اليك الخـلق تفزع كلهم ... فى هذه الدنيا ، وفى اليوم الأهم
واذا دهتهم كربـة فرجتهـا ... حتى سوى العقلاء فى ذاك انتظم
جد لى ، فان خزائن الرحمن فى ... يدك اليمين ، وأنت أكرم من قسم[٧٠]

أين هـذا من قول الله تعالى لرسوله ﷺ : ((ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون • ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، يغفر لمن يشـاء ويعذب من يشـاء ، والله غفـور رحيم))[٧١] .

الله تعالى يقول لنبيه : ((ليس لك من الأمر شىء)) ..

---

(٦٧) مجموع الاحزاب . ص ٥٥٧
(٦٨) الابريز ، للدباغ ص ٨٤
(٦٩) رماح حرب الرحيم . لعمر بن سعيد ، ص ١٤
(٧٠) رسالة لأحمد عبد المنعم الحلوانى . ص ١٤ وما بعدها ..
(٧١) آل عمران : ١٢٨ ، ١٢٩

ويقولون : جد لى ، فان خزائن الرحمن فى يدك اليمين ، وأنت أكرم من قسم !!

ويقول تعالى له : « **قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، ان أتبع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين** »(٧٢) .

ويقول جل شأنه : « **قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . قل انى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا** »(٧٣) .

ويقول الحلوانى : اليك يفزع الخلق كلهم فى هـذه الدنيا ، وفى يوم القيامة ، واذا دهت الناس كربة فرجتها عنهم !!

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : « **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا** »(٧٤) .

ويقول البوصيرى : « فمن علومك علم اللوح والقلم » !!

يقول جل وعلا : « **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه ، وقل رب زدنى علما** »(٧٥) .

ويقول الشعرانى : « اعلم أن رسول الله — ﷺ — أعطى القرآن مجملا قبل جبريل — عليـه السـلام — من غير تفصيل الآيات والسور »(٧٦) !!

ويزعمون أن جبريل — عليه السلام — عجب حين رأى محمدا ﷺ يتلوا القرآن قبل أن يعلمه اياه !! فسأل جبريل ، فأجابه النبى : ارفع الستر مرة حين يلقى اليك الوحى .. ففعل جبريل ، فرأى محمدا هو الذى يوحى اليه .. فصاح مسبحا : منك واليك يامحمد !!

أرأيت الى أى حد وصلت الزندقة والضلال ؟ !

وما أضل الناس وأزاغ أبصارهم سوى ابتداع ابن عربى للحقيقة المحمدية واختراعه لوحدة الوجود !!

---

(٧٢) الأحقاف : ٩ — (٧٣) الجن : ٢١ ، ٢٢
(٧٤) الشورى : ٥٢ — (٧٥) طه : ١١٤
(٧٦) الكبريت الأحمر ، ص ٦

يقول تعالى : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون • ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »(٧٧) •

وما أنزل على ابراهيم والنبيين من بعده سوى التوحيد •• وعلى التوحيد بنى الاسلام الذى ندين به ••

* * *

(٧٧) آل عمران : ٨٤ • ٨٥

الفصل السادس

الولاية •• والمعجزة والكرامة

● الولى : هو العبد الصالح المتحلى بهدى النبى ﷺ ، والذى يعمل بأحكام الشريعة المطهرة •• ويتأدب بآدابها فى اعتقاده وقوله وعمله •• فيعمل بما أمر الله به ، وينتهى عما نهى الله عنه •• ويوالى الله تعالى بالمراقبة والعبادة ، فيواليه تعالى بالرعاية والحياطة ••

يقول تعالى : « **ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون • الذين آمنوا وكانوا يتقون • لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم** »[1] •

فأولياء الله تعالى وأنصاره وأحبابه •• لا خوف عليهم فى الآخرة ، ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا •• لأنهم صدقوا الله ورسوله ، واتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه •• فاستحقوا من الله البشارة فى الدنيا بالرؤيا الصالحة •• وتبشير الملائكة لهم عند قبض أرواحهم برحمة الله ورضـوانه ، وتبشيرهم نهم فى قبورهم حيث يبشرون برضوان الله عند سؤال الملكين لهم •• كما ينعمون بالجنة التى أعدها الله لهم •• وهذا هو الفوز العظيم •• اذ لا خلف لوعد الله ولا تغيير ••

فالولى — والله أعلم — هو المؤمن المتقى لله ، فكل مؤمن تقى هو ولى لله تعالى •• وفى الحديث : « ان من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله » •• قالوا : يارسول الله ، أخبرنا من هم وما أعمالهم ؟ قال : « هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها •• فوالله ان وجوههم لنور ، وانهم لعلى نور •• لا يخافون اذا خاف

---

(١) يونس : ٦٢ — ٦٤

الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس » .. ثم قرأ الآية :« **ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** »[٢] .

وللولى — كما يقول القشيرى[٣] — معنيان : أحدهما (فعيل) بمعنى (مفعول) وهو من يتولى الله سبحانه أمره . قال تعـالى : « **وهو يتولى الصالحين** »[٤] ..

والثانى : (فعيل) مبالغة من (الفاعل) .. وهو الذى يتولى عبادة الله تعالى وطاعته .. فعبادته تجرى على التوالى من غير أن يتخللها عصيان ..

وكلا الوصفين واجب .. وحتى يكون الولى وليا يجب قيـامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء .. ودوام حفظ الله تعالى اياه فى السراء والضراء ..

ومن شرط الولى .. أن يكون محفوظا .. كما أن من شرط النبى أن يكون معصوما .. فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخدوع ..

روى سعيد بن جبير — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ سئل : من أولياء الله ؟ فقال : « الذين يذكر الله برؤيتهم » ..

ووصفهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال : « أولياء الله قوم صفر الوجوه من السهر .. عمش العيون من العبر .. خمص البطون من الجوع .. يبس الشفاه من الذوى »[٥] .

فالعبد متى كان مخلصا لله تعالى : عاملا بدينه ، وداعيا الى العمـل بالشرع .. فهو الولى .. فلقد حـدد الله تعـالى صفات الأولياء بأنهم : « **الذين آمنوا وكانوا يتقون** » .. ووصفهم فى الحديث القدسى بأنهم انما وصلوا الى مكانتهم عند الله تعالى بأداء الفرائض والاكثار من النوافل ..

---

(٢) انظر : تفسير الطبرى ج ١١ ، ص ١٢٢

(٣) فى الرسالة القشيرية ص ١١٧

(٤) الاعراف : ١٩٦ (٥) اى الذبول .

وفسر معنى التقوى المطلوبة •• بأنهم أخضعوا جوارحهم كلها من أعين وأرجل وأفئدة وألسن لله تعالى •• فلا يبصرون ولا يسمعون ولا يمشون ولا يفكرون ولا يتكلمون •• الا فيما يرضيه تعالى ويتفق مع شرعه وهداه ••

ولهذا فهو سبحانه يتكفل بهم ، ويتوعد من يقدم على ايذائهم — بأى نوع من الأذى — بأنه قد استحل محاربة الله تعالى وعرض نفسه لهذه المحاربة •

يقول تعالى فى الحديث القدسى : « من آذى لى وليا فقد استحل محاربتى ، وما تقرب الى عبدى بمثل أداء الفرائض •• وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه •• فاذا أحببته كنت عينه التى يبصر بها ، وأذنه التى يسمع بها ، ورجله التى يمشى بها • وفؤاده الذى يعقل به ، ولسانه الذى يتكلم به •• ان سألنى أعطيته ، وان دعانى أجبته »(٦) •

فالمؤمن المتقى لله •• انما يتقرب الى ربه بأداء الفرائض التى افترضها عليه •• ولا يزال يتقرب الى الله بالنوافل حتى يحبه الله تعالى •• فاذا ما أحبه الله عصمه من الفتن ونجاه من كيد الشيطان •• فلا تبصر عينه الا ما يرضى الله •• ولا يستمع الا لما يحبه الله •• ولا يمشى الا فى طاعة الله •• ولا يشغل عقله الا طاعة الله •• ولا يتكلم لسانه الا فى مرضاة الله ••

ولهذا •• فان العبد المتقى لربه •• اذا سأله أعطاه ، واذا دعاه أجابه •• يسالم من يسالمه ويعادى من يعاديه •• فهو فى حفظ من الله تعالى فى الدنيا والآخرة ••

يقول البخارى فى رواية له عن أبى هريرة رضى الله عنه : « من أهان لى وليا فقد بارزته بالمحاربة » ••

---

(٦) رواه أحمد وابو يعلى والطبرانى وابو نعيم وابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها •

ويقول الحسن البصرى : ابن آدم .. هل لك بمحاربة الله من طاقة ! .. فان من عصى الله فقد حاربه ، وكلما كان الذنب أقبح كانت المحاربة لله أشــــد ..

ولهذا سمى الله تعالى آكلة الربا وقطاع الطريق محاربين لله تعالى ورسوله . لعظم ظلمهم لعباده ، وسعيهم بالفساد فى بلاده ..

وكذا معاداة أوليائه ، فانه تعالى يتولى نصرة أوليائه ويحبهم ويؤيدهم .. فمن عاداهم فقد عادى الله وحاربه ، وتعرض لهلاك نفســـه ..

وروى الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الله الله فى أصحابى .. لا تتخذوهم غرضا ، فمن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

ويقول فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى[٧] : ان الولى هو « من آمن بالله واتقى .. ولـــا كان الايمان والتقوى درجات .. كانت الولاية تختلف باختلاف عمل صاحبها .. والله تعـــالى يقول : « ولكل درجات مما عملوا »[٨] .

ودليل أن الولى هو من آمن واتقى هو قوله تعالى : « **ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون** »[٩] .

ولا يشترط فى الولى كرامة ، وانما يشترط فيه الاستقامة ..

وهناك فرق بين الكرامة والاستقامة .. بل كلما زادت الولاية كلما ستر الله كرامات صاحبها حتى لا يفتن بنفسه ، أو يفتتن الناس به ..

وهناك لله أولياء مستورون عن الناس .. بل ان هناك أولياء ستروا عن أنفسهم .. حتى أن أبا بكر — رضى الله عنه — اذا حسبت كراماته من يوم أن أسلم الى أن مات فلن تجد له عشر معشار ما ينسبه الضالون الى المجهولين ..

---

(٧) الرئيس العام للجمعيات الشرعية فى مصر ..
(٨) الأنعام : ١٣٢ . الأحقاف : ١٩
(٩) يونس : ٦٢ ، ٦٣

اذن •• لا يشترط فى الولى الكرامة •• والعلماء قالوا : ان الولى الحقيقى يستحى من ظهور الكرامة كما تستحى البنت من ظهور حيضها ••

ولابد من العلم أنه لا يوجد فى الدنيا ولى حقيقى تهدر على يده أوامر الشرع •• فلا بد لشرع الله أن يحترم •• وليس هناك دين فى الباطن ودين فى الظاهر •• ومن يقول هـذا فهو يتهم الله ورسوله ••

فالخلاصة — اذن — أن الولى من جمع بين الايمان والتقوى ، ولا يشترط فيه الكرامة ، بل يشترط فيه الاستقامة ••

وقد تقع منه المعصية •• ولكن يستحيل فى حقه استمرار المعصية ، والفرق بينه وبين النبى أن النبى معصوم ، والولى محفوظ •• ولا يحق لنا أن نطلق كلمة الولاية على أحد الا ببرهان من الله ••

ومعنى كلمة ولى •• أن الله تولاه بالتوفيق لتوليه هو أوامر الله بالعمل والتنفيذ ••

اذن •• الولاية متبادلة ، فمن لا يتولى الله فان الله لا يتولاه •• ومن لم يرض عن الله لا يرضى الله عنه — أى لا يرضى عن شرائع الله ، فلا يرضى الله عنه ••

وهناك فرق بين الولاية والأولياء •• فكل مؤمن متق له حظ من الولاية على قدر ايمانه وتقواه •• ولمـا كانت أسرار الناس بينهم وبين الله تعالى ولا نعلم حقيقتها فلندع هـذا الأمر يتولاه هو •• فنقبل الظاهر ونكل السرائر لله •• فلا نقرر أن فلانا ولى ، ولكن يمكن أن نقول : أحسبه عند الله صالحا ولا نزكى على الله أحدا ••

لأن أى انسان مهما كان تقيا نقيا •• لا تستطيع أن تجزم أنت بما مات عليه •• بدليل أن أم حارثة — وقد استشهد ابنها — قالت وهى تقلب جثته وتصبر قلبها المحترق : هنيئا لك •• عصفور من عصافير الجنة •• فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : « من هـذه المتالية على الله » ؟ •• فقيل : أمه •• فقال : « يا أم حارثة ، انى لأرجو لابنك الخير •• ولكن أنا رسول الله ولا أدرى ما يفعل بى » !! •• ثم قال : « لعله كان يتكلم بما لا يعنيه •• أو يمنع ما لا ينفعه » ••

وفى ذلك يقول الله تعالى : ((**قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، ان أتبع الا ما يوحى الى**))(١٠) .

وقيل مرة لابن عمر : ما دمت حيا فالاسلام بخير .. فقال : « ويلك ياهذا ، أتدرى علام أغلق باب بيتى » ؟

فلا يصح منا أن نقول ان فلانا ولى الا بنص قرآنى ، أو بحديث لرسول الله ﷺ . مثل السيدة مريم ، ومؤمن آل فرعون ، وأصحاب الكهف ، والحسن والحسين رضى الله عنهم ..

أما غير ذلك .. فيعتبر تألياً على الله ، والوصف بالولاية شىء ، والاستعانة بها من دون الناس شىء آخر ، فهذا شرك .. بل رسل الله — وهم أشرف الخلق — لا يصح الاستعانة بهم رغبة أو رهبة »(١١) ..

* * *

● والمعجزة فى أصل معناها اللغوى — مشتقة من العجز ، وهو عدم القدرة على أمر من الأمور .. ويطلقها علماء الشريعة على الأمر الخارق للعادة الذى يظهره الله تعالى على يد نبى مرسل ، لتقوم دليلا على صدق دعوته .. وبرهانا على حقية رسالته ..

ولقد جرت سنة الله — سبحانه — أن يؤيد كل رسول من رسله بمعجزة خارقة للعادة ، وخارجة عن حدود المألوف للناس ، حتى يحمل المعاندين المكابرين على الايمان بهم . والادعان لهم ، والتسليم بكل ما جاءوا به من هداية وارشاد ..

كان النبى يبعث فى قومه فيصدع بالدعوة الى الله ، فيستجيب له من شرح الله صدره لدعوته . ويكذب به من جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا صيحة السماء التى تنادى عليهم : أن هبوا من رقدتكم ، وأفيقوا من غفلتكم .. وتحرروا من قيود شهواتكم وأهوائكم ..

---

(١٠) الأحقاف : ٩

(١١) هذه دعوتنا . للشيخ عبد اللطيف مشهرى . ط الاعتصام . ص ٢٥٢ — ٢٥٤ بتصرف ..

ويتمادى المكذبون فى المكابرة والعناد .. فاذا بهم يرمون أنبيائهم — بعد الكذب — بالسحر تارة ، وبالجنون أخرى(١٢) ..

« قالوا كل ذلك وأكثر منه فى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .. وطالبوهم بالآيات الدالات على صدق رسالاتهم .. فما كان من الأنبياء الا أن لجأوا الى الله سبحانه ، يطلبون منه أن يؤيدهم بالآيات من عنده ، فاستجاب لهم ربهم ، وأظهر على أيديهم من المعجزات ما يشهد لهم بصدق دعوتهم ..

« وتحدى الأنبيـــاء أقوامهم أن يأتوا بمثل ما أتى الله به على أيديهم من خوارق العادات ، فعجزوا كل العجز .. وكان نتيجة ذلك أن آمن بهم العقلاء ، واســتمر متشبثا بالكفر الحمقى من الجهــلاء والســفهاء !!

« وشاءت حكمة الله تعالى .. أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما برع فيه قومه ، لتكون أبلغ فى التحدى ، وليكون العجز عن معارضتها أبلغ فى الدلالة على كونها آية من عند الله على صدق من ظهرت على يده من الأنبياء »(١٣) .

ومن شرط المعجزة أن تكون مبنية على الظهور والاعلان .. لأنها حجة الأنبياء على دعوى النبوة ، فلا بد من اظهارها واعلانها صريحة جلية أمام المكذبين الجاحدين حتى يسلموا لأنبيائهم ويدخلوا فى دينهم .. كما يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات .. مهما بدت هذه الخوارق غريبة ومستبعدة ..

ومن أدلتها فى القــرآن الكــريم .. قوله تعــالى عن موسى عليه الســلام : **« فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين • ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين »**(١٤) .

---

(١٢) الوحى والقرآن الكريم ، للشيخ محمد حسين الذهبى ، ص ٢٠
(١٣) المرجع السابق ، ص ٢١ (١٤) الأعراف : ١٠٧ ، ١٠٨

وقوله على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام : « ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى باذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم »(١٥) .

وقوله عن الرسول الخاتم ﷺ : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصا الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير »(١٦) .

ولقد كان القرآن الكريم .. هو المعجزة الكبرى الخالدة والباقية الى يوم القيامة لنبينا ﷺ .. يقول تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(١٧) .

● أما الكرامة .. فهى أمر خارق للعادة أيضا — بيد أنه غير مقرون بدعوى النبوة — يظهره الله تعالى على يد عبد صالح ، متحل بهدى النبى ﷺ ، عامل بأحكام الشريعة المطهرة ومتأدب بآدابها فى اعتقاده وقوله وعمله .. وهى — شأنها شان المعجزة — ثابتة عند جماهير العلماء خلفا وسلفا ..

ولا يشترط فى الكرامة الظهور والاعلان .. لأنها مبنية على الاخفاء والاسرار . وما يظهر منها لا يكون عن قصد للولى أو ادعاء منه للكرامة .. فكثيرا ما تظهر الكرامة على يد ولى فيشعر بها من حوله دون أن يشعر هو بها .. ولو أن وليا ادعى لنفسه الكرامة على الله حتى انه ليطالب منه الأمر الخارق للعادة فيجاب اليه ، لخرج من عداد الأولياء ، ولعد فى زمرة الأفاكين الأدعياء ..

كما أن الكرامة .. تختص ببعض خوارق العادات دون بعض ..

---

(١٥) آل عمران : ٤٩ (١٦) الاسراء : ١
(١٧) الاسراء : ٨٨

فهى تتعلق — عادة — بالخوارق التى لا تبلغ حد المعجزة من الغرابة والاســتبعاد ..

ويقول القشيرى : « ظهور الكرامات على الأولياء جائز .. والدليل على جوازه أنه أمر موهوم حدوثه فى العقل ، لا يؤدى حصوله الى رفع أصل من الأصول .. فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على ايجاده .. واذا وجب كونه مقدورا لله سبحانه فلا شىء يمنع جواز حصوله ..

« وظهور الكرامات .. علامة صدق من ظهرت عليه فى أحواله .. فمن لم يكن صادقا فظهور مثلها عليه لا يجوز .. والذى يدل عليه أن تعريف القديم سبحانه ايانا حتى نفرق بين من كان صادقا فى أحواله وبين من هو مبطل من طريق الاستدلال أمر موهوم .. ولا يكون ذلك الا باختصاص الولى بما لا يوجد مع المفترى فى دعواه .. وذلك الأمر هو الكرامة التى أشرنا اليها ..

ولابد أن تكون هــذه الكرامة فعلا ناقضا للعادة فى أيام التكليف .. ظاهرا على موصوف بالولاية فى معنى تصديقه فى حاله »[١٨] .

ومن أدلة الكرامة .. ما ذكره الله تعالى فى شأن مريم ابنه عمران .. قال تعالى : **« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يامريم أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله ، أن الله يرزق من يشاء بغير حساب »**[١٩] .

يقول الامام القرطبى : كان يجد عندها فاكهة الشتاء فى القيظ ، وفاكهة القيظ فى الشتاء ..

ويقول جل شأنه : **« وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا »**[٢٠] .

قيل : كان جذع النخلة يابسا .. وقيل : كانت نخلة مثمرة ..

والصحيح : أن النخلة لم تكن مثمرة اذ ذاك .. لأن ميلاد المسيح عليه السلام كان فى زمن الشتاء ، وليس ذاك وقت ثمر النخل .. ويفهم

---

(١٨) الرسالة القشيرية ، مرجع سابق . ص ١٥٨
(١٩) آل عمران : ٣٧ (٢٠) مريم : ٢٥ ، ٢٦

ذلك من قوله تعالى على سبيل الامتنان : « تساقط عليك رطبا جنيا » ••

ومن الأدلة على وقوع الكرامة •• ما أكرم الله تعالى به أبا بكر الصديق رضى الله عنه •• من تكثير طعامه أمام أضيافه حتى أكلوا جميعا على كثرتهم •• وبقى الطعام أكثر مما كان ••

ومنها ما أكرم به عمـــر بن الخطاب رضى الله عنه بتحقيق كل ما ألهمه وظنه ••

ومنها ما أكرم به سعيد بن زيد رضى الله عنه •• حين استجاب دعاءه على أروى بنت أوس ، لمـــا ادعت عليه أمام مروان بن الحكم زورا فى أرض ادعت أنه اغتصبها ••

ومن الأدلة •• ما أكرم الله تعالى به جريجا العابد بنطق الطفل الرضيع ، وتبرئته من جريمة الزنا ••

ومنها •• ما أكرم الله به الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة حين توسلوا اليه بأعمالهم الصالحة •• الخ •

ولا يمنع العقل امكان حدوث المعجزة أو الكرامة •• ما دام الذى يجريهما هو الله تعالى على أيدى أنبيائه وأوليائه •• بل ان من ينكر المعجزة للنبى ، والكرامة للولى يعد كافرا والعياذ بالله ••

* * *

● ويقول فضيلة الشيخ محمد الغزالى[٢١] : « ••• والعقل يقول انه لابد لحدوث الأسباب من مسببات •• ولكن بعض الناس قالوا بضعف الصلة وانقطاعها بين الأسباب والمسببات ••

فقد توجد النار ولا يوجد الاحراق •• وقد يوجد المـــاء ولا يوجد الرى •• وقد توجد السكين ولا يوجد القطع ••

وأن الواجبات العادية قد تتخلف ••

وأن قانون السببية على الاجمال •• غير ملزم ولا مطرد ••

---

(٢١) فى كتابه : الدعوة الاســـلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، نشر مكتبة وهبة ، ١٩٨٥ ، ص ٧٠ ، ٧١ بتصرف .

والذين نادوا بهذا الرأي — من علماء الكلام — أرادوا به الرد على بعض الفلسفات الاغريقية التى تجعل الأسباب خالقة .. وتنسب الى الطبائع ما يقع هنا وهناك .. واليونانيون يقولون بأن الطبيعة تخلق ، وأن السبب — من ذاته — يفعل ، كلام لا وزن له ولا دليل عليه ..

غير أن الرد على هـذه الأفكار لا يكون بنفى ما أودع الله فى الأشياء من الخواص ، وما ناطه بها من الآثار .. فان الأسباب — بقدر الله فيها — تؤتى نتائجها حتما ..

أما خوارق العادات .. فلها شأن آخر وتعليلات فوق المعارف المعتادة .. وهى — اذا صدقت — شذوذ يؤكد القاعدة ولا يمسخها ..

ولهذا رأينا — خصوصا فى القرون المتأخرة — من يجعل الدنيا لا تضبطها قاعدة ولا يحكمها قانون ..

ومن المقبول شرعا — عندهم — أن يتزوج رجل فى المشرق بامرأة فى المغرب ، وأن تلد منه على بعد الشقة .. لأنه قد يكون من أهل الخطوة (!!) .. أى ربما انتقل من المحيط الهندى الى الأطلسى فى لحظة ما من ليل أو نهار !!

وهذا التصور المخبول — كما يقول الشيخ الغزالى — لا ينضج معه علم ولا يصح فيه بحث ، ولا يملك أصحابه الأدوات التى يحققون بها نجاحا عمليا فى هذه الحياة ..

والمقرر فى العلوم الكونية والتجريبية والانســانية وغيرها .. أن قانون السببية محترم وأن رفضه جنون ..

والغريب — كما يقرر فضيلته — أن كتابات دينية كثيرة : جعلت الولاية مقرونة بخرق العادة !!

ولمـا كان فى كل قرية شيخ مشهور بالصلاح ؛ ولمـا كان لا يخلو زمان من هؤلاء الأشياخ العظام !! ؛ ولمـا كان خرق العادة يقع منهم أحياء وأمواتا ، بطريقة يعتبر انكارها — فى زعمهم — جرما .. لمـا كان ذلك كذلك .. فان سريان الخوارق زحم العالم الاســلامى ، وجعل قانون السببية لغوا !!

وكان لذلك .. أثر محزن فى انهيار حضارتنا ، واختلال ثقافتنا ..

وقد تدارك العلماء هـذا العوج .. وألفوا الرسائل فى دعم قانون السببية وضرورة احترامه .. والشيء الذى نقف عنده قليـلا . . هو هوس بعض الكاتبين فى اثبات الولايات وخوارقها .. وكأن الرسالة الاسلامية ما جاءت الا لاثبات هـذه القضية !!

والذى بدا لى — والحديث للشيخ الغزالى — أن هـذا الهوس يرجع الى التعلق بغير الله تعالى .. ودعاء المقبورين لعمل العجائب .. فاذا قلت : رجل مات ، ما تنتظرون منه ؟ قيل : انه — حيا أو ميتـاً — يفعل بقدر الله ، فالتعلق به لا ينكر !!

فاذا اعترضت .. جاء الاتهام السريع : أتنكر كرامات الأولياء » ؟ !

* * *

● ويقول صاحب « الفتاوى الأمينية » فى حديثه عن الكرامة :

« ... ولا مانع أن يكرم الله تعالى الولى بأنواع من الكرامات .. ويخصه بما يشاء من الفضائل والخيرات .. فيتولاه بحفظه ، ويجرى الخير على يديه ، ويجيب دعاءه ، ويشفى الله بدعائه المرضى ، ويبارك فيما يضع فيه يده من طعام أو شراب ..

وبذلك .. يعلم بطلان ما يتحـدث به جهلة المتصـوفة وخدمة الأضرحة ، من الأباطيل والخرافات التى اغروا بها العامة ، وألهوهم عن العمل بدين الله ، ليملأوا بطونهم من صناديق النذور الباطلة .. ويستبيحوا لأنفســهم فرض العـوائد على من يخدع بباطلهم ويقع فى فخهم !!

ومن ذلك قولهم : ان الشيخ فلاناً من الأبدال ، وأن له أربعين جسماً ، فلا لوم عليه اذا ارتكب الكبائر وترك الفرائض !!

وقولهم : ان الشيخ من أهل الحقيقة .. فيكفيه ما لـه من الكرامات عن العمل بأحكام الشريعة !! ..

وغير ذلك كثير من الأباطيل التى يقصد منها الارتزاق وكسب العيش من طريق سهل ..

ومنه يعلم .. أنه ليس من الكرامة فى شىء ما يظهـره الحواة والسحرة والمشعوذون من الأمور الخارقة للعادة .. فان ذلك ليس من الدين ؛ والدين منه براء ..

والطامة الكبرى — كما يقول الشيخ أمين محمود خطاب — اعتقاد كثير ممن ينتسبون للعلم فيهم والتبرك بهم ، معتقدين فيهم الولاية .. نعـوذ بالله من العمى والضلال .. ونسأله تعالى السـلامة والوقاية »(٢٢) .

* * *

● ونقول : الولى — اذن — هو العبد الصالح المتحلى بهدى النبى ﷺ ، والذى يعمل بأحكام الشريعة المطهرة .. ويتأدب بآدابها فى اعتقاده وقوله وعمله .. فيعمل بما أمر الله به ، وينتهى عما نهى عنه ، وهو الذى يوالى الله بالمراقبة ، فيواليه تعالى بالرعاية والحياطة ..

والمعجزة .. هى أمر خارق للعادة ، يظهره الله تعالى على يد نبى من أنبيائه تأييدا لنبوته ؛ ويعجز البشر عن أن يأتوا بمثله ..

والكرامة .. هى أمر خارق للعادة أيضا .. غير أنه غير مقرون بدعوى النبوة ، ويظهره الله تعالى على يد عبد صالح .. متحل بهدى النبى ﷺ .. عامل بأحكام الشريعة المطهرة ومتأدب بآدابها فى اعتقاده ، وقوله ، وعمله .. ولا يشترط فيها الظهور كالمعجزة .. بل ان الولى الحقيقى يستحى من اظهار الكرامة ، كما تستحى العذراء من ظهور حيضها .. وهو القول الذى سبق أن سـقناه فى تعريف الولاية والكرامة والمعجزة ..

وليس من الولاية أو الكرامة .. ما يدعيه بعض الجهال مما يحيل العقل امكان وقوعه : من القدرة على احياء الموتى ، أو سلب الايمان عن المعترضين ، أو التصرف فى أمور الناس بالاحيـاء والاماتة .. واحالتهم الى مسوخ أو حيوانات !!

---

(٢٢) الفتاوى الأمينية ، للشيخ أمين محمود خطاب ، جـ ١ ، ص ٢٠٠

ليس من الولاية أو الكرامة : المشى على المـاء ، أو الطيران فى الهواء .. أو تحويل التراب الى ذهب !!

وليس من الولاية أو الكرامة : ادعاء العلم بالغيب ، أو الاطلاع على اللوح المحفوظ ، أو معرفة الأتباع والمريدين منذ كانوا فى عالم الذر .. أو الاخبار بما يقع فى مستقبل الزمان !!

ليس من الولاية أو الكرامة : تقلب الولى وتشكله .. فتارة تراه جنديا ، وتارة أسدا ، واخرى فيلا .. ثم تنظر اليه فتراه صبيا !!

ليس من الولاية أو الكرامة : الصلاة بغير وضوء ، أو التطهر فى مسـاقى الكلاب والتمرغ فى مباول الحمير .. أو حشد الحوانيت والمتاجر بجثث الكلاب والقطط والخراف النافقة !!

وأخيرا .. ليس من الولاية او الكرامة : التعرى للنسـاء عند خطبتهن ، أو مراودة النسـاء والمردان ، والتمليس على أردافهم ولو كانوا بحضرة آبائهم ، أو كانوا من أبناء الامراء أو الوزراء !!

هـذه المزاعم والاباطيل — وأمثالها كثير جدا[٢٣] — ليست من الولاية أو الكرامة فى شىء .. بل انها تسىء الى مفهوم الولاية والكرامة — عند الصوفية — بنفس القدر الذى تسىء به الى التصوف نفسه !!

فلماذا ندع الحق الواضح والطريق المستقيم ، ونلجأ الى اصطناع الخرافات ، واختلاق المزاعم والاباطيل ؟ !

* * *

● عقيدة الصوفية فى الولاية والكرامة :

يزعم الصوفيون ، أن للأولياء حكومة باطنة ، يتوقف عليها نظام العالم .. ويطلقون على هـذه الحكومة اسم « الديوان » !!

والقطب .. هو رأس هذه الحكومة الأعلى ، واليه رئاسة الاجتماعات التى يعقدها فى انتظام مجلس شوراه الموقر !!

---

(٢٣) راجع كمثال لهذه الخرافات والمزاعم : كتاب « الطبقات الكبرى » للشعرانى ، وانظر كتابنا : « من وصايا القرآن الكريم » ، ص ٤٢١ — ٤٤١ ، حيث أوردنا نماذج لهذه الاباطيل والمزاعم ..

ولا يعوق أعضاء هذا المجلس حواجز الزمان أو المكان •• وانما يأتون من أرجاء الأرض فى لمحة طرف ، ويعبرون البحـــار والجبال والصحارى فى يسر بالغ !!

ودون ذلك القطب ، درجات مختلفة من الأولياء •• فالنقباء ثلاثة ، والأوتاد أربعة ، والأبرار سبعة ، والأبدال أربعون ، والأخيار ثلاثمائة •• ويعرف الواحد من هؤلاء الآخر ، ولا يعمل واحد منهم الا برضا الباقين !!

والأوتاد •• يطوفون حول الأرض جميعا فى كل ليلة •• فان كان هناك مكان لم تقع عليه أعينهم ، بدت فيه فى اليوم التالى شـــائبة نقص •• فيخبرون القطب حتى يجعل همه الى ذلك المكان المشوب ، فيبرأ مما أصابه بفضل ذلك القطب !!

أرأيت مثل هذا الخيال ؟ !

يقول الدباغ : « الديوان يكون بغار حراء •• فيجلس الغوث خارج الغار ، ومكة خلف كتفه الأيمن والمدينة أمام ركبته اليسرى •• وأربعة أقطاب عن يمينه ، وهم مالكية على مذهب مالك بن أنس •• وثلاثة أقطاب عن يساره ، واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة •• والوكيل أمامه ، ويسمى قاضى الديوان •• ومع الوكيل يتكلم الغوث !!

« والتصرف للأقطاب السبعة على أمر الغوث •• وكل واحد من الأقطاب السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته !!

« ويحضر الديوان النساء ، وصفوفهن ثلاثة •• ويحضره بعض الكمل من الأموات ويكونون فى الصفوف مع الأحيـــاء •• والأموات حاضرون فى الديوان ينزلون اليه من البرزخ ، يطيرون طيرا بطيران الروح •• وتحضره الملائكة والجن •• وبعض الأحيان يحضره النبى ، وكلامه مع الغوث !!

« وأما ساعة الديوان •• فهى الساعة التى ولد فيها النبى •• والأنبياء يحضرونه فى ليلة واحدة هى ليلة القدر •• فيحضره فى تلك

الليلة الأنبياء والمرسلون •• ويحضره الملأ الأعلى من الملائكة المقربين •• ويحضره سيد الوجود ومعه ازواجه الطاهرات !!

« ولغـة أهل الديوان هي السريانية لاختصارها ، ولأن الديوان يحضره الأرواح والملائكة ، والسريانية هي لغتهم •• والصغير من الأولياء يحضره بذاته !!

« وأما القطب الكبير . فلا تحجير عليه •• فانه يدبر على رأسه ، فيحضره ولا يغيب عن داره •• لأن الكبير يقـدر على التطور على ما شـاء من الصـور . ولكـان روحـه تدبر له ان شـاء ثلثمائة وستة وستين ذاتا !!

« وقد يغيب الغوث عن الديوان فلا يحضره •• فيحصل بين أولياء الله من أهل الديوان ما يوجب اختلافهم •• فيقع منهم التصرف الموجب لأن يقتل بعضهم بعضا !!

« واذا حضر سـيد الوجود مع غيبة الغوث ، فانه يحضر معه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والحسن والحسين وفاطمة •• وتجلس فاطمة مع جماعة النسوة اللاتى يحضرن الديوان !!

« وأهل الديوان اذا اجتمعوا فيه •• اتفقوا على ما يكون من ذلك الوقت الى مثله من الغد •• فهم يتكلمون فى قضاء الله تعالى فى اليـوم المستقبل والليلة التى تليه •• ولهم التصرف فى العوالم كلها السفلية والعلوية ، وحتى فى الحجب السبعين فهم الذين يتصرفون فيه وفى أهله ، وفى خواطرهم وما يهجس به ضمائرهم •• فلا يهجس فى خاطر واحـد منهم شيء الا باذن أهل التصرف •• واذا كان هـذا فى عالم الرقا الذى فوق الحجب السبعين التى هى فوق العرش . فما بالك بغيره من العوالم !!

« ويكون الديوان فى موضع آخر غير غار حراء مرة فى العام •• فى موضع يقال له « زاوية أسا » خارج أرض سوس ، بينها وبين أرض غرب السودان •• فيحضره أولياء السودان ويجتمعون فى غير هذين الموضعين السابقين ، لأن الأرض لا تضيقهم »[٢٤] !!

---

(٢٤) الابريز للدباغ ، جـ ٢ ، ص ٢ — ٩ بتصرف .

ويقول المستشرق الانجليزى « ادوارد لين »(٢٥) : « ••• ويعتقد أن سطح الكعبة مركز القطب الرئيسى ، ويفضل مركزا آخر بباب القاهرة المسمى « باب زويلة » — الذى يسميه العـامة « بوابة المتولى » — لاعتقادهم أنه مركز هـذا الكائن المجهول !!

« ومن وراء مصراعى الباب العظيم الذى لا يقفل أبدا : فضاء صغير •• يقال انه مكان القطب ، ويدق المصابون بالصداع مسمارا فى الباب لفك السحر •• كما أن المصابين بوجع الأسنان يخلعون سنا ويولوجونها فى أحد شقوق الباب !!

« وللقطب فى مصر ، مراكز أخرى أقل شهرة •• أحدها فى قبر السيد البدوى ، والآخر فى مدينة المحلة •• ويعتقد أن القطب ينتقل من مكة الى القاهرة أو من مكان الى آخر فى لحظة •• ويرى الكثير من المسلمين أن الياس — ويخلطه العـامة بالخضر — كان قطب زمانه •• وأنه يولى الأقطاب المتعاقبين اذ يقررون أنه لم يمت •• ويزعمون أنه شرب من عين الحيـاة •• ويكلف بعض الأولياء القيام ببعض الأعمال الشاقة ، ويقال لهم : « أصحاب الدرك » ••

هذا ما يقوله المستشرق الانجليزى •• الذى جاء الى مصر فى القرن التاسع عشر ، وتصوف وأخذ العهد •• ثم راح يسجل الخزى الخرافى لا على الصوفيين وحدهم •• بل على المصريين عامة •• فانظر كيف جنى التصوف على مصر وعلى الاسلام ؟ !

● والقطب عند الصوفيين •• هو أكمل انسان متمكن فى مقام الفردية ، أو الواحد الذى هو موضع نظر الله فى الأرض فى كل زمان •• وعليه تدور أحوال الخلق •• وهو يسرى فى الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح فى الجسد ؛ ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل •• وقد يسمى « الغوث » باعتبار التجاء الملهوف اليه ••

والقطب عند الصوفية نوعان : أحدهما حادث أو حسى •• وهو

---

(٢٥) فى كتابه « المصريون المحدثون » ص ١٦٢

ما سبق الحديث عنه •• والآخر •• قديم أو معنوى •• وهو الحقيقة المحمدية (٢٦) !!

يقول القاشانى : « وهو — أى القطب — اما قطب بالنسبة الى ما فى عالم الشهادة من المخلوقات •• يستخلف بدلا منه عند موته من أقرب الأبدال منه •• أو قطب بالنسبة الى جميع المخلوقات فى عالم الغيب والشهادة ؛ ولا يستخلف بدلا من الأبدال ، ولا يقوم مقامه أحد من الخلائق •• وهو قطب الأقطاب المتعاقبة فى عالم الشــهادة •• لا يسبقه قطب ، ولا يخلف آخر •• وهو الروح المصطفوى المخاطب بقوله : « لولاك لمــا خلقت الكون »(٢٧) !!

ويقول التيجانى : « ان حقيقة القبطانية •• هى الخلافة العظمى عن الحق مطلقا فى جميع الوجود ، جملة وتفصيلا •• حيثما كان الرب الها كان هو خليفة فى تصريف الحكم وتنفيذه من كل من له عليه ألوهيــة لله تعالى •• فلا يصل الى الخلق شىء كائناً ما كان من الحق الا بحكم القطب !!

« ثم قيامه فى الوجود بروحانيته فى كل ذرة من ذرات الوجود •• فترى الكون كله أشباحا لا حركة لها •• وانما هو الروح القائم فيها جملة وتفصيلا !!

« ثم تصرفه فى مراتب الأولياء •• فلا تكون مرتبة فى الوجود للعارفين والأولياء خارجة عن ذوقه •• فهو المتصرف فى جميعها ، والمد لأربابها •• به يرحم الوجود . وبه يبقى الوجود •• وفى بقاء الوجود رحمة لكل العباد •• وجوده فى الوجود حياة لروحه الكلية ، وتنفس يمد الله به العلوية والسفلية •• ذاته مرآة مجردة ؛ يشهد فيها كل قاصد مقصده »(٢٨) !!

---

(٢٦) هذه هى الصوفيه . للأستاذ عبد الرحمن الوكيل : ص ١٢٤

(٢٧) كشف الوجوه الغر : للقاشانى . جـ ٢ . ص ١٠٣

(٢٨) جواهر المعانى . لعلى بن حرازم ، جـ ٢ ؛ ص ٨١

ويقول : « ومما أكرم الله به قطب الأقطاب : أن يعلمه علم ما قبل وجود الكون وما وراءه ، وما لا نهاية له •• وأن يعلمه علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات ، وأن يخصصه بأسرار دائرة الاحاطة •• وجميع فيوضه وما احتوى عليه »[٢٩] !!

كما يقول : « قطب الأقطاب فى كل وقت لا تقع بينه وبين الرسول حجابية أصلا •• وحيثما جال رسول الله من حضرة الغيب ومن حضرة الشهادة •• الا وعين قطب الأقطاب متمكنة من النظر اليه •• لا يحتجب عنه فى كل لحظة من اللحظات »[٣٠] !!

فانظر معى وتعجب •• كيف ألهت الصوفية ذلك القطب . وجعلت منه ربا أكبر •• ربا يعبد ، ويخشى ، ويرهب !!

ويعاون القطب امامان ، هما منه بمنزلة الوزيرين •• أحدهما لعالم الملك ، والآخر لعالم الملكوت !!

كما يعاونه الأوتاد ، والأبدال ، والنجباء ، والنقباء !!

فالأوتاد أربعة — وقيل ثلاثة — كلما مات قطب الوقت أقيم مكانه واحد منهم •• وعلمهم يفيض من قطب الأقطاب •• وان ماتوا جميعهم فسدت الأرض !!

أما الأبدال •• فهم حقيقة روحانية تجتمع اليها أرواح أهل ذلك الوطن الذى رحل عنه وليه •• وعددهم أربعون : اثنان وعشرون منهم بالشام ، وثمانية عشر بالعراق !!

والنجباء •• دون الأبدال ، ويسكنون مصر •• وعملهم أن يحملوا عن الخلق أثقالهم •• وعددهم سبعون !!

وعدد النقباء ثلاثمائة — وقيل خمسمائة — وهم الذين يستخرجون خبايا الأرض[٣١] !!

---

(٢٩) جواهر المعانى ، جـ ٢ ص ٧٩

(٣٠) المرجع السابق ص ٦٣

(٣١) جامع الأصول فى الأولياء ، للكمشخانلى ، ص ٩٢ .

أرأيت كيف ابتدعت الخرافات الصوفية هذه المملكة للأساطير ، وتلك الحكومة الباطنة التى زعموها .. ليستعبدوا بها الناس لما يشتهون ، ويزرعوا فى قلوبهم الخوف والرهبة لاخضاعهم لسلطانهم ؟ !

اذا كان هذا هو حال تلك المملكة الخرافية !!

واذا كان هذا هو تخصصهم فى شئون البلاد والعباد !!

فماذا أبقوا لله تعالى ؟ !

وماذا أبقوا لملائكته ورسله ، اذا كان ديوانهم يتصرف فى أحوال الناس على ذلك النحو الذى زعموه ؟ !

وأستغفر الله ، ولا قوة الا بالله : **« له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين »**(٣٢) .

يقول صاحب كتاب « الصوفية فى نظر الاسلام » — جزاه الله عن الاسلام خيرا — : « قسم الصوفية الولاية لأنفسهم على أساس الكرامات الى مراتب فى الولاية .. أعلاها مرتبة « القطب » وهو كبير القوم ، ومهبط الرحمة عندهم ، ومصدر البركات .. ولا يتعدد صاحبها حتى يخلفه غيره !!

« ويلى ذلك رتبـــة « الامامة » وتكون لاثنين عن يمين القطب وشماله بمنزلة الوزراء منه !!

« وتليهم درجة « الابدال » السبعة !!

« ومن بعدها .. مرتبة « الأنجاب » الاثنا عشر !!

« ... وأخيرا .. مقام « الشيوخ » الأربعين !!

« ويحكى الصوفية .. أن هؤلاء يعقدون الجلسات الروحية ليلة الأربعاء من كل أسبوع ، فتعرض عليهم فيها أمور الناس وأحوالهم ، فيقسمون فيها الحظوظ والأرزاق ، ويكتبون المواليد والوفيات ، ويهبون لمحبيهم وزائرى قبورهم الصحة والبركة والنجاح ، ويقدرون العقوبات والمناصفات على العصاة والمذنبين والمعترضين !!

« يقضون فى هذا كله .. ثم يبعثون بقراراتهم الى « الخلفاء » و « النقباء » .. فيخبرون بها الناس !!

---

(٣٢) الأعراف : ٥٤

« ويقسم الصوفية الديار الى مناطق نفـوذ ودوائر اختصاص للأولياء .. فمن مكان كذا الى مكان كذا ، يقع فى دائرة الولى فـلان .. ومن حدود كذا الى حدود كذا فى دائرة فلان .. فلا يليق أن يتقدم سائل — قليل الذوق — برجاء الى البدوى بطنطا اذا كان بحكم مولده واقامته يقع فى دائرة الدسوقى بدسوق .. وقس على ذلك !!

« وتقام لهؤلاء المقبورين الموالد فى المواسم المعينة من كل عام .. فيلتقى فى محيطها خلق كثير .. ويولم الصوفية هذه الموالد على حب أصحابها وينحرون المواشى نذورا لأربابها .. ويرجعون منها بالأموال الوفيرة التى ينزعونها من أقوات الفقراء وحلى النساء ، مقابل السماح لهؤلاء الأذلاء المستضعفين بالنوم فى سرادقاتهم ، وحضور مجالس الذكر التى تكتب فيها الاستغاثات بماء الزعفران والورد .. يتفضل بها الشـيوخ على من حولهم زاعمين لهم أن توجيه هذه الاستغاثات الى من فى القبور والأضرحة هو أقرب الطرق ليرفعوا الضر عن أنفسهم ، ويكشفوا الكرب والبلاء ، ويستنزلوا البركة ويستمدوا المـال والولد ، ويدفعوا عن حقولهم آفات الزرع : ويكيدوا لخصومهم وسارقى ماشيتهم، ويقتصوا من أعدائهم فى أبنائهم وأموالهم ... الخ »[٣٣] .

* * *

● **خاتم الأولياء :**

الوجود — عند فلاسفة الصوفية — كما قدمنا : وحدة واحدة !!

والله تعالى — طبقا لنظرية وحدة الوجود — هو عين خلقه !!

والنبوة — فى عقيدتهم — ليست الا تطويرا للنفوس البشرية ، وليست باصطفاء الله تعالى واختياره !!

والوحى — فى تصورهم — ليس الا صورا تشرق فى النفس وقت شدة الصفاء !!

---

(٣٣) انظر : الصوفية فى نظر الاسلام ، للأستاذ سميح عاطف الزين ، نشر دار الكتاب اللبنانى ، ببيروت ، ص ٨٠ ، ٨١

والولاية — في زعمهم — أفضل من النبوة لأخذها عن الله مباشرة ، فى حين يأخذ الأنبياء عن جبريل !!

وخاتم الأولياء .. أفضل الكل ، لأن الأولياء والأنبياء يستفيدون منـه !!

يقول أبو حامد الغزالى : « العارفون بعد العروج الى سماء الحقيقة .. اتفقوا على أنهم لم يروا فى الوجود الا الواحد الحق .. ولكن منهم من كان له هذه الحالة عرفانا علميا [أى وصل اليها عن طريق البرهان] ومنهم من صـار له ذوقا وحالا [أى وصل اليها عن طريق الكشف والالهام] وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا بالفردانية المحضة ، فلم يبق عندهم الا الله . فسكروا سكرا وقع دونه سلطان عقولهم .. فقال بعضهم : أنا الحق . وقال الآخر : سبحانى ، ما أعظم شأنى . وقال الآخر : ما فى الجبة الا الله ..

« وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولا يحكى ! فلما خف عنهم سكرهم وردوا الى سلطان العقل عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد .. بل يشبه الاتحاد ، مثل قول العاشق فى حال فرط العشق :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا[٣٤]

« وتسمى هذه الحالة بالاضافة الى المستغرق فيها بلسان المجاز : اتحادا .. وبلسان الحقيقة : توحيدا .. ووراء هذه الحقائق أسرار لا يجوز الخوض فيها »[٣٥] !!

ويقـول : « الكل من نوره ، بل هو لا هوية لغيره الا بالمجاز [الهوية عندهم هى الحقيقة الباطنة للذات الالهية !!] فاذن لا نور الا هو : وسـائر الأنوار أنوار من الوجه الذى تليه ، لا من ذاتها ،

---

(٣٤) البيت للحلاج ، ويقول فى الذى يليه :

« فاذا أبصرتنى أبصرته   واذا أبصرته أبصرتنا »

(٣٥) مشكاة الأنوار ، للغزالى ، ص ١٢٢

فوجه كل موجه اليه وول شطره « **فأينما تولوا فثم وجه الله** »[٣٦] ..
فاذن لا اله الا هو ، فان الاله عبارة عما الوجوه مولية نحوه بالعبادة والتأليه .. أعنى وجوه القلوب فانها الأنوار والأرواح .. بل كما لا اله الا هو ، فلا هو الا هو .. فان هو عبارة عما اليه الاشارة ، وكيفما كان ، فلا اشارة الا اليه .. بل كلما أشرنا ، فهو بالحقيقة اشارة اليه »[٣٧] !!
أليست هذه هى وحدة الوجود التى نادى بها ابن عربى ؟!

● ويزعمون أن الحقيقة المحمدية ، هى الذات مع التعين الأول ، ولها الأسماء الحسنى ، وهى اسم الله الأعظم !!
والرسول ﷺ — فى تصورهم — هو الجامع بين العبودية والربوبية الشامل للامكانية والوجوبية !!
ويقولون انه — ﷺ — يحضر كل مجلس أو مكان أراد ، بجسده وروحه ، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء فى أقطار الأرض وفى الملكوت ، وهو بهيئته التى كان عليها قبل وفاته ، فانه لم يتبدل منه شىء[٣٨] !!

وأنوار المكونات كلها — فى عقيدتهم — من عرش ، وفرش ، وسماوات وأرض ، وجنات وحجب ، وما فوقها وما تحتها .. اذا جمعت كلها وجدت بعضا من نوره — ﷺ — وأنه لما خلق النور المحمدى ، جمع هذا النور جميع أرواح الأنبياء والأولياء جميعاً جمعاً أحديا قبل التفصيل فى الوجود العينى ، وذلك فى مرتبة العقل الأول !!

● ولما كان الله تعالى — فى عقيدتهم الزائغة — هو عين خلقه ، فانهم يؤمنون بوحدة الأديان كلها .. سواء منها ما أنزله تعالى وما ابتدعته الشياطين !!
اسمع الى ابن عربى وهو يحذر أتباعه من الايمان بدين خاص فيقول : « فاياك أن تتقيد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير ، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه .. فكن من نفسك هيولى [أى القابل الذى تنطبع فيه صور المعتقدات كلها وينفعل بها] لصور

---

(٣٦) البقرة : ١١٥ (٣٧) مشكاة الأنوار ، ص ١٢٤
(٣٨) رماح حزب الرحيم ، للفونى ، جـ ١ ، ص ٢١٩

المعتقدات كلها .. فان الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد ، فالكل مصيب ، وكل مصيب مأجور ، وكل مأجور سعيد ، وكل سعيد مرضى عنه »[٣٩] !!

● ولما كان الدين — فى تصورهم — واحدا .. والوجود كله وحدة واحدة .. والرب عندهم هو العبد ، والعبد هو الرب .. فلا عذاب فى الآخرة .. ومن الذى يعقل أن يعذب الرب نفسه ؟ !

يقول ابن عربى :

فلم يبق الا صادق الوعد وحده وما لوعيد الحق عين تعاين
وان دخلوا دار الشقاء ، فانهم على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد فالأمر واحد وبينهما عند التجلى تباين
يسمى عذابا من عذوبة طعمه وذاك له كالقشر والقشر صائن[٤٠]

ويعنى ابن عربى بالوعد : نعيم الآخرة . وبالوعيد عذابها ، فهو هنا ينفى العذاب مطلقا فى الآخرة .. حتى للمشركين !!

ومن نفس المنطلق يقول الجيلى :

وأسلمت نفسى حيث أسلمنى الهوى ومالى عن حكم الحبيب تنازع
فطورا ترانى فى المساجد راكعا وانى طورا فى الكنائس راتع
اذا كنت فى حكم الشريعة عاصيا فانى فى علم الحقيقة طائع[٤١]

ولهذا نراه عندما يفسر كلمة « لا اله الا الله » .. يقول :

« يعنى : الالهية المعبودة ليست الا أنا .. فأنا الظاهر فى تلك الأوثان والأفلاك والطبائع . وفى كل ما يعبده أهل كل ملة ونحلة ، فما تلك الآلهة كلها الا أنا ، ولهذا أثبت لهم لفظ الآلهة ، وتسميته لهم بهذا اللفظ من جهة ما هم عليه فى الحقيقة .. تسمية حقيقية لا مجازية .. لانه أراد أن يبين لهم أن تلك الآلهة مظاهر ، وأن حكم الألوهية فيهم حقيقة ، وانهم ما عبدوا فى جميع ذلك الا هو . فقال : لا اله الا أنا .. أى ما ثم من يطلق عليه اسم الاله الا وهو أنا ..

---

(٣٩) الفصوص . ص ١٩١ (٤٠) الفصوص ج ١ . ص ٩٤
(٤١) الانسان الكامل . ج ١ . ص ٢٣

لا اله الا أنا .. أى ما ثم الا أنا ؛ وكل ما أطلقوا عليه اسم الاله فهو أنا »[٤٢] !!

● والديوان — عندهم — كما قدمنا هو الذى عليه مدار الكون ..

● والقطب .. هو أكمل انسان متمكن فى مقام الفردية .. أو الواحد الذى هو موضع نظر الله فى الأرض فى كل زمان ، عليه تدور أحوال الخلق .. وهو يسرى فى الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح فى الجسد ، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل ، وقد يسمى « بالغوث » باعتبار التجاء الملهوف اليه »[٤٣] !!

ولهذا كان علم الأقطاب — فى زعمهم — هو علم الله تعالى .. أكرمهم به ، فعلمهم ما قبل وجود الكون ، وما وراءه ، وما لا نهاية له .. بل وعلمهم علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات ، وخصصهم بأسرار دائرة الاحاطة وجميع فيوضه وما احتوى عليه »[٤٤] !!

ويدعى كل منهم القطبانية لنفسه .. يقول ابن الفارض :

فبى دارت الأفلاك فاعجب لقطبها الـ محيط ، والقطب مركز نقطة
ولا قطب قبلى عن ثلاث خلفته وقطبية الأوتاد عن بدلية

ويقول الدسوقى :

نعم نشأتى فى الحب من قبل آدم وسرى فى الأكوان من قبل نشأتى
أنا كنت فى العلياء مع نور أحمد على الدرة البيضاء فى خلويتى
أنا كنت فى رؤيا الذبيح فداءه بلطف عنايات وعين حقيقة
أنا كنت مع ادريس لما أتى العلا وأسكن فى الفردوس أنعم بقعة
أنا كنت مع عيسى على المهد ناطقا وأعطيت داوودا حلاوة نغمة

---

(٤٢) الانسان الكامل ص ٦٩

(٤٣) التعريفات للجرجانى تحت مادة « قطب » ، وانظر جامع الأصول للكمشخانلى .

(٤٤) جواهر المعانى ، للتيجانى : ص ٨١

أنا كنت مع نوح بما شهد الورى   بحــارا وطوفانا على كف قدرة
أنا القطب شيخ الوقت فى كل حالة   أنا العبدابراهيم شيخ الطريقة(٤٥)

* * *

كان من اللازم أن نلم بهذه الالمامة السريعة التى نستعرض فيها فكر القوم حول : وحدة الوجود ، والحقيقة المحمدية ، وحقيقة القطب والديوان ونحن بصدد الحديث عن خاتم الأولياء — بالرغم من أننا قد شرحنا هذه المسائل فى مواضعها شرحا وافيا — نظرا لارتباط الموضوع ببعضه ارتباطا وثيقا ، حيث ان المقدمات تسوق دائما الى النتائج .. وأفكار القوم فى هذه المسائل تقودنا الى الحديث عن خاتم الأولياء ..

وفلاسفة الصوفية .. يزعمون أن الله تعالى قد أورث علم الأنبياء للأولياء .. بل ان الأولياء — فى تصورهم — أفضل من الأنبياء ، لأنهم يتلقون عن الله مباشرة !! والله تعالى — عند ابن عربى — تسمى بالولى ولم يتسم بالنبى !! ، والأنبياء — عند الجيلانى — أوتوا اللقب بينما أوتى الأولياء ما لم يؤت الأنبياء !! .. والأولياء يخوضون بحــرا وقف الأنبياء بساحله !! الخ .. الخ .

ولمــا كان الرسول ﷺ هو خاتم (٤٦) الأنبياء .. فلا بد — فى عرفهم — أن يكون للأولياء خاتم(٤٦) !!

ومن هنا ابتدعوا خرافة « خاتم الأولياء » وراح كل منهم يزعم أنه ذلك الولى الخاتم !! فهذا الدسوقى يزعم أن الرسول ﷺ قال له : « يا ابراهيم ، أنت نقيب على الأوليــاء » !! ويزعم ابن عربى — فى الفتوحات — أنه أقيم له حفل كبير — فى رؤيا رآها أثناء نومه — وأنه قد نصب له فيه كرسى بين يدى الله تعالى .. ومن حوله وقف عظماء الملائكة والأنبياء .. ثم نصب فى ذلك الحفل خاتما للأولياء .. ويقول : « لم يكن الحق — أى الله تعالى — أوقفنى على ما سطره لى من توقيع ولايتى أمور العالم ، حتى أعلمنى بأنى خاتم الولاية المحمدية » !! .. ويعبر رؤياه تلك بقوله : « ثم عبرت الرؤيا باختتام الولاية بى » !!

---

(٤٥) الطبقات الكبرى للشعرانى ، ج ١ ، ص ١٨٢

(٤٦) بفتح التاء فى الموضعين ..

وادعت التيجانية لشيخها — أحمد التيجانى — أنه هو الولى الخاتم •• يقول عمر بن سعيد الفونى — أحد أتباعه : « الفصل السادس والثلاثون فى ذكر فضل شيخنا ، وبيان أنه خاتم الأولياء ، وامام الصديقين ، ممد الأقطاب والأغواث »[٤٧] !!

فما هى أسطورة « خاتم الأولياء » التى راح كل منهم يدعيها لنفسه ؟ !

ابتدع هذه الخرافة الحكيم الترمذى (ت ٣٢٠ هـ) •• فقد كان أول من عقد المقارنة بين النبوة والولاية •• مستوحيا فيها معارفه فى علوم الفلسفة ومسائل اللاهوت •• فأوقف بهذه البدعة الولاية بجوار النبوة وجعلها مساوية لها ان لم تزد عليها !!

يقول السلمى عن الترمذى — مبتدع هذه الخرافة — : « نفوه من ترمذ ، وشهدوا عليه بالكفر بسبب تصنيفه كتاب « ختم الولاية » ••

كما يقول : « انه يقول ان للأولياء خاتما •• كما أن للأنبياء خاتما ، وأنه يفضل الولاية على النبوة »[٤٨] !!

ويقول عنه ابن تيمية : « فى كلامه من الخطأ ما يجب رده •• ومن أشنعها ما ذكره فى ختم الولاية مثل دعواه فيه أنه يكون فى المتأخرين من درجته عند الله أعظم من درجة أبى بكر وعمر وغيرهما •• ومنها ما ادعاه من خاتم الأولياء الذى يكون فى آخر الزمان ، وتفضيله وتقديمه على من تقدم من الأولياء •• وأنه يكون معهم كخاتم الأنبياء مع الأنبياء »[٤٩] !!

ويغالى ابن عربى فى ترديد هذه الخرافة •• فيزعم أن الرسل لا يستمدون علومهم الا من خاتم الأولياء •• وهذا يستلزم تفضيل الولى الخاتم على الرسل بعامة •• فيقول :

« وليس هذا العلم [أى علم وحدة الوجود] الا لخاتم الرسل

---

(٤٧) رماح حزب الرحيم ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٥

(٤٨) مفتاح السعادة ، لطاش كبرى زاده ، ج ٢ ص ١٧٠.

(٤٩) رسالة حقيقة مذهب الاتحاديين ، لابن تيمية ص ٧٩

وخاتم الأولياء •• وما يراه أحد من الأنبياء أو الرسل الا من مشكاة الرسول الخاتم : ولا يراه أحد من الأولياء الا من مشكاة الولى الخاتم •• حتى أن الرسل لا يرونه — متى رأوه — الا من مشكاة خاتم الأولياء ، فان الرسل والنبوة — أعنى نبوة التشريع — تنقطعان •• والولاية لا تنقطع أبدا ، فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه الا من مشكاة خاتم الولاية »(٥٠) !!

بل انه يفضل خاتم الأولياء على النبى الخاتم — ﷺ — نفسه !! فيقول : « ولما مثل النبى ﷺ النبوة بالحائط من اللبن ، وقد كمل سوى موضع لبنة •• فكان ﷺ تلك اللبنة •• غير أنه ﷺ لا يراها الا كما قال : « لبنة واحدة » •• أما خاتم الأولياء ، فلابد له من هذه الرؤية ، فيرى ما مثل به رسول الله ، ويرى فى الحائط موضع لبنتين •• فلابد أنه يرى نفسه تنطبع فى موضع تينك اللبنتين ، فيكمل الحائط •• كما هو آخذ عن الله فى السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه •• لأنه يرى الأمر على ما هو عليه •• فانه آخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به الى الرسول »(٥١) !!

كما يقول : « وفينا من يأخذه عن الله ، فيكون خليفة عن الله بعين ذلك الحكم » (٥٢) !!

وهكذا ترى أن ابن عربى يفضل خاتم الأولياء على خاتم الرسل والأنبيـاء •• بأن خاتم الأولياء يأخذ عن الله مباشرة ، بينما خاتم الأنبيـاء يأخذ عن الله بواسطة الملك •• كما أن الدين قد تم على يد خاتم الأولياء ، وليس خاتم الأنبياء !!

وابن عربى حين يبتدع هذه الخرافة ، يشير الى الحديث الصحيح الذى يمثل فيه الرسول ﷺ ما بعث به هو والأنبياء من قبله ببيت كانت تنقصه لبنة ، وأنه ﷺ هو الذى جاء بهذه اللبنة ، يعنى أنه هو الذى أتم الله به على المسلمين دينهم ••

ولكن ابن عربى •• يزعم هنا أن الدين كان ناقصاً لبنتين ، لا لبنة

---

(٥٠) الفصوص جـ ١ ، ص ٦٢ (٥١) المرجع السابق ص ٦٣.
(٥٢) نفس المرجع ص ١٦٣

واحدة .. فأتى الرسول ﷺ بواحدة ، وأتى خاتم الأولياء بها وبلبنة أخرى ، فلم يكمل الدين الا على يد خاتم الأولياء !!

ويدحض الله افكهم بقوله : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** »(٥٣) .

لقد أكمل الله الدين وأتم النعمة ببعثة رسوله محمد بن عبد الله — ﷺ — خاتم الأنبياء والمرسلين ليكون هاديا لنا وبشيرا ..

لقد حسم الله القضية ، ووضع لنا المنهاج ، وأخذ علينا الميثـاق يوم أن طلب منا : « **ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله** »(٥٤) .

لقد أكمل الله الدين وأتم النعمة قبل أن يوجد الحكيم الترمذى ، ومحيى الدين بن عربى بمئات السنين .. فلماذا يبتدعان دينا جديدا لم يقل به اليهود أو النصارى وغيرهم من أهل الملل والأديان السماوية أو الوضعية ؟ !

يقول ابن تيمية حين ينبرى لدحض مزاعم الترمذى وابن عربى : « ثم ان هذا خاتم الأولياء صار مرتبة موهومة لا حقيقة لها .. وصار يدعيها لنفسه أو لشيخه طوائف .. وقد ادعاها غير واحد ، ولم يدعهـا الا من كان فى كلامه من الباطل ما لم تقله اليهود ولا النصارى .. كما ادعاها صاحب الفصوص »(٥٥) ..

ذلك لأنهم : « بنوا الأمر على أن الولى يأخذ عن الله بلا واسطة ، والنبى يأخذ بواسطة الملك .. فلهذا صار خاتم الأولياء أفضل عندهم من هذه الجهة »(٥٦) !!

فلا عجب — اذن — وهذا حال خاتم الأولياء .. أن يدعى كل منهم لنفسه هذا المنصب الخطير !!

* * *

---

(٥٣) المائدة : ٣ (٥٤) آل عمران : ٦٤

(٥٥) حقيقة مذهب الاتحاديين : لابن تيمية ، ص ٦٣

(٥٦) المرجع السابق ، ص ٦٤

● كرامات .. أم خرافات ؟ !

قلنا : ان الكرامة هي أمر خارق للعادة — شأنها شأن المعجزة — غير أنها ليست مقرونة بدعوى النبوة ، وأن الله تعالى يظهرها على يد عبد صالح ، متحل بهدى النبى ﷺ ، عامل بأحكام الشريعة المطهرة ، ومتأدب بآدابها فى اعتقاده وقوله وعمله ..

وذكرنا أن الكرامة ثابتة عند جماهير العلماء خلفاً وسلفاً .. ولكن ما هى الكرامة فى تصور الصوفية ؟ !

يقول صاحب « الصوفية فى نظر الاسلام » : « لقد كانت المعجزات حقيقة مسلما بها فى حق الرسل .. فلا ضرورة لأمثالها ونظائرها فى حق مدعى الصلاح من الصوفية !!

« ولو كانت الكرامات دليل صلاح وتقوى — كما يقولون — لكان الصحابة والتابعون لهم باحسان أحق من هؤلاء المتمشيخين المتأخرين الذين تنسب اليهم الكرامات بغير حساب ..

« ولقد حار الصوفية فى دفع هذا الاعتراض حتى لم يجدوا آخر الأمر بدأ من اختراع بعض الكرامات ينسبونها الى هؤلاء الأطهار .. ليتناقلها الناس عنهم .. وفاتهم أن حياة الصحابة والتابعين قد تركت بالجهاد والشهادة ، وليس بعدها مرتبة فى الولاية والكرامة .. وليست بطولتهم الصادقة بحاجة الى أن يلصق بها شىء من الالتواء فى الوسائل لرفع أقدارهم .. أو الكرامة بشىء غير الاسلام ..

« أما شيوخ التصوف .. فليس لهم شىء يفخرون به غير ادعاء الكرامات .. فاذا انتزعتها عنهم : فماذا أبقيت لهم ؟

« ولذلك يحرص أتباع التصوف على الدفاع عن كرامات الأشياخ .. وهذا تاريخ الصوفية ليس فيه حديث رجل منهم قام لينقذ أمته من عار الاستعمار ، مع أن اتباعه يعدون بالألوف — بل مئات الألوف — ولا يعوزه المـال !!

« وهذه التعاليم •• هل تجد فيها دعوة الى الرشد ، أو ثورة على الضعف •• أو نزعة الى العمل ؟

« ثم ماذا يفيد المسلمين أن تتنتت عقولهم بحكاية احياء البدوى للموتى •• أو مقدرة الشاذلى على احالة التراب تبراً ؟ !

« ان هذا الحديث •• قد يهيج أناسا أغذوا أفهامهم دون الحق بحكم ما ورثوه اضطرارا من تقاليد لم يعنوا بامتحانها »[٥٧] ••

ثم يقول — جزاه الله خيرا : « عمد بعض الصوفيين الى الظهور بالخوارق فى الأوساط الاسلامية تحت ستار « الولاية » •• وقالوا : لا تتحقق ولاية بغير كرامة •• ثم قالوا : ان الكرامة نتيجـة العمل بالكتاب والسنة ، وأمارة صدق على صحة السلوك !!

« ومعنى الولاية فى كمالها — عند الصوفية — تسخير قوى الكون للولى بقوة روحانية •• فلا يمتنع عليه عسير . ولا يستحيل أمام ارادته أمر •• حتى يقول للشىء : كن فيكون !!

« أما مظاهر الولاية •• فتكون فى قذارة الثياب . واطالة الشعر ، ولباس الخرقة والمرقعة ، والتشرد فى الأرض . وذهول الولى عن نفسه ، وفساد عقله ونكران وجوده !!

« ولقد غالى الصوفية فى انتحال الكرامات حتى نسـبوا الى أشياخهم احياء الموتى ، ورؤية الاله •• فكان هذا من الأسباب التى حملت المسلمين الأولين على القيام فى وجه الصوفية وتنفيرهم ••

« ثم أتى على الناس حين من الدهر •• تراخى فيه العلماء عن قول الحق ايثارا لرضاء الناس على رضا الله •• فراجت دعوى الكرامة حتى أصبح الناس لا يفهمون الاسلام بغير الخوارق •• وأصبح الرجل فى بلادنا يروى خاشعا عشرات الكرامات لكل شـيخ يلقنها أبناءه وأحباءه •• ويدعوهم بعد ذلك الى التقرب الى الله بزيارة قبر الشيخ •• والتوسل اليه فى قبره أن يشملهم بنظره . وأن يمدهم بمدده »[٥٨] !!

* * *

(٥٧) الصوفية فى نظر الاسلام . مرجع سابق ص ٨١

(٥٨) المرجع السابق ص ٧٩ ، ٨٠.

يقول أبو يزيد البسطامى : « لو أن العرش ، وما حواه مائة ألف مرة ألف مرة فى زاوية من زوايا قلب العارف ، لما أحس به .. فقلب العبد الخصوصى بيت الله ، وموضع نظره ، ومعدن علومه ، وحضرة أسراره ، ومهبط ملائكته ، وخزانة أنواره ، وكعبته المقصودة ، وعرفاته المشهودة »[٥٩] !!

أى أن قلب الصوفى أوسع من عرش الله !!

ويقول الدباغ : « انى أرى السموات السبع ، والأرضين السبع والعرش ، داخلة وسط ذاتى .. وكذا ما فوق العرش فى السبعين حجابا »!! [٦٠] ..

الملكوت كله .. والسموات السبع ، والأرضين السبع ، والعرش وما فوقه فى بطن الدباغ !!

ويدعى الدباغ .. أن معجزات الرسل انما هى بعض كرامات الصوفية .. يقول : « كل ما أعطيه سليمان فى ملكه ، وما سخر لداوود ، وما أكرم به عيسى .. أعطاه الله وزيادة لأهل التصرف من أمة النبى ، ومكنهم من القدرة على ابراء الأكمه والأبرص ، واحياء الموتى »[٦١] !!

ويزعم الدسوقى أن الجنة والنار بيديه .. فيقول : « أنا بيدى أبواب النار أغلقتها ، وبيدى جنة الفردوس فتحتها .. من زارنى أسكنته جنة الفردوس ، وما كان ولى متصلا بالله الا وهو يناجى ربه كما كان موسى يناجى ربه » [٦٢] !!

بل ويزعم التيجانى أنه يضمن الجنة لمن يطعمه .. فيقول : « أخبرنى سيد الوجود يقظة — لا مناما — : كل من أحسن اليك بخدمة أو غيرها ، وكل من أطعمك يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب .. فسألته لكل من أحبنى وكل من أحسن لى بشىء من مثقال ذرة ، ومن أطعمنى طعامه كلهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب .. وسألته

(٥٩) الفصوص ، لابن عربى : ص ١٤١
(٦٠) الابريز ، للدباغ : جـ ٢ ص ٧٣
(٦١) المرجع السابق ص ١٢
(٦٢) انظر الطبقات الكبرى للشعرانى فى ترجمته الدسوقى .

لكل من أخذ عنى ذكرا أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر ، وأن يرفع الله عنهم محاسبته على كل شيء ، وأن يكونوا آمنين من عذاب الله من الموت الى دخول الجنة •• وأن يكونوا كلهم معى فى عليين فى جوار النبى •• فقال لى ﷺ : ضمنت لهم هذا ، ضمانة لا تنقطع ، حتى تجاورنى أنت وهم فى عليين »(٦٣) !!

وأولياء الصوفية •• أعطاهم الله — فى زعمهم — طى الأرض ، والمشى على الهواء •• ومنحهم كنوز الأرض فانقلبت لهم الأعيـان •• لقرأ معى «قوت القلوب» لأبى طالب المكى •• حيث يتحدث أحد أقطابهم عما أنعم عليه به ربه فيقول : « أدخلنى فى الفلك الاسفل ، فدورنى فى الملكوت السـفلى •• فأرانى الأرضين وما تحتها الى الثرى •• ثم أدخلنى فى الفلك العلوى فطوف بى فى السموات ، وأرانى ما فيهـا من الجنان الى العرش •• ثم أوقفنى بين يديه فقال لى : سلنى أى شيء رأيت حتى أهبه لك •• فقلت : ياسيدى : ما رأيت شيئا أستحسنه فأسألك اياه »(٦٤) !!

أرأيت لهذا الصوفى الذى يدخله الله فى الفلك الأسفل ، ويدوره فى ملكوته ، ويريه الأرضين وما تحتها الى الثرى •• ثم يدخله فى الفلك العلوى ويطوف به فى السموات •• ويريه جناته وكل ما فيهـا الـى العرش •• ومع هذا لا يستحسن شـيئا من كل ذلك •• حتى عرش الله لم يستحسنه !! •• ولهذا نراه يزعم أن الله قال له بعد أن قال قولته : « أنت عبدى حقـا » !! •• ياللوقاحة !!

ويروى لنا الجبرتى •• أن على بن حجازى البيومى ، رأى الشيخ الدمرداش فى السماء ، وأنه قال له : لا تخف فى الدنيا ولا فى الآخرة •• وأنه كان يزعم رؤيته للنبى ﷺ فى خلوته •• وسمعه يقول لأبى بكر رضى الله عنه : اسع بنا نطل على زاوية الدمرداش •• وأنه دخل مرة على السيد البدوى ورأى النبى ﷺ عنده ، فخشى أن يكون واهماً فى

---

(٦٣) جواهر المعانى فى فيض التيجانى ، لعلى حرازم ، ج ١ ، ص ٩٧
(٦٤) قوت القلوب ، لأبى طالب المكى ، ص ١٠٣

رؤية النبى ، ولكن الدمرداش الذى كان عند ضريحه قال له : مد يدك الى النبى فهو حاضر عندى »[٦٥] !!

ويزعم الصوفيون أن شيوخهم يقولون للشيء كن فيكون .. فيقول على بن حرازم عن أحد شيوخه : « انه خليفة ، يملكه الله كلمة التكوين ، متى قال للشيء كن ، كان من حينه »[٦٦] !!

ويقول أبو السعود : « أعطانى الله التصرف منذ خمس عشرة سنة وتركناه تظرفا » ..

ويعلق ابن عربى على هذا بقوله : « وأما نحن ، فما تركناه تظرفا .. وانما تركناه لكمال المعرفة »[٦٧] !!

ويقول الدباغ : « رأيت وليا بلغ مقاما عظيما .. وهو أن يشاهد المخلوقات الناطقة والصامتة ، والوحوش والحشرات ، والسموات ونجومها ، والأرضين وكرة العالم بأسرها تستمد منه .. ويسمع أصواتها وكلامها فى لحظة واحدة .. ويمد كل واحد بما يحتاجه ويعطيه ما يصلحه من غير أن يشغله هذا عن ذاك »[٦٨] !!

أما التيجانى .. فيحدثنا عن نفسه فيقول : « روحه ﷺ تمد الرسل والأنبياء .. وروحى تمد الأقطاب والعارفين من الأزل الى الأبد .. واذا جمع الله تعالى خلقه فى الموقف ينادى مناد بأعلى صوته يسمعه كل من فى الموقف : يا أهل المحشر ، هذا امامكم الذى كان مددكم منه .. كل ما فاض عن ذوات الأنبياء تتلقاه ذاتى ومنى يتفرق على جميع الخلائق »[٦٩] !!

ويصفه أحد أتباعه بقوله : « اذا توجه أغنى وأقنى ، وبلغ المنى »[٦٩] .

---

(٦٥) عجائب الاثار . للجبرتى . جـ ١ ص ٢٢٠
(٦٦) انظر جواهر المعانى جـ ٢ . ص ٨
(٦٧) الفصوص . جـ ١ . ص ١٢٩
(٦٨) الابريز . للدباغ جـ ٢ . ص ٧٣
(٦٩) جواهر المعانى . جـ ١ . ص ٤٦ ، ٤٧

ويصفه آخر فيقول : « لا يتلقين واحد من الاولياء فيضا من حضرة نبى الا بواسطته »[٧٠] !!

ويقول آخر : « نفوذ بصيرته الربانية التى ظهر مقتضاها من اظهار مضمرات ، واخبار بمغيبات ، وعلم بعواقب الحاجات ، وما يترتب عليها من المصالح والآفات »[٧٠] !!

ويقول البسطامى : « رفعنى — أى الله تعالى — فاقامنى بين يديه وقال لى : يا أبا يزيد ، ان خلقى يحبـون أن يروك .. فقلت : زينى بوحدانيتك ، وألبسنى أنانيتك ، وارفعنى الى أحديتك .. حتى اذا رآنى خلقك قالوا : رأيناك ، لتكون أنت ذاك . ولا أكون أنا هناك »[٧١] !!

بل ان الموتى — حسب تصورهم — لهم القدرة على التصرف فى الوجود !!

يقول الشعرانى : « ان شيخى أخذ على العهد فى القبة تجاه وجه سيدى أحمد البدوى وسلمنى اليه بيده .. فخرجت اليد الشريفة من القبر وقبضت على يدى ..قال سيدى الشناوى ' يكون خاطرك عليه واجعله تحت نظرك .. فسمعت سيدى أحمد يقول من القبر : نعم !!

« ولمـا دخلت بزوجتى وهى بكر .. مكثت خمسة أشهر لم أقرب منها .. فجاء — أى البدوى — وأخذنى وهى معى . وفرش فرشا فوق ركن قبته ، وطبخ لى حلوى . ودعا الأحياء والأموات اليه ، وقال : أزل بكارتها هنا . فكان الأمر تلك الليلة !!

« وتخلفت عن حضورى للمولد .. وكان هناك بعض الأولياء ، فأخبرنى أن سيدى أحمد البدوى كان ذلك اليوم يكشف الستر عن الضريح ويقول ' أبطأ عبد الوهاب .. ما جاء »[٧٢] !!

ويقول عن الحريثى : « قصدته فى حاجة ، وانا فوق سطوح مدرسة أم خوند بمصر .. فرأيته خرج من قبره يمشى من دمياط الى

---

(٧٠) جواهر المعانى . المرجع السابق .

(٧١) اللمع ، للطوسى ، ص ٣٨٣

(٧٢) الطبقات الكبرى ، للشعرانى . ج ٢ ص ١٣٥

أن صار بينه وبيني نحـو خمسة أذرع فقال : عليك بالصبر •• ثم اختفى »[٧٣] !!

ويعدد ابن عربى أنواع الكرامات فيقول : « ومنها سماع نطق الجمادات على مراتب نطقها فى العوائد وخرقها »[٧٤] !!

« ومنها مكالمته للملأ الأعلى ومحادثته لهم »[٧٥] !!

وماذا يكون سماع الجمادات أو الحديث مع الملائكة فى الملأ الأعلى الى جانب احياء الموتى الذى يزعمه الصوفيون لأوليائهم ؟ !

فهذا أبو عبيد اليسرى يغزو ومعه دابة ، فتموت •• فيسأل الله أن يحييها ، فاذا بها تقوم تنفض أذنيها !!

وهذا الدماميني •• يؤتى له بفراخ مشوية ، فيقول : طيرى باذن الله تعالى •• فتطير !!

وهذا الكيلانى •• يضع يده على عظم دجاجة بعد أن أكلها ويقول لها : قومى باذن الله •• فتقوم !!

ويموت لأحد تلاميذ يوسف الدهمانى ولد . فيجزع عليه ، فيقول له الشيخ : قم باذن الله •• فيقوم ويعيش طويلا !!

ويسقط مغسل من سـطح الفارقى ، فيموت •• فيدعو الله فيحييه[٧٦] !!

ويحدثنا الكوهنى عن معجزات سلامة الراضى فيقول : « حملت احدى زوجات الاخوان •• وفى التاسع مات الجنين ، وبقى عشرة أيام ميتا ببطن أمه •• وعند الوضع ذاكر هـذا الأخ شيخنا فقال : كذلك يافلان ؟ • وبتمامه تم الوضع طبيعيا كأن لم يكن هناك وليد مات منذ عشرة أيام !!

« وكف بصر أحد الاخوان فذاكر حضرة الأستاذ •• فقال له : إن كتمت الأمر أبصرت •• فرضى بالشرط فمسح على عينه ، فأبصر » !!

---

(٧٣) الطبقات الكبرى . جـ ٢ ص ١٥٤

(٧٤) مواقع النجوم . لابن عربى ص ٧٥

(٧٥) المرجع السابق ص ٨١

(٧٦) الكواكب الدرية . لعبد الرؤوف المناوى ، ص ١١

« وكان لبعض وجهاء بندر الجيزة ابنة وحيدة أصابتها الحمى .. وبعد شفائها خرست فلم تتكلم أبدا .. فعرضوها على الأطباء سنوات فلم تشف .. فأحضروها لشيخنا ، ونظر اليها نظرة فسألها عن اسمها ، فنطقت به وذهب خرسها فى الحال »[٧٧] !!

انها نفس المعجزات التى من الله بها على عيسى ابن مريم عليه السلام ، من ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى .. فماذا يكون التحدث الى الملائكة فى الملأ الأعلى أو سماع الجمادات الى جانب احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص ؟ !

وأولياء الصوفية .. يتطورون الى الوحوش والحيوانات وغيرها .. فهذا الغمرى — كما يذكر الشعرانى — يدخل عليه محمد بن شعيب فيراه جالسا فى الهواء وله سبع عيون !!

وهذا الشيخ أبو على : « تدخل عليه تجده جنديا . ثم تدخل عليه فتجده سبعا ، ثم تدخل فتجده فيلا .. وكان يقبض من الأرض ويناول الناس الذهب والفضة !!

ويزعم الشعرانى .. أن بعض الناس تآمروا على ذلك الشيخ المتطور الى فيل وسبع ، وأنهم قطعوه بسيوفهم وأخذوه فى تليس .. ثم أصبحوا فوجدوه حيا جالسا[٧٨] !!

ما هذا الهراء .. وما هذا الجنون والخبال ؟ !

أهذه هى الولاية والكرامة فى عرف القوم ؟ !

اللهم انا نبرأ اليك من تصوراتهم الضالة للولاية والكرامة .. فان أوليـــاء الله أكرم عليـــه من أن يعرضهم الى تلك المهاترات التى يلصقونها بهم[٧٩] .

* * *

---

(٧٧) طبقات الشاذلية الكبرى . للحسن بن محمد الكوهنى . ص ٢٥٨

(٧٨) الطبقات الكبرى . للشعرانى ج ٢ ، ص ٨٠ ، ٨١

(٧٩) انظر كتابنا « من وصايا القرآن الكريم » نشر دار التراث العربى ص ٤٢١ — ٤٤١ حيث تجد أمثلة كثيرة من هـــذه الضلالات التى يدعونها لأوليائهم مما يعجز العقل عن تصديقه ..

● يقول فضيلة الأستاذ عبد الرحمن الوكيل : « كانت الجاهلية فى إسفافها الوثنى أقل حماقة من الصوفية .. وتدبر ما قصه الله عن الجاهلية وشركها . تجدهم كانوا يوحدون الله فى ربوبيته توحيدا حرمت حتى من مثله قلوب الصوفية — ان كانت لهم قلوب !!

. يقول تعالى : « **قل لمن الأرض ومن فيها أن كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون • قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم • سيقولون لله ، قل أفلا تتقون • قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه أن كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل فانى تسحرون** »[(٨٠)] .

هذا دين الجاهلية .. ولكن الله لعنهم لعنا كبيرا بشركهم ؛ لأنهم أشركوا بالله فى الهيئة . فتضرعوا الى غيره بالدعاء ..

أما الصوفية .. فتدين بالفتنة والمجرمين : وأوغاد الفاحشة أقطابا يتصرفون فى الوجود . ويسيطرون بقهرهم على سنن الله الكونية ونواميس الوجود التى فطرها الله وحده . وهو الذى يصرفها وحده . ويتحكمون فى أقدار الله فلا ينفذ منها الا ما يشتهون !!

. فأى الشركين أطغى بغيا ؛ وأخبث رجسا ؟

لقد وحدت الجاهلية الله فى ربوبيته . وأشركت به فى ألوهيته .. أما الصوفية ، فنفتهما عنه . وأثبتتهما لنفايات الصعاليك .. بل انحدرت حتى نفت وجود الله الحق ، ونعتته بالعدم الصرف !!

أفيمكن أن يقاس الحاد الصوفية بشرك الجاهلية ؟ !

أم ترى هذا ليلا غاسقا .. وترى الالحاد الصوفى دياجير تطغى وتتراكم وتطول ، حتى لا يعرف الأبد فيها بدايته أو منتهاه »[(٨١)] ؟ !

❋ ❋ ❋

● ويحدثنا فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى عن بدع الطرق الصوفية فيقول جزاه الله خيرا :

« من هذه البدع : اعتقاد الصلاح فى المشايخ وأنهم لا يخطئون ،

---

(٨٠) المؤمنون : ٨٤ — ٨٩ .

(٨١) هذه هى الصوفية . للأستاذ عبد الرحمن الوكيل . ص ١٢٥

وأن من اعترض انطرد •• حتى لو كان الاعتراض على معصية شرعية ، لأنهم حسب زعمهم ظاهرا وباطنا ، والأشياخ عندهم قد تعصى ولكن الأرواح باقية على طاعتها ، وأن الولى يملك أربعين شخصية !!

وكل هذا من الضلال والشرك والكفر الصريح عند من يعتقده فى نفسه أو فى غيره •• فكل بنى آدم خطاء : والعصمة لرسل الله ، والكمال المطلق لله وحده •• وكان الرسول ﷺ يقول لصحبه : « اذا نسيت فذكرونى » ••

« ومنها اعتقاد النفع والضر فى المشايخ •• وأنهم يملكون تصريف الكون •• بل يعتقد بعض المريدين أن بعض الأولياء يخرجون بعد موتهم من القبور لقضاء مصالح الناس بأجسامهم !! ، وينسبون ذلك لمثل الشيخ الشرقاوى وأنه كان يذهب كل يوم من قبره لابنته ويشترى كل شىء من السوق ثم يذهب لقبره !! •• مع أن سيد الخلق نفسه — ﷺ — لم يفعلها قط !!

« ومن البدع قولهم « يجب على المريد أن يكون بين يدى شيخه كالميت بين يدى المغسل يوجهه كيف يشاء » !!

وفى هذا الغاء للشخصية •• مع أن سيد الخلق — ﷺ — كان يعلم الصحابة ويقول : « سلونى ما شئتم •• فانما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم » •• ويقول تعالى : « **فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** »(٨٢) •

« ومن بدعهم : لبس المرقعات ، والملونات . والعمائم الحمراء والخضراء والسوداء •• الى آخر ما يصنعون ؛ وما هذه الا عينات مما يصنعون !!

« ومنها : وضع السبحة فى العنق ، وحملها فى اليد من غير ذكر •• بل لمجرد الشهرة ولفت الأنظار !!

---

(٨٢) النحل : ٤٣ ، والأنبياء : ٧

« ومنها : الطواف فى البلاد على المريدين لا باسم التعليم والارشاد لأمور الدين ، ولكن لجمع تبرعات وفرض أتاوات ترهق الناس .. موهمين البسطاء أن الامتناع عن الدفع سيعرض المنزل كله للخراب — خراب الديار وقصف الأعمار — ومثلهم فى ذلك مشهور : « قطع الورايد ولا قطع العوايد » !! .. أى أن قطع الوريد والتعرض للموت أهون من قطع العادة فى الدفع المعلوم » !!

ويقول فضيلته : « ومن مصائبهم .. تفضيل أوراد المشايخ عن كتاب الله ، فتراهم يحفظون الورد مع طوله وعرضه جيدا من كثرة تكراره .. ومعظمهم لا يحسن حفظ سورة من قصار السور !! وهذا أقصى أنواع الحرمان والخزلان .. فايثار أى كلام على كلام الله شقاء وتعاسة ..

« ومن بدعهم .. كتابة الأحجبة والتعاويذ ، وياليتها بالمأثورات الاسلامية .. ولكن قد يكتب فيها أسماء الجن والأصنام .. وقد تبرأ الأئمة من ادعاء العصمة ، وقال أبو يزيد البسطامى : « لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى طار فى الهواء ، أو مشى على الماء[٨٣] .. فلا تغتروا به حتى تنظروا اليه عند الأوامر والنواهى والحدود الشرعية » .. ومثل ذلك قال أبو القاسم الجنيد ..

« ومنها — أى هذه البدع — : اللحن فى أسماء الله عند الذكر ، والتشويش به فى المساجد . واللعن فى بقية الفرق كأهل النار : « **كلما دخلت أمة لعنت أختها** »[٨٤] .. فكل فرقة تدعى أن طريقها الصواب وغيره هو الخطأ !!

« ومنها : الرقص . والتصفيق . والصفارة ، والتهريج .. وقولهم : « العبرة بالقلوب » .. وقولهم : « بيض قلبك وامشى فى ظلها » .. وقولهم : « اذا زادت المحبة سقطت شروط الكلفة والأدب » !!

---

(٨٣) وهذا شيء من عبث التمييز والمبالغة فيه . فالعقل يحيل أن يطير انسان فى الهواء أو يمشى على الماء .. وما رأينا انسانا يفعل ذلك الا فى ادعاءاتهم ..

(٨٤) الأعراف : ٣٨

« ويزعمون أن المتصوف يمكنه أن يصل الى حالة يصل فيها الى الله فيسقط عنه التكليف .. مع أن الله قال لرسوله ﷺ : « **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** »[٨٥] .. أى الموت ..

وقال عن عيسى عليه السـلام : « **وأوصانى بالصـلاة والزكاة ما دمت حيا** »[٨٦] .. فكأنهم يزعمون أنهم أعلى شأنا من الرسل !!

ولقد سمع الرسـول ﷺ أصحابه ذات يوم فى سفر يرفعون أصواتهم بالذكر فقال : « أربعوا على أنفسكم ، فانكم لا تدعون أصماً ولا غائباً .. ولكن تدعون سميعا بصيرا وهو معكم » .. وفى رواية : « هو أقرب اليكم من أعناق رواحلكم » ..

« والسنة : الذكر فى خفاء ، والانفراد فيه عن الخلق : « خير الذكر الخفى » .. ويقول تعالى :« **واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** »[٨٧] ..

« ومن شركهم : أوامرهم لمريديهم أن يلاحظوا مشايخهم فى أثناء الذكر .. وأن يكون المريد مغمض العين ، ولكن قلبه لابد أن يلاحظ صـورة شيخه ليستمد منه المدد ومن رجال السلسلة كلهم والأقطاب والأوتاد والخلفاء والنقباء »[٨٨] اهـ

❋ ❋ ❋

---

(٨٥) الحجر : ٩٩ (٨٦) مريم : ٣١

(٨٧) الأعراف : ٢٠٥

(٨٨) هذه دعوتنا ، للشيخ عبد اللطيف مشتهرى . نشر دار الاعتصام ، ص ٢٣٧ — ٢٤٢ بتصرف ..

الفصل السابع

ادعاء العلم بالغيب •• وانكشاف الحجب

قضية الغيب •• من أخطر القضايا التى اهتم بها الاسلام •• وحرص القرآن الكريم فى كثير من آياته على تأكيد انفراد الله وحده بعلم الغيب • •

يقول تعالى : « هو الله الذى لا اله الا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم »(1) •

ويقول جل شأنه : « ولله غيب السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله »(2) •

فالله تعالى •• هو الاله المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية الا له •• وهو عالم غيب السموات والأرض ، وشاهد ما فيهما مما يرى أو يحس •• وهو رحمن الدنيا والآخرة ، الرحيم بأهل الايمان خاصة ••

وعنده تعالى خزائن الغيب •• وله وحده علم ما غاب عن خلقه فلم يدركوه مما استأثر تعالى بعلمه •• فلا يعلم من ذلك شيئا الا هو سبحانه ••

ولله وحده ملك ما غاب وخفى فى السموات والأرض •• وكل ما فيهما بيده وبعلمه ، لا يخفى عليه منه شىء ، واليه وحده معاد كل عامل من خلقه •• فيقضى بين عباده بحكمه وعدله ••

الله وحده •• هو الذى يملك مفاتح الغيب ، ولا يملكها أحد سواه ••

وهو وحده الذى يعلم ما فى البر وما فى البحر ••

---

(1) الحشر : ٢٢

(2) هود : ١٢٣

وهو وحــده الذى يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام ..

وهو وحــده الذى يعلم متى تقوم الساعة .. ويعلم آجال الناس وأرزاقهم .. والناس لا يدرون ماذا يكسبون فى غدهم ، ولا يعرفون متى تحين آجالهم ، ولا بأى أرض يموتون ..

يقول تعــالى : « **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتــاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مســمى ، ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** »(٣) .

أى أنه تعالى يملك خزائن الغيب ، وعنده علم ما غاب عن خلقه فلم يدركوه ، مما استأثر تعالى بعلمه ، لا يعلم ذلك الا هو .. ويعلم أيضا كل ما حواه البر والبحر ، ولا يخفى عليه شىء منه ، وما تسقط من ورقة فى الصحارى والبرارى ، ولا فى القرى والأمصار ، الا والله يعلمها .. ولا شىء مما هو موجود أو سيوجد ، الا وهو مثبت فى اللوح المحفوظ مكتوب فيه .. وهو تعالى يتوفى أرواحنا بالليل فيقبضها من أجسادنا ، ويعلم ما كسبنا من الأعمال بالنهار .. [وفى هذه الآية احتجاج على المشركين الذين ينكرون قدرته تعالى على احيائهم بعد مماتهم ، وبعثهم بعد فنائهم ، فان الذى يقبض أرواحهم فى المنام ويبعثهم فى النهار ، قادر على احيائهم بعد مماتهم ورد أرواحهم الى أجسادهم] ثم يوقظنا تعالى من منامنا فى النهار لنبلغ المدة التى حددها لحياتنا .. ثم اليه تعالى معادنا ومصيرنا ، ثم يخبرنا بأعمالنا ويجازينا عليها .. ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ..

ثم يقول تعالى : « **وهو القاهر فوق عباده** »: أى أنه تعالى هو الغالب على خلقه ، العالى عليهم بقدرته .. لا المقهور المعلو عليه لذلته .. كأوثانهم وأصنامهم وكل ما عبد من دون الله ..

---

(٣) الأنعام : ٥٩ ، ٦٠.

ويقول جل شأنه : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار • عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال • سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهــار »(٤) •

أى أنه تعالى يعلم ما تحمل كل أنثى من خلق الله ، أذكر هو أم أنثى ، وما تنقصه الأرحام من حملها فى الأشهر التسعة ، وما تزداد على هذه الأشهر ، والظاهر — والله أعلم أن المراد بالغيض السـقط والولادة لأقل من تسعة أشهر ، والزيادة ابقاؤه أكثر من تسعة أشهر •• وكل شيء عند الله تعالى بقدر محدد ، لا يجاوزه ولا يقصر عنه •• فهو تعالى يعلم ما خفى عن الأبصار وما تشاهده الأبصار •• وهو الكبير الذى كل شيء دونه ، المستعلى على كل شيء بقدرته •• ويتساوى عنده تعالى من أخفى القول منا ومن جهر به ، ومن هو مستخف بمعصية الله فى ظلمة الليل ومن هو ظاهر بالنهار فى ضوئه •• لا يخفى عليه شيء من ذلك •• فالسر والجهر عنده سواء ، والمستخفى فى بيته والخارج بالنهار عنده سواء ••

ويقول جل وعلا : « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، ان الله عليم خبير »(٥) •

فالله تعالى — وحده — الذى يعلم الساعة التى تقوم فيها القيامة ، لا يعلم ذلك أحد غيره •• وينزل المطر من السماء ، لا يقدر على ذلك غيره •• وهو وحده يعلم ما فى أرحام الاناث •• وما تعلم نفس حى ماذا تعمل فى غد •• وما تعلم نفس حى بأى أرض تكون منيتها •• ان الذى يعلم ذلك كله هو الله •• دون كل أحد سواه ، لأنه عالم بكل شيء •• خبير بما هو كائن وما قد كان •• وهذه هى المغيبات الخمس التى استأثر الله عز وجل بعلمها ، وفى الحديث الصحيح : « مفاتح الغيب خمس ، لا يعلمهن الا الله » ••• وتلا الآية • (أخرجه البخارى) ••

(٤) الرعد : ٨ — ١٠ (٥) لقمان : ٣٤

ويقول سبحانه : **« وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين »**(٦) .

فما يغيب عنه تعالى ، ولا يخفى عليه أصغر الأشياء ولا أكبرها ، من زنة النملة الصغيرة أو ذرة التراب أو الهباءة — التى تدخل من كوة النافذة مع شعاع الشمس — لا فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من مثقال الذرة ولا أكبر منها •• الا هو فى كتاب عند الله واضح هو اللوح المحفوظ •• يخبرنا تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وان خف فى الوزن ، ولا أكبرها وان ثقل وزنه •• وأنه لا يغيب عنه تعالى علم شىء من خلقه ، حيث كان فى سمائه وأرضه ••

فالله تعالى •• هو وحده العليم بالأشياء كلها ••

وهو وحده : السميع •• وسمعه تعالى بلا أذن وبلا اهتزاز للهواء•• يسمع — سبحانه — ما فى البحر ، وما فوق السموات حيث لا هواء ولا اهتزاز • يسمع القريب والبعيد — القريب منا نحن والبعيد عنا ، اذ لا بعيد عنه أو قريب منه — لأنه سبحانه موجود فى كل الوجود ••

انه تعالى يسمع ما يجول بخاطر الانسان •• فهو يسمع ما لم يتحدث به من حديث لم يصل بعد الى طور الكلمات ، ولم يخرج بعد الى حيز الأصوات •• سبحانه وتعالى هو السميع العليم ، فلا تخفى عليه تعالى أصوات خلقه فى سمائه أو أرضه •• فهو المدرك للمسموع وان خفى ، لا يفوت سمعه شىء •• ولا يشغله نداء عن نداء ••

وهو وحده الذى يسمع النملة السوداء ، على الصخرة الصماء . فى الليلة الظلماء ••

والله تعالى •• هو البصير •• وبصره تعالى يختلف عن بصرنا •• فنحن عندما نرى ، فلنعرف ما لم يسبق لنا معرفته ، أو لنزداد به معرفة وعلما •• فكلما رأينا عرفنا أكثر ••

ولكنه سبحانه وتعالى سبق فى علمه ما يراه •• فما يراه يعلمه . وما يعلمه يراه •• ولا يسبق أحدهما الآخر ••

---

(٦) يونس : ٦١

ونحن نرى بقدر ما تمكنه لنا أجهزة البصر ، وهى العيون ..
ولكنه جل شأنه تعالى عن الشبه ، وتنزه عن المثل .. فلا عين له ولا جهاز يرى به .. ولكنه يرى بقدرته . وقدرته لا تحد .. ويرى بعظمته ، وعظمته لا تنتهى .. ولذلك فهو يرى ما خفى وما ظهر ، وما وضح وما استتر ، فلا يخفى عليه خافية ولا يحتجب عنه أى مستتر .

والله تعالى لا يحد بصره حدود .. فهو سبحانه الذى يشاهد ويرى . ولا يغيب عنه ما فى السموات العلا ، وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .. وهو سبحانه الحاضر الذى لا يغيب ..

والله تعالى .. هو اللطيف الخبير ..

لطيف .. يفيض بالخير كل الخير على عباده برفق ورحمة ..

لطيف .. عليم بدقائق الأمور . خافيها وباطنها .. فهو وحده العليم بخفيات الأمور .. البر بعبـاده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويهىء مصالحهم من حيث لا يحتسبون .

خبير .. يسمع ويبصر ويعلم .. وبعلمه الذى احتوى الوجود وما قبله وما بعده .. يأمر فيكون .. وما أمره فى كل الكون ووحداته ، والانسان فى مختلف حالاته ، الا لأنه الخبير ..

خبير .. يعلم الخير فيما أراد : مما يصلح الوجود والعباد ..

خبير .. يعلم من الانسان كل ما يعمل .. ويعلم كل الجوانب والدوافع والأهداف والنوايا التى كانت فى الانسان فى عمله ، وكانت منه فى صنعه ..

خبير .. لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ولا تتحرك حركة ولا تسكن ساكنة فى السـموات والأرض الا ويعلم مستقرها ومستودعها ..

الله تعالى وحده على كل شىء قدير ، لا يعجزه شىء .. أى شىء ..

وفى استطاعته جل شأنه أن يفعل ما يشاء ، كيف يشاء وأنى يشاء .. لا يتقيد فى ذلك بأسباب ، ولا يأخذ الأمر منه أى جهد أو حساب ..

وهو وحده .. الذي يعلم غيب السموات والأرض .. عالم الغيب والشهادة ، هو الكبير المتعال ..

يقول تعالى : « **قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله** »(٧) .. يستوى فى ذلك الملائكة ، والأنبياء والرسل ، والانس ، والجن(٨) ..

● الملائكة .. لا تعلم الغيب ، يقول تعالى : « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** »(٩) .

قال تعالى للملائكة : انى مستخلف فى الأرض خليفة ، يخلفنى فى الحكم بين خلقى — وذلك هو آدم — فقالت الملائكة — على سبيل الاسترشاد والاستخبار ، لا على سبيل الاعتراض والانكار — : أعلمنا يا ربنا ، أجاعل أنت فى الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء ، وتارك أن تجعل خلفاءك منا ؟ ونحن نعظمك بالحمد لك والشكر ! — والتسبيح هو التنزيه ، والتقديس هو التطهير والتعظيم — فقال تعالى : انى أعلم ما خفى عليكم من شأن آدم وابليس .. وأعلمه تعالى أسماء كل شىء ، أسماء ذريته وأسماء الملائكة ، ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة قائلا : أخبرونى بأسماء هؤلاء الذين عرضتهم عليكم أيها الملائكة ، ان كنتم

---

(٧) النمل : ٦٥

(٨) أفضنا فى شرح هذه المسألة فى الفصل الخامس من كتابنا : « من وصايا القرآن الكريم » الذى قامت بطبعه ونشره دار التراث العربى فليرجع اليه من يشاء ..

(٩) البقرة : ٣٠ — ٣٣

صـــادقين فى دعواكم أنكم ان اســـتخلفتكم فى أرضى ســـبحتمونى وقدستمونى ، وان استخلفت فيها غيركم عصانى ذريته ، وأفسدوا فى الأرض وسفكوا الدماء •• فقالت الملائكة : نسبحك ياربنا تسبيحا ، وننزهك تنزيها ، ونبرئك من أن نعلم شيئا غير ما علمتنا ، فأنت ياربنا وحدك العالم للغيوب دون جميع خلقك ، ذو الحكمة التامة •• فقال تعالى : ياآدم - أخبر الملائكة باسماء هؤلاء الذين عرضتهم عليهم فلم يعرفوهم •• فلما أخبرهم آدم بأسمائهم قال لهم ربهم عز وجل : ألم أقل لكم — أيها الملائكة — انى أعلم غيب جميع السموات والأرض ، لا يعلمه غيرى ، وأعلم ما تظهرون بالسنتكم من قولكم « **أتجعل فيهـــا من يفسد فيهـــا** » ؟ وما كنتم تخفونه فى أنفسكم من قولكم : « لن يخلق ربنا خلقا الا كنا نحن أعلم منه وأكرم » •• فأنا وحدى لا يخفى على أى شىء من الأشـــياء ••

ولنا أن نتساءل •• هل لو كانت الملائكة تعلم الغيب ، أكانت تعجز عن معرفة الأسماء التى علمها الله تعالى لآدم ، فى حين أن مسمياتها كانت معروضة عليهم ؟ ! •• بل انهم عجزوا حتى عن قراءة أفكار آدم عليه السلام وكانت هذه الأسماء قد انطبعت على صفحتها •• ولهذا لم يجدوا الا أن يقولوا : « **سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا** » •• ويرد عليهم تعالى بقوله : «**ألم اقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض** » •

● والرسل الكرام •• الذين اصطفاهم الله تعالى ، وأرسلهم الى الناس بالهدى والايمان مبشرين ومنذرين •• هؤلاء الرسل لا يعلمون الغيب ، الا ما ارتضاه الله لهم ، وأوحاه اليهم ليكون دليلا على صدق رسـالتهم ••

يقول الامام الذهبى فى تفسير قوله تعالى : « **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا • الا من ارتضى من رسول** »(١٠) : قال ابن الجوزى : « **عالم الغيب** » هو الله عز وجل ، لا شريك له فى ملكه •• « **فلا يظهر** » أى : فلا يطلع « **على غيبه** » الذى لا يعلمه أحد من الناس « **الا من**

---

(١٠) الجن : ٢٦ ، ٢٧

ارتضى من رسول » لأن الدليل على صدق الرسل اخبارهم بالغيب ..
والمعنى : أن من ارتضاه للرسالة أطلعه على ما شاء من الغيب ..
وفي هذا الدليل على من زعم أن النجوم تدل على الغيب ، فهو كافر
والله أعلم »[11] .

● يقول جل شأنه عن آدم عليه السلام : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً ، فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[12] .

يقول تعالى : اذكروا فعلى بكم اذ أنعمت عليكم فخلقت لكم ما فى الأرض جميعا ، فقلت للملائكة : انى جاعل فى الأرض خليفة ، فكرمت أباكم « آدم » بما آتيته من علمى وفضلى وكرامتى .. وأسجدت له ملائكتى فسجدوا جميعهم الا ابليس امتنع عن السجود لادم ، وتكبر عن طاعة الله ، وكان من الجاحدين لنعم الله : الكافرين بالله حين أبى السجود ، — فسجود الملائكة لآدم تكرمة له وطاعة لله ، لا سجود عبادة لآدم — وقال تعالى : ياآدم اسكن مع زوجتك فى جنة الخلد وكلا من ثمار الجنة أكلا واسعا هنيئا لا عناء فيه ولا تعب .. كلا من أى مكان شئتما فيها ؛ ولكن لا تقربا هذه الشجرة — وعينها لهما — انكم ان فعلتم وأكلتم من ثمارها تكونا من المتعدين حدود الله .. فاستزلهما الشيطان وأوقعهما فى الخطيئة والزلل عن طاعة الله وأغواهما فأكلا منها .. فأخرج الله تعالى آدم وزوجته مما كانا فيه من رغد العيش وسعة نعيم الجنة .. وقال لهما ولابليس : اهبطوا الى الأرض ،

---

(11) الكبائر : للامام الذهبى — نشر دار التراث العربى . ص ٢٥
(12) البقرة : ٣٤ — ٣٨

بعضكم أعداء بعض ولكم فى الأرض منازل ومساكن تستقرون عليها ، واستمتاع بما فيها من المعاش والرياش ، والزينة واللذة الى حين انقطاع الدنيا .. ثم أوحى تعالى لآدم بكلمات يقولهن ليتوب عليه فقبلهن وعمل بهن وهى قوله : **« ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »**(*) .. فتاب ربه عليه حين تنصل من خطيئته نادما على ما سلف من الذنب ، لأنه تعالى التواب على من تاب من ذنبه ، المتفضل بالرحمة والصفح عن الجرم .. وكان حكمه تعالى وقضاؤه : اهبطوا جميعا — آدم وحواء وابليس — من السماء الى الأرض ، فان يأتكم — يابنى آدم — منى بيان ورشاد ، فمن اتبع بيانى الذى أبعثه على لسان رسلى ، فلا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم فى الدنيا ..

ونقول : لو كان آدم عليه السلام يعلم الغيب .. هل كان يأكل من الشجرة التى حرمها الله عليه ، فى حين أن خروجه من الجنة مترتب على أكله منها ؟ !

● ويقول تعالى عن نوح عليه السلام : **« وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، أنهم مغرقون »**(١٢) .

أوحى تعالى ذلك اليه بعد ما دعا عليهم نوح بالهلاك ، والمعنى : لن يصدق بك ويتبعك على دعوتك الا من قد آمن من أتباعك ، فلا تأس ولا تحزن عليهم ، فانى مهلكهم ومنتقذك منهم ، واصنع السفينة كما نأمرك تحت نظرنا وبحفظنا : وبتعليمنا لك كيف تصنعها .. ولا تسألنى العفو عن هؤلاء الظالمين فانى مغرقهم بالطوفان ..

فلما جاء وعد الله بالطوفان ، وفار تنور الخبز الذى جعل الله فورانه علامة على مجىء العذاب .. وأهلك الله الكافرين وفى عدادهم

(*) الاعراف : ٢٣ (١٢) هود : ٣٦ ، ٣٧

كنعان بن نوح الذى عصى أباه وهلك مع الهالكين .. نادى نوح ربه قائلا :
« رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يانوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، انى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين »(١٤) .

يقول نوح عليه السلام لربه : يارب ، ان ابنى من أهلى وقد وعدتنى بنجاتهم ، ووعدك الحق الذى لا يخلف ، وأنت الحاكم بالحق ، فاحكم لى بما وعدتنى من نجاة أهلى . فقال تعالى : انه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك ، انه عمل عملا غير صالح ، لقد أخبرتك عن سبب اهلاكى ابنك ، فلا تسألنى بعدها عما قد طويت علمه عنك ، انى أعظك أن تكون من الجاهلين فى سؤالك هذا .. فقال نوح : أستجير بك يارب أن أتكلف مسألتك مما قد استأثرت بعلمه ، وان لم تغفر لى زلتى ، وتنقذنى من غضبك ، أكن من الهالكين ..

لو كان نوح عليه السلام يعلم الغيب .. هل كان يراجع ربه فى أمر ابنه ، فى حين أنه مكتوب فى عداد العاصين الهالكين ؟ !

● ويقول جل وعلا عن ابراهيم عليه السلام : **« ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما ، قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط »(١٥) .**

جاءت الملائكة ابراهيم بالبشارة ، تبشره باسحاق — وقيل تبشره بهلاك قوم لوط — فسلموا عليه سلاما . قال : عليكم السلام ، فما تأخر حتى جاءهم بعجل مشوى نضيج وقربه اليهم ليأكلوا .. فلما رأى أنهم لا يأكلون من الطعام الذى قدم اليهم أنكر ذلك عليهم ، وأحس منهم فى نفسه خوفا .. قالت الملائكة : لا تخف منا فانا ملائكة ربك ، أرسلنا الى قوم لوط لاهلاكهم ..

---

(١٤) هود : ٤٥ — ٤٧ (١٥) هود : ٦٩ ، ٧٠

لو كان ابراهيم عليه السلام يعلم الغيب .. أكان يذبح العجل للملائكة وهو يعلم أن الملائكة لا تاكل ولا تشرب ؟ !

● ويقول تعالى عن لوط عليه السلام : ((**ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات ، قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد . قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد . قالوا يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك ، فأسر باهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك ، انه مصيبها ما اصابهم ، ان موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب**))(١٦) .

لما جاءت الملائكة لوطا ساءه مجيئهم ، وضاقت نفسه غما بمجيئهم ، خوفا على ضيوفه من قومه انفجار أن يفحشوا بهم ، لأنه لم يعرف أنهم ملائكة .. وقال : هذا يوم بلاء وشدة ، شديد شره وبلاؤه . وجاء قوم لوط يسرعون اليه ويهرولون طلبا للفاحشة — وكان أولئكم القوم يأتون الذكران فى أدبارهم — قال لهم لوط : ياقوم هؤلاء النساء انكحوهن فهن أطهر لكم . واخشوا الله وخافوا عقابه ، ولا تذلونى فى ارتكاب الفاحشة فى ضيوفى ، أليس فيكم — أيها القوم — رجل فيه رشد ينهى عن المنكر ؟ ! .. فقالوا له : لقد علمت أنه لا رغبة لنا فى النساء ولا مطمع لنا فيهن . وانك لتعلم أن حاجتنا فى غير النساء ، وأننا نريد الرجال .. قال لهم لوط حين أبوا الا الفاحشة : لو أن لى أنصارا وأعوانا يعينونى عليكم ، أو أنضم الى عشيرة مانعة تمنعنى منكم ؟! — لو كان هذا أو ذاك لحلت بينكم وبين ما تريدونه فى أضيافى .. فقالت الملائكة : يالوط ، انا رسل ربك ، أرسلنا لاهلاك قومك ، وانهم لن يصلوا اليك ولا الى ضيفك بمكروه ، فهون عليك الأمر ، فاذا كان الليل فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ، ولا ينظر منكم أحد وراءه

---

(١٦) هود : ٧٧ — ٨١

الا امرأتك فلا تخرج بها لأنها على شريعة قومها وسيصيبها ما أصاب قومك من العذاب ، وان موعد هلاكهم الصبح •• فقال لوط : بل عجلوا لهم الهلاك •• فقالوا : أليس الصبح بقريب ؟ !

لو كان لوط عليه السلام يعلم الغيب •• هل كان يقف ذلك الموقف العصيب مستميتا فى الدفاع عن أضيافه ضد رغبة قومه الآثمة ، فى حين أنهم ملائكة أرسلهم الله لاهلاك أولئكم القوم ؟ !

● ويقول جل شأنه عن يعقوب عليه السلام : **« قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ، انه هو العليم الحكيم • وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم • قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين • قال انما أشكوا بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون • يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون »**[17] •

عاد اخوة يوسف عليه السلام بعد أن تركوا أخاهم « بنيامين » فى مصر فى كنف أخاه يوسف عليه السلام •• وقالوا لأبيهم : يا أبانا ان ابنك بنيامين قد سرق وأخذ بسرقته •• فقال لهم : بل زينت لكم أنفسكم أمرا أردتموه ، فصبرى صبر جميل لاجزع فيه ولاشكاية فلعل الله أن يرد أولادى على جميعا فهو وحده العالم بأمرى الحكيم فى تدبيره •• وأعرض عن أولاده وقال : ياحزنا على يوسف بعد أن هيج فقد بنيامين حزنه على أخيه وذكره بمصابه الأول فالأسى يبعث الأسى •• وابيضت عينا يعقوب من شدة الحزن ففقد بصره بعد أن امتلأ قلبه بالحزن والكمد •• فقال له أولاده : نقسم بالله لا تزال تذكر يوسف حتى تكون ضعيف الجسم مخبول العقل أو تكون من الهالكين بالموت •• فقال لهم : لا أشكو همى وحزنى الا الى الله وحده ، وأعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى سأسجد له •• اذهبوا الى الأرض التى تركتم

---

(١٧) يوسف : ٨٣ — ٨٧

بها أخوكم بنيامين وتعرفوا خبره وخبر أخوه يوسف .. ولا تقنطوا من رحمـــة الله أن يرد علينا يوسف لأنه لا يقنط من فرجه ورحمته الا القوم الجاحدون بقدرته ..

في هذا الوقت .. كان يوسف عليه السلام وزيرا على مصر .. وكان أخاه بنيامين في كنفه ورعايته .. فهل كانت عينا أبوهما تبيضان ويكف بصرهما من الحزن والبكاء عليهما وهذا هو حالهما ؟ !

● ويقول تعالى عن موسى عليه السلام : **« فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما آتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى انى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، ياموسى أقبـــل ولا تخف ، انك من الآمنين »**(١٨) .

لمـــا وفى موسى لشعيب — عليهما السلام — الأجل الذى كان بينهما .. سار بأهله مسافرا بهم الى مصر . فأبصر من جانب الجبل نارا تتقد ، فقال لأهله : انتظروا فقد أبصرت نارا لعلى آتيكم منها بخبر عن الطريق الذى أضللناه : أو آتيكم بقطعة من الحطب فيها النار تستدفئون بها من البرد .. فلما وصل — عليه السلام — النار ، ناداه الله تعالى من جانب الوادى الذى هو عن يمين موسى فى ذلك المكان المبارك عند الشجرة : بأننى أنا الله رب العالمين ، اطرح عصاك التى تحملها فألقاها .. فلما رآها تتحرك كأنها جان من الحيات ، ولى هاربا منها ولم يرجع على عقبه ، فنودى : أقبل ولا تخف من الذى تهرب منه . فانك فى أمان من أن يضرك ..

ونقول : لو كان موسى عليه السلام يعلم الغيب ، أكان يفزع ويفر من عصاه فى حين أنها ستعود عصا كما كانت ؟ !

---

(١٨) القصص : ١٦ — ٢١

● ويقول جل شـأنه عن داوود عليه السلام : « **وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب • اذ دخلوا على داوود ففزع منهم ، قالوا لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط • ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب • قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داوود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب • فغفرنا له ذلك ، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب** »[19] •

يقول تعالى لنبيه : هل أتاك يامحمد خبر الخصم اذ دخلوا أشرف مكان فى دار داوود من غير بابه ، فلما دخلوا عليه خاف من دخولهما من غير المدخل فقالوا له : لا تخف ياداوود ، نحن خصمان ، تعدى أحدنا على صاحبه بغير حق. فاقض بيننا بالعدل ولا تجر ، ولا تسرف فى حكمك بالميل مع أحدنا على صاحبه ، وأرشدنا الى قصد الطريق المستقيم .. ثم قال أحدهما : هذا أخى فى الدين ، له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة .. فقال لى : انزل لى عنها وضمها لى ، وغلبنى فى مخاطبته لأنه أبين حجة ، وأشد قوة .. فقال داوود عليه السلام الخصم المتظلم من صاحبه : لقد ظلمك صاحبك بسؤاله نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الشركاء ليعتدى بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا بالله وعملوا بطاعته ، وانتهوا الى أمره ونهيه فلم يتجاوزوه وقليل ما تجدهم .. ثم علم داوود عليه السلام أن الله قد ابتلاه بارسال الملائكة اليه على هذا النحو .. فسأل ربه غفران ذنبه وخر ساجدا لله ، وتاب عن خطيئته .. فعفى الله عنه وصفح له عن خطيئته ، ووعده بالقربى منه يوم القيامة ، وبحسن المرجع والمنقلب ينقلب اليه[20] •

---

(١٩) سورة ص : ٢١ — ٢٥

(٢٠) يقول ابن كثير — رحمه الله : قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم صلى الله عليه وسلم حديث يجب اتباعه ، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يرد علمها الى الله عز وجل : فان القرآن حق ، وما تضمن حق •

هل كان داوود عليه السلام — لو كان يعلم الغيب — يجلس للقضاء بين الخصمين ، وقد أرسلا فتنة له فلم يعرف أنهما من رؤساء الملائكة ؟ !

● ويقول تعالى عن سليمان عليه السلام : « **وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين • لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين • فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين • انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم • وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون • الا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون • الله لا اله الا هو رب العرش العظيم** »[٢١] ص

جمع لسليمان عليه السلام جنوده من جميع الأجناس فى مسير لهم ، وتفقد عليه السلام أنواع الطير فقال : ما الذى جعلنى لا أرى الهدهد ؟ أأخطأه بصرى فلم أره وقد حضر ؟ أم هو غائب لم يحضر ؟ •• فلما أخبر أنه غائب اقسم ليعذبن الهدهد عذابا شديدا أو ليقتلنه ان لم يأته بحجة واضحة تبين لسامعها صحتها •• فمكث سليمان وقتاً قصيراً حتى جاءه الهدهد •• فسأله عليه السلام عن تخلفه وغيبته •• فقال : أحطت بعلم لم تحط به أنت ، وجئتك من سبأ بخبر يقين •• لقد وجدت امرأة تملك سبأ ، وقد أوتيت كل شىء فى الدنيا من العتاد والآلة ، ولها عرش عظيم من ذهب قوائمه من الجوهر واللؤلؤ ، ووجدت هذه المرأة وقومها يعبدون الشمس فيسجدون لها ، وحسن لهم ابليس عبادتهم هذه فمنعهم بذلك أن يتبعوا دين الله الحق ، فهم لا يهتدون له ولا يسلكونه •• زين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله الذى يخرج المخبوء فى السموات والأرض من الغيث والنبات ، ويعلم السر من أمور خلقه والعلانية •• فهو وحده الذى لا معبود سواه ، ولا تصلح العبادة الا له ، مالك العرش العظيم •• الذى كل عرش — وان عظم — فدونه ••

---

(٢١) النمل : ٢٠ — ٢٦

أكان سليمان عليه السلام — لو كان يعلم الغيب — يبحث عن الهدهد حين لم يجده بين الطير فيتوعده بأشد العقاب ؛ وهو في سبأ يطالع من أحوالها ما يجهل ؟ !

● ويقول جل شأنه عن مريم ابنة عمران : « **واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا • فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا • قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا • قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا** »(٢٢) ..

يقول الله لنبيه : واذكر في كتاب الله المنزل مريم ابنة عمران حين انفردت واعتزلت عن أهلها ، في موضع قبل مشرق الشمس ، فاتخذت من دون أهلها سترا يسترها عن الناس فأرسلنا اليها جبريل ، فتشبه لها في صورة آدمي معتدل الخلقة .. فقالت : انى أستجير بالرحمن منك أن تنال منى ما حرمه الله عليك ان كنت تتقى محارم الله — خافته مريم وظنته رجلا يريدها على نفسه بفعل الفاحشة — فقال لها جبريل : انما أنا رسول ربك يامريم أرسلنى اليك لأمنحك غلاما طاهرا من الذنوب ..

نقول : لو كانت مريم عليها السلام تعلم الغيب .. أكانت تفزع وتتعوذ من جبريل عليه السلام ، في حين أنه روح الله أرسله اليها بالبشرى ؟ !

● وحادثة الافك .. وما أدراك ما حادثة الافك ؟ !

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ اذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه ؛ فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه .. فأقرع بيننا في غزوة غزاها ، فخرج سهمى ، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب .. فأنا أحمل في هودجى وأنزل فيه ، فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله ﷺ في غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة قافلين ، آذن ليلة بالرحيل ..

---

(٢٢) مريم : ١٦ — ١٩

فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شـأنى أقبلت الى رحلى •• فاذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع •• فالتمست عقدى وحبسنى ابتغاؤه •• وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت ركبت وهم يحسبون أنى فيه ••

وكان النساء اذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم ، انما نأكل العلقة من الطعام •• فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ؛ فبعثوا الجمل وساروا ••

فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب •• فأممت منزلى الذى كنت به ، وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون الى •• فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ••

وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش ، فأدلج فاصبح عند منزلى ، فرأى سواد انسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى — وكان يرانى قبل الحجاب — فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطىء على يديها فركبتها •• فانطلق يقود بى الراحلة ، حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة •• فهلك من هلك •• وكان الذى تولى الافك عبد الله ابن أبى بن سلول ••

فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا •• والناس يفيضون فى قول أصحاب الافك ؛ لا أشعر بشىء من ذلك وهو يريبنى فى وجعى ثم ينصرف ، فذاك الذى يريبنى ولا أشعر ••

حتى خرجت بعد ما نقهت •• فخرجت معى أم مسطح قبل المناصع انى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كان فيه حين أشتكى •• انما يدخل على رسول الله ﷺ فيسلم ، ثم يقول : كيف تيكم ؟ •• — وهو متبرزنا — وكنا لا نخرج الا ليلا الى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ

الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التبرز قبل الغائط ، فكنا نتاذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ..

فانطلقت أنا وأم مسطح ، وهى ابنة أبى رهم بن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق . وابنها مسطح بن أثاثة .. فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى ، قد فرغنا من شأننا .. فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح ..

فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدرا ؟

قالت : أى هنتاه .. أو لم تسمعى ما قال ؟

قلت : وما قال ؟ .. فأخبرتنى بقول أهل الافك . فازددت مرضا على مرضى .. فلما رجعت الى بيتى ودخل على رسول الله ﷺ — تعنى سلم — ثم قال : كيف تيكم ؟ .. فقلت : أتاذن لى أن آتى أبوى ؟

قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ..

قالت : فأذن لى رسول الله ﷺ ، فجئت أبوى . فقلت لأمى : ياأمتاه ، ما يتحدث الناس ؟

قالت : يابنية ، هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجلها يحبها ولها ضرائر ، الا أكثرن عليها ..

فقلت : سبحان الله .. ولقد تحدث الناس بهذا ؟ !

قالت . فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، حتى أصبحت أبكى ..

فدعا رسول الله ﷺ عليا بن أبى طالب ، وأسامة بن زيد رضى الله عنهما — حين استلبث الوحى — يستأمرهما فى فراق أهله ..

قالت : فأما أسامة بن زيد .. فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم لهم فى نفسه من الود .. فقال : يارسول الله ، أهلك .. وما نعلم الا خيرا ..

وأما على بن أبى طالب .. فقال : يارسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثيرا ، وان تسأل الجارية تصدقك (11)

قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : أى بريرة ، هل رأيت من شيء يريبك ؟

قالت بريرة : لا والذى بعثك بالحق .. ان رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله !!

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبى بن سلول .. قالت : فقال رسول الله ﷺ وهـو على المنبر : « يامعشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فوالله ما علمت على أهلى الا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى الا معى » ..

فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يارسول الله ، أنا أعذرك منه .. ان كان من الأوس ضربت عنقه ، وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ..

قالت : فقام سعد بن عبادة — وهو سيد الخزرج — وكان قبل ذلك رجلا صالحا .. ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد : كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله !!

فقام أسيد بن حضير — وهو ابن عم سعد بن معاذ — فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله ، لنقتلنه ، فانك منافق تجادل عن المنافقين !!

فتثاور الحيـان الأوس والخزرج .. حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، وسكت ..

قالت : فمكثت يومى ذاك لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم .. قالت : فأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوما ، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لى دمع ، يظنان أن البكاء فالق كبدى .. فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى ، فاستأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى ..

قالت : فبينا نحن على ذلك ، دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس .. قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهرا لا يوحى اليه فى شأنى !!

قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : « أما بعد .. ياعائشة ، فانه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه ، فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب الى الله تاب الله عليه » ..

قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة .. فقلت لأبى : أجب رسول الله ﷺ فيما قال !!

قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ !!

فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﷺ !!

قالت : ما أدرى ما أقول لرسول ﷺ !!

فقلت — وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن — : انى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصـــدقتم به .. فلئن قلت لكم انى بريئة ، والله يعلم أنى بريئة لا تصدقونى بذلك .. ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقننى .. والله ما أجد لكم الا قول أبى يوسف قال : **« فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون »**(٢٣) .

قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى .. قالت : وأنا حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحياً يتلى . ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها !!

قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت ، حتى أنزل الله عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق .. وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى ينزل عليه !!

---

(٢٣) يوسف : ١٨

قالت : فلما سرى عن رسول الله ﷺ .. سرى عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : « ياعائشة ، أما الله عز وجل فقد برأك » ..

فقالت أمي : قومي اليه .. فقلت : والله لا أقوم اليه ، ولا أحمد الا الله عز وجل ..

وأنزل الله تعالى : « أن الذين جـاءوا بالافك عصـبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم • لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين • لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء ، فأولئك عند الله هم الكاذبون • ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم • اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم • ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم • يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين • ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم • ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون • ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم »[٢٤] ..

نزل وحى السماء بتبرئة عائشة رضى الله عنها من البهتان الذى قذفها به أهل النفاق « عبد الله بن أبى بن سلول » وجماعته .. ويحمل تحذيرا للمؤمنين عن الخوض فى أعراض المسلمين ..

يقول تعالى : ان الذين جاءوا بالكذب والبهتان جماعة منكم .. فلا تظنوا ما جاءوا به من الافك شراً لكم عند الله وعند الناس ، بل ذلك خير لكم عند الله وعند المؤمنين .. لكل واحد منهم جزاء ما اجترم من الاثم ، والذى تحمل معظم الاثم منهم ، وبدأ بالخوض فيه له عذاب عظيم يوم القيامة .. هلا حين سمعتم ما قاله أهل الافك فى عائشة ،

---

(٢٤) النور : ١١ — ٢٠

ظننتم بمن رمى — بضم الراء — بذلك منكم خيرا ؟ — فالمؤمن فيه من نور الايمان والعقل والدين ، ما يميز به الصحيح والقبيح ، والصادق والكاذب — هلا قلتم حين سمعتم ما سمعتم : هذا الذى سمعناه من رمى عائشة كذب وبهتان ؟ .. هلا جاء هؤلاء العصبة بأربعة يشهدون على مقالتهم فيها ؟ ! .. فاذ لم يأتوا بالشهداء على حقيقة ما رموها به فأولئك عند الله هم الكاذبون فيما جاءوا به من الافك ..

ولولا فضل الله عليكم — أيها الخائضون فى أمر عائشة — بتركه تعجيل عقوبتكم ، ورحمته اياكم بقبول توبتكم ـ لمسكم عاجلا عذاب عظيم بسبب ما تكلمتم فيه من أمرها حين تلقيتم خبر الافك من أهله فقبلتموه على أنه حقيقة .. تتكلمون بألسنتكم بما لا علم لكم به ، ولا تعلمون حقيقة ما تروونه ، وتظنون أن روايتكم له وتلقيه سهل لا اثم عليكم فيه .. فى حين أن روايتكم له أمر عظيم عند الله ، لما فيه من ايذاء رسول الله — ﷺ — وايذاء زوجته .. هلا حين سمعتموه قلتم : ما يحل ولا ينبغى لنا أن نتكلم بهذا .. ننزهك يارب ، وبراءة اليك مما جاء به هؤلاء ، فهذا القول بهتان عظيم ..

ان الله — تعالى — ينهاكم ويذكركم بآى كتابه لئلا تعودوا لمثل فعلكم فى أمر عائشة أبداً ، ان كنتم تتعظون بعظات الله ، وتنتهون عما نهاكم عنه .. ويفصل — تعالى — لكم حججه ، وهو عليم بأفعالكم ، حكيم فى تدبير خلقه ..

ان الذين يحبون أن ينتشر الزنا ويظهر فى الذين صدقوا بالله ورسوله ، لهم عذاب وجيع فى الدنيا بالحد ، وفى الآخرة بعذاب جهنم ، والله — تعالى — يعلم كذب أهل الافك ، وأنتم لا تعلمون ذلك لأنكم لا تعلمون الغيب ، فلا تتحدثوا بما لا علم لكم به من الافك فتهلكوا ..

ولولا أن الله — تعالى — تفضل عليكم أيها الناس ورحمكم ، وأنه تعالى ذو رحمة بخلقه ، لهلكتم فيما أفضتم فيه ..

ثم يقول تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل**

الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ، والله سميع عليم »(٢٥) .

أى : ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله ، لا تسلكوا سبيل الشيطان وطرقه ، ولا تقتفوا آثاره باشاعتكم الفاحشة .. ومن يقتف آثار الشيطان فانه يامر بالزنا والمنكر من القول .. ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكم ، ما تطهر منكم أحد أبداً من دنس ذنوبه وشركه ، ولكن الله يطهر من يشاء من خلقــه ، والله سميع لمــا تقولونه بأفواهكم ، عليم بكل أموركم ومحصيها عليكم ..

بقى أن نشير الى الخير الذى أصاب المسلمين فى هذه الحادثة .. فقد كشف الله بها أهل النفاق الذين خاضوا فى الافك وكانوا مستترين فى صفوف المؤمنين .. كما نزلت أحكام قذف المحصنات لتكون رادعا لمن يخوض فى الأعراض بالباطل ..

والمقصود .. أن الغيب لا يعلمه الا الله وحده .. « فهذه عائشة أم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ الصديقة بنت الصديق ، وأحب نساء النبى اليه .. لم تعرف بافك الأفكين فى حقها ، حتى أخبرتها أم مسطح ــ بعد شهر كامل ــ والمدينة كلها ترجف بهذا الحديث !!

وهذا على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ أول من أسلم من الصبيان ، الذى لم يسجد لصنم قط .. ابن عم رسول الله ﷺ ، وخليفته فى فراشه عند الهجرة ، وصهر الرسول ، وأبو الشهداء .. لم تتضح له براءة أم المؤمنين ، فأشار بطلاقها فالنساء كثيرات !!

وهذا أبو بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ خليفة رسول الله ﷺ ، وصاحبه وحبيبه ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار .. لم يدر كيف يدافع عن ابنته لدى زوجها ﷺ !!

بل .. هذا رسول الله ﷺ نفسه ، لبث عنه الوحى شهرا كاملا ، فلم يعرف براءة زوجه الحبيبة برغم المحنة الشديدة التى عاشها ،

---

(٢٥) النور : ٢١

فراح يستشير أسامة وعلياً ، ويسأل عنها بريرة .. حتى أنزل الله براءتها من فوق سبع سموات !!

فهل لقائل بعد هذا — مهما كان شأنه — أن يدعى العلم بالغيب ، أو أن حجابه قد كشف عنه » ؟ ! (٢٦)

وعن اياس بن سلمة قال : حدثنى أبى أنه كان مع النبى ﷺ .. اذ جاءه رجل بفرس له يقودها عقوق .. ومعه مهرة له يبيعها ، فقال له : من أنت ؟ .. قال : « أنا نبى الله » قال : وما نبى الله ؟ .. قال : « رسول الله » .. قال الرجل : متى تقوم الساعة ؟

فقال ﷺ : « غيب ، ولا يعلم الغيب الا الله » ..

قال : متى تمطر السماء ؟

فقال ﷺ : « غيب ، ولا يعلم الغيب الا الله » ..

قال الرجل : ما فى بطن فرسى هذا ؟

فقال ﷺ : « غيب ، ولا يعلم الغيب الا الله » ..

قال : أرنى سيفك .. فأعطاه النبى ﷺ سيفه ، فهزه الرجل ثم رده اليه ..

فقال ﷺ : « أما انك لم تكن تستطيع الذى أردت » ..

يقول اياس : وكان الرجل قال : أذهب اليه فأسأله عن هذه الخصال ثم أضرب عنقه (٢٧) !!

وروى أن الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة — رجل من أهل البادية — جاء الى النبى ﷺ ، فسأله عن الساعة ووقتها .. وقال : ان أرضنا أجدبت فمتى ينزل الغيث ؟ وتركت امرأتى حبلى ، فماذا تلد ؟ .. وقد علمت أين ولدت ، فبأى أرض أموت ؟

فأنزل الله تعالى : **« ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت »**(٢٨) ..

---

(٢٦) من وصايا القرآن الكريم ، للمؤلف : ص ٤٠٩

(٢٧) أسباب النزول ، للنيسابورى ، ص ٢٣٤

(٢٨) نفس المرجع السابق ، والآية من سورة لقمان : ٣٤

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمهن الا الله تعالى : لا يعلم متى تقوم الساعة الا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام الا الله ، ولا يعلم ما فى غد الا الله ، ولا يعلم بأى أرض تموت الا الله ، ولا يعلم متى ينزل الغيث الا الله »(٢٩) .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كنت مستترا بأستار الكعبة .. فجاء ثلاثة أنفار كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم ، قرشى وختناه ثقفيان — أو ثقفى وختناه قرشيان — فتكلموا بكلام لم أفهمه .. فقال بعضهم : أترون أن الله سمع كلامنا ؟ فقال الآخر : اذا رفعنا أصواتنا سمع ، واذا لم نرفع لم يسمع .. وقال الآخر : ان سمع منه شيئا سمعه كله ..

قال : فذكرت ذلك للنبى ﷺ .. فنزل قوله تعالى : « **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** »(٣٠) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : تبارك الذى وسع علمه كل شىء .. انى لأسمع كلام خويلة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها الى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يارسول الله ، أبلى شبابى ، ونثرت له بطنى .. حتى اذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى .. اللهم انى أشكو اليك .. فما برح حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات : « **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير** »(٣١) .

وفى رواية أنها قالت : « الحمد لله الذى توسع لسمع الأصوات

---

(٢٩) رواه البخارى .

(٣٠) أسباب النزول . للنيسابورى ، مرجع سابق ص ٢٥٠ ، والآية من سورة فصلت : ٢٢ ، ٢٣

(٣١) المجادلة : ١

كلها .. جاءت المجادلة فكلمت رسول الله ﷺ ، وأنا فى جانب البيت لا أدرى ما تقول »[٣٢] .

هذا رسول الله — ﷺ — لم يعلم — فى حديث اياس السابق — بموعد الساعة ، ولا نزول المطر ، ولا ما تحمل الفرس فى بطنها ، أو ما تحمل زوج الحارث بن عمرو .. انما أعلمه جبريل عليه السلام بنية اياس الذى كان ينوى قتله ..

وهذا عبد الله بن مسعود .. لم يسمع حديث القرشى والثقفيان الذى تكلموا به الى جوار الكعبة ..

وهذه عائشة — رضى الله عنها — لم تسمع حديث خويلة بنت ثعلبة التى جاءت تشكو زوجها بعد أن ظاهر منها الى رسول الله ﷺ .. والأمثلة فى ذلك كثيرة انما اقتصرنا على ذكر البعض منها خوفا من الاطالة واملال القارىء ..

« ان قضية الغيب من أخطر القضايا ، انها احدى قضايا التوحيد !! ولقد حسمها الله تعالى بقوله : « **لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله** »[٣٣] .

ولم يترك الرسول ﷺ مناسبة الا وأوضح فيها أن أمر الغيب الى الله تعالى وحده .. فلا يعلم الغيب سواه ..

حضر ﷺ عرسا من الأعراس .. وتغنت جارية بمدحه فكان مما غنت أن قالت : « وفينا نبى يعلم ما فى غد » !!

وفى مثل هذه المناسبات يتساهل الناس عادة فيما يتغنى به المغنون ، ولا يلتفتون الى كل ما يقال ، فالمجال مجال فرح وأنس ..

ولكن الرسول ﷺ .. رأى بثاقب نظره فى غناء هذه الجارية ما يتعارض مع احدى الحقائق الاسلامية الكبرى ، فنهاها عن مثل هذا القول ..

---

(٣٢) رواهما النيسابورى فى اسباب النزول ص ٢٧٤
(٣٣) النمل : ٦٥

روى خالد بن ذكوان ، عن الربيع بنت معوذ بن عفراء رضى الله عنها قالت : جاء النبى ﷺ يدخل حين بنى على[٣٤] .. فجلس على فراشى كمجلسك[٣٥] .. فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائى يوم بدر[٣٦] .. اذ قالت احداهن : « وفينا نبى يعلم ما فى غد » .. فقال ﷺ : « دعى هذه ، وقولى بالذى كنت تغنين به »[٣٧] .

وفى رواية لحماد بن سلمة انه قال : « لا يعلم ما فى غد الا الله » ..

لقد حرص رسول الاسلام — ﷺ — على تصحيح العقيدة الاسلامية فى مسألة الغيب ، ولو فى أغنية من الأغنيات ، فما كادت الجارية تنسب اليه — ﷺ — شيئا من علم الغيب حتى أمرها من فوره بأن تترك هذا القول : « فلا يعلم ما فى غد الا الله » .. وطلب اليها أن تعود الى ما كانت تتغنى به من ذكر أوصاف البطولة والفداء ..

.. فما بالنا نرى الناس — فى هذه الأيام — يتساهلون فى هذه المسألة الخطيرة ، وينسبون علم الغيب لكل من هب ودب ، من أولياء ، وكهنة ، وسحرة ، ومنجمون » ؟ ! [٣٨]

وصدق الله العظيم حيث يقول : « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون »[٣٩] .

● والجن أيضا لا يعلمون الغيب .. يقول تعالى : « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داوود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور . فلما

---

(٣٤) أى حين تزوجت من اياس بن بكير الليثى .
(٣٥) الخطاب لخالد بن ذكوان راوى الحديث .
(٣٦) اى يعددن محاسنهم .
(٣٧) رواه احمد والبخارى والبيهقى والترمذى .
(٣٨) من وصايا القرآن الكريم . للمؤلف . ص ٤٩٢
(٣٩) يوسف : ١٠٦

قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين »(٤٠) .

يقول تعالى : وسخرنا لسليمان الريح ، تغدو من الصباح الى انتصاف النهار مسيرة شهر ، وترجع من انتصاف النهار الى الليل مسيرة شهر ، وأذبنا له عين النحاس وأجريناها له .. ومن الجن من يطيعه ويأتمر بأمره ، فيعمل بين يديه ما يأمره به ، بتسخير الله ذلك له ، ومن يعدل من الجن عن أمرنا الذى أمرناه به من طاعة سليمان نذقه نار جهنم الموقدة .. يعمل الجن لسليمان ما يشاء من القصور الشامخة ، والأبنية الرفيعة ، ويعملون له التماثيل من النحاس والزجاج ، وينحتون له ما يشاء من أحواض المـاء ، وقدور ثابتات لا يحركن لعظمهن .. وقلنا لهم : اعملوا بطاعة الله يا آل داوود ، شكرا له على ما أنعم عليكم ، وقليل من عبادى الذين يخلصون فى توحيدى وطاعتى ، وشكرى على نعمتى ..

فلما حكمنا على سليمان بالموت فمات .. لم يدل الجن على موته الا الأرضة ، تأكل عصاه التى كان متكئا عليها ، فلما سقط سليمان على الأرض — بانكسار العصـا — تبينت الجن أنهم لا يعلمون الغيب ، اذ لو كانوا يعلمون الغيب لمـا مكثوا فى العذاب المذل حولا كاملا بعد موت سليمان !!

ولنا أن نتسـاءل .. هل لو كان الجن يعلمون الغيب ، أكانوا يستمرون فى عملهم الشاق فى بناء المحاريب بين يدى سليمان وهو ميت .. ثم لا يدلهم على موته الا الأرضة بعد أن أكلت عصاه فخر ساقطا ؟ !

الحق .. أن الملائكة لا يعلمون الغيب ..

كما أن الأنبيـاء بدورهم لا يعلمون من الغيب الا بالقدر الذى ارتضاه الله لهم وأوحاه اليهم ..

---

(٤٠) سبأ : ١٢ — ١٤

والجن كذلك .. لا يعلمون الغيب ، فلا يعلم الغيب الا الله وحده ..

فما بالنا نرى الصوفية ينسبون لأنفســهم من خوارق العادات ما لم يأت به الأنبياء والمرسلون ، ولم يتأت لملك أو جنى ؟ !

ما بالنا نراهم يزعمون العلم بالغيب ، وأن حجابه قد كشف عن شيوخهم ، فيشركونهم بهذا الزعم فى خاصية هى لله تعالى وحده ؟ !

لقد أسس الصوفية عقيدتهم على هذا الادعاء ، وأعرضوا عن الدليل الشرعى المستند الى الكتاب والسنة ، وعن طريق هذا الادعاء شككوا الناس فى مصادر الشرع .. بل وأنكروا بعض الأحاديث النبوية الثابتة فى الكتب الصحيحة ، وأولوا بعضها الآخر وفقا لأهوائهم !!

***

● **مزاعم .. وأباطيل !!**

يقول أبو يزيد البسطامى : « أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت » !!

ويعنى بذلك أن المسلمين قد أخذوا علمهم عن رسول الله ﷺ الذى أخذه بدوره عن جبريل عليه السلام .. فى حين أن الصوفية يأخذون علمهم عن الله مباشرة !!

وفى عقيدة الصوفية .. أنهم يرون الله تعالى فى صحوهم وفى منامهم .. فيتحدث اليهم ويتحدثون اليه .. يقول البسطامى : « رأيت رب العزة فى المنام فقال لى : كل النــاس يطلبون منى ، غير أنك تطلبنى » !!

سبحانك ربى ، هذا بهتان عظيم !!

فهذا موسى — عليه السلام — نبى الله وكليمه .. مع ما أوتى من منزلة عالية ، ومرتبة سنية .. لمــا سمع خطاب الله تعالى سأله رفع الحجاب .. فأنبأه تعالى بأنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى ، لأن الجبل نفسه الذى وقف عليه ، والذى هو أقوى وأكبر ذاتا ، وأشد ثباتا من الانسان ، لا يثبت عند التجلى من الله الرحمن ..

يقول تعالى : « **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر اليك ، قال لن ترانى ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا ، فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين** »(٤١) .

أى : ولما جاء موسى للوقت الذى وعده الله أن يلقاه فيه ، وناجاه ربه ، قال موسى لربه : يارب أرنى نفسك لأنظر اليك !! ، قال الله مجيبا له : لن ترانى فى الدنيا ، ولكن انظر الى الجبل ، فانه أكبر منك وأشد ، فان ثبت مكانه فسوف ترانى .. فلما اطلع الرب للجبل صار الجبل ترابا مستويا بالأرض — وما تجلى منه تعالى على قول ابن عباس الا قدر الخنصر — وسقط موسى عليه السلام مغشيا عليه ، فلما أفاق من غشيته قال : أنزهك يارب أن يراك احد فى الدنيا ، تبت اليك من سؤالى لك الرؤية ، وأنا أول المؤمنين من بنى اسرائيل ..

تجلى تعالى بعظمته للجبل ، فلم يتمالك وأقبل فدك على أوله ، ورأى موسى عليه السلام ما يصنع الجبل فخر صعقا .

وهذا محمد — ﷺ — رفعه الله الى أعلا سماء ، ولكنه لم يره ..

عن أبى موسى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حجابه النور — وفى رواية : النار — لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه — أى أنوار وجهه — ما انتهى اليه بصره من خلقه »(٤٢) .

وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — فى قوله تعالى : « **لا تدركه الأبصار** »(٤٣) « ذاك نوره الذى هو نوره .. اذا تجلى لشىء لا يقوم له شىء » ..

وعن مسروق رضى الله عنه قال : كنت متكئا عند عائشة — رضى الله عنها — فقالت : يا أبا عائشة : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية .. قلت : ما هن يا أم المؤمنين ؟ قالت : من زعم أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ..

---

(٤١) الأعراف : ١٤٣ (٤٢) متفق عليه .
(٤٣) الأنعام : ١٠٣

قال : وكنت متكئا فجلست فقلت : يا أم المؤمنـين ، أنظرينى ولا تعجلينى ، ألم يقل الله عز وجل : « **ولقد رآه بالأفق المبين** »(٤٤) ، ويقـول : « **ولقد رآه نزلة أخرى** »(٤٥) ؟

قالت : أو لم تسـمع أن الله تعالى يقول : « **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصـار وهو اللطيف الخبير** »؟ .. أو لم تسـمع أن الله تعالى يقول : « **وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء ، انه على حكيم** »(٤٦) ؟

قالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله ، فقد أعظم على الله الفرية . والله تعالى يقول : « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته** »(٤٧) ..

قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول : « **قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله** »(*) ..

وروى مسلم عن أبى ذر رضى الله عنهما قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور .. أنى أراه » ؟ !

وقيل فى تفسـير قوله تعـالى : « **لقـد رأى من آيات ربه الكبرى** »(٤٨) : أنه رأى فيما رأى من آيات الله وعجائبه العظمى : جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى فى صورته . له ستمائة جناح » .. وقد جعل الله ما عاينه الرسول ﷺ ليلة الاسراء من العجائب امتحانا واختبارا للناس . يزداد به ايمان المؤمن ، وكفر الكافر ..

فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .. ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ..

والرؤية — ولو فى المنام — تقتضى التجسيم والتشبيه .. فكيف يرى الصوفية الله تعالى ؟ . وعلى أى صورة يرونه فيها ؟ ، وبأى لسان يخاطبهم وأى وحى ينزله عليهم ؟ !

(٤٤) التكوير : ٢٣ — (٤٥) النجم : ١٣

(٤٦) الشورى : ٥١ — (٤٧) المائدة : ٦٧

(*) النمل : ٦٥ . والحديث رواه مسلم .

(٤٨) النجم : ١٨

ان الرؤيا فى أغلب أحوالها انعكاس لما يعتمل فى أعماق النفس البشرية من أفكار وخيالات •• ثم تطفو حال النوم بحسب تصور الرائى واعتقاده •• فهم انما يرون أعماق نفوسهم وخيالاتهم وأوهامهم •• فما رأوا الله ولا تحدث اليهم ، ولكنه الشيطان يسول لهم ، ويضلهم ويعمى أبصارهم !!

موسى عليه السلام •• لم ير الله تعالى يوم طلب الرؤية بل خر مغشيا عليه وهو يرى كيف صار الجبل عندما تجلى الله له ••

ومحمد ﷺ •• لم ير ربه ليلة أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصا ثم عرج به الى ما فوق السموات العلا ••

ولكن البسطامى يزعم أنه رأى رب العزة فى المنام وقال له : كل الناس يطلبون منى ، غير أنك تطلبنى !!

وتحت زعم كشف الحجب عن شيوخهم •• يدعون أنهم يرون رسول الله ﷺ يقظة ومناما •• فيتلقون منه ما يعينهم على تأويل الأحاديث ، أو التمييز بين الصحيح منها والضعيف !!

يقول محيى الدين بن عربى — فى الفتوحات المكية — : «ورب حديث يكون صحيحا عن طريق رواية حصل لهذا الكاشف الذى عاين هذا المظهر فسأل النبى ﷺ عن هـذا الحديث فأنكره •• وقال له : لم أقله ولا حكمت به ، فيعلم ضعفه فيترك العمل به على بينة من ربه •• وان كان عمل به أهـل النقل لصـحة طريقه ، وهو فى نفس الأمر ليس كذلك » !!

وعلى هذا •• يقسمون الدين الى شريعة وحقيقة ، وظاهر وباطن !!

وأهل الشريعة — عندهم — ومن بينهم علمـاء المذاهب الأربعة وفقهاء الشرع وعلمـاء الحديث ، هم أهل الظاهر !! . وعلى هـذا يعتبرونهم طبقـة العوام لايمانهم بالنصوص الشرعية دون اللجـوء الى التأويل !!

أما أهل الحقيقة — فى زعمهم — فهم أهل الباطن ، وهم الخاصة الذين يعتمدون على تأويل النصـوص الشرعية عن طـريق الكشف والخواطر والأحلام !!

يقول الجنيد : « لا يبلغ الرجل عندنا مبلغ الرجال حتى يشهد فيه ألف صديق من علمــاء الرسوم — أى الشريعة — بأنه زنديق ، لأن أحوالهم وراء النقل والعقل » !!

ويقول : « أحب للمبتدىء ألا يشغل قلبه بهذه الثلاث والا تغير حاله : التكسب ، وطلب الحديث ، والتزوج .. وأحب للصوفى ألا يقرأ ولا يكتب لأنه أجمع لهمه » !!

ولهذا يعتقدون — كما قدمنا — أن للقرآن ظاهرا وباطنا .. وأن فى كل آية منه ، وفى كل كلمة ، بل وفى كل حرف معنى باطنى لا يكشفه الله الا للخاصة من عباده — وهم أهل الحقيقة — فتشرق معانيها فى قلوبهم أوقات وجدهم !!

ويروى ابن عربى فى هذا حديثا موضوعا عن الرسول ﷺ يقول : « ما من آية فى القرآن الا ولها ظاهر وباطن وحد ومطلع ، ولكل مرتبة من هــذه المراتب رجال ، ولكل طائفة قطب ، وعلى ذلك القطب يدور ذلك ذلك الكشف » !!

ثم يعقب على ذلك بقوله : « وقد أجمع أصحابنا أهل الكشف على صحته » !!

وباسم هذا الكشف — الذى يدعونه — يعطون لأنفسهم الحق فى تأويل آيات الله تعالى وفقا لأهوائهم ، فتسمع أحدهم يقول : حدثنى قلبى عن ربى ... !!

وآخر يقول : رأيت رسول الله وحدثنى قال ... !!

ولهم فى ذلك أقوال مأثورة .. يقــول قائلهم : أحسن الظن ولا تنتقد .. بل اعتقد !!

ويقــول الآخر : من اعترض انطرد ووجد الباب مغلقا .. !! وهكذا ..

ويقول السهروردى فى كتابه « عوارف المعارف » : « كلام الشيخ بالحق من الحق ، فالشيخ للمريدين أمين الالهام كما أن جبريل أمين الوحى .. فكما لا يخون جبريل فى الوحى ، لا يخون الشــيخ فى

الالهام •• وكما أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، فالشيخ لا يتكلم عن الهوى » !!

ويقول الشاذلي : « على المريد أن يعتصم بالشيخ ويتمسك به تمسك الأعمى على شاطىء البحر بقائده •• بحيث يفوض أمره اليه بالكلية ، فلا ينازعه في الأمر ولا يخالفه » !!

بل ان ذا النون المصرى يقول : « طاعة المريد لشيخه فوق طاعته لربه » !!

فلا عجب ، والأمر كذلك••أن ينسبوا لشيوخهم من خوارق العادات ما لم يتأت لنبى أو لرسول .!! فينسبون اليهم القدرة على التصرف فى أمور الناس ، يعطونهم ويمنعونهم . يحيون من يشاءون منهم ويميتون ، يسلبون الناس ايمانهم ويمنحونهم اياه ، يمشون على الماء ، ويطيرون فى الهواء ، ويحولون التراب ذهبا ، ويحيلون الناس مسوخا وحيوانات !!

فاذا كان لشيوخهم هذه القدرات المزعومة •• فماذا يمنع علمهم للغيب وانكشاف حجبه عنهم ؟ !

● يقول الشعرانى عن أبى العباس أحمد الملثم •• انه كان لا يخبر بشىء الا جاء كما قال •• وأنه كان يقول : أنا ما أتكلم باختيارى •• وحدث أن أنكر عليه بعض الفقهاء فقال له : يافقيه اشتغل بنفسك فانه ما بقى من عمرك سبعة أيام وتموت •• فكان كما قال[٤٩] !!

● ويقول سهل التسترى : « أعرف تلامذتى من يوم : « ألست بربكم »[٥٠] — يعنى وهم فى عالم الذر !! — وأعرف من كان فى ذلك الموقف عن يمينى ومن كان عن شمالى ، ولم أزل من ذلك اليوم أرى تلاميذى وهم فى الأصلاب •• ولم يحجبوا عنى الى وقتى هذا » !!

وكان يقول : « أشهدنى الله تعالى ما فى العلا وأنا ابن ست سنين•• ونظرت فى اللوح المحفوظ وأنا ابن ثمان سنين •• وفككت طلسم السماء وأنا ابن تسع سنين •• ورأيت فى السبع المثانى حرفا معجما حار فيه الجن والانس ففهمته وحمدت الله تعالى على معرفته ،

---

(٤٩) الطبقات الكبرى ، للشعرانى . ج ١ . ص ١٥٧

(٥٠) الأعراف : ١٧٢

وحركت ما سكن ، وسكنت ما تحرك باذن الله تعالى وأنا ابن أربعة عشرة سنة »[٥١] !!

● بل ان الشعرانى نفسه يزعم أنه استطاع رؤية الأولياء من الأحياء والأموات .. وأنه رآهم يمشون بأكفانهم ويزحفون لحضور مولد البدوى .. فيقول : « وأردت التخلف — عن المولد — سنة من السنين ، فرأيت سيدى أحمد ومعه جريدة خضراء ، وهو يدعو الناس من سائر الأقطار . والناس خلفه ويمينه وشماله ، أمم وخلائق لا يحصون .. فمر على وأنا بمصر فقال : أما تذهب ؟ ، فقلت : بى وجع .. فقال : الوجع لا يمنع المحب !!

ثم أرانى خلقا كثيرا من الأولياء وغيرهم الأحياء والأموات ، من الشيوخ والزمنى باكفانهم يمشون ويزحفون معه يحضرون المولد !!

ثم أرانى جماعة من الأسرى جاءوا من بلاد الافرنج ، مقيدين مغلولين يزحفون على مقاعدهم .. فقال : انظر الى هؤلاء فى هذا الحال . ولا يتخلفون !!

فقوى عزمى على الحضور فقلت له : ان شاء الله تعالى نحضر . فقال : لابد من الترسيم عليك ، فرسم على سبعين عظيمين أسودين كالأفيال وقال : لا تفارقاه حتى تحضرا به !!

يقول الشعرانى : فأخبرت بذلك سيدى الشيخ محمد الشناوى ، فقال : سائر الأولياء يدعون الناس بقصادهم ، وسيدى أحمد يدعو الناس بنفسه الى الحضور .. ثم قال : ان سيدى الشيخ محمد السروى تخلف سنة عن الحضور . فعاتبه سيدى أحمد وقال : موضع يحضر فيه رسول الله ﷺ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معه وأصحابهم والأولياء رضى الله عنهم ، ما تحضره ؟ .. فخرج الشيخ محمد الى المولد فوجد الناس راجعين وفات الاجتماع . فكان يلمس ثيابهم ويمر بها على وجهه » !![٥٢]

---

(٥١) الطبقات الكبرى ج ١ ، ص ١٨٣

(٥٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٦

تأمل قوله : « ان رسول الله ﷺ ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام معه ، وأصحابهم والأولياء رضى الله عنهم » يحضرون الى مولد البدوى !!

ويبدو أن لهذا المولد خطراً عظيماً .. فان شخصا أنكر حضوره فسلب — كما يقول الشعرانى — الايمان .. انظر الى قوله : « ويروى أن شخصا أنكر حضور مولده ، فسلب الايمان .. فلم يكن فيه شعرة تحن الى دين الاسلام (!!) .. فاستغاث بسيدى أحمد فقال : بشرط أن لا تعود ؟ فقال : نعم .. فرد عليه ثوب ايمانه ثم قال له : وماذا تنكر علينا ؟ .. قال : اختلاط الرجال والنساء .. فقال : ذلك واقع فى الطواف ولم يمنع أحد منه .. ثم قال : وعزة ربى ، ما عصى أحد فى مولدى الا وتاب وحسنت توبته ، واذا كنت أرعى الوحوش والسمك فى البحار وأحميهم من بعضهم بعضا .. أفيعجزنى الله عز وجل عن حماية من يحضر مولدى » !! (٥٣)

أى سخف .. وأى هراء !!

● وهذا اسماعيل الامبابى .. يزعم الشعرانى : « أن الله تعالى أجرى على يديه الكرامات ، وكلمته البهائم ، وكان يخبر أنه يرى اللوح المحفوظ ، ويقول : يقع كذا وكذا لفلان ، فيجىء الأمر كما قال !!

وأنكر عليه شخص من علماء المالكية وأفتى بتعزيره ، فبلغ ذلك الامبابى فقال : ومما رأيته فى اللوح المحفوظ ، أن هذا القاضى يغرق فى بحر الفرات .. فأرسله ملك مصر الى ملك الافرنج ليجادل القسيس عندهم ، فانه وعد باسلامه ان قطعهم عالم المسلمين بالحجة ، فلم يجدوا فى مصر أكثر كلاما وجدلا من هـذا القاضى ، فأرسلوه فغرق فى بحر الفرات » !!(٥٤)

● وهـذا داوود بن ماخلا : « كان شرطيا فى بيت الوالى بالاسكندرية .. وكان يجلس تجاه الوالى وبينهما اشارة يفهم منها وقوع المتهوم أو براءته .. فان أشار اليه أنه برىء عمل باشارته ، أو أنه فعل ما اتهم به عمل بذلك .. وكانت اشارته أنه ان قبض على لحيته

---

(٥٣) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٨٧

(٥٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٥

وجذبهـا الى صـدره علم أنه وقع ، وان جذبهـا الى فوق علم أنه برئ » !! (٥٥)

● وكان محمد الرويجل — كما يزعم الشـعرانى — من أرباب الكشف التام .. رآه الشـعرانى مرة بعد مرة من بعيد — نحو مائة قصبة — فقال له رفيقه : هل يحس بأحد اذا ضربه ، فلما وصلا اليه قال لرفيقه : تضربنى على ايش » ؟ !! (٥٦)

● كما كان ابراهيم العريان اذا دخل بلدا سلم على أهلها كبارا وصغارا بأسمائهم كأنه تربى بينهم !!

وابراهيم العريان — هذا — كان يطلع على المنبر ويخطب عريانا ، فيقول : السلطان ودمياط ، باب اللوق بين القصرين ، وجامع طيلون ، الحمد لله رب العالمين .. فيحصل للناس بسط عظيم !!

وكان يخرج الريح بحضرة الأكابر .. ثم يقول : هـذه ضرطة فلان ، ويحلف على ذلك فيخجل ذلك الكبير منه » !!(٥٧)

● أما محيسن البرلسى : « فكان — كما يزعم الشعرانى — من أصحاب الكشف التام ، فكان يربط عنده عنزا وديكا ، ويجعل النار موقدة عنده فى أغلب أوقاته صيفا وشتاء .. وكان الخواص اذا شك فى نزول بلاء على أهل مصر يقول : اذهبوا للشيخ محيسن فانظروا النار التى عنده ، هل هى موقدة أو مطفية ؟ .. فان كانت مطفية حصل فى مصر رخاء ونعمة ، وكان الناس فى غاية الراحة .. فأوقد الشيخ محيسن النار فقال الشيخ : انه لا يبشره بخير .. فأصبح الناس فى شدة فى مسكهم لبلاد الهند ، وحصل لهم غاية الضيق » !!

ويقول الشعرانى : « وكنت عنده مرة .. فجاء انسان ومزح معه — وكانت فى رجله أكلة من أصحاب النوبة ، ولم تزل تدود الى أن مات —

---

(٥٥) الطبقات الكبرى ج ١ ، ص ١٨٨
(٥٦) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤١
(٥٧) نفس المرجع ج ٢ ص ١٤٢

فقال له ذلك الانسان : الذى جعل فى هــذه الرجل الآكلة قادر على أن يجعلها فى الأخرى . فقال الشيخ محيسن : ما يستحق ذلك الا الذى زنى بامرأة جاره .. فخجل ذلك الانسان فقلت له : مالك ؟ قال : هذا وقع لى وأنا شاب فى نواحى دمياط من خمسين سنة .. فقلت : الذى يطلع على هذا تمزح معه ؟ فقال : والله ما علم بهذه الواقعة الا الله عز وجل » !! (٥٨)

● وهذا على الخواص .. « كان محل كشفه اللوح المحفوظ عن المحو والاثبات .. فكان اذا قال قولا لابد أن يقع على الصفة التى قال !!

ويقول الشعرانى : وكنت أرسل له الناس يشاورونه عن أحوالهم ، فما كان قط يحوجهم الى كلام .. بل كان يخبر الشخص بواقعته التى أتى من أجلها قبل أن يتكلم ، فيقول : طلق — مثلا — أو شــارك ، أو فارق ، أو اصبر ، أو سافر ، أو لا تسافر .. فيتحير ويقــول : من أعلم هذا بأمرى » !!(٥٩)

● وهذا شعبان المجذوب .. « كان من أهل التصريف بمصر ، وكان يخبر بوقائع الزمان المستقبل !!

ويقول الشعرانى : « أخبرنى سيدى على الخواص أن الله تعالى يطلع الشيخ شعبان على ما يقع فى كل سنة من رؤية هلالها .. فكان اذا رأى الهلال عرف جميع ما فيه مكتوبا على العباد !!

وكان اذا اطلع على موت البهائم يلبس صبيحة تلك الليلة جلد البهائم البقر أو الغنم ، أو تسخير الجمال لجهة السلطنة يلبس الشليف والليف .. فيقع الأمر كما نوه به » !!

وجاءت الى الشــعرانى امرأة من الريف تريد أن تفسخ نكاح ابنتها لكون زوجها غاب عنها مدة طويلة .. فباتت عنده من غير علمه .. فأرسل الشيخ شعبان نقيبه الى الشعرانى مع الفجر يقول له : يقول لك

---

(٥٨) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٤٣

(٥٩) المرجع السابق جـ ٢ ص ١٥٠

الشيخ : لا تفرق بين رأسين فى الحلال . فعلم الشعرانى أن زوجها سيرجع ، فأخبر المرأة فرجعت عن ذلك ، وجاء الأمر كما قال !!

هذا .. والمرأة لم تخاطب الشعرانى بكلام .. وما علم بوجودها فى بيته .. بل كانت مضمرة فى نفسها أن تخبره بذلك بكرة النهار .. ولكن الشيخ شعبان علم بخاطرها !! (٦٠)

فاذا كانت هذه هى أفكار القوم وتصوراتهم .. فلا عجب اذن أن يقول أبو يزيد البسطامى : « قلت يوما سبحان الله ، فنادانى الخالق فى سرى : هل فى عيب تنزهنى عنه ؟ قلت : لا يارب .. قال : فنفسك نزه عن ارتكاب الرذائل . فأقبلت على نفسى بالرياضة حتى تنزهت عن الرذائل ، وتحلت بالفضائل .. فصرت أقول : « سبحانى سبحانى ، ما أعظم شأنى . الجنة لعبة صبيان » !!

* * *

هذا هو زعم الصوفية لشيوخها وأقطابها .. فى حين أن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : **« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون »**(٦١) .

ويقول على لسان نوح عليه السلام : **« ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك »**(٦٢) .

نوح عليه السلام — أول الأنبياء .. لا يعلم الغيب ..
ومحمد ﷺ — خاتم الأنبياء .. لا يعلم الغيب ..
وجميع الرسل والأنبياء .. لا يعلمون الغيب ..
والملائكة ، والانس ، والجن .. لا يعلمون الغيب ..

ولكن شيوخهم — من دون الخلق جميعا — يعلمون الغيب بعد أن انكشفت حجبه عنهم !!

الا من له أذنان للسمع فليسمع . ومن له عقل للتدبر فليتدبر !!

* * *

---

(٦٠) الطبقات الكبرى ج ٢ . ص ١٨٥

(٦١) الأعراف : ١٨٨ (٦٢) هود : ٣١

الفصل الثامن

تعظيم القبور .. وتقديس المقبورين

● **السنة .. والبدعة :**

السنة لغة : الوجه ، أو دائرته ، أو الصورة ، أو الجبهة والجبينان ، أو السيرة والطبيعة[1] .. وكلها معان متقاربة تشترك فى الدلالة على صورة معينة حسية أو معنوية ..

ويقول الأزهرى : السنة الطريقة المحمودة المستقيمة ..

ويقول الشيخ رشيد رضا : قيل انها من قولهم سن الماء اذا والى صبه .. فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب ، فانه لتوالى اجرائه على شيء واحد يكون كالشيء الواحد[2] .

ويقال : السنة : الطريقة والسيرة .. حميدة كانت أو ذميمة .. وسواء قصرنا السنة من ناحية اللغة على السيرة المستقيمة ، أو السيرة مطلقا مستقيمة أو غير مستقيمة .. فانها تتقيد بما تضاف اليه ..

يقول تعالى : « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا »[3] .

ويقول ﷺ : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » .

فالسنة فى الأصل : سنة الطريق ، وهو طريق سنه أوائل الناس فصار مسلكا لمن بعدهم .. وهى لا تنفصل عمن سنها .. بل ترتبط به باعتباره مصدرها ومنشأ وجودها ..

---

(١) القاموس المحيط ، ولسان العرب .

(٢) تفسير المنار جـ ٤ ص ١٤٠ (٣) الاسراء : ٧٧

واختلف معنى السنة فى الشرع باختلاف المباحث التى تناولتها ، وقامت بتحديدها ..

فعلماء الأصول .. يطلقون السنة على ما صدر من النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ..

وبعضهم يدخل فيها ما علم به ﷺ أو أشار اليه ، وان لم يتواتر عند الجمهور ويخصون ذلك بغير القرآن الكريم ..

وقد يدخل فيها بعضهم سنة الخلفاء الراشدين ، ويدخل فيها بعضهم سنة الصحابة ..

وعلماء الحديث .. يعرفونها بانها ما اضيف الى النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، أو صفة خلقية أو خلقية[٤] .. وما يتصل بالرسالة من أحواله الشريفة قبل البعثة .. ونحو ذلك ..

وعلماء الفقه .. يختلف تعريفهم للسنة لاختلاف أنظارهم وتفاوت أفهامهم ..

فمنها .. تعريفهم لها بانها : « ما فى فعله ثواب ، وفى تركه عتاب لا عقاب » ..

وجعلها بعضهم من قبيل المندوب ، والمندوب ما يحمد فاعله ولا يذم تاركه ..

وهى عند الحنفية .. الطريقة المسلوكة فى الدين ، يطالب باقامتها بلا افتراض ووجوب .. وقسموها الى سنن زوائد كسيرة النبى ﷺ فى اللباس والقيام والجلوس ، وسنن هدى كالأذان والاقامة ونحوهما .. وأوجبوا على ترك الثانية الاساءة والكراهة دون الأولى ..

وتطلق السنة على ما يقابل البدعة .. استنادا الى المقابلة بينهما فى الأحاديث .. وعلى ذلك تشمل السنة كل ما تشتمل عليه الشريعة من قرآن وغيره ، مما ورد عن الرسول ﷺ ، وقد تشتمل ما استند الى الشريعة عن طريق اقرته كاجتهاد صحيح ..

---

(٤) بفتح الخاء فى الأولى وضمها فى الثانية .

يقول ابن حزم : « السنة •• هى الشريعة نفسها ، وأقسامها فى الشريعة فرض أو ندب أو اباحة أو كراهة أو تحريم •• كل ذلك قد سنه الرسول ﷺ عن الله عز وجل »(٥)

● والبدعة لغة : اسم هيئة من الابتداع كالرفعة من الارتفاع ، وهى : كل شيء أحدث على غير مثال سابق •• سواء أكان محمودا أو مذموما ••

والبدع ـ بكسر الباء : الأمر الذى يكون اولا •• ومنه قوله تعالى : « قل ما كنت بدعا من الرسل »(٦) ؛ أى لست أول من جاء بالوحى من عند الله تعالى وحمل الرسالة الى الناس : بل قد أرسل قبلى مبشرون ومنذرون ، فلست مبتدعا ـ اسم مفعول ـ أم يتقدمنى رسول ••

ويجوز أن يكون بمعنى مبتدع ـ اسم فاعل ـ فيكون معنى الآية : ما كنت مبتدعا فيما أقوله وأدعو اليه من الرسالة ، ولست مخترعا لها •• بل هى من عند الله ••

والبدع بكسر الباء : يستعمل فى الخير والشر •• ورجل بدع : أى غمر لم يجرب الأمور ••

وفلان بدع من الأمر : أى هو أول من فعله لم يسبقه اليه أحد •• فبدع هنا بمعنى مبتدع •• ورجل بدع ، وامرأة بدعة : اذا كانا غاية فى كل شيء علما أو شرفا أو شجاعة •• أو غير ذلك ••

ورجل أبداع ، ونساء بدع وأبداع ••

وشيء بدع : أى مبتدع وجمعه أبداع وبدع •

والبديع : من أسمائه تعالى : لابداعه الأشياء واحداثه اياها •• فيكون بمعنى مبدع ، أو من بدع الخلق أى بدأه ••

---

(٥) انظر البدعة ... تحديدها وموقف الاسلام منها . للدكتور عزت على عيد عطية ، نشر دار الكتب الحديثة ص ١١٧ ـ ١٢١ بتصرف .

(٦) الأحقاف : ٩

أما البدعة فى اصطلاح الشرع .. فقد اختلفت أنظار العلماء فى تحديد معناها .. وتنوعت تعبيراتهم عنها .. فمنهم من توسع فى هذا التحديد فاتسع عنده مدلول البدعة وما يندرج تحت هذا المفهوم .. ويمثل هذا الاتجاه بعض العلماء المشهورين ..

فالامام الشافعي — رحمه الله — يقسم البدعة الى حسنة وسيئة ، أو محمودة ومذمومة .. وهى على هذا تشمل كل حادث بعد عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين .. والمحدثات من الأمور عنده ضربان : أحدهما : ما أحدث يخالف كتابا أو سنة أو اجماعا أو أثرا ، فهذه البدعة الضلالة . والثاني : ما أحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا ، فهى محدثة غير مذمومة ..

ويقول ابن حزم — رحمه الله — : « البدعة فى الدين : كل ما لم يأت فى القرآن ، ولا عن رسول الله ﷺ ، الا أن منها ما يؤجر عليه صاحبه ويعذر بما قصد اليه من الخير .. ومنها ما يؤجر عليه صاحبه ويكون حسنا ، وهو ما كان أصله الاباحة .. كما روى عن عمر رضى الله عنه : « نعمت البدعة هذه » وهو ما كان فعل خير جاء النص بعموم استحبابه وان لم يقرره عمله فى النص .. ومنها : ما يكون مذموما ولا يعذر صاحبه . وهو ما قامت الحجة على فساده فتمادى القائل به » ..

ويقول أبو حامد الغزالى : « وما يقال انه أبدع بعد رسول الله ﷺ [وكان يتحدث عن الأكل على السفرة] فليس كل ما أبدع منهيا عنه ، بل المنهى عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته .. بل الابداع قد يجب فى بعض الأحوال اذا تغيرت الأسباب » ..

ويقول ابن الأثير فى النهاية : « البدعة بدعتان .. بدعة هدى وبدعة ضلال .. فما كان فى خلاف ما أمر به الله ورسوله ﷺ ، فهو فى حيز الذم والانكار .. وما كان واقعا تحت عموم ما ندب الله اليه وحض عليه أو رسوله فهو فى حيز المدح ، وما لم يكن له مثال موجود كنوع من السخاء والجود وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة ، ولا يجوز أن يكون ذلك فى خلاف ما ورد فى الشرع به ..

لأن النبى ﷺ قد جعل له فى ذلك ثوابا •• فقال : « من سن سنة حسنة كان له أجره وأجر من عمل بها » •• وقال فى ضده : « من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها » •• وذلك اذا كان فى خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ ••

ومثل البدعة الحسنة يقول عمر فى صلاة التراويح « نعمت البدعة » .

ثم قال : وهى على الحقيقة سنة لقوله ﷺ : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين » ، وقوله : « اقتدوا باللذين من بعدى : أبو بكر وعمر » ••

وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر « كل محدثة بدعة » على ما خالف أصول التشريعة ولم يوافق السنة » ••

ويقول الدهلوى فى شرح المشكاة : « اعلم أن كل ما ظهر بعد رسول الله ﷺ بدعة ، وكل ما وافق أصول سنته وقواعدها أو قيس عليها فهو بدعة حسنة ، وكل ما خالفها فهو بدعة سيئة وضلالة » ••

والى هذا الاتجاه مال الشيخ عز الدين بن عبد السلام والنووى وأبو شامة •• فالبدعة فيما يرى هؤلاء ومن وافقهم : « فعل ما لم يعهد فى عهد رسول الله ﷺ » .

ومن العلماء •• من ضيق مدلول البدعة . وما يندرج تحته من الصور والأحكام •• وينقسم هذا الاتجاه الى قسمين ••

قسم لا تتقيد فيه البدعة بشىء سوى مخالفة السنة •• وقسم تتقيد فيه البدعة فضلا عن ذلك بنسبتها الى الدين وجعلها من الشرع ••

ويمثل القسم الأول عدد من العلماء تنوعت تعبيراتهم على مدلول واحد •• يقول ابن رجب الحنبلى : « المراد بالبدعة : ما أحدث مما لا أصل له فى الشريعة يدل عليه . أما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا ، وان كان بدعة لغة » .

ويقول ابن حجر العسقلانى : « والبدعة : أصلها ما احدث على غير مثال سابق ؛ وتطلق فى الشرع فى مقابل السنة فتكون مذمومة » ••

كما يقول فى موضع آخر : « والمحدثات جمع محدثة — والمراد بها — أى فى الحديث : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .. ما أحدث وليس له أصل فى الشرع — ويسمى فى عرف الشرع بدعة ، وما كان له أصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة » ..

ويقول ابن حجر الهيتمى : « وهى — أى البدعة — لغة : ما كان مخترعا ، وشرعا : ما أحدث على خلاف أمر الشرع ودليله الخاص والعام » ..

ويقول الزركشى : « البدعة فى الشرع موضوعة للحادث المذموم » ..

فالاتجاه العام فى هذا القسم يتمثل فى أن البدعة شرعا : كل حادث مذموم ، وليست كل حادث على الاطلاق ، أو كل حادث بشرط نسبته الى الدين ..

أما القسم الثانى الذى تتقيد فيه البدعة بنسبتها الى الدين وجعلها من الشرع .. فيتمثل فى رأى الشاطبى فى « الاعتصام » ومن وافقه على ذلك من العلماء ..

وأساس هذا الاتجاه هو تعريف البدعة بالمحدث المخالف للسنة الذى جعل دينا قويما وصراطا مستقيما .. سواء اقتصرنا فى تعريف البدعة على ما كان كذلك من العبادات فقط ، أو جعلناه شاملا لما كان كذلك فى العبادات والعادات معا ..

ويعرف « الشاطبى » البدعة على هذا الأساس بتعريفين :

الأول : البدعة .. طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الشرعية ، يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله تعالى ..

والثانى : أنها طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الشرعية ، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية ..

ويشرح الشاطبى تعريفيه بما يلقى الأضواء الكاشفة على مراده منهما .. فيقول ما خلاصته :

« الطريقة » : ما رسم للسلوك عليها .. « فى الدين » قيد لاخراج

الطريقة فى الدنيا ، كاحداث الصنائع والبلدان التى لا عهد بها فيما تقدم .. « مخترعة » : لا أصل لها فى الشريعة ولا تعلق لها بها ، بخلاف ما له تعلق بها مما حدث بعد العصر الأول ، كعلم النحو والتصريف ومفردات اللغة وأصــول الدين والفقه .. « تضاهى الشرعية » : أي تشبهها من غير أن تكون كذلك بل هى مضادة لها ، من جهة وضع الحدود كالاقتصار فى المــأكل والملبس على صنف دون صنف بلا علة ، أو من جهة التزام الكيفيات والهيئات المعينة كالذكر بهيئة الاجتماع على صوت واحد ، واتخاذ يوم ولادة النبى ﷺ عيدا ، أو التزام عبادات معينة فى أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين فى الشريعة كالتزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليله ، وسواء فى ذلك ألبس صاحبها على الناس بما ابتدعه ، أو التبست البدعة عليه بالسنة ، ما دام مصرا عليها مع معرفته ببدعيتها أو اخباره بهذا الابتداع .. والمبتدع بذلك فى شيء مما سبق ذكره من الأمثلة ، مشابه للجاهليين فى تغييرهم ملة ابراهيم عليه السلام حيث قالوا فى أصل الاشراك : « **ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى** »[٧] .. وتأول الحمس[٨] ترك الوقوف بعرفة بقولهم : لا نخرج من الحرم ، اعتدادا بحرمته .. وتأول من طاف منهم بالبيت عريانا بقوله : لا نطوف بثياب عصينا الله فيها .. ونحو ذلك » ..

ومعنى قوله فى التعريف الأول : « يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله تعالى » : قيد لاخراج العادات من البدع ، وبيان أن ما ابتدع من الأمور الزائدة على المشروع ، والمنســوبة الى الشرع مقصود بها المبالغة فى التعبد ، أو تجديد النشاط الى العبادة ..

أما على التعريف الثانى ، فمعنى قوله : « يقصد بهــا ما يقصد بالطريقة الشرعية » : أن المبتدع يخترع ما يخترع لاصلاح الدين أو الدنيا على حد زعمه ، كمن يدخل المناخل فى قسم البدع ، والبناءات

---

(٧) الزمر : ٣

(٨) المراد قريش وما ولدت وحلفاؤهم ، سموا بذلك لتحمسهم : أي تشددهم فى الأمور .

الشيدة ونحو ذلك ، مما يتعلق بالمخترعات المنسوبة الى الدين من العادات ؛ أى ادعاء اباحتها كغيرها من الأمور المباحة من الدين »[٩] .

ويستند الشاطبى ومن وافقه .. الى أن الأدلة الكثيرة التى وردت فى ذم البدعة والمبتدعة ومن تابعهم ، ليس فيها استثناء البتة ، وليس فيها ما يقتضى أن من البدع ما ليس سيئا .. وقد ورد فى هذه الأدلة ما يقتضى تخصيص البدعة عن غيرها من المعاصى ..

فالبدعة لا يقبل معها عمل .. عن حذيفة رضى الله عنه قال : « لا يقبل الله لصاحب بدعة صوما ولا صلاة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا .. يخرج من الاسلام كما تخرج الشعرة من العجين »[١٠] .

وصاحب البدعة تنزع منه العصمة ويوكل الى نفسه لأنه يترك ما منحه الله من الرسالة الاسلامية الواضحة الى هوى نفسه الذى لا عصمة فيه ..

وأن صاحب البدعة .. ملعون على لسان الشريعة ، فقد لعن رسول الله ﷺ تارك السنة ، وصاحب البدعة شارك بهذا اللعن من كفر بعد ايمانه . وأعرض عن الرسول ﷺ مع معرفته بصدقه .

وأن صاحب البدعة .. يزداد من الله بعداً مهما بالغ فى الطاعة والعبادة ..

وأن البدعة .. مظنة العداوة والبغضاء بين أهل الاسلام لأنها سبب التفرق وأساس الاختلاف .

وأنها مانعة من شفاعة نبينا محمد ﷺ كما يدل على ذلك حديث طرد من أحدث فى الدين عن الحوض يوم القيامة ..

وأن على مبتدعها اثم من عمل بها الى يوم القيامة ..

---

(٩) انظر : البدعه : تحديدها وموقف الاسلام منها ، مرجع سابق ، ص ١٩٣ — ٢٠٢ بتصرف .

(١٠) رواه ابن ماجه .

وأن المبتدع يلقى عليه الذل فى الدنيا ويلحقه الغضب من الله تعالى .. فقد لعن اليهود بسبب ابتداعهم فى دينهم ..

وأن صاحب البدعة يخشي عليه من سوء الخاتمة لاصراره على المعصية وهو يظن أنه على طاعة ..

وأن وجهه يسود فى الآخرة .. فقد تأول مالك — رضى الله عنه — قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه »[11] فى أهل الأهواء ، ونقل هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما ..

وأنه يجب التبرؤ من صاحب البدعة فى الدنيا .. كما جاء عن ابن عمر فى القدرية ، وعن أبى قلابة ويحيى بن أبى كثير ونحوهم .

وأنه يخشى على صاحب البدعة الفتنة ..

وأن البدع ضلالة ، والمبتدع ضال ومضل .. بخلاف سائر المعاصى فانها لم توصف فى الغالب بوصف الضلالة الا أن تكون بدعة أو شبه البدعة .. فلا يسمى الخطأ فى الاجتهاد ضلالة لأنه معفو عنه ، كما لا يطلق هـذا اللفظ على المتعمد لسائر المعاصى ، وذلك لحكمة قصد اليها : لأن الضلالة ضد الهدى ، والضلالة تطلق على الخروج عن الطريق محسوساً أو معنويا .. فالمبتدع خارج عن السنة وهو يتوهم أنه سائر فى الطريق المستقيم .. وهو ضال من حيث يظن أنه على الجادة .. والدليل على ذلك : أن كل مبتدع ينتسب الى الملة يستشهد على بدعته بدليل شرعى ينزله على ما وافق عقله وشهوته : ولا يتيسر له ذلك الا فى الأدلة المتشابهة ..

ثم يقول الشاطبى : « والأمثلة كثيرة ، جميعها يشهد بأن الضلال فى غالب الأمر انما يستعمل فى موضع يزل صاحبه لشبهة تعرض له ، أو تقليد من عرضت له الشبهة ، فيتخذ ذلك شرعا ودينا يدين به مع وجود واضحة الطريق وجادة الصواب » .

---

(١١) آل عمران : ١٠٦

ويؤكد الشاطبي موقفه من تخصيص البدعة ، فيذكر أنه اذا وقع الذنب موضع الاقتداء قد يسمى استنانا فيعامل صاحبه معاملة من سنه ، كما جاء في حديث : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها » . وحديث ابن آدم وأنه أول من سن القتل .. حيث سمى القتل سنة بالنسبة لمن يقتدى به فيه ، لكنه لا يسمى بدعة ، لأنه لم يوضع على أن يكون تشريعا . ولا يسمى ضلالا لأنه ليس في طريق المشروع أو في مضاهاته له »[١٢] .

بعد هذا المدخل الضروري في تعريف السنة والبدعة .. نتحدث بمشيئة الله عن وجوب طاعة الرسول ﷺ .. فنقول وبالله التوفيق :

● **طاعة الرسول .. من طاعة الله :**

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ..

وأمرنا تعالى بطاعته والتسليم له في كل ما يوجهه الينا ..

بل انه تعالى .. ينبهنا الى ما يجب نحوه ﷺ من الطاعة والاتباع ، ومن التبجيل والتوقير والاحترام ..

ويكلفنا بالتسليم للرسول ﷺ دون اعتراض وعدم الخروج عن توجيهاته مهما كانت الأحوال ..

يقول تعـالى : « ... **ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون** »[١٣] .

الله تعالى — في هذه الآيات — يشترط لحصول رضاه وتفضله بالثواب والرحمة في الدنيا والآخرة : اتباع الرسـول ﷺ والرضا والتسليم بكل ما أمر به أو نهى عنه ..

---

(١٢) المرجع السابق . ص ٢١٠ — ٢١٤ بتصرف .
(١٣) الأعراف : ١٥٦ . ١٥٧

كما يربط تعالى بين طاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ ، ويجعلهما شيئا واحدا .. فطاعة الرسول ﷺ مندرجة فى الأمر بطاعة الله تعالى .. ولا تتحقق طاعة الله الا بطاعة الرســول لأنها جزء منها .. يقول جل شــأنه : **« قل أطيعوا الله والرسول ، فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين »**(١٤) .

بل ويعلق تعالى رحمته بعباده على طاعتهم لله وللرسول فيقول : **« وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون »**(١٥) .

ويبشر الطائعين لله ولرسوله بالفوز والفلاح .. فيقول جل وعلا : **« ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما »**(١٦) .

ويتفق المسلمون على أن طاعته تعالى دون طاعة رسوله ، أو طاعة الرسول دون طاعة الله ، أمر غير مقبول ، بل يجب اتباعه ﷺ فيما أمر به ، وعدم جواز الخروج على ما رسمه من معالم الطريق الى الله تعالى .. يقول تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرســول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرســول ان كنتم تؤمنون بالله واليــوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا »**(١٧) .

يشير تعالى بذلك .. الى أن طاعة الرســول ﷺ هدف ينبغى قصده بذاته — بجانب طاعة الله سبحانه وتعالى — وأن طاعته ﷺ لا تقل فى أهميتها عن طاعة الله ..

بل ان اتباع الرسول ﷺ هى السبيل الى نيل محبة الله . والوسيلة الوحيــدة لتحقيق رضاه وحصول غفرانه : **« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم »**(١٨) .

ويحذرنا تعالى من الاساءة الى الرسول ﷺ فى حياته ، أو الى

---

(١٤) آل عمران : ٣٢ (١٥) آل عمران : ١٣٢
(١٦) الأحزاب : ٧١ (١٧) النساء : ٥٩
(١٨) آل عمران : ٣١

سنته بعد وفاته بتقديم غيرها عليها أو بمخالفتها والخروج عليها بقوله :
« **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، واتقوا الله ، ان الله سميع عليم . يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** »[١٩] .

كما يتوعد — تعالى — المخالفين للرسول ﷺ بأوخم العواقب فى الدنيا والآخرة .. فيقول : « **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم** »[٢٠] .

ويؤكد — سبحانه — أن الخروج — ولو مرة واحدة — عن اتباع الرسول ﷺ والتسليم لأمره . هو الضلال الواضح والانحراف الذى لا شك فيه .. فيقول : « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** »[٢١] .

من هذه الآيات وغيرها .. يتبين لنا أن الأمر باتباع الرسول ﷺ ، والتنديد من مخالفته فى شىء مما جاء به — ركن أساسى من أركان الايمان ، وتنفيذ للشطر الثانى من شهادة التوحيد « وأشهد أن محمدا رسول الله » .. فما دمنا نشهد أنه رسول الله حقا ، وأنه لا ينطق عن الهوى . فعلينا — اذن — أن نمتثل لأوامره وأن ننتهى بنواهيه ..

فاتباعه ﷺ .. هو السبيل الى دخول الجنة .. والابتعاد عن هذا الاتباع هو السبيل الى دخول النار .. يقول الرسول ﷺ فى الحديث الذى يرويه أبو سعيد الخدرى : « والذى نفسى بيده لتدخلن الجنة كلكم الا من أبى وشرد عن الله كشراد البعير » .. قالوا : يارسول الله . ومن يابى أن يدخل الجنة ؟ .. قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى »[٢٢] ..

---

(١٩) الحجرات : ١ ، ٢ (٢٠) النور : ٦٣.
(٢١) الأحزاب : ٣٦
(٢٢) رواه الطبرانى ، وابن حبان ، وذكره الهيثمى ..

الأوقاف بالغربية ، وإمام المسجد ، وخطيبه ، ومندوب محافظة الغربية ، ومدير مديرية الشباب والرياضة بها ، ومندوب المجلس الشعبى المحلى ، ومندوب الدعوة بمديرية أوقاف الغربية .. ثم أمرت بحبسهم جميعا على ذمة التحقيق .. وتكليف اللجان التى تتولى مراجعة عمليات فتح وجرد الصناديق لمواصلة أعمالها للكشف عن أية اختلاسات أخرى عن عامى ٨٤/١٩٨٥م، وما قد تكشف عنه اللجان عن أى انحرافات عن الأعـوام السابقة قبل عام ١٩٨١ » ..

ثم تقول الصحيفة: « ومن هنا يدور السؤال .. الى متى التهاون فى الحفاظ على المـال العام ؟ .. والى متى التبـاطؤ فى اصـدار القرارات الهامة التى تحفظ للدولة أموالها ، مثل قرار تنظيم صرف النسب التى يمكن تخصيصها من حصيلة صندوق نذور السيد البدوى ؟

« وطالما أنه ثبت لدينا أن صناديق النذور فى المساجد الكبرى ، مثل السيد البدوى ، تدر عائداً كبيرا من الأموال .. فهل من المعقـول أن يتم جرد هذه الصناديق بهذه الصورة العادية ؟ .. ولماذا لا يتم الجرد تحت اشراف أخصائيين من الجهـاز المركزى ، أو من البنوك الكبيرة ، أو مندوبين من وزارة المـالية وغيرها من الأجهزة المختصة فى هـذا المجال ؟ » .. اهـ .

* * *

ونقول : هل عرفتم الآن — يا أصحاب النذور — لمـاذا قال الرسول ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما : « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » ؟ !

هل عرفتم لماذا قرر الاسلام أن : « من نذر لغير الله فقد أشرك » ..

هل وعيتم الدرس — يامن عصيتم الرسول ﷺ وعرضتم أنفسكم للشرك بالله — حين قدمتم النذور والقرابين لغير الله تعالى ؟ !

هل علمتم الآن — يامن استدنتم ، وبعتم أثاث بيوتكم ورهنتم دوركم كى تقدموا النذور والقرابين للموتى حتى تروج التجارة ، ويشفى المريض ، وينجح الطالب ، ويعود الغائب (!!) هل علمتم الى أين تذهب أموالكم ؟ !

هل عرفتم لمــاذا يرفع بعض الناس شعار : « قطع الورايد ، ولا قطع العوايد » ؟ !

وأخيرا .. هل أدركتم الآن — ياعبــاد القبور — معنى قول الله تعــالى : « **هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا • الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** »(٩٩) .

فاللهم ربنا : أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، واهد قومنا ياربنا فانهم لا يعلمون ..

* * *

● **ومن حلف بغير الله ، فقد أشرك :**

الحلف بغير الله تعالى .. كأن يقسم بالنبى ﷺ ، أو بالكعبة الشريفة ، أو بولى من الأولياء ، أو بكبير من الكبراء .. أو يقسم بالوطن ، أو بالآباء والأجداد ، أو بغير ذلك من المخلوقات فكل ذلك من الشرك .. وفى الحــديث : « ومن حلف بغير الله فقد كفــر » .. وفى رواية : « فقد أشرك » (١٠٠) .

وذلك لأن فى القسم تعظيما للمقسم به .. والذى ينبغى أن يخص بالتعظيم والتقديس هو الله وحده .. لهذا جاء النهى عن الحلف بغيره تعالى .. فقال ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم » .. وقال : « من كان حالفا فليحلف بالله ، أو ليذر » ..

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « لأن أحلف بالله كاذبا أحب الى من أن أحلف بغيره صادقا » .

« ومن المعلوم فى الدين : أن الحلف بالله كاذبا كبيرة من الكبائر .. لكن الشرك — وان كان شركا أصــغر — أكبر من كل الكبائر فى نظر فقهاء الصحابة رضى الله عنهم »(١٠١) .

---

(٩٩) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

(١٠٠) رواه الترمذى وحسنه .

(١٠١) حقيقة التوحيد ، مرجع سابق ص ٤٦

فهو ﷺ يعلم فضل الله عليه ، ويعلم واجب كل انسان نحو الله تعالى .. ولو كان الأمر يحتاج من غيره الى عمل أكثر لبين ذلك ، والا كان مقصرا فى التبليغ والبيان ..



● **الغلو .. يؤدى الى الشرك :**

يحدثنا الامام البخارى عن الأصنام الأولى « ود . وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر » .. فيقول نقلا عن ابن عباس رضى الله عنهما : « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح .. فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم : أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها بأسمائهم .. ففعلوا .

ولم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك ونسى العلم : عبدت » ..

ويقال : انهم لما ماتوا علق الناس على قبورهم .. ثم نحتوا لهم التماثيل .. ثم لما طال عليهم العهد عبدوهم من دون الله ..

وهكذا كان الغلو فى شأن الصالحين يؤدى دائما الى الشرك والعياذ بالله ..

يقول تعالى : **« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق »**(٢٧) .

غالت اليهود فى شأن العزير .. فنسبوه الى الله تعالى !!

وغالى النصارى فى شأن المسيح — عليه السلام — فعبدوه مع الله تعالى ، وجعلوا منه ابنا له .. بل وقال بعضهم ان الله هو المسيح عيسى ابن مريم !!

وغالى اليهود والنصارى فى شأن أحبارهم ورهبانهم .. فاتخذوهم أربابا من دون الله .. يحللون لهم ما حرم الله . ويحرمون عليهم ما أحله

---

(٢٧) النساء : ١٧١

لهم •• يقول جل شـأنه : « قل يا أهل الكتـاب لا تغلوا في دينكم في الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل »[٢٨] •

ولهذا •• نرى الاسلام يحذرنا أشد التحذير من الغلو في شأن الأولياء والصالحين •• لأن النـاس انما ضلوا وانحرفوا الى عبادة الأصنام عندما عظموا الموتى فصوروا أصنامهم في صورهم •• ولهذا لعن الرسول ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ••

ونهى ﷺ عن الصلاة الى القبور ، أو اتخاذها عيدا وموسما •• فسأل الله تعالى أن لا يجعل قبره وثنا يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا منه عيدا ••

وأمر عليه الصلاة والسلام : بتسوية القبور •• ونهى عن اتخاذ التماثيل ، وغلظ في ذلك تغليظا شديدا ••

● يقول الدكتور يوسف القرضاوى — جزاه الله عن الاسلام خيرا — : « ••• ان غلو بعض المسلمين فيمن يعتقدون صلاحهم وولايتهم لله تعالى — وبخاصة أصحاب الأضرحة والمزارات — يؤدى الى أنواع من الشرك •• كالنذر اليهم ، والذبح لهم ، والاستعانة بهم ، والاقسام بهم على الله تعالى . ونحو ذلك ••

وقد يفضى بهم الغلو الى الشرك الأكبر — والعياذ بالله — وهو اعتقاد أن لهم سلطة وتأثيرا في الوجود وراء الأسباب والسنن الكونية •• فيدعونهم من دون الله أو مع الله •• وهـذا هو الاثم العظيـم ، والضلال البعيد » ••

ولهذا كان : « مما حذر الاسلام منه أشد التحذير تعظيم القبور •• وبخاصة قبور الأنبياء والصالحين ؛ ولذلك نهى عن جملة أشـياء تفضى الى تعظيم القبور . منها : اتخاذها مساجد ، والصلاة اليها ، واضاءتها ، وايقاد السرج عليها . والبنـاء عليها وتجصيصها ، والكتابة عليها ، وتعليتها ورفعها ، واتخاذها عيدا » ••

---

(٢٨) المائدة : ٧٧

« والحكمة فى نهى الاسلام عن تعظيم القبور أنه ذريعة الى الشرك الأصغر والأكبر [كما رأينا فى قوم نوح ، وكما هو مشاهد الى اليوم] فالغلو فى قبور الصالحين يصيرها أوثانا معبودة .. ولهذا قال ﷺ : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد .. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »(٢٩) .

« ومما يأسف له كل مسلم غيور على دينه .. أن ما حذر منه الرسول ﷺ قد وقع فيه كثير من أهل الاسلام .. فقد اتخذوا قبور بعض الصالحين أعيادا ، وشيدوها وزخرفوها ، وبنوا عليها المساجد والقباب ، وأوقدوا عليها السرج والقناديل ، ووقفوا لذلك الوقوف ، ونذروا لها النذور ، وطافوا بها كالكعبة ، واستلموها كالحجر الأسود ، وأوسعوا جدرانها لثماً وتقبيلا .. ومنهم من يسجد لها ، ويعفر الخدود على ترابها ، ويقف خاشعا مستكينا يستغيث بأصحابها .. يسألهم — مشافهة — قضاء الديون ، وتفريج الكربات ، واغاثة اللهفات ، وشفاء المرضى ، والنصر على الأعداء !!

وبعضهم يقدم طلباته مكتوبة فى رقاع الى صاحب القبر .. وهذا من الشرك الصريح ، ولا حول ولا قوة الا بالله » اهـ (٣٠) .

● ويقول فضيلة الشيخ محمود محمد خطاب السبكى(٣١) — رحمه الله — : « ... من البدع المذمومة ما التزموه فى المقابر من العادات المقبوضة .. كاتخاذها أعيادا تشد اليها الرحال .. ويجتمع فيها النساء والرجال والأطفال .. ولا سيما فى ليلتى العيدين ، وأول جمعة من رجب .. وتذبح عندها الذبائح ، وتطبخ أنواع المآكل .. فيأكلون ويشربون ، ويبولون ويتغوطون ، ويلعبون ويسخبون .. ويقرأ لهم القرآن من يستأجرون لذلك من العميان .. ولهم أعمال من دون ذلك هم عليها عاكفون !!

---

(٢٩) رواه مالك .
(٣٠) حقيقة التوحيد ، مرجع سابق ، ص ٦٤ — ٦٨ بتصرف .
(٣١) فى الدين الخالص ، جـ ٨ ، ص ٨٨ — ٩١ بتصرف .

« واذا كان ما يأتون من القراءة والذكر هنالك من البدع المنكرة ، وكان بعض المباحات يعد هناك من الأمور المكروهة أو المحرمة .. فما القول فى سائر أفعالهم الظاهرة والباطنة ؟ ؟

ولو لم يرد فى حظر هـذه الاجتماعات فى المقابر الا حديث ابن عباس — رضى الله عنهما — مرفوعا : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج »[٣٢] لكفى .. ولكن ذلك كله قد صار من قبيل شعائر الدين وآيات اليقين .. توقف له الأوقاف التى يسجلها ويحكم بصحتها قضاة جاهلون .. ويأكل منها أدعياء العلم المضلون !!

« وقد كان بعض الصحابة — وغيرهم من علماء السلف — يتركون بعض السنة أحيانا حتى لا يظن العوام أنها مفروضة بالتزامها ، تأسيا بالرسول ﷺ فى ترك المواظبة على بعض الفضائل خشية أن تصير من الفرائض .. فخلف من بعدهم خلف قصروا فى الفرائض وتركوا السنن والشعائر ، وواظبوا على هـذه البدع .. حتى انهم ليتركون لأجلها الأعياد والجمع !!

« ومن المنكر .. ما يقع من بعض من لا خلاق لهم ، من اعتقادهم فى قبور الصالحين والاولياء ، وبعض الأشجار والأبواب .. أنها تنفع أو تضر ، أو تقرب الى الله تعالى ، أو تقضى الحوائج بمجرد التشفع بها الى الله تعالى !! .. يطوفون بها طواف الحجاج ببيت الله الحرام .. ويخاطبون الميت بالكلمات المكفرة كقولهم : « اقصم ظهره ياسيد وخذ عمره» !! أو «تصرف فيه يا امام » !! . ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد !!

« ولكل جهة رجل ينادونه .. فأهل مصر يدعون الشافعى والبدوى والبيومى !! ، وأهل العراق والهند والشام يدعون عبد القادر الجيلى !! ، وأهل مكة والطائف يدعون ابن عباس [كان ذلك قبل انتشار المذهب الوهابى فى المملكة العربية السعودية ، وقد تلاشى ذلك بحمد الله] ، وينذرون لهم النذور . ويذبحون لهم الذبائح ، ويوقدون لهم السرج ، ويضعون الدراهم فى صناديقهم !!

---

(٣٢) أخرجه أحمد والأربعة والحاكم . وصححه ..

« ولا ريب أن هذا من أعمال الجاهلية ، ومخالف أدين الله تعالى ورسوله ، وما كان عليه سلفنا الصالح رضى الله عنهم .. ولو عرف الناذر بطلان ذلك ما أخرج درهما ، فان الأموال عزيزة عند أهلها .. قال تعــالى : « **ولا يسألكم أموالكم . أن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم** »[٣٣] .

« فالواجب على كل عاقل تحذير من يفعل ذلك .. لأنه اضاعة للمال ، ولا ينفعه ما يخــرجه ولا يدفع عنه ضررا .. بل فيه المخالفة والمحاربة لله تعالى ورسوله ﷺ ..

« ويجب رد المــال الى من أخرجه ، وقبضه حرام .. لأنه أكل مال الناذر بالباطل وقد قال تعــالى : « **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** »[٣٤] — أى ما لم يبحه الشرع كالنذر لغير الله ، وكالغصب ، والقمار ، والربا .. ونحو ذلك — وفيه تقرير الناذر على قبح اعتقاده وشنيع مخالفته .. فهو كحلوان الكاهن ومهر البغى .. ولأنه تدليس من هؤلاء القوم وايهام له أن الولى ينفعه ويضره .. فأى تقرير لمنكر أشد من قبض النذر على الميت . وأى تدليس أعظم من هــذا ؟ !

« يقول الصنعانى — بعد كلام فى هذا الموضوع — : « فان قلت : هذا أمر عم البلاد واجتمعت عليه سكان الارض شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا — فلا بلدة ولا قرية الا وفيها قبور ومشاهد ، وأحياء يعتقدون فيها ويعظمونها ، وينذرون لها ، ويهتفون باسمائها . ويحلفون لها ، ويطوفون بفناء القبور ، ويسرجونها ، ويلقون عليها الورود والرياحين ، ويلبسونها الثياب ، ويصنعون كل ما يقدرون عليه من العبادة لها وما فى معناها من التعظيم والخشوع !! .. بل هذه مساجد المسلمين ، غالبها لا يخلو عن قبر أو مشهد يقصده المصلون فى أوقات الصلاة ، يصنعون

---

(٣٣) محمــد : ٣٦ ، ٣٧ . وقوله تعالى : « **فيحفكم** » : اى يجهدكم ويطلب منكم كل أموالكم : « **ويخرج اضغانكم** » : اى يظهر احقادكم .
(٣٤) النساء : ٢٩

فيه ما ذكر أو بعضه ، ولا يسع عقل عاقل أن منكرا يبلغ ما ذكرت من الشناعة ويسكت عليه علماء الاسلام !!

« قلت — والقائل هو الصنعانى — : ان أردت الانصاف وتركت متابعة الأسلاف ، وعرفت أن الحق ما قام عليه الدليل ، لا ما اتفق عليه العالم جيلا بعد جيل .. فاعلم أن هذه الأمور التى ندندن حول انكارها ، ونسعى فى هدم منارها .. صادرة عن العـامة الذين اسلامهم تقليد الآباء بلا دليل .. ينشأ الواحد منهم ، فيجد أهل بلدته يلقنونه فى الطفولة أن يهتف باسم من يعتقدون فيه ، ويراهم ينذرون له ويعظمونه .. ويرحلون به الى محل قبره ويلطخونه بترابه ويطوفون به على قبره .. فينشأ وقد وقر فى قلبه عظمة ما يعظمونه !! .

فنشأ على هـذا الصغير ، وشاخ عليـه الكبير ، ولا يسـمعون انكارا عليهم !!

بل ترى من يتسم بالعلم ويدعى الفضل معظما لمـا يعظمونه .. قابضا للنذور ، آكلا ما ينحر على القبور .. فيظن أن هذا هو دين الاسـلام !!

ولا يخفى على أحد يتأهل للنظر ، ويعرف بارقة من علم الكتاب والسنة والأثر .. أن سكوت العالم أو العالم — بكسر اللام فى الأولى ، وفتحها فى الثانية — على وقوع منكر ليس دليلا على جوازه »[٣٥] .

« ويقول ابن القيم : « كان النبى ﷺ اذا زار القبور يزورها للدعاء لأهلها والترحم عليهم والاستغفار لهم ..

فأبى المشركون الا دعاء الميت ، والاقسام على الله به ، وسؤاله الحوائج ، والاستعانة به ، والتوجه اليه .. بعكس هديه ﷺ ، فانه هدى توحيد واحسان الى الميت ، وهدى هؤلاء شرك واساءة الى نفوسهم والى الميت ..

---

(٣٥) انظر تطهير الاعتقاد عن أدران الالحاد ص ٢٩ ، والمنهل العذب المورود ج ٩ ص ١٠٣ . والنص منقول من الدين الخالص ..

وهم ثلاثة أقسام : اما أن يدعوا للميت ، أو يدعوا به ، أو عنده ،، ويرون الدعاء عنده أولى من الدعاء فى المساجد .. ومن تأمل هدى رسول الله ﷺ تبين له الفرق بين الأمرين »[٣٦] .

* * *

يقول الله تعالى : « **قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** »[٣٧] .

فالله تعالى يأمر رسوله ﷺ قائلا : قل يامحمد : هل نخبركم ، أيها القوم ، بالذين أتعبوا أنفسهم فى عمل يبغون به ربحا ، فنالوا به عطبا وهلاكا ؟ . انهم الذين لم يكن عملهم على هدى واستقامة ، بل على جور وضلالة ؛ لأنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به . وهم يظنون أنهم لله مطيعون ، وفيما ندب اليه مجتهدون !!

ويقول جل شأنه : « **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** »[٣٨] .

أى أطيعوا الله ورسوله فى كل أمر ونهى .. وذلك باتباع الكتاب والسـنة ..

ويقول جل وعلا : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** »[٣٩] .

أى قل لهم يامحمد : ان كنتم كما تزعمون تحبون الله ، فحققوا قولكم باتباعى ؛ فان ذلك علامة صدقكم فى محبتكم لله . فيصفح ويعفو عما مضى من ذنوبكم فهو وحده الغفور لذنوب عباده ، الرحيم بهم ..

كما يقـول : « **فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عمـلا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** »[٤٠] .

أى : من كان يخاف ربه يوم لقـائه . ويراقبه ويرجو ثوابه ، فليخلص له العبادة ، ولا يجعل له شريكا فى عبادته ..

---

(٣٦) انظر زاد المعاد جـ ١ ، ص ١٤٦

(٣٧) الكهف : ١٠٣ - ١٠٤

(٣٨) النساء : ٥٩

(٣٩) آل عمران : ٣١

(٤٠) الكهف : ١١٠

بل انه تعالى .. يقسم بذاته قائلا : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »[٤١] .

أي : فوربك يامحمد ، لا يؤمنون حق الايمان حتى يجعلوك حكما فيما تنازعوا واختلفوا فيه من أمورهم . ثم لا يجدوا ضيقا في أنفسهم مما حكمت بينهم . ويسلموا لقضائك وحكمك تسليما مطلقا ، مع الاذعان والقبول ..

وتحكيم الرسول ﷺ يكون بالرجوع اليه حال حياته .. والى سنته المطهرة الثابتة بعد موته .. فما بال أقوام منا يعرضون عن تحكيم الرسول ﷺ ويأبون الامتثال لأوامره . ويتبعون شياطينهم وكهانهم وشيوخهم ؟ !

لقد ثبت أن الغلو في شان الصالحين يؤدي بالمغالين من الناس الى الشرك بنوعيه — الاصغر والأكبر — ولهذا نرى الرسول ﷺ ينهى عن البناء فوق القبور أو تجصيصها أو تعظيمها ..

عن جابر رضي الله عنه قال : « نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر — أي يطلى بالجير — أو يقعد عليه ، أو يبنى عليه »[٤٢] ..

لهذا رأى العلماء أنه من البدع المنكرة الكتابة على القبور أو رفعها أعلى من شبر .. أو وضع القباب عليها ، لنهي الرسول ﷺ عن ذلك في الحديث الذي رواه مسلم .. ولهذا أفتى بعض العلماء بهدم البناء على القبور . وقال الشافعي في « الأم » : وجدت بمصر من الولاة من هدم القبور المسنمة — أي المرتفعة — فلم يمنعه أحد » ..

وسئل شيخ الاسلام ابن تيمية : هل تصح الصلاة في المسجد اذا كان فيه قبر والناس تجتمع فيه لصلاتي الجماعة والجمعة ، أم لا ؟ .. وهل يمهد القبر أو يعمل عليه حشى أو حاجز ؟ .

---

(٤١) النساء : ٦٥

(٤٢) رواه ابو داود والنسائي ..

فأجاب رحمه الله : « اتفق الأئمة أنه لا يبنى مسجد على قبر .. لأن النبى ﷺ قال : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فانى أنهاكم عن ذلك » ..

« وأنه لا يجوز دفن ميت فى مسجد ، فان كان فى المسجد قبل الدفن غير ، اما بتسوية القبر ، واما بنبشه ان كان جديدا .. وان كان المسجد بنى بعد القبر ، فاما أن يزال المسجد ، واما أن تزال صورة القبر .. فالمسجد الذى على القبر لا يصلى فيه فرض ولا نفل ، فانه منهى عنه »[٤٣] .

ويقول الشوكانى : « الظاهر أن رفع القبور زيادة على القدر المأذون فيه محرم .. وقد صرح بذلك أصحاب أحمد وجماعة من أصحاب الشافعى ومالك ..

والقول بأنه غير محظور لوقوعه من السلف والخلف فلا نكير [كما قال الامام يحيى والمهدى فى الغيث] لا يصح .. لأن غاية ما فيه أنهم سكتوا عن ذلك .. والسكوت لا يكون دليلا اذا كان فى الأمور الظنية ، وتحريم رفع القبر ظن » ..

ويقول فضيلة الشيخ السيد سابق : « ومن رفع القبور الداخل تحت الحديث دخولا أوليا : القباب والمشاهد المعمورة على القبور ، وأيضا هو من اتخاذ القبور مساجد ، وقد لعن رسول الله ﷺ فاعل ذلك .

« وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها مفاسد يبكى لها الاسلام .. منها اعتقاد الجهلة فيها كاعتقاد الكفار فى الأصنام ، وعظموا ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضر .. فجعلوها مقصدا لطلب قضاء الحوائج ، وملجأ لنجاح المطالب .. وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم .. وشدوا اليها الرحل . وتمسحوا بها واستغاثوا !!

---

(٤٣) الفتاوى الكبرى . لابن تيمية . نشر دار المعرفة ببيروت . جـ ٢ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧

« وبالجملة · انهم لم يدعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام الا فعلوه .. فانا لله وانا اليه راجعون ..

« ومع هذا المنكر الشنيع . والكفر الفظيع .. لا تجد من يغضب لله ويغار حمية للدين الحنيف .. لا عالما ولا متعلما ، ولا أميرا ولا وزيرا ولا ملكا !!

« وقد توارد الينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيرا من هؤلاء القبوريين — أو أكثرهم — اذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجرا .. فاذا قيل له بعد ذلك : بشيخك ومعتقدك الولى الفلانى .. تلعثم وأبى واعترف بالحق .. وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال : انه تعالى ثانى اثنين أو ثالث ثلاثة » !! (٤٤)

ويقول ابن حجر فى « الزواجر » : « وتجب المبادرة لهدم المساجد والقباب التى على القبور .. اذ هى أضر من مسجد الضرار ؛ لأنها أسست على معصية رسول الله ﷺ لأنه نهى عن ذلك ، وأمر بهدم القبور المشرفة ، وتجب ازالة كل قنديل أو سراج على قبر .. ولا يصح وقفه ونذره » .

[ونحن لا نقول بقول الداعين الى هدم هذه المساجد — وهى تعد بالألوف — « **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها** » [البقرة : ١١٤] ولكننا ندعو الى تطهيرها من جميع مظاهر الشرك ، وذلك بتبصير الناس بالعقائد السليمة التى قام الاسلام لتأصيلها ، عن طريق رجال الدعوة والارشاد من القائمين على أمر هذه المساجد نفسها لثقة الناس فيهم] .

وعن عبد الله البجلى قال · سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « انى أبرأ الى الله أن يكون لى منكم خليل ،

---

(٤٤) فقه السنة ، للسيد السيد سابق ، نشر دار التراث العربى ، جـ ١ ص ٤١٧ ، ٤١٨

فان الله عز وجل قد اتخذنى خليلا .. وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد .. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، انى أنهاكم عن ذلك »[٤٥] .

وعن عائشة رضى الله عنها : أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا لرسول الله ﷺ كنيسة رأتاها بالحبشة فيها تصاوير .. فقال ﷺ : « ان أولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور .. أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة »[٤٦] .

وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ : « لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج »[٤٧] .

وروى مسلم عن هارون أن ثمامة بن شفى حدثه قال : كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس .. فتوفى صاحب لنا ..فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوى ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها ..

وعن أبى الهياج الأسدى قال : قال لى على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ : ألا أدع تمثالا الا طمسته ، ولا قبرا مشرفا الا سويته » ..

ويقول الترمذى : « والعمل على هذا عند بعض أهل العلم .. يكرهون أن يرفع القبر فوق الأرض الا بقدر ما يعرف أنه قبر ، لكيلا يوطأ ولا يجلس عليه » ..

ويقول الشافعى : « وأحب ألا يزاد فى القبر ترابه من غيره .. وانما أحب أن يشخص على وجه الأرض شبرا أو نحوه .. وأحب أن لا يبنى ولا يجصص ، فان ذلك يشبه الزينة والخيلاء ، وليس الموت موضع واحد منهما .. ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصصة » ..

(٤٥) رواه مسلم .
(٤٦) رواه البخارى ومسلم .
(٤٧) رواه أبو داوود والترمذى والنسائى وابن حبان .

ويقول صاحب « الدين الخالص » : « ... اتخاذ القبور التى لم تندرس مساجد حرام .. كما يحرم بناء المساجد على القبور .. ويجب هدم كل مسجد بنى على قبر ..

« وانما نهى النبى ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدا .. خوفا من المبالغة فى تعظيمه والافتتان به .. وربما أدى ذلك الى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية ..

« ولما احتاجت الصحابة والتابعون رضى الله عنهم الى الزيادة فى مسجد رسول الله ﷺ ، حين كثر المسلمون وامتدت الزيادة الى أن دخلت بيوت أمهات المؤمنين فيه ، ومنها حجرة عائشة مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر ، بنوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله لئلا يظهر فى المسجد فيصلى اليه العوام ، ويؤدى الى المحظور ..

« ثم بنوا جدارين فى ركنى القبر الشماليين حرفوهما حتى التقيا فلا يتمكن أحد من استقبال القبر ..

« وقد حمل بعضهم الوعيد على من كان فى ذلك الزمان لقرب العهد بعبادة الأوثان ، وهو تقييد بلا دليل .. لأن التعظيم والافتتان لا يختصان بزمان دون زمان .. وقد يؤخذ من قوله ﷺ : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد » ، ومما روى ابن عباس قال : « لعن النبى ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » .. أن محل الذم على ذلك أن تتخذ المساجد على القبور بعد الدفن لا لو بنى المسجد أولا وجعل القبر فى جانبه يدفن فيه واقف المسجد أو غيره فليس بداخل فى ذلك ..

« قال العراقى : والظاهر أنه لا فرق .. وأنه اذا بنى المسجد لقصد أن يدفن فى بعضه فهو داخل فى اللعنة ، بل يحرم الدفن فى المسجد .. وان شرط أحد أن يدفن فيه لم يصح الشرط لأنه مخالف لمقتضى وقفه مسجدا .. وان قبر ميت فى مسجد وطال مكثه سوى القبر حتى لا تظهر صورته ، ويحرم دفن الميت فى المسجد ..

« قال النووى فى « المجموع » : وأما حفر القبر فى المسجد فحرام شديد التحريم »[٤٨] .

ويحدثنا فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى عن البدع التى نشأت عن اتخاذ المساجد فوق القبور .. فيقول : « ... هيهات أن يترك أهل البدع مكانا لا يدخلون فيه ببدعهم وظلمات أفكارهم .. حتى يهدروا الشريعة ، وحتى لا يبقى فى الدين الا اسمه !!

« ونسوق بعض البدع نراها عند القبور على أنها ليست من دين الله تطبيقا لحديث : « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » ، وحديث : « أصحاب البدع .. كلاب أهل النار » ..

« من هذه البدع .. وضع الأضرحة والمقابر فى المساجد .. ورسول الله ﷺ يقول : « لعن الله اليهود والنصارى : اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ..

« وبناء المساجد على الأضرحة ألعن وأضل وأجرم .. فكأنها لم تبن لله ، بل لأجل من بداخل الضريح .. وقد قال ﷺ : « الأرض كلها مسجد الا المقبرة والحمام »[٤٩] .. وقال : « لا تصلوا الى القبور ولا تجلسوا عليها » .. ونرى فى هذا الكفاية ..

« وأن من يتعمد الذهاب الى تلك المساجد ذات القبور .. انما يذهب من أجل وجوه قبر من يذهب اليه فى المسجد .. فيكون قد دعا مع الله أحدا .. والله يقول : « **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا** »[٥٠] .. حتى أنك ترى — فى هذه الأيام — مسجدين .. أحدهما ليس به قبر ، والآخر به قبر .. وقطعا الخالى من القبور هو الأولى بالصلاة فيه كحكم الشرع — كمسجد الأزهر مثلا — ولكنك تجد الناس يحجمون عن الصلاة فيه ويجتمعون على الصلاة فى المسجد

---

(٤٨) الدين الخالص ، مرجع سابق ، ج ٣ ص ٢٢٨ — ٢٣٠

(٤٩) رواه أحمد . (٥٠) الجن : ١٨

ذى القبر .. بل ويفرشون الأرض بجواره تحت قيظ الشمس لأداء الصلاة ، ولا يذهبون الى المسجد الآخر !!

« ترى ما زعمهم فى هذا ؟ .. االله أمرهم بأن يضعوا أنفسهم فى القيظ ويهجروا المسجد الآخر ؟ .. ولأى شىء ؟ !

« أم تراهم أهدى من محمد — ﷺ — وصحابته الذين لعنوا من فعل هـذا ؟ !

« ووقف الأموال على مقبرة ما ، أو وقف الأطيان باسم الرحمة أو قراءة القرآن بما هو معهود الآن .. أو اقامة الحيشان وغرس الأشـجار والصبار ووضع الرياحين .. من البدع التى يجهلها الكثير ، لأنه تعطيل وحبس للأموال لحساب الأموات على حساب الأحياء — وحتى وان كانوا غير ذى قربى منهم أولى !!

« أما وضع الجريد على القبر ، فقد كان خصوصية لرسول الله ﷺ .. فعلها مرة على قبرين لشخصين ، ولم يفعلها بعد ذلك لأحد ، ولم يقم أحد من الصحابة بفعلها ..

« وذكر العلماء .. أنها كانت مجرد شفاعة منه لدى الله لتخفيف العذاب عنهما ، وقبل الله رجاءه فيهما لمدة محدودة نص عليها فى الحديث « ما لم ييبسا » .. أى ما دامت الجريدتان خضراوين ..

« أما قراءة القرآن ، واستئجار المقرئين للتلاوة عند القبور ، وفى البيوت فى موضع خروج الروح ، وفى السرادقات ، فهذا عمل قد لا يقبله الله سبحانه وتعالى .. لأن هذا القارىء اذا لم يعلم أنه سيأخذ أجراً على قراءته ما قرأ .. فالقراءة ليست لله ولكنها للمال .. وهذا فضلا عن أنها عمل يقصد به غير وجه الله ..

« هذا بالنسبة للقارىء .. أما بالنسبة لمستاجر القارىء ، فمن أين له أن هذا العمل فى ميدان الدين ؟ .. وهل ثبت لديه أن الله يقبل هـذا العمل ؟

« علاوة على ما في ذلك من التباهى والرياء والاسراف فى ضياع الوقت .. والحديث يقول : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ..

« واشترط الصلاح فى الولد .. لوصول ثواب الدعاء ، فكيف بحال القارىء الذى لا نعلم له ظاهرا ولا باطنا ؟ !

« واذا كنت مخلصا لهذا الميت .. فتعلم القرآن وتلاوته ، وصل الصلاة فى ميقاتها ، وصم شهرك من غير فسوق ، وأد حقوق ربك كلها وحقوق الخلق بالحسنى .. ثم ادع لمن شئت ، فانك مجاب باذن الله ..

« وعلى فرض أن القراءة صحيحة .. فان خديجة — رضى الله عنها — كانت أحب الناس لرسول الله ﷺ ، ومع هذا لم يفعل لها ذلك .. وحمزة عمه سيد الشهداء .. وسعد بن معاذ ، وكثير غيرهم .. لم يثبت أنه قرأ لهم قرآنا ، بل الثابت هو الدعاء ، والاستغفار ، والصدقة ، وأداء ما على الميت من زكاة أو حج أو صيام أو ديون أو عهود وعقود ..

« وغرس الأشجار فى القبور أو نصب الخيام عليها من البدع .. وقد رأى ابن عمر خيمة على قبر فسأل : لم ؟ قالوا : نظلله .. فقال : دعوه يظلله عمله .. أما غرس الأشـجار فيلحق سابقه فى الحكم بالنسبة لوضع الجريد عليها ..

« ووضع الستور والكساوى والعمائم على الأضرحة من البدع .. وهو فضلا عن أنه اسراف ينهى عنه الشرع ، وزينة فى موطن العبرة .. فانه تعظيم للموتى لفتنة الأحياء .. والأحياء الفقراء أولى ألف مرة عن تجميد هذا المـال .. علاوة على أن وضع الستور من الأمور المنهى عنها .. وقد روى البخارى عن عائشـة قالت : « سترت الباب بنمط [أى ستارة أو بساط خامته من نسيج رفيع] ، وجاء النبى ﷺ فرآها فغضب وقال : « يا عائشة ، ان الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين » ..

« ومن البدع المنكرة فى المقابر : وضع الشموع عليها ، وزيارة النساء لها .. وفى الحديث : « لعن الله زوارات القبور ، والمتخذين

عليها المساجد والسرج » •• لأن وضع النار على من في القبور من أشد ما يتأذى به الميت ، حتى أن الفقهاء قرروا ألا نضع في القبر حجرا دخل النار دون ضرورة •• أما زيارة النساء للقبور •• وهي التي شرعت للرجال للعبرة — فخيف بامرأة تخرج الى المقبرة حيث يوجد الشباب والرجال ، فيفتتنون بها أو تفتن بهم ، وتخرج عن الاطار الاسلامي في أهداف زيارة القبور بما تصنع من فتنة في موضع العبرة ••

« أضف الى هذا •• ان بعض النساء ضعيفات القلوب ، فبمجرد وصولهن الى المقابر تراهن يلطمن الخدود ويصرخن ويشققن الجيوب ، ويدعين بدعوى الجاهلية •• والحديث يقول : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » ••

« وقد رأى رسول الله ﷺ ابنته فاطمة وقد عادت من خارج البيت •• فقال لها : « هل ذهبت معهن الى المقابر » ؟ قالت : لا يارسول الله ، وكيف أذهب وقد سمعت تشددك فيها ؟ ! فقال : « لو ذهبت معهن الى المقابر ما شممت ريح الجنة » ••

« وقد روى أبو داوود والترمذى حديث : « لا تتبع الجنازة بصوت ولا نار » •• ولكننا نقول : ان مسئولية هؤلاء النسوة والفتيات اللاتي يتواجدن عند القبور لا تنحصر فيهن فقط ، بل تعم من ورائهن من الرجال أوليائهن الذين يسمحون بهذا العبث ••

« والطواف حول القبور وتسميتها حرما من البدع •• وعلى المسلم أن يعلم أن الطواف وقف على بيت الله الحرام فقط •• يقول تعالى : « **وليطوفوا بالبيت العتيق** »[(٥١)] •• ولا يصح الطواف حول غيره من الأضرحة تشبيها منهم لهذه الأضرحة بقبلة رب العالمين ••

« فكان الطائف بقبر ولى أو غيره يقول : ان لى قبلتين وحرمين •• قبلة وحرما اختارهما الله ، وقبلة وحرما اخترتهما أنا — نعوذ بالله من ذلك — وقد تعددت لديهم الحرم •• فضموا « الحرم الزينبى » ،

---

(٥١) الحج : ٢٩

و « الحرم الأحمدى » ، و « الحرم الحسينى » ، و « الحرم الغريبى » ، و « حرم الشافعى » ؛ و «حرم القنائى » .. الخ !!

« أضف الى ذلك .. أن الشيطان انما استزل هؤلاء الطائفين لغرض ما فى نفسه سينفذه بعد سنين ، ليبعد الناس تماما عن كعبة الله الأصلية .. أى أنه اذا كان الطائف بقبر ما — الآن — يعلم أن قبلته هى الكعبة ، فسيأتى يوم على غفلته هذه أن تكون طوافا دون الكعبة !!

« فعلى المتحرى لدينه والغيور عليه أن يتقى الله ربه ، ولا يعطى للشيطان أغلالا يحبس بها أتباعه ، وخاصة وقد ألفوا أحاديث مكذوبة بأن زيارة ضريح فلان الولى ثلاث مرات تعدل حجة تامة !! .. وصدق الحديث الشريف : « ما أحدث الناس بدعة ، الا رفع من السنة مثلها » !!

« ومن أفظع البدع : الخشوع للميت عند زيارته والاستئذان منه للدخول عليه !! ، وكل هذا من عبادة وتعظيم غير الله ..

« وقد يحلف أحدهم بالله خمسين مرة كذبا دون مبالاة ، ولكنك لو أردت اختباره وطلبت منه الحلف بصاحب الضريح فزع وخاف من سوء العاقبة التى يزعم أنها ستحل به من الولى : « **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله** »(٥٢) .

« ويقول تعالى فى آية أخرى : « **يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية** »(٥٣) .

« وقد لا يستطيع أحدهم أن يقدم على عمل ما — مهما دللناه على الاستخارة الشرعية والاستشارة الدينية — الا بعد أن يمنحه شيخه سادن الضريح اذنا بالعمل مهما كانت النتيجة .. فجعلوهم بمنزلة الأحبار والرهبان الذين يدعون أن ما يحلونه هم فى الأرض يحله الله فى السماء ، وما يحرمونه يحرمه الله !! « **سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا** »(٥٤) .

---

(٥٢) البقرة : ١٦٥
(٥٣) النساء : ٧٧
(٥٤) الاسراء : ٤٣

« ومن هذه البدع الضالة : التقبيل والاستلام للأضرحة وتقبيل أعتابها !! .. هـذا كله من الشرك والتعلق بالماديات على حساب الروحانيات . وقد يحتج من يفعل ذلك باستلام رسول الله ﷺ للحجر الأسود !!

« وفي هذا أيضا نقول : أن هذه خصوصية للحجر الأسود فقط .. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « والله انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع . ولولا انى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك » .. أترى هؤلاء الذين يقبلون الاضرحة والاعتاب .. أهدى من عمر بن الخطاب وأشد تحمسا منه في دين الله ودرجات الايمان ؟!.

« ما هو الا الشيطان أراد أن يصدهم عن توحيد الله وافراده بالعبادة .. وانى لأعجب من هؤلاء الذين يقبلون الأعتاب والأخشاب ، ويظنون أنهم على الهدى . بل وتراهم من أشد المتحمسين لأفعالهم .. وما أرى ذلك الا من حمية الشيطان للدفاع عن عادات وثنية هدمها الاسلام ويحييها هؤلاء .. وانى أسال احدهم : هل ثبت أن أبا بكر رضي الله عنه قبل قبر رسول الله ﷺ ؟ .. أو هل قبل عمر قبر رسول الله ﷺ وقبر أبي بكر ؟ !

« فانه اذا كان التمسح محمودا ، والتقبيل يورث البركات .. فلا شك في أن تقبيل قبر رسول الله ﷺ فيه أعظم البركات .. ولكن هل يجدي هذا في عقول قد تبلدت وران على قلوب أصحابها عادات مبتدعة ، وقيم هدمها الاسلام ؟ !

« وتقديم العرائض والشكاوى للأولياء من البدع الشاذة .. والله يعلم أن من مات فهو في شغل شاغل بآخرته حيث قال : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير »[55] .

[أي الذين تدعونهم من دون ربكم ما يملكون قشر النواة] .

---

(٥٥) فاطر : ١٣

ويقول تعالى : « **ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم** »(٥٦) .

[أى ان تدعوا هؤلاء الناس لا يسمعوا دعاءكم .. ولو سمعوا دعاءكم وفهموا قولكم بأن جعل لهم سمع يسمعون به بعد أن ماتوا ما استجابوا لكم لأنهم لا يستطيعون النطق .. ويوم القيامة يتبرأون من عبادتكم اياهم بعد أن جعلتموهم شركاء لله بتوجيه الدعاء اليهم] .

ويقول جل شأنه : « **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** »(٥٧) .

[أى : من أضل ممن يدعو حجرا أو خشبا أو ميتا ويجعلهم آلهة — بتوجيه الدعاء إليهم — وهم لا يستجيبون دعاءه أبدا الى يوم القيامة ؟ ! ، انهم يدعونهم ولكنهم فى غفلة عن دعائهم واستغاثتهم بهم عند المصائب ، لأنهم — بعد أن ماتوا — لا يسمعون ولا ينطقون ولا يعقلون .. وسيكونون عندما يحشر الناس يوم القيامة بين يدى ربهم للحساب أعداء لهم .. لأنهم سوف يتبرأون منهم ويجحدون بعبادتهم اياهم .. وسيقولون : ياربنا ، ما أمرناهم بعبادتنا وانا نتبرأ اليك منهم .. وتأمل كيف وصف تعالى الدعاء فى هذه الآية بأنه عبادة .. فالدعاء هو مخ العبادة] ..

ويقول جل وعلا : « **ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا** »(٥٨) .

[أى ادعوا الذين تدعونهم .. انهم لا يقدرون عن دفع الضر عنكم أو تحويله الى غيركم .. وانما يقدر على ذلك الله وحده ، الذى له الخلق والأمر] ..

ثم يقول فضيلته :

« والجلوس على المقابر أو وطؤها من البدع .. وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك وحذر حيث قال : « لأن يجلس أحدكم على جمرة

---

(٥٦) فاطر : ١٤
(٥٧) الأحقاف : ٥ ، ٦
(٥٨) الاسراء : ٥٦

فتخلص الى ثيابه ثم تخلص الى بدنه فتحرقه . أهون من أن يجلس على قبر »(٥٩) .. وكما أن الجلوس على القبر منهى عنه ، كذلك الاتكاء والاستناد حيث قال عمر بن حزم : « رآنى رسول الله ﷺ متكئا على قبر فقال : « لا تؤذ صاحب القبر » ..

« ومن أشد هذه البدع : التبول والتغوط عليها والتقذير لها .. فان لها حرمة ، وقد روى أحمد ومسلم حديث : « زوروا المقابر فانها تذكر الموت والآخرة » .. وزاد أحمد : « فان فيها عبرة » .. فكيف يكون موطن العبرة مقذرا أو مكانا للنجاسات ؟ ! .. وهل يرضى أحد ممن يفعلون ذلك أن يضع أحد على قبره ما تأنف الانس والملائكة منه ، ولا ترضاه الا الكفرة من الجن » ا هـ (٦٠) .

***

وللشيخ محمد الغزالى — جزاه الله عن المسلمين خيرا :

« فشا فى بلاد كثيرة بناء المساجد على قبور الموتى ، اعزازا لذكراهم ، وتقربا الى الله — كما يقال — بمحبتهم ومجاورتهم !! ، مع أن النصوص قاطعة بمنع هذا العمل ولعن مرتكبيه .. وكان أولى بهؤلاء البانين أن يدعوا الموتى الى ما قدموا . وأن يقفوا عند حدود الله فلا يعصون وصاياه .

« وهذه البدعة .. تسربت الى المسلمين عن النصرانية بعد تحريفها .. فقد صح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها « مارية » . وذكرت ما رأته فيها .. فقال رسول الله ﷺ : « أولئك قوم اذا مات منهم العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور .. أولئك شرار الخلق عند الله » .

« وهذه البدعة .. دخلت النصرانية من الوثنية الأولى .. فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس وغيره من السلف : أن «ودا» و «سواعا»

---

(٥٩) رواه مسلم والنسائى وابن ماجه وغيرهم .

(٦٠) انظر كتاب « عدة تنويه » للشيخ عبد اللطيف مشتهرى — نشر دار الاعتصام . ص ١٩٣ — ٢٠٦ بتصرف .

وأخواتهما ، كانوا قوما صالحين من أمة نوح عليه السلام ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم .. ثم صوروا تماثيلهم .. ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم ، فكان ذلك مبدأ عبادة الأصنام .

« واغلاقا لباب الفتنة وسدا لذرائع الفساد .. شدد النبى عليه الصلاة والسلام على المسلمين فى حظر هذا المسلك ، وعزم عليهم أن ينفضوا أيديهم من الموتى ، وأن يستقبلوا الحياة بجهدهم وعزمهم ، دون تعويل على صالح مات أو بقى ..

« فالانسان لا يجدى عليه — أمام ربه — الا صالح عمله ..

« وفى هذا الارشاد المبين .. يقول ﷺ : « لا تصلوا الى القبور ولا تجلسوا عليها » .. ويقول : « الأرض كلها مسـجد الا المقبرة والحمام » .. ويقول : « لعن الله اليهود والنصارى : اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، ألا لا تتخذوا القبور مساجد ، انى أنهاكم عن هذا » ..

« وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » ..

« ونهى رسول الله عن تجصيص القبور والبناء عليها .. وكان يوصى جيوشه — وهو يطارد الوثنية فى جزيرة العرب — ألا تدع صنما الا طمسته ، ولا قبرا مشرفا الا سوته ..

« وعن المعرور بن سويد قال : « صليت مع عمر بن الخطاب — فى طريق مكة — صلاة الصبح فقرأ فيها : « **ألم تر كيف فعل ربك بأصـحاب الفيل** » و « **لايلاف قريش** » .. ثم رأى الناس يذهبون مذاهب بعد انصرافهم من الصلاة ، فقال : أين يذهب هؤلاء ؟ : فقيل : ياأمير المؤمنين ، مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فهم يصلون فيه .. فقال : « انما هلك من كان قبلكم بمثل هذا ، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعا .. فمن أدركته الصلاة فى هـذه المساجد فليصل ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها » ..

« وقد دعا رسول الله ﷺ ربه : « ألا يكون قبره بعده عيداً » — أى موسما تلتقى اليه الوفود ..

« والخبراء بحقائق الأديان وطبائع النفوس يعرفون وجه الحكمة فيما أمر به الله ورسوله من تحريم اتخاذ القبور مساجد ..

« ان رجاء البركة أول ما يذكره الخارجون على هذه النصوص والمحرفون لها .. لكن هذه البركة المزعومة سرعان ما تتحول الى تقديس للهالكين واتجاه اليهم بالأدعية والنذور .. واستصراخ بهم فى الأزمات والنوائب .. فاذا لم يكن الأمر شركا محضا ، فهو مزلقة اليه مهما كابر المعاندون ..

« وقد رأيت عشرات من الظلامات المكتوبة ترمى فى ضريح الامام الشافعى .. أو ترسل اليه بالبريد !! .. وسمعت المئات من سفهاء العامة ، يلهثون بالنجوى الحارة حول قبر الامام الحسين وغيره !!

« ولم أر أسفه من هؤلاء واولئك الا الذين يعتذرون عنهم من صعاليك المتصوفة ، وأدعياء المعرفة ..

« على أن علاج هذه المناكر المبتدعة ، لا سبيل اليه الا باشاعة العلم والخلق ، وتهذيب العقول والطباع .. فان النبى صلوات الله وسلامه عليه لم يهدم الأصنام الا بعد أن مكث عشرين عاما يكون الأمة التى تؤمن بالله وتكفر بالطواغيت »[٦١] .



ويرد فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى[٦٢] على زعم البعض بأن المنع من اتخاذ القبور مساجد ، انما كان لعلة خشية الافتتان بالقبور ، ثم زالت برسوخ التوحيد فى قلوب المؤمنين ، فزال المنع ، فيقول :

« لا أعلم أحدا من العلماء ذهب الى القول بهذه الشبهة ، الا مؤلف « احياء القبور » .. فانه تمسك بها وجعلها عمدته فى رد تلك

---

(٦١) قبس من الاسلام ، للشيخ محمد الغزالى ، نشر دار الكتب الاسلامية ، ص ٢٠٧ — ٢٠٩

(٦٢) فى كتابه : « تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد » نشر المكتب الاسلامى ببيروت ، ص ١٢١ وما بعدها .

الأحاديث المتقدمة واتفاق الأئمة عليها .. فقال ما نصه : « وأما النهى عن بناء المساجد على القبور ، فاتفقوا على تعليله بعلتين :

« احداهما : أنه يؤدى الى تنجيس المسجد ..

« وثانيهما — وهو قول الأكثرين بل الجميع حتى من نص على العلة السابقة — أن ذلك قد يؤدى الى الضلال والفتنة بالقبر ، لأنه اذا وقع بالمسجد ، وكان قبر ولى مشهور بالخير والصلاح ، لا يؤمن مع طول المدة أن يزيد اعتقــاد الجهلة فيه ؛ ويؤدى بهم فرط التعظيم الى قصد الصلاة اليه ، اذا كان فى قبلة المسجد ، فيؤدى بهم ذلك الى الكفر والاشراك » ..

« ثم ساق شــيئا من النقول فى العلة المذكورة عن بعض العلماء ، منهم الامام الشــافعى — [حيث يقول[٦٣] ما نصــه : « وأكره أن يبنى على القبر مسجد ، وأن يسوى ، أو يصلى عليه ، وهو غير مسوى — يعنى أنه ظاهر معروف — أو يصلى اليه .. قال : وان صلى اليه أجزأه وقد أساء ، أخبرنا مالك أن رسول الله ﷺ قال : « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » قال : وأكره هــذا للسنة والآثار ، وأنه كره — والله تعالى أعلم — أن يعظم أحد من المسلمين ، يعنى يتخذ قبره مسجدا ، ولم تؤمن فى ذلك الفتنة والضلال على ما يأتى بعده »] — ثم قال المؤلف المشار اليه : « فالعلة المذكورة قد انتفت برسوخ الايمان فى نفوس المؤمنين ، ونشأهم على التوحيد الخالص ، واعتقاد نفى الشريك مع الله تعالى ، وأنه سبحانه المتفرد بالخلق والايجاد والتصريف .. وبانتفاء العلة ينتفى الحكم المترتب عليهــا ، وهو كراهة اتخاذ المســاجد والقباب على قبــور الأولياء والصالحين » !! [٦٤]

---

(٦٣) فى كتابه « الأم » ..

(٦٤) احياء القبور من ادلة بناء المساجد والقباب على القبور ، لأحمد الصديق الغمارى — ص ١٧ ، ١٩ (مشار اليه بهامش « تحذير الساجد » للألبانى .

يقول الألباني : « والجواب : أن يقال أثبت العرش ثم انقش !! .. أثبت أولا أن الخشية المذكورة هى وحدها علة النهى ، ثم أثبت أنها قد انتفت ، ودون ذلك خرط القتاد .

« أما الأول : فانه لا دليل مطلقا على أن العلة هى الخشية المذكورة فقط .. نعم من الممكن أن يقال : انها بعض العلة ، وأما حصرها فباطل .. لأن من الممكن أيضا أن يضـــاف اليها أمور أخرى معقولة كالتشـــبه بالنصارى .... وكالاسراف فى صرف المـــال فيما لا فائدة فيه شرعا .. وغير ذلك مما قد يبدو للباحث الناقد ..

« وأما ما زعمه أن العلة انتفت برسوخ الايمان فى نفوس المؤمنين ... الخ ، فهو زعم باطل أيضا وبيانه من وجوه :

« الأول : أن الزعم بنى على أصل باطل وهو أن الايمان بأن الله هو المنفرد بالخلق والايجاد كاف فى تحقيق الايمان المنجى عند الله تبارك وتعالى .. وليس كذلك .. فان هذا التوحيد وهو المعروف عند العلمـــاء بتوحيد الربوبية ، كان يؤمن به المشركون الذين بعث اليهم رســـول الله ﷺ كما قال تعالى : « **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** »(٦٥) ، ومع ذلك فلم ينفعهم هذا التوحيد شيئا ، لأنهم كفروا بتوحيد الألوهية والعبادة ، وأنكروه على النبى ﷺ أشد الانكار ، لقولهم فيما حكاه الله عنهم : « **أجعل الآلهة الها واحدا ، ان هذا لشىء عجاب** »(٦٦) . ومن مقتضيات هذا التوحيد الذى أنكروه ترك الاستغاثة والاستعانة بغير الله ، وترك الدعاء والذبح لغير الله ، وغير ذلك مما هو خاص بالله تعالى من العبادات .. فمن جعل شيئا من ذلك لغير الله تبارك وتعالى فقد أشرك به ، وجعل له ندا ، وان شهد له بتوحيد الربوبية ، فالايمان المنجى انما هو الجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وافراد الله بذلك ....

« فاذا تبين هذا ، تعلم أن الايمان الصحيح غير راسخ فى نفوس كثير من المؤمنين بتوحيد الربوبية » ..

---

(٦٥) لقمان : ٢٥ (٦٦) سورة ص : ٥

ويسوق فضيلة الشيخ الألبانى الدليل على كلامه من أقوال الصوفية أنفسهم فينقل عن مؤلف كتاب « احياء القبور » قوله : « ونراهم — يعنى العامة — يحلفون بالأولياء ، وينطقون فى حقهم بما ظاهره الكفر الصراح بل هو الكفر حقيقة بلا ريب ولا شك .. فكثير من جهلة العوام بالمغرب ينطق بما هو كفر صراح فى حق مولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ، فان عندنا بالمغرب من يقول عن القطب الأكبر ، مولانا عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه : أنه الذى خلق الدين والدنيا ! .. ومنهم من قال — والمطر نازل بشدة — : يامولانا عبد السلام الطف بعبادك ! .. فهذا كفر » !! (٦٧)

ثم يقول الشيخ الألبانى : « قلت : فهذا الكفر أشد من كفر المشركين ، لأن هذا فيه التصريح بالشرك فى توحيد الربوبية أيضا ، وهو مما لا نعلم أنه وقع من المشركين أنفسهم ! .. وأما الشرك فى الألوهية فهو أكثر فى جهال هذه الأمة — ولا أقول عوامهم — فاذا كان هذا حال المسلمين اليوم ، وقبل اليوم ، فكيف يقول هذا الرجل : « وقد انتفت العلة برسوخ الايمان فى نفوس المؤمنين » ؟ !

« واذا كان يريد بـ « المؤمنين » الصحابة رضى الله عنهم .. فلا شك أنهم كانوا مؤمنين حقا .. عالمين بحقيقة التوحيد الذى جاءهم به رسول الله ﷺ ، ولكن الشريعة الاسلامية شريعة عامة أبدية ، فلا يلزم من انتفاء العلة — لو ثبت — بالنسبة اليهم أن ينتفى الحكم بالنسبة لمن بعدهم ، لأن العلة لا تزال قائمة ، والواقع أصدق شاهد على ذلك ..

« الوجه الثانى : علمت مما سبق من الأحاديث .. أن النبى ﷺ حذر أمته من اتخاذ المساجد على القبور فى آخر حياته .. بل فى مرض موته .. فمتى زالت العلة التى ذكرها ؟ ..

« ان قيل : زالت عقب وفاته ﷺ ، فهذا نقض لما عليه جميع

---

(٦٧) احياء القبور ، مرجع سابق ص ٢١ ، ٢٢

المسلمين أن خير الناس قرنه ﷺ ، لأن القول بذلك يستلزم — بناء على ما سبق من كلامه — أن الايمان لم يكن قد رسخ بعد فى نفوس الصحابة رضى الله عنهم ، وانما رسخ بعد وفاته ﷺ ! . ولذلك لم تزل العلة وبقى الحكم .. وهذا مما لا أتصور أحدا يقول به لوضوح بطلانه..

« وان قيل : زالت قبل وفاته ﷺ ، قلنا : وكيف ذلك وهو ﷺ انما نهى عن ذلك فى آخر نفس من حياته ﷺ ؟ ! .. ويؤيده :

« الوجه الثالث : أن فى بعض الأحاديث المتقدمة باستمرار الحكم الى قيام الساعة [كالحديث الذى رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد »](٦٨) .

« الوجه الرابع : أن الصحابة رضى الله عنهم انما دفنوه فى حجرته ﷺ خشية أن يتخذ قبره مسجدا .. كما تقدم عن عائشة رضى الله عنها [فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم قالت : ان رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة جعل يلقى على وجهه طرف خميصة(٦٩) له ، فاذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .. تقول عائشة : « يحذر مثل الذى صنعوه » — يقول ابن حجر : « وكأنه ﷺ علم أنه مرتحل من ذلك المرض فخاف أن يعظم قبره كما فعل من مضى ، فلعن اليهود والنصارى اشارة الى ذم من يفعل فعلهم »] .

يقول الألبانى : « فهذه الخشية اما أن يقال : انها كانت منصبة على الصحابة أنفسهم ، أو على من بعدهم .. فان قيل بالأول ، قلنا : فالخشية على من بعدهم أولى ؛ وان قيل بالثانى — وهو الصواب عندنا — فهو دليل قاطع على أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا لا يرون

---

(٦٨) رواه ابن خزيمة فى صحيحه ، وابن حبان ، وابن ابى شيبة فى المصنف ، وأحمد ، والطبرانى وأبو يعلى وأبو نعيم .

(٦٩) ثوب خز أو صوف معلم كما فى النهاية .

زوال العلة المستلزم زاول الحكم ؛ لا فى عصرهم ، ولا فيما بعدهم ، فالزعم بخلاف رأيهم ضلال مبين .. ويؤيده :

« الوجه الخامس : أن العمل استمر من السلف على هذا الحكم ونحوه ، مما يستلزم بقاء العلة السابقة ، وهى خشية الوقوع فى الفتنة والضلال ، فلو أن العلة المشار اليها كانت منتفية لما استمر العمل على معلولها .. وهـذا بين لا يخفى والحمد لله ، واليك بعض الأمثلة على ما ذكرنا ... »[٧٠] ا هـ

وبعد أن يسوق فضيلته بعض الأمثلة من فعل السلف الصالح .. يقـول :

« واعلم أن هذه الآثار ، وان اختلفت دلالاتها .. فهى متفقة على النهى فى الجملة عن كل ما ينبنى عن تعظيم القبور تعظيما يخشى منه الوقوع فى الفتنة والضلال ، مثل بناء المساجد والقباب على القبور وضرب الخيام عليهـا ، ورفعها أكثر من الحد المشروع ، والسـفر والاختلاف اليها[٧١] ، والتمسح بهـا ، ومثل التبرك بآثار الأنبياء ونحـو ذلك ..

« فهذه الأمور كلها غير مشروعة عند السلف الذين سميناهم من الصحابة وغيرهم .. وذلك يدل على أنهم كانوا جميعا يرون بقاء علة النهى عن بناء المساجد على القبور وتعظيمها بما لم يشرع ، ألا وهى خشية الضلال والافتتان بالموتى — كما نص عليها الشافعى رحمه الله فيما سبق — بدليل استمرارهم على القول بالحكم المعلول بهذه العلة ، فان بقاء أحدهما يستلزم بقاء الآخر ، كما لا يخفى ، وهذا بالنسـبة لمن نص منهم على كراهة بناء المساجد على القبور ظاهر ..

أما الذين صرحوا بالنهى عن غير ذلك ، مثل رفع القبر وضرب

---

(٧٠) تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد — مرجع سابق — ص ١٢٠ — ١٢٩ بتصرف .

(٧١) أي اكثار التردد لزيارتها .

الخيمة عليه ونحوه — مما أجملنا الكلام عليه آنفا — فهم يقولون ببقاء الحكم المذكور من باب أولى ، وذلك لوجهين :

« الأول : أن بناء المساجد على القبور أشد جرما من رفع القبور وضرب الخيام عليها ، لمـا ورد من اللعن على البنـاء ، دون الرفع والضرب المذكور .

« والثانى : أن المفروض فى أولئك السلف الفهم والعلم ، فاذا ثبت عن أحد منهم النهى عن شىء هو دون ما نهى عنه الشـارع ، ولم ينقل هـذا النهى عن أحدهم ، فنحن نقطع بأنه ينهى عنه أيضا ، حتى ولو فرض عدم بلوغ النهى اليه لأن نهيه عما هو دون هذا يستلزم النهى عنه من باب أولى ، كما لا يخفى .

فثبت أن القول بانتفاء العلة المذكورة ، وما بنى عليه كله ، باطل .. لمخالفته نهج السلف الصالح رضى الله عنهم ، مع مصادمته للأحاديث الصحيحة ، والله المستعان »(٧٢) ا هـ

ونقول : لعل ذلك البعض الذى يزعم بأن المنع من اتخاذ القبور مساجد « انما كان لعلة خشية الافتتان بالقبور ، ثم زالت برسوخ التوحيد فى قلوب المؤمنين » .. لعل ذلك البعض قد وجد الرد على زعمه فيما نقلناه عن الشيخ ناصر الدين الألبانى — جزاه الله عن الاسلام خيرا ..

* * *

● **بدعة الموالد :**

من البدع المرذولة التى نهى عنها الرسول ﷺ : اتخاذ مقابر الأولياء والصالحين موسما وعيدا ، ومبيتا وملعبا للأطفال ، وسوقا للبيع والشراء فى عطلات الأسـبوع « الجمعة » .. وفى المواسم كطلعة رجب والأعياد .. بل تجد عند أضرحة أهل بيت الرسول ﷺ — اذا صح

---

(٧٢) المرجع السابق ص ١٤٤ — ١٤٦

وجودهم بها — تجد الناس وقد أسموها حرما ، وقد جعلوا لكل ولى ليلة فيها تقام حضرته !!

أضف الى ذلك تبرج النســوة والصخب والشرك بسؤال الموتى ما لا يقدر عليه الا الله تعالى .. والاختلاط والخلوة المحرمة فى مواطن للعبرة والخشية والرعدة من رهبة الموت !!

ويقــول بعض الصالحين : « اذا رأيتم أحداً يأكل عند المقابر أو يضحك ، فاعلموا أنه مطموس القلب ، بعيد عن رحمــة الله .. لأنه عبث فى موطن الخوف » ..

وقد روى غير واحد حديث : « ان الله يكره لكم ثلاث : العبث فى الصلاة ، والرفث فى الصيام ، والضحك عند المقابر » ..

* * *

● **مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والاحتفال به :**

يقول الدكتور عزت عطية : « لا خلاف بين العلماء فى أن الاحتفال بيوم المولد عمل محدث ، لم يعهد فى عصر الرسول ﷺ ولا فى عصر أصحابه أو التابعين لهم باحسان ، قال السخاوى : « ان عمل المولد حدث بعد القرون الثلاثة » ..

وأول من احدثه بالقاهرة « المعز لدين الله الفاطمى » سنة ٣٦٢ هـ ، ودام الاحتفــال الى أن أبطله الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٨ هـ فى عهد « المستعلى بالله » ، ولمــا ولى الخلافة « الآمر بأحكام الله » ابن المستعلى أعاد الاحتفال فى سنة ٤٩٥ هـ .

وأول من أحدث هذا الاحتفال بــ « اربل » الملك المظفر أبو سعيد ، فى القرن السادس أو السابع ، وألف له الحافظ أبو خطاب عمر بن الحسن المعروف بابن دحية الكلبى سنة ٦٤٤ هـ كتابا سماه « التنوير فى مولد البشير النذير » حسن فيه الاحتفــال وأقام على ذلك وجوه الاستدلال ..

وهكذا وجد الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة ، وتطورت مظاهره حتى وصلت الى ما هى عليه الآن ..

وقد اختلف موقف العلماء فى الاحتفال بيوم المولد ، فالبعض أجرى عليه أدلة ذم البدع باعتبار حدوثه وترك النبى ﷺ ومن بعده من السلف له •• هذا من ناحية ••

ومن ناحية أخرى : لأنه تخصيص بغير مخصص ، وقد ورد النهى عن مثله ، فقد نهى النبى ﷺ تخصيص يوم الجمعة بصيام ، ولولا أن المفسدة انما تنشأ من تخصيص ما لا خصوصية له — كما فى الاحتفال بالمولد — لما نهى عنه ، فان الناس انما يخصون هذا اليوم بالاحتفال لاعتقادهم فيه فضيلة تقتضى ذلك ولا فضيلة فيه ، فأقل أحوال هذا الاحتفال — فى نظر الشرع — أن يكون مكروها ••

على أن الواجب على الناس فى نظرهم الى الأيام من ناحيــة التشريف والتكريم وتخصيص بعضها بالعبادة أو الاحتفال به دون البعض الآخر اتباع الكتاب والسنة ، وان لم يدركوا ما فى ذلك من المصلحة أو المفسدة »[٧٣] ••

ومن أشــهر هؤلاء المانعين : تاج الدين عمــر بن على اللخمى السكندرى المالكى المعروف بالفاكهانى •• الذى رد هذا الاحتفال وقال بمنعه ، لأنه لا يعلم له أصلا فى كتاب ولا سنة ، ولا نقل عن أحد من علماء الدين ، وانتهى بذلك الى الحكم أن الرجل اذا احتفل بالمولد من عين ماله لأهله وأصحابه وعياله لا يتجاوز فى ذلك الاجتماع على أكل الطعام ، ولا يقترفون شــيئا من الآثام •• كان هــذا الاحتفال بدعة مكروهة وشفاعة مذمومة ، لأنه محدث لا أساس له من الشريعة ، فاذا ما ضم الاحتفال الى ذلك اجتماعا بين غرباء ، واقتضى بذل المــال أو نحوه كرها أو على استحياء •• وصاحبه شىء من الفتن كالطبول والدفوف ، واجتماع الرجال مع النســاء ، أو نحو ذلك ، فلا خلاف فى حرمته ••

والفاكهانى يوافق فيما ذكره ابن تيمية والشاطبى ومن نحا نحوهما

---

(٧٣) البدعة : تحديدها وموقف الاســلام منها — مرجع سابق ، ص ٤٨١ ، ٤٨٢

ممن يرى أن ما تركه الرسول ﷺ مع قيام المقتضى له لا يجوز احداثه من البدع ، والمولد عنده من هذا القبيل(٧٤) .

وفى مقابل هذا الاتجاه .. هناك اتجاه آخر يرى اباحة هـذا الاحتفال ، بل ويحبذ القيام به ويستحسنه ، ويمثل هـذا الاتجاه السيوطى .. حيث يرى أن ما حكم الفاكهانى بكراهته ليس كما قال ، بل هو من الاحسان الذى لم يعهد فى العصر الأول ، فان اطعام الطعام الخالى من اقتراف الآثام من البدع المندوبة كما صرح بذلك العز بن عبد السلام فى قواعده ..

وأما ما وصفه الفاكهانى بأنه حرام فحرمته ليست لنفس الاحتفال باليوم وتعظيمه واظهار شعار المولد ، وانما لما انضم اليه ، ولو وقع بعض هذه الأمور فى الاجتماع لصلاة الجمعة لكان قبيحا شنيعا .. ولا يلزم من ذلك ذم أصل الاجتماع لصلاتها كما هو واضح(٧٥) ..

ويرى ابن حجر .. أن الاحتفال بالمولد بدعة اشتملت على محاسن وضدها .. فمن تحرى فى عمـله المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة والا فلا(٧٦) ..

أما ابن الحاج .. فقد كان موفقا فى توصله الى دليل على تخصيص هذا اليوم باستحباب عبادة خاصة فيه ، اظهارا للسرور بالمولد ، وشكرا لله على ما أكرم به من هذا الميلاد ، ألا وهو تعليل الرسول ﷺ استحباب صوم يوم الاثنين بقوله : « ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت أو أنزل على فيه »(٧٧) .. وبهـذا الاستدلال رد القول بأن هذا الاحتفال تخصيص لهذا اليوم بغير مخصص .. حيث ثبت لهذا التخصيص أصل من السنة .. أما عن القول بحدوث هذا الاحتفال وترك الرسول ﷺ ومن بعده من السلف له فذلك راجع — فيما يرى ابن الحاج — الى رحمة

---

(٧٤) المرجع السابق ص ٤٨٢ ، ٤٨٣

(٧٥) المرجع نفسه ص ٤٨٣ (٧٦) نفس المرجع ص ٤٨٣

(٧٧) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٨ ص ٥٢

النبى ﷺ بأمته ؛ ورفقه بهم حيث كان يترك العمل خشية أن يفرض على أمته(٧٨) ..

ونحن — نتفق مع الدكتور عزت — فى جواز الاحتفال بيوم المولد فى صورة شخصية أو أسرية بل فى استحباب هذا الاحتفال .. فليس الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة من البدع ، لأنه لم يقترن به ادعاء ورود الشرع به ، أو حثه على هذا التخصيص ، أو نسبة ما ليس من الشرع فى هذا المجال اليه ..

وعلى ذلك — كما يقول الدكتور عزت — « فهذا الاحتفال ليس مما تحقق فيه تعريف البدعة على أى اتجاه من الاتجاهات فى تعريف البدعة لثبوت أصله من السنة وتوارد الأدلة المؤيدة لوقوعه ..

« أما عما يعمل فيه ، أو كيفية ممارسته ، فذلك مشروط بأن يقتصر فيه على ما يفيد الشكر لله تعالى ، من التلاوة ، والاطعام ، والصدقة ، وانشاء شىء من الأشعار فى المدائح النبوية والزهدية المحركة للقلوب الى فعل الخير والعمل للآخرة .. وهذا مقيد بأن لا يشغل عن فرض أو يعطل عن طاعة أو يسوق الى ارهاق من كثرة السهر .. لأن الغرض تحصيل السرور عن طريق مشروع ، واظهار الشكر لله تعالى على أى وجــه ..

« أما كشف العورات ، والاختلاط الذرى ، والألعــاب الملهية المشتملة على فنون النصب والاحتيال .. فيجب تجريد ذكرى المولد من كل ذلك على أى حال »(٧٩) .

* * *

ويصف لنا الجبرتى الفساد الذى كان يحدث على عهده فى الموالد .. فيقول فى وصفه لمولد العفيفى : « ينصبون خياما كثيرة وصواوين ومطابخ وقهاوى ، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس ، وخواصهم وعوامهم ، وفلاحى الأرياف وأرباب المــلاهى والملاعيب ، والغوازى

---

(٧٨) البدعة ، ص ٤٨٥

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٤٨٧ ، ٤٨٨

والبغايا والقرادين والحواة ، فيملأون الصحراء والبستان ، فيطئون القبور ، ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ، ويضربون بالطبول والزمور ليلا ونهارا .. ويجتمع لذلك الفقهاء والعلماء ، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير انكار ، بل يعتقدون أن ذلك قربة وعبادة ، ولو لم يكن ذلك لأنكره العلماء ، فضلا عن كونهم يفعلونه ، فالله يتولى هدانا أجمعين »[٨٠] .

ويقول فضيلة الشيخ عبد الرحمن الوكيل : « ودعوى حبهم — أى الصوفية — للرسول وآل بيته دعوى الرجس أنه قداسة ، والاثم الكبير أنه روحانية فضيلة !! وكتلك الفرية افتراء الشيعة أنهم أحباء آل بيت محمد — ﷺ — أترى الشيعة والصوفية : اتبعوا الرسول وجعلوه وحده الأسوة والقدوة الحسنة ؟ !

« ما ثم ما يحتجون به لدعواهم سوى العكوف على الأضرحة الذنيمة المفتزاة لآل البيت ! سوى تلك القباب التى شيدوها معبودة على عظام نخرة .. لا تدرى أهى لحيوان أم انسان ، أم هى أمشاج من عظام شتى ، لا تدرى أهى لصالح أم طالح ، لمسلم أم يهودى .. فقد شيدتها الفاطمية فى مصر ، لتصرف الناس عن حج بيت الله ، ولتجعل قلوب المسلمين نفسها قبورا خربة .. ثم سمتها بأسماء آل البيت ، وأقامت على سدانتها وعبادتها الصوفية !

« ما لهم من دليل على حبهم لآل البيت سوى عبادة تلك الأصنام بتقبيل أستارها وأحجارها ولثم نحاسها وخشبها ، وتعطير أجوائها والاستشفاع بأعتابها ، واقتراف الأعياد الوثنية فى كل موسم لها ..

« وسل الآمين تلك « الموالد » عن عربدة الشيطان فى باحاتها ، وعن الاثم المهتوك فى حاناتها وعن حمم الشهوات التى تتفجر تحت سود ليلاتها !!

« وهكذا تكد الصوفية فى سبيل أن تجعل دنيا المسلمين كلها مقبرة ، قفراء الا من الوحشة ، جرداء الا من الرهبة والفزع ، خاوية الا من خطايا تقترف باسم الاسلام !

---

(٨٠) تاريخ الجبرتى ط بولاق ، جـ ١ ، ص ٢٢٥

« تكد فى سبيل أن تجعل نفوس السلمين مقابر .. وغايتهم المقابر .. وآلهتهم العظام البوالى فى المقابر ! ، وتحث المسلمين ليجعلوا الحياة كلها قربانا الى غيابات العدم ، وجيف المقابر !

« فما ينقضى فى مصر أسبوع ، الا وتحشد الصوفية أساطير شركها ، وعباد أوثانها عند مقبرة يسبحون بحمد جيفتها ، ويسجدون أذلاء لرمتها .. ويقترفون خطايا المجوسية فى حمأتها ، ويحتسون آثام الخمر والحشيش ، والأجساد التى طرحها الليل على الاثم فجورا ومعصية !! ويسمونها للناس : « موالد » أو مواسم عبر وذكريات خوالد !

« وما تجتمع جماعة صوفية أو تنفض .. الا ليبحثوا كيف يحتفون بصنم قبر ، أو رمة قبر !! وما يهوم ليل على صوفى ، أو يفزعه بالنور نهار ، الا وقلبه مستعبد بهوى صنم قبر ، أو رمة قبر ! .. وما يقعد صوفى أو يقوم ، أو يركب أو يمشى الا وينعق مستغيثا بصنم قبر ، أو رمة قبر !!

« قبور .. قبور !! هذه هى دنيا الصوفية ، لها جهاد الصوفية ، ولرممها عبادتها .. ولها تحيا ، ولها تموت ، وبها تعيش !! وخير ما تتمناة الصوفية ، هو أن يهلك المسلمون جميعا ، حتى يكون فى كل ساعة « مولد » مقبرة ، وعيد رمة !!

« فليقتل المسلمون أنفسهم ليمدوا الصوفية بأعياد كثيرة للقبور ، ونذور للجماجم !! ما لهم من دليل على حبهم للرسول وآل بيته سوى تلك « التواشيح » التى يتغذلون بها فى العيون الحوالم النعس ، والشفاه الظوامىء اللعس ، والأهداب المسبلات فى اغراء على لهب من الورد يتوهج فى الخدود النضر !!

« تلك هى أدلتهم ، ويالها من أدلة !! ، حياة كلها خطايا ، وقلوب أربابها رمم معبودة ، ونفوس آلهتها جيف ، وأفكار كلها للأساطير ، وحياة ميتة ، ووجود يفزع منه العدم ، ودنيا خمول خامد تعصف بها الذلة ، فأين الكفاح فى سبيل بناء الحياة » ؟[٨١] .

---

(٨١) هذه هى الصوفية ، مرجع سابق ، ص ١٦١ ، ١٦٢

الحق أن الشيخ عبد الرحمن الوكيل .. كان عنيفا وهو يتحدث عن عبادة القبور وتقديس الموتى ، كان عنيفا وهو ينقد المفاسد التي يحدثها الناس في الموالد .. ولكن ما الحيلة وهو يدافع عن سنة رسول الله ﷺ .. وما جر الناس الى هذه العقائد الفاسدة الا مخالفتهم لأمره حين اتخذوا فوق القبور المساجد وأوقدوا عليها السرج ؟ !

ويحدثنا فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى عن بدع الموالد فيقول : « من بدع هذه « الموالد » الاطعام ، وتلاوة القرآن ، وما يسمونه بالذكر !! .. وهذه الأشياء في الأصل من صالحات الاسلام ، لولا ما صحبها من انحرافات .. فهي مطلوبة في كل وقت بنية القربى الى الله ، لا بنية المولد المحدث ، الذى لم يكن في عهد السلف الصالح .

« بل وتجد أصوات مكبرات الصوت تتضارب بالذكر ، فتخرج عن دائرة الخشوع والخضوع ، الى دائرة الصخب والضجيج .. وربما كان لهذه المساجد والساحات جيران مرضى ، وطلبة يستذكرون ، وأطفال تفزع من هذه الأصوات المنكرة الصادرة من حناجر عملاء الشيطان !!

« ومن المحرمات التى تقع فيها — أى الموالد — اضاعة المال بكثرة الوقود وانارة المصابيح في المساجد والطرق ، واستهلاك الشموع والمصابيح !!

« ومنها انتهاك حرمة المساجد بتقذيرها ، وباللغط ووجود الأطفال والحفاة الذين ينجسونها حتى يتعذر اقامة الشعائر بها على الوجه المرضى ، ومعلوم أن التشويش في المساجد حرام ولو بتلاوة القرآن !!

« ومنها تبرج النساء الزائرات للموالد والأضرحة ، مع الاختلاط بالرجال ، وما يحدث من فجور ونشل ومعارك في تلك الليالى في الساحة وما حولها !!

« ومنها استعمال آلات اللهو والأغانى الخليعة ، والحديث يقول . « من استمع الى قينة صب في أذنه الآنك يوم القيامة » — أى الرصاص المذاب !!

« والتقرب •• يجب أن يكون لله تعالى ، وأن يكون بالحلال •• وأولياء الله الصالحون ينفرون من المعصية •• فأين هـذا الصخب والعبث من عمل الولى ؟ •• وهل كان هو على تلك الحال فى حياته ؟ ! ان من أراد أن يتقرب من انسان ، تقرب اليه بما يحب أن يفعل حال حياته •• وقد وصف الله تعالى أولياءه بأنهم : « **الذين آمنوا وكانوا يتقون** »(٨٢) — أى جمعوا بين حسن الاعتقاد وصلاح العمل ••

« ومن بدع الموالد : الترجيع فى القرآن كالطرب ، مع شرب « الجوزة » و « الشيشة » !!

« ومنها الرياء بالانفاق الزائد ، والتنافس بين الأغنياء للمباهاة ، وتعطيل الناس عن أعمالهم — وخاصة من يفدون من الريف — فضلا عما يتكبدون من مال هم أحوج ما يكونون اليه ، بالاضافة الى ما يحدثونه من أزمات خانقة فى المواصلات والطعام وما يحدث لهم من كوارث !!

« ومنها : حلقات الذكر المحرف ، وفيها المنشدون الذين يبتغون المـال والشهرة ، ولا يبتغون رضوان الله •• كما يوجد فيها الصارخون فى المساجد ، والمصفقون ، والمصفرون ، والراقصون المائلون المميلون !!

« كما تجد فى الطرق المؤدية الى الموالد من يقرأون القرآن على قارعة الطـريق ، وفى الحوانيت لاجتلاب الزبائن ، وعلى الكبارى وأبواب الأنفاق ، يستجدون بالقرآن عطف الناس ، فأرخصوا ما أغلى الله ، وحقروا ما عظم من منهج الحياة ودستور الوجود : كتاب الله !!

« وفيها — أى الموالد — تعطيل للعاملين — عمالا وفلاحين وطلبة — عن أداء واجباتهم بما فيها من افراط فى السهر والسفر ، وحملهم على التكلف بشراء ما يلزم من الشهوات — وقد يكون الكثير من رواد هذه الموالد ممن لا يركع لله ركعة !!

« وفيها : شد الرحال الى غير المسـاجد الثلاثة بمكة والمدينة والقدس •• حيث قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة

---

(٨٢) يونس : ٦٣

مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصا ، ومسجدى هذا » ..

« ولو لم يكن فى الموالد الا إتخاذ القبور عيدا للذبائح والقرابين والنذور — كفعل المشركين عند أوثانهم — لكفى بذلك تحريما .

« علاوة على ما يحدث فى هــذه الموالد من توسل لغير الله ، وسؤال واستعانة بما سواه ، وشرك لا يحصى — مع أن منع المفاسد مقدم على جلب المصالح — وما دام المسلم لا يستطيع أن يزيل هذه المنكرات ، فليبتعد عن شهودها حتى لا تصيبه اللعنة ..

« ويقول تعالى : « **واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** »(٨٣) .

[أى اذا رأيت المشركين الذين يخوضون فى آيات الله بالاستهزاء والتكذيب ، فلا تجلس معهم حتى يأخذوا فى حديث آخر ، غير الاستهزاء بآيات الله وأحكامه ، وان أنساك الشيطان النهى عن الجلوس معهم ، ثم ذكرت ذلك النهى ، فلا تقعد بعد التذكر معهم] .

« ويقول جل شأنه : « **وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، انكم اذن مثلهم** »(٨٤) .

[أى أنزل الله عليكم فى القرآن العظيم : بأنه اذا سمعتم من يسخر ويهزأ بآيات القرآن ، فلا تجلسوا معهم حتى يتحدثوا حديثا غيره ، فانكم ان جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزىء بها ، فانكم مثلهم فى ارتكابكم معصية الله ومخالفتكم أمره] .

« فثبت بالآيتين .. أن كل من حضر المعصــية — حتى ولو لم يفعلها — فهو شريك لفاعلها » ..

ثم يقول فضيلته : « والعجب .. أنهم جمعوا جميع موالد من يسمونهم أولياء تباعا .. فلا يكاد ينفض السامر عن مولد الا استأنفوا

---

(٨٣) الأنعام : ٦٨ — (٨٤) النساء : ١٤٠

الرحيل لغيره .. وكم فى ذلك من أزمة للمواصلات ، وأزمة للطعام ، وكثرة النشـــالين ، وأحداث الفجور .. فضلا عن خرافات مضللات للعقيدة والعبادة والأخلاق »(٨٥) .

* * *

● **النذر لغير الله .. من الشرك :**

النذر .. عبادة وقربة .. والعبادة لا يجوز أن توجــه الا الى الله تعالى .. يقول سبحانه : **« وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه ، وما للظالمين من أنصار »**(٨٦) .. والمراد بالظالمين فى الآية : المشركون ، فان الشرك ظلم عظيم ، ومن قصد بالعبادة غير الله تعالى فقد أشرك . وعلى هذا فالنذر لغير الله تعالى ، كالنذر للقبور وأصحابها من الشرك ..

ويقول بعض العلماء(٨٧) : « النذر الذى ينذر له أكثر العوام — على ما هو مشاهد بيننا — كأن يكون للانسان غائب أو مريض ، أو له حاجة .. فيأتى الى مقبرة بعض الصالحين ويقول : ياسيدى فلان ، ان رد الله غائبى ، أو عوفى مريضى ، أو قضيت حاجتى فلك من الذهب كذا ، أو من الطعام كذا ، أو من الشمع والزيت كذا .. فهذا النذر باطل ، بالاجماع .. وهو حرام لعلل ثلاث :

(ا) أن النذر عبادة ، والعبادة لا تكون الا لله وحده ..

(ب) أن المنذور له ميت ، والميت لا يملك شـيئا الا ما قدم ، فلا يصح أن يوجه اليه نذر يملكه بعد وفاته ..

(جـ) اعتقاد الناذر أن للميت قدرة على التصرف فى الكون من دون الله ، فهذا كفر والعياذ بالله » .

ثم يقول : « اذا علمت هذا .. فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها ، وينتقل الى ضرائح الأولياء تقربا اليهم فحرام باجماع

---

(٨٥) هذه دعوتنا : مرجع سابق ، ص ٢٢٠ — ٢٢٤ بتصرف .

(٨٦) البقرة : ٢٧٠ .

(٨٧) كالدكتور يوسف القرضاوى ، والشيخ عبد اللطيف مشتهرى جزاهما الله عن الاسلام خيرا ..

المسلمين .. واذا كان هذا النذر حراما ، فلا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز لثلاثة أدلة :

أولها : أنه جاء على غير أمر النبى ﷺ وقد قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ..

وثانيها : أنه نذر لغير الله ، فهو شرك .. والشرك لا حرمة له ، فهو مثل الحلف بالمخلوقات لا يجب الوفاء به ولا كفارة فيه ، وليس فيه الا الاستغفار كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية ..

الثالث : أنه نذر معصية ، وقد بينت السنة أن كل نذر اشتمل على معصية أو شرك ، لا يلزم الوفاء به ، بل لا يجوز الوفاء به .. ففى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا : « من نذر أن يطيعه فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » ..

وفيما صح من حديث : « النذر لا يأتى بخير ، وانما يستخرج الله به من البخيل » .. فهو ابتداءا غير مرغوب فيه .. ولكن اذا حدث على الوجه الشرعى دون شرك ، وكان نذر طاعة لله ، وجب الوفاء به »[٨٨] ..

ويقول الدكتور يوسف القرضاوى : « من الشرك تقديم القرابين وذبح الذبائح لغير الله تعالى ..

« فقد جرت عادة المشركين فى كل أمة ، أن يتقربوا بذبائحهم الى آلهتهم وأصنامهم .. فأبطل الاسلام ذلك وحرم : « **ما أهل لغير الله به** »[٨٩] — أى ما ذكر عليه اسم غير الله من صنم أو نحوه ، « **وما ذبح على النصب** »[٩٠] — أى ما نصب من حجر أو شجر أو صنم ليعبد ، أو يعظم أو يتبرك به ..

وأمر أن يكون الذبح لله وحده ، ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يجعل صلاته ونحره لله : « **فصل لربك وانحر** »[٩١] . وأن يعلن فى المشركين

---

(٨٨) انظر « حقيقة التوحيد » للدكتور يوسف القرضاوى ، و « هذه دعوتنا » للشيخ عبد اللطيف مشتهرى ...

(٨٩) المائدة ٣ ، بلفظ « وما أهل ... » .

(٩٠) المائدة : ٣ (٩١) الكوثر : ٢

أن هديه مخالف لهم فى صلاته ونســكه : « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين • لا شريك له ، وبذلك أمرت »(٩٢) — والنسك هو الذبح بقصد التبرك ••

« وعن على رضى الله عنه قال : حدثنى رسول الله ﷺ بأربع كلمات : « لعن الله من ذبح لغير الله •• لعن الله من لعن والديه •• لعن الله من آوى محدثا(٩٣) •• لعن الله من غير منار الأرض »(٩٤) •

« وعن طارق بن شهاب ، أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل فى ذباب ، ودخل النار رجل فى ذباب » — أى بسبب ذباب (!!) — قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال : « مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب اليه شيئا ، فقالوا لأحدهما : قرب ، قال : ليس عندى شىء أقرب ، قالوا له : قرب ولو ذبابا ، فقرب ذبابا فخلوا سبيله فدخل النار •• وقالوا للآخر : قرب ، فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة »(٩٥) ••

« أثنى النبى ﷺ على هــذا الرجل المؤمن ، وأخبر عن دخوله الجنة لأنه صبر على القتل ولم يرض بتقديم أى شىء لغير الله عز وجل ، لأن القضية قضية قبل أى شىء •• ومن قبل أن يقدم لغير الله ذبابا ، أوشك أن يقدم بعد ذلك جملا »(٩٦) !!

من هذا يتبين لنا أن من نذر لغير الله ، ولو بأهون الأشياء — وهل أهون من الذباب ؟ ! — فقد أشرك •• لأنه قصد بالنذر — وهو عبادة — غير الله ، فكأنه أشرك فى عبادته لله الهاً آخر ••

* * *

---

(٩٢) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣

(٩٣) أى : حمى مجرما يستحق العقاب بأن تستر عليه أو ناصره بنفوذه وسلطانه .

(٩٤) أى : معالم الأرض وحدودها ليدخل فى ملكه ما ليس من حقه ، والحديث رواه مسلم .

(٩٥) رواه أحمد .

(٩٦) حقيقة التوحيد ، للدكتور يوسف القرضاوى ، ص ٥٨ — ٦٠

● الى أين تذهب أموال النذور ؟

لا يخلو ضريح فى أى مسجد من صندوق للنذور يوضع الى جوار الضريح .. وكأنما يدعو الشرك بعضه بعضا !! .. اذ تنتهى — عادة — مناسك الطواف التى ابتدعها عباد القبور بايداع بعض الحلى أو الأموال فى ذلك الصندوق .. واهمين أنهم بذلك الفعل يفوزون بالقربى من الله ، وينالون بركة ساكن الضريح .. وبهذا تقضى لهم الحوائج ، وترفع عنهم الكربات .. بعد أن أدوا ما افترضوه على أنفسهم من طواف بالقبر ، والتماس لبركة ساكنه ، واستشفاع بالمقبور فيه ، وتقديم النذور والقرابين اليه .. وعلى ساكن الضريح أن يؤدى بعد هذه المناسك ما هو مطلوب منه !!

وما درى الضالون أنهم بعقيدتهم الزائغة تلك ، قد خسروا الدنيا والآخرة !!

ويحق لكل منا .. أن يوجه سؤالا منطقيا الى نفسه : الى أين تذهب حصيلة هذه الأموال التى تتجمع فى صناديق النذور ؟ .. فما دام مطلوبا منا أن ندفع .. فان من حقنا أن نسأل !!

هل تصرف هذه الأموال على عمارة المساجد التى جمعت منها وتنفق على صيانتها ؟ ؟

هل تصرف فى مصارف الزكاة التى افترضها الله تعالى على الناس .. فتؤدى الى الفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ؟ ؟

هل تصرف فى مصارف الصدقة التى حددها الشارع سبحانه .. فتؤدى الى ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ؟ ؟

هل تؤول الى خزانة الدولة ، فتضاف الى مواردها ليصرف منها على المشاريع العامة كانشاء المدارس وبناء المستشفيات والملاجىء ، وتعبيد الطرق وحماية الجسور ، وتسليح الجيوش ، وسداد الديون ... الخ ، وبهذا يعود خيرها على المجتمع كله ؟ ؟

لو كان الأمر يؤول الى واحد من هذه الأمور ، لأيدنا ذلك الأمر ، ولقدمنا الأموال بنفس سخية ابتغاء مرضاة الله ورضوانه !!

ويشاء الله تعالى .. ألا تطول بنا هذه التساؤلات ، فيأتينا الرد شافيا حين طالعتنا احدى صحف الصباح[٩٧] تحت عناوين مثيرة تقول :
« مفاجأة غريبة يكشف عنها طلب احاطة بالمجلس الشعبى للغربية — أين تذهب نذور السيد البدوى التى تزيد عن مليون جنيه — كل خليفة حصل على ٥٤ ألف جنيه ، وحامل مفتاح المقصورة تقاضى ٣٦ ألفا ، ورئيس الخدم ١٢ ألفا فى العام المـاضى » !!
ثم تقول الصحيفة : « على امتداد أكثر من ثلاث ساعات .. شهدت قاعة المجلس الشعبى لمحافظة الغربية مناقشة غريبة ، ومفاجآت

أغرب ، حول طلب الاحاطة الذى تقدم به عدد من أعضاء المجلس ، بشأن حصيلة صناديق النذور بمساجد المحافظة ، والطريقة التى توزع بها نذور مسجد سيدى أحمد البدوى بطنطا ..

« ولقد كشفت المناقشات .. عن أن الحصيلة النقدية لصندوق هذا المسجد فى العام المـاضى [١٩٨٤] بلغت مليونا و ٢٠٠ ألف جنيه ، وأن النذور العينية فى حدود هذا المبلغ .. بينما كانت حصيلة صناديق النذور الأخرى — وعددها ٢٢ صـندوقا على مسـتوى المحافظة — ٥٠ ألف جنيه (!!)

« والغريب فى الأمر .. أنه لا يعود على الدولة من صندوق نذور المسجد الأحمدى سوى ٣٫٩٪ فقط من جملة النذور النقدية .. وذلك طبقا للقرار الوزارى المحدد لنسب التوزيع .. أما الجزء الأكبر من النذور فقد استأثر به عدد محدود من الأفراد (!!)

« وجميع المبالغ التى يحصلون عليها معفاة من الضرائب (!!) .. فما هى الحكاية » ؟

---

(٩٧) انظر جريدة الأهرام القاهرية ، العدد ٣٥٨١٩ ، الصـادر صبيحة الأحد ١٤ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٥ هـ (٦ يناير سنة ١٩٨٥ م) .

وتستطرد الصحيفة فتقول : الحكاية بدأت عندما تقدم عدد من أعضاء المجلس الشعبى للمحافظة بطلب احاطة .. وكان موضوع طلب الاحاطة هو معـرفة ايرادات صناديق النذور بمساجد المحافظـة ، والطريقة المتبعة فى توزيع حصيلة صندوق نذور المسجد الأحمدى على وجـه الخصوص ..

« وعندما جاء موعد الجلسة المحددة لمناقشة طلب الاحاطة .. عقد المجلس جلسته برئاسة وكيل المجلس ، وشهدها المحافظ والمستشار ومدير الأوقاف بالغربية ..

« ومنذ اللحظة الأولى لبدء المناقشات ، سيطرت الدهشة على جميع الحاضرين .. فقد تقدم مدير الأوقاف ببيان الى المجلس كشف فيه عن حقائق لم يتوقعها أى منهم .

« وقال المدير فى بيانه : ان حصيلة صـندوق المسجد الأحمدى بطنطا بلغت فى عام ١٩٨٤ مليونا و ٢٠٠ ألف من الجنيهات .. بينما كانت حصيلة ٢٢ صنـدوقا غـيره على مسـتوى محـافظة الغـربية ٥٠ ألف جنيه ..

« وفيما يتعلق بطريقة توزيع حصـيلة صندوق نذور المسـجد الأحمدى .. فان القرار الوزارى رقم ٢٢ لسنة ١٩٧١ قد حدد النسـب والجهات والأشخاص المستحقة لهذه النسب ..

« وطبقا لمـا يقضى به هذا القرار .. جاء بيان مديرية الأوقاف موضحا كيفية توزيع الحصيلة النقدية للصندوق فى العام المـاضى (١٩٨٤) .. وهى كما يلى :

« الخليفة الأول	٥٤ ألف جنيه بنسبة ٤٫٥٪ »
« الخليفة الثانى	٥٤ ألف جنيه بنسبة ٤٫٥٪ »
« حامل مفتاح المقصورة	٣٦ ألف جنيه بنسبة ٣٪ »
« شيخ المسجد	١٨ ألف جنيه بنسبة ١٫٥٪ »
« رئيس الخـدم	١٢ ألف جنيه بنسبة ١٪ »

« الكاتب (ولم تذكر الجريدة عدد الكتبة) ١٢ ألف جنيه بنسبة ١٪ »
« المؤذن ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥ر٠٪ »
« مقيم الشعائر ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥ر٠٪ »
« قارىء السورة ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥ر٠٪ »
« خادم الدورة (ولم تذكر عددهم) ٦ آلاف جنيه بنسبة ٥ر٠٪ »
« قراء المقراة (وعددهم ٢٢ قارئاً) ١٣٢ ألف جنيه بنسبة ٥ر٠٪ »

— أما وزارة الأوقاف •• فالنسبة المقررة لها ٣٩٪ ، وقد بلغ مقدارها ٤٦٨ ألف جنيه » (!!) ثم تقول الصحيفة : « عند ذلك •• ثارت ضجة بالقاعة ، وتوالت تعليقات الحاضرين وهم يتساءلون : كيف يحصل عدد محدود من الأفراد على هذه المبالغ الخيالية ، بينما تحصل الوزارة المسئولة عن جميع مساجد الدولة على ٣٩٪ من مجمـوع الايرادات النقدية لصندوق نذور المسجد الأحمدى ؟ ! •• وأين تذهب النـذور العينية » ؟ ! اهـ •

هذا ما نشرته — فى حينه — صحيفة الأهرام القاهرية •• ولنـا أن نتساءل : هل كان واحد منا يتوقع هذه الأرقام الخرافية ؟ !

وهل يستقيم مع العقل ، أن يكون اجمالى مرتب وكيل أول الوزارة — قبل الاستقطاعات — ٢١٠٠ جنيه فى العام ، بينما يحصل رئيس الخدم بالمسجد الأحمدى فى نفس العام على ١٢ ألفاً من الجنيهات معفاة من الضرائب ؟ !

ثم •• أليس من المفارقات العجيبة — التى تدعو الى الدهشة والذهول — أن يحصل خادم الدورة فى أحد المساجد على ستة آلاف من الجنيهات سنويا •• بينما تعانى المساجد الأهلية من قلة عدد الدعاة ومقيمى الشعائر ؟ !

المهم •• نشرت الصحيفة هذه الأمور المذهلة •• ولم يقف السيد وزير الأوقاف — الدكتور الأحمدى أبو النور — ساكتا ازاء هذه الظاهرة الخطيرة •• وقرر على الفور تشكيل لجنة لاعادة النظر فى قرار توزيع

أموال صندوق نذور السيد البدوى وغيرها من الصناديق ، وتخصيص حصة منها — على الأقل — للصرف على أوجه الدعوة الاسلامية ، مع الاحتفاظ بنسبة للعاملين بالمسجد ..

ثم انتقلت مناقشات هذا الموضوع الى مجلس الشعب بناء على طلبات احاطة تقدم بها بعض الأعضاء .. وناقش المجلس المسألة .. ثم انفضت الدورة دون أن ينتهى المجلس الى قرار حاسم فى هذه المشكلة !!

وتمر الأيام .. وتتلقى بعض أجهزة الدولة سطورا قليلة من أحد المواطنين — الذين كانوا على دراية بكل ما يدور حول القضية — ويكشف فى رسالته للمسئولين عن حكاية جديدة ، يؤكد فيها أن الأشخاص الذين يحصلون على عشرات الألوف من الجنيهات من حصيلة صندوق النذور بالمسجد الأحمدى — اياه — لم يكتفوا بذلك ، بل انهم كانوا يمدون أيديهم لأموال النذور ومعهم جميع أعضاء اللجنة التى تتولى فتح الصندوق وجرد محتوياته !!

وتتحرك جميع الأجهزة المختصة ، ويقوم خبراء الجهاز المركزى للمحاسبات بمراجعة أوراقهم وملفاتهم ، فتأكدوا من صدق هذه المعلومات .. ويقرر الوزير تشكيل لجنة يرأسها وكيل وزارة الأوقاف بالاسكندرية لفحص ما جاء بتقارير الجهاز المركزى !!

ثم تظهر الفضيحة المذهلة التى فاجأتنا بها صحيفة الأهرام القاهرية — صبيحة الأحد ٥ يناير سنة ١٩٨٦ — تحت عناوين مثيرة تقول : « نذور السيد البدوى مليون و ١٤٣ ألف جنيه فى عشرة شهور ، كيف نتركها للعابثين ؟ — الجهاز المركزى يكشف ضياع ٧٥٠ ألف جنيه ، ووزير الأوقاف يحيل المسئولين الى التحقيق — النيابة تأمر بحبس وكيل وزارة ، وكل أعضاء اللجنة المسئولة عن جرد الصندوق »(٩٨) ..

---

(٩٨) انظر جريدة الأهرام القاهرية ، العدد ٣٦١٨٧ ، الصادر صبيحة الأحد ٢٤ من ربيع الثانى سنة ١٤٠٦ هـ (٥ يناير سنة ١٩٨٦ م) .

ثم تقول الصحيفة : ان اللجنة التى أمر السيد الوزير بتشكيلهـا لفحص ما جاء بتقارير الجهاز المركزى قد أعدت تقريرا .. « انتهت فيه الى وجود عجز كبير فى حصيلة الصندوق منها على سبيل المثال :

ــ أنه تبين من مراجعة أوراق فتح صنـدوق النـذور يـوم ١٩٨٢/١١/١٦ : أن عدد أوراق النقد الموجودة به من فئة الجنيه هى ١٦١٫٨٠٠ ورقة .. ولكن اللجنة التى قامت بفتح الصندوق حذفت الرقم واحد من اليسار والرقم صفر من اليمين .. وأثبتت أن المبلغ هو ٦١٨٠ جنيها فقط .. أى بفارق ١٥٥٫٦٢٠ جنيها (!!) .

ــ كما ثبت من مراجعة أوراق جرد الصندوق نفسه .. أن الصندوق كان بداخله ١٥٫٩٣٠ ورقة من فئة النصف جنيه قيمتها ٧٩٦٥ جنيها ، ولكن اللجنـة أثبتت أن المبـلغ هو ١٢٥٦٫٥ جنيهـا .. أى بفـارق ٦٧٠٨٫٥ جنيها (!!) .

« ومعنى ذلك أن العجز فى هذا الصندوق فقط هو ١٦٢٫٣٢٨ جنيها ونصف الجنيه (!!) .

« ومن هنا كان لا بد من احالة هؤلاء الناس جميعا الى النيابة .. حيث تولى التحقيق الأستاذ رئيس نيابة الأموال العامة ، وتحت اشراف المحـامى العام .. وكشفت التقارير أن جملة المبالغ الضائعة تقدر بـ ٧٥٠ ألف جنيه ، وذلك من خلال مراجعة جرد الصناديق عن أعوام ٨١ ، ٨٢ ، ١٩٨٣ فقط ..

« واتضح للنيابة من خلال تقارير الجهاز المركزى واللجنة التى شكلتها الوزارة .. أن هناك نماذج أخرى لاختلاسات أموال الصندوق منهـا :

ــ أن صندوق النذور الذى تم فتحه يوم ١٩٨٢/٢/٣٠ كان بداخله ٢١٦٥ ورقة من فئة الخمسة جنيهات قيمتها ١٠٫٨٢٥ جنيها ، وقد قيدت بمحضر لجنة فتح الصندوق بمبلغ ٤٣٣٠ جنيها فقط ، أى بفارق ٦٤٩٥ جنيها ، ورغم ذلك لم يتم توريد هذا المبلغ (!!)

« وقد وجهت النيابة تهمة الاختلاس الى كل من وكيل وزارة

الأوقاف بالغربية ، وامام المسجد ، وخطيبه ، ومندوب محافظة الغربية ، ومدير مديرية الشباب والرياضة بها ، ومندوب المجلس الشعبى المحلى ، ومندوب الدعوة بمديرية أوقاف الغربية .. ثم أمرت بحبسهم جميعا على ذمة التحقيق .. وتكليف اللجان التى تتولى مراجعة عمليات فتح وجرد الصناديق لمواصلة أعمالها للكشف عن أية اختلاسات أخرى عن عامى ٨٤/١٩٨٥ ، وما قد تكشف عنه اللجان عن أى انحرافات عن الأعــوام السابقة قبل عام ١٩٨١ » ..

ثم تقول الصحيفة: « ومن هنا يدور السؤال .. الى متى التهاون فى الحفاظ على المــال العام ؟ .. والى متى التبــاطؤ فى اصــدار القرارات الهامة التى تحفظ للدولة أموالها ، مثل قرار تنظيم صرف النسب التى يمكن تخصيصها من حصيلة صندوق نذور السيد البدوى ؟

« وطالما أنه ثبت لدينا أن صناديق النذور فى المساجد الكبرى ، مثل السيد البدوى ، تدر عائداً كبيرا من الأموال .. فهل من المعقــول أن يتم جرد هذه الصناديق بهذه الصورة العادية ؟ .. ولماذا لا يتم الجرد تحت اشراف أخصائيين من الجهــاز المركزى ، أو من البنوك الكبيرة ، أو مندوبين من وزارة المــالية وغيرها من الأجهزة المختصة فى هــذا المجال ؟ » .. اهـ .

* * *

ونقول : هل عرفتم الآن — يا أصحاب النذور — لمــاذا قال الرسول ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما : « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » ؟ !

هل عرفتم لماذا قرر الاسلام أن : « من نذر لغير الله فقد أشرك » ..

هل وعيتم الدرس — يامن عصيتم الرسول ﷺ وعرضتم أنفسكم للشرك بالله — حين قدمتم النذور والقرابين لغير الله تعالى ؟ !

هل علمتم الآن — يامن استدنتم ، وبعتم أثاث بيوتكم ورهنتم دوركم كى تقدموا النذور والقرابين للموتى حتى تروج التجارة ، ويشفى المريض ، وينجح الطالب ، ويعود الغائب (!!) هل علمتم الى أين تذهب أموالكم ؟ !

هل عرفتم لماذا يرفع بعض الناس شعار : « قطع الورايد ، ولا قطع العوايد » ؟!

وأخيرا .. هل أدركتم الآن — ياعباد القبور — معنى قول الله تعالى : **« هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا »**(٩٩) .

فاللهم ربنا : أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، واهد قومنا ياربنا فانهم لا يعلمون ..

* * *

● **ومن حلف بغير الله ، فقد أشرك :**

الحلف بغير الله تعالى .. كأن يقسم بالنبى ﷺ ، او بالكعبة الشريفة ، أو بولى من الأولياء ، أو بكبير من الكبراء .. أو يقسم بالوطن ، أو بالآباء والأجداد ، أو بغير ذلك من المخلوقات فكل ذلك من الشرك .. وفى الحديث : « ومن حلف بغير الله فقد كفر » .. وفى رواية : « فقد أشرك » (١٠٠) .

وذلك لأن فى القسم تعظيما للمقسم به .. والذى ينبغى أن يخص بالتعظيم والتقديس هو الله وحده .. لهذا جاء النهى عن الحلف بغيره تعالى .. فقال ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم » .. وقال : « من كان حالفا فليحلف بالله ، أو ليذر » ..

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « لأن أحلف بالله كاذبا أحب الى من أن أحلف بغيره صادقا » .

« ومن المعلوم فى الدين : أن الحلف بالله كاذبا كبيرة من الكبائر .. لكن الشرك — وان كان شركا أصغر — أكبر من كل الكبائر فى نظر فقهاء الصحابة رضى الله عنهم »(١٠١) .

---

(٩٩) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

(١٠٠) رواه الترمذى وحسنه .

(١٠١) حقيقة التوحيد ، مرجع سابق ص ٤٦

ويعلق الدكتور يوسف القرضاوى على ذلك بقوله : « فالحالف بغير الله لا وفاء له ولا كفارة •• لأن هذا شرك ، والشرك لا حرمة له ••

وانما عليه أن يستغفر الله تعالى •• وأن يقول ما قاله الرسول ﷺ : « من حلف وقال فى حلفه : واللات والعزى ، فليقل : لا اله الا الله »[١٠٢] •• فبين هذا الحديث أن كفارة الشرك تجديد التوحيد ، لا الاطعام ولا الصيام »[١٠٣] •

* * *

● خلاصة المسألة •• بين المعترضين والمجيزين :

يطلق الصوفيون على أهل السنة : علماء الظاهر ، أو أهل الشريعة •• لأنهم يتمسكون بنصوص الكتاب والسنة ولا يحيدون عنها ••

ويطلقون على أنفسهم : أهل الحقيقة ، لأنهم لا يقفون أمام النصوص ، وانما يصلون الى المعانى الكامنة وراءها ، وذلك بالقاء الله تعالى فى قلوبهم أسرار هذه النصوص •• فهم — على هذا — علماء الباطن ••

ويختلف « علماء الظاهر » — أهل السنة — مع « علماء الباطن » — الصوفية — فى مسألة الأضرحة وما يدور حولها اختلافا كبيرا ، ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا : أن خلافهم حول هذه المسألة ينبع من أعماق الجذور ••

● فبينما يرى أهل السنة أن الأضرحة ليست الا مظهرا من مظاهر الوثنية — ولا يجتمع فى دين الاسلام قبر ومسجد أبدا — كما يقول الفقهاء من السلف الصالح — بل ويذهبون الى أنه اذا بنى المسجد أولا يهدم القبر ، أما اذا كان القبر أولا فيهدم المسجد •• لأن الاسلام سوى بين الجميع — من آل البيت وغيرهم لقول الرسول ﷺ لأقرب أقربائه : « اعلموا فانى لا أغنى عنكم من الله شيئا » — وهذا يستوجب

---

(١٠٢) رواه البخارى • (١٠٣) حقيقة التوحيد ، ص ٤٦.

عدم تمييز آل البيت أو غيرهم ببناء الأضرحة على قبورهم •• أو رفع هذه القبور كما ترفع الأضرحة والمقامات ••

كما لا يصح فى نظر أهل السـنة نقل الأضرحة الى المساجد ، فالمساجد دور للعبادة ، وحلقات للعلم وليست مدافن للموتى ••

والاسلام بهذا يوقف زحف الوثنية عليه كما زحفت على الأديان السابقة فحولت توحيدها الى شرك •• لأن أصل فكرة عبادة الأوثان — كما يقول أهل السنة — أنها كانت قبورا تبنى لتذكر بالصالحين ، ثم نسى الجيل الأول هـذا الأمر ، وجاء الجيل الثانى فظن أن القبور قد بنيت فى المساجد لتعبد ، فعبدوها •• واقتصر الجيل الثالث على اتخـاذ صورة أو تمثال يعبدونه فى دورهم دون الذهاب الى دور العبادة •• ولهذا فان الاسلام حين يمنع ارتباط القبر أو الضريح بالمسجد ، فانما يريد بذلك أن ينهى كل مظاهر الوثنية ويقضى عليها •• ويحتج — أهل السنة — بأحاديث الرسول ﷺ التى تنهى عن اتخاذ القبور مساجد ••

ولكن الصوفية : يجيزون اقامة المساجد فوق القبور •• محتجين لذلك بأنه عنـدما مات الرسـول ﷺ فانه دفن بحجرة عائشـة — رضى الله عنها — وكانت رضى الله عنها تؤدى الصلوات الخمس فى حجرتها ، وكان بهـا قبر الرسول ﷺ •• وصاحبيه : أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، وظلت عائشـة رضى الله عنها تقيم صلواتها فى نفس الحجرة دون أن تتخذ من مكان القبر قبلة أو تصلى عليه •• وعلى هذا فهم يرون أن الصلاة بمكان به قبر صحيحة ، قياسا على صحة صلاتها — رضى الله عنها — بحجرتها وبها قبور الرسول ﷺ وصاحبيه رضوان الله عليهما !!

* * *

● ويرى أهل السنة عدم جواز شد الرحال الا الى المساجد الثلاثة التى ذكرها الرسول ﷺ فى حديثه ، وهى : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصا ، والمسجد النبوى الشريف ••

وشد الرحال — كما يراه أهل السنة — هو العزم على السفر وحزم

الحقائب والتوجه بالارادة الكاملة الى أحد المساجد الثلاثة التى وضحها الرســول ﷺ فى قوله : « لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصا ، ومسجدى هذا » ..

فالنص فى هذا الحديث واضح : لا يحتاج الى تأويل أو اضافة .. فالنهى اذن عن شد الرحال لغير هذه المساجد هو نهى للتحريم ..

وهذا — كما يقولون — يختلف عن شد الرحال من أجل العلم اذا أراد المسلم أن يتعلم على يد أحد العلماء ، أو يسمع لأحد الخطباء ، فهذا بعيد عن أمر المساجد .. وتعلم العلم والسعى اليه مطلوب ، وقد كان الصحابة والتابعون يسافرون بالأيام والشهور لأحد الصحابة أو التابعين لمعرفة حديث عن الرسول ﷺ ..

ولكن الصوفية ، يرون أن الناس لم يفهموا الحديث على حقيقته .. اذ معنى الحديث — فى نظرهم — أن المساجد كلها متساوية فى الفضل والثواب .. فاذا صلى المسلم صلاة العصر — مثلا — فى مسجد معين ، فثوابه فيه مثل ثوابه فى أى مسجد آخر .. الا المساجد الثلاثة المذكورة فى الحديث ، فان الصــلاة فى المسجد الحرام يتضاعف ثوابها الى مائة ألف ، والصلاة فى المسجد النبوى يتضاعف ثوابها ألف مرة ، وفى المسجد الأقصا يتضاعف خمسمائة مرة .. أما ســائر المساجد فلا تضعيف فيها ، وكلها متساوية فى الفضل !!

ويرون أن شد الرحال لغير هذه المساجد الثلاثة .. لا لطلب مزيد ثواب فى الصلاة .. فهو عمل مباح لا شىء فيه .. فالناس يشدون الرحال لطلب العلم ، ويشدون الرحال للتجارة ، ويشدون الرحال لزيارة المساجد الموجود بها أضرحة !!

وانما تشد الرحال الى الأضرحة ، لا للصلاة فى مساجدها ، لأن الصلاة فيها تساوى الصلاة فى مسجد الحى أو القرية التى يسكنونها .. وانما يأتى مزيد من الثواب — فى نظرهم — فى الصلاة فى هــذه المساجد ، لا من ناحية كونها مساجد ، بل من ناحية زيادة عدد المصلين فيها .. فكلما زاد عدد المصلين فى الجماعة كلما كان ثواب المصلين أكثر ..

كما أن الناس قد يحصلون على مزيد من الثواب لأن هـذه المساجد قد عمرت بأنفاس الصالحين عبر القرون •• لكنها — كما يقولون — من حيث المسجدية تتساوى مع أى مسجد الا المساجد الثلاثة المذكورة فى الحديث !!

* * *

● ويرى أهل السنة : أن زيارة النساء للقبور لا تصح اطلاقا •• لقول الرسول ﷺ : « لعن الله زوارات القبور ••• » فلعنة الله تلاحق زائرة القبر ، وما أجازه الرســول ﷺ من زيارة القبور انمــا كان للرجال فقط ••

فاذا كان الرسول ﷺ قد نهى النساء عن الذهاب الى المقابر التى هى أصــلا للمسلمين جميعا ومن الجائز أن يزوروها •• فالأولى منع ذهابهن الى ما يخالف الشرع وهو الأضرحة ، وما يترتب على هـذه الزيارة من مفاسد ••

ولكن الصوفية لا يرون فى ذلك بأسا •• ويرون فى زيارة النساء للأضرحة أمرا مشروعا ، بل ومسنونا للعظة والاعتبار ، ولقراءة القرآن ، واهداء ثواب القراءة للموتى ، ولكى يأتنس الموتى كذلك بهن ، فان الموتى يأتنسون بزيارة الأحياء لهم !!

ويقولون : بأن من زار قبر ميت — أيا كان هذا الميت — فان الميت يعلم بزيارة من زاره ويراه ويســمع حديثه •• ولو زار المسلم — أو المسلمة — قبر الميت وقرأ له ما تيسر من القرآن ، وأهدى ثواب قراءته للميت ، فان الميت يسمعه وهو يقرأ ويأنس به ويسعد بزيارته •• كما يسعد كذلك بالقرآن الذى وهب ثواب قراءته لروحه •• فالموتى جميعــا فى قبورهم أحياء — المسلمون منهم والكفــار ، والطائعون والعصاة — يرون من يزورهم ويستمعون لمــا يقرأونه •• لأن القبر اما روضة من رياض الجنـــة ، واما حفرة من حفر النــار ، والنعيم أو العذاب لا يكون الا مع الحياة !!

أما ما يقترن بزيارة الأولياء والصالحين من أشياء لا تليق بالمسلم وتخرج عن الآداب الاسلامية ، فعلى الناس منعها •• فالمرأة التى تدخل

لزيارة هـذه القبور وهى سافرة ، يجب منعها من الدخول الى هـذه الأماكن ، كذلك يجب منع النساء اللاتى يرفعن أصواتهن بالزغاريد فيها !!

* * *

● ويرى أهل السـنة : أنه لا يجوز الطواف حول الأضرحة ، أو تقبيلها ، أو تقبيل الأعتاب وما يحدث عادة من العـامة عند زيارة الأولياء والصالحين •• فالطواف لا يجوز الا حول الكعبة •• كما أن التقبيل لا يجوز الا للحجر الأسود ••

ويقولون : ان كل دوران يتم حول شىء ما ، يسمى طوافا •• والطواف حول الكعبة يحسب من ابتداء الدوران من نقطة معينة الى أن يعود الطائف الى هـذه النقطة •• فهذا الدوران يسمى طوافا •• والقرآن الكريم يقصر الطواف على الكعبة بقوله تعالى : « **وليطوفوا بالبيت العتيق** »(١٠٤) •• ومعنى هـذا : أنه لا يجوز مطلقا الطواف بغير الكعبة كالأضرحة وغيرها •• لأن الطواف عبادة ، ولابد للعبادة أن تكون وفق ما جاء به الشرع ••

ولكن الصوفية يرون أن الطواف حول الأضرحة ليس طوافا •• وانما هو تنظيم لحركة المرور •• اذ أن الحركة الصحيحة — فى المكان المستدير — هى الدوران حوله ، والا تصادم الناس لو كان المرور فى اتجاه واحد •• وعلى هـذا لا يرون فى الدوران حول الأضرحة طوافا ؛ ولكنه تنظيم لحركة المرور !!

ويرون أن تقبيل الأضرحة والأعتاب •• ليس الا تعبيرا عن حب ، بالغ أصحابه فى التعبير عنه •• وعلى هذا فهو — فى نظرهم — ليس الا لونا من ألوان فعل الأشياء التى لا تليق ولم يرد بها شرع ، ولكنها لا تكفر صاحبها !!

* * *

● ويرى أهل السنة : أنه لا يجوز الاحتفال بمولد الرسول ﷺ ، ولا بمولد غيره من آل البيت أو الأولياء •• لأن هـذا مما أحدثه الناس فى الدين ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة لقول الرسول ﷺ :

---

(١٠٤) الحج : ٢٩

« اياكم ومحدثات الأمور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »
ولقوله ﷺ : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

ولو كان الاحتفال بالموالد من الدين لفعله الرسول ﷺ أو الصحابة أو السلف الصالح رضوان الله عليهم ..

وقد صرح جماعة من أهل السنة بانكار الموالد وحذروا منها .. وخالفهم فى ذلك بعض المتأخرين وقالوا : انها جائزة اذا لم تشتمل على منكر ، وظنوا أنها من البدع الحسنة .. حتى آل الأمر الى ما نراه اليوم .. فمع كون هـذه الاحتفالات بدعة ، فان أغلبها لا يخلو من المنكرات كاختلاط النساء بالرجال ، والأغانى والمعازف والمخدرات ..

كما أنه يقع فيها ما هو أعظم من ذلك : كمناشدة الرسول ﷺ والأولياء والاستغاثة بهم وطلبهم المدد ، واعتقاد أن الولى يعلم ما فى الغيب .. وغير ذلك من الشرك الأكبر ..

ولهذا يرى أهل السنة أن الاحتفال بالموالد ليس من الاسلام فى شىء ، وأنه لا ينبغى للعاقل أن يغتر بكثرة من يفعله من الناس المبتدعين فى سائر الأقطار .. لأن هـذه الموالد وما يحدث فيها من منكرات مخالفة صريحة لشرع الله ..

ولكن الصوفية يرون أن اقامة الموالد ليس الا احتفالات لاحياء ذكرى الصالحين .. وأن الأصل فيها اجتماع الناس لتذكر حياة أولئكم الصالحين ، ولأخذ العظات والعبر من حياتهم .. حيث تقرأ فيها قصصهم فيتأثر الناس بها ، ويأخذون الأسوة من سيرتهم .. ولهذا فهى — فى نظرهم — من الأعمال المشروعة التى يثاب الناس عليها !!

ولا ينكر الصوفية ما يحدث فى هـذه الموالد من البدع والخرافات التى لا تليق بالمسلمين .. ويرون أنه يجب تطهيرها مما علق بها من الخرافات والبدع التى شوهت الكثير من جمالها .. وأن يدعم ما يكون بها من صالح الأعمال كالعكوف على تلاوة القرآن الكريم ، والاجتماع على ذكر الله ، واطعام الطعام .. وتذكر وقراءة سير أصحابها حتى تصبح مواسماً للطاعة ..

* * *

● ويرى أهل السنة أن النذور قربة الى الله تعالى وعبادة له .. ولابد أن يكون الله تعالى هو المقصود بهذه النذور لا غيره .. وأن أى نذر أو قربة تتوجه لغير الله فهو شرك ، ومن نذر لغير الله فقد أشرك ..

ويرون أن النذر لو كان لله تعالى ، لأنفقه الناذر فى أى مكان دون الارتباط بصـــندوق النذور .. اذ لم يعرف فى تاريخ السلف الصالح أنهم اتخذوا الأضرحة ، أو صناديق النذور الى جوارها .. لأن هذه المظاهـــر ليست اسلامية بل ومما ينهى عنه الشرع ..

ثم كيف يوضع المـــال فى صندوق للنذور لا يعرف الناس مصارفه .. فى حين أن أمام الناذر وحوله العديد من الفقراء المحتاجين الى هذا المـــال فى القرى والأحياء من المدن ؟ !

هذا .. على فرض أن النادر ينوى النذر لله وهو يضع نذره فى صندوق الولى .. ولكن الأغلب ما يقوله الناس من أن هـــذا النذر للولى الفلانى .. وهـــذا مظهر من مظـــاهر الشرك ينبغى أن ينتهى عنه المســـلمون ..

كما يرى أهل السنة : أن رفع الدعاء لغير الله تعالى ، والاستغاثة بصاحب الضريح ، والنذر للأولياء ، والاستعانة بالمقبورين والحلف بهم ، واسباغ أوصاف الله تعـــالى عليهم — كقول القائل : « يا امام ياللى لا بتغفل ولا بتنام » (!!) — وغير ذلك من الأمور التى يفعلها العـــامة حول الأضرحة .. كل ذلك من البدع المنكرة التى لا يجوز السكوت عليها أو الاغضاء من شأنها ..

فالدعاء عبادة ، والنذر عبادة ، والاستغاثة لا تجوز بغير الله ، فهو تعالى وحده غياث المستغيثين ، والاستعانة لا يجوز أن تكون بغير الله ، فهو وحده المعين .. والحلف لا يجوز بغير الله ، فهو وحده المعبود ولا رب سواه ..

ولكن الصوفية يرون جواز كل هـــذه الأمور .. بحجة أن عقيدة الناس سليمة ، وأنهم لا يقصدون فى أفعالهم غير الله تعالى .. ولكنهم

عندما يذكرون أسماء الأولياء والصالحين عند قيامهم بهذه الأمور ، لا يفعلون ذلك الا من قبيل التبرك بذكرهم ، واتخاذهم وسائل وقربات الى الله تعالى !!

هذه هى أهم مواطن الخلاف بين أهل السنة : علماء الظاهر (أهـل الشريعة) ، وبين الصوفية : علماء الباطن (أهل الحقيقة) فى مسألة الأضرحة وما يدور حولها •• أوردناها بعد تلخيصها وذكرنا الحجج التى يحتج بها كلا الفريقين ، حتى لا نتهم بالتحيز ضد الصوفية •

* * *

● **فتوى صريحة فى مسألة الأضرحة :**

نشرت مجلة الاذاعة •• فى عددها الصادر فى يوم السبت السابع من سبتمبر عام ١٩٥٧ فتوى لفضيلة الشيخ حسن مأمون مفتى الديار المصرية فى « حكم الشرع فى زيارة أضرحة الأولياء والطواف بالمقصورة وتقبيلها والتوسل بالأولياء » ••

قال ــ جزاه الله عن الاسلام خيرا ــ :

« أود أن أذكر أولا أن أصل الدعوة الاسلامية يقوم على التوحيد •• والاسلام يحارب جاهدا كل ما يقرب الانسان من مزالق الشرك بالله ••

ولا شك أن التوسل بالأضرحة والموتى أحد هـذه المزالق •• وهى رواسب جاهلية ••

فلو نظرنا ما قاله المشركون عندما نعى عليهم الرسول ﷺ عبادتهم للأصنام قالوا له : « **ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى** »(١٠٥) •• فهى نفس الحجة التى يسوقها اليوم الداعون المتوسل بالأولياء لقضاء حاجة عند الله أو التقرب منه ••

ومن مظاهر هـذه الزيارات : أفعـال تتنافى كلية مع عبادات اسـلامية ثابتة ••

---

(١٠٥) الزمر : ٣

فالطواف فى الاسلام ، لم يشرع الا حول الكعبة الشريفة ..
وكل طواف حول أى مكان آخر حرام شرعا ..

والتقبيل فى الاسلام ، لم يسن الا للحجر الأسود .. قال فيه عمر — رضى الله عنه — وهو يقبله : « والله لولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما فعلت » ..

فتقبيل الأعتاب ، أو نحــاس الضريح ، أو أى مكــان به .. حرام قطعا ..

وتأتى بعد ذلك ، مسألة الشفاعة .. وهــذه فى الآخرة غيرها فى الدنيا ، فالشفاعة ارتبطت فى أذهاننا بما يحدث فى هذه الحياة من توسط انسان لآخر أخطأ عند رئيسه ومن بيده أمره ، يطلب اليه أن يغفر له هــذا الخطأ ، وان كان هــذا المخطىء لا يســتحق العفو والمغفــرة ..

غير أن الله سبحانه وتعالى ، قد حدد طريق الشفاعة فى الآخرة .. فهذه الشفاعة لن تكون الا لمن يرتضى الله لهم أن يشفعوا ، ولأشخاص يستحقون هــذه الشفاعة .. وهؤلاء أيضا يحددهم الله ..

اذن .. فكل هــذا متعلق باذن الله وحكمه ..

فاذا نحن سبقنا هذا الحكم بطلب الشفاعة من أى كان .. فان هذا عبث لأننا لا نستطيع أن نعرف من ســيأذن الله لهم بالشفاعة ومن يشفع لهم ..

وعلى ذلك .. يتضح أن كل زيارة للأضرحة ، والطواف حولها ، وتقبيل المقصورة والأعتاب ، والتوسل بالأولياء وطلب الشفاعة منهم .. كل هــذا حرام قطعا ، ومناف للشريعة ، وفيه اشراك بالله ..

وعلى العلمــاء : أن ينظموا حملة جادة لتبيان هــذه الحقائق ، فان الكثير من العــامة — بل ومن الخاصة — ممن لم تتح لهم المعرفة الاسلامية الصحيحة يقعون فريسة هــذه الرواسب الجاهلية التى تتنافى مع الاسلام .. واذا أخذ الناس بالرفق فى هــذا الأمر فلابد أنهم

سوف يستجيبون للدعوة ، لأن الجميع حريصون — ولا شك — على التعرف على حقائق دينهم » ا هـ .

* * *

هـذه فتوى صريحة لفضيلة الشيخ حسن مأمون مفتى الديار المصرية الأسبق .. والآية التى استشهد بها فضيلته نزلت فى افراد الله وحده بالعبادة والدعاء .. وهى واضحة جلية فى النهى عن اتخاذ الوسطاء والشفعاء من دون الله .. يقول تعـالى : **« ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون ، ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار »**(١٠٦) .

فالعبادة والطاعة لا تكون الا لله وحده .. خالصة له ولا شريك لأحد معه فيها .. أما الحجة التى يسوقها دائما الذين يتجهون بالعبادة والطاعة لغيره تعالى ، فهى قولهم : ما نعبد هؤلاء الأولياء الا ليقربونا الى الله منزلة ، ويشفعوا لنا عنده فى حاجتنا .. فالله — تعالى — سوف يفصل بين هؤلاء الناس — الذين يتخذون الأولياء من دونه — فيما يختلفون فيه ، بأن يصليهم جميعا نار جهنم .. الا من أخلص الدين له وحده ، فهو تعالى لا يرشد الى الحق من هو مفتر على الله ، يقول عليه الباطل ، كافر بنعمته ، جاحد لربوبيته . .

ثم يقول جل شأنه : **« ان تكفروا فان الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وان تشكروا يرضه لكم ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ، انه عليم بذات الصدور . واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا اليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من أصحاب النار . أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انما يتذكر أولوا الألباب »**(١٠٧) .

فهو تعالى يقول لعباده : ان تكفروا أيها الناس جميعا ، فان الله

---

(١٠٦) الزمر : ٣ (١٠٧) الزمر : ٧ — ٩

غنى عن ايمانكم وعبادتكم ، ولا يرضى لعباده أن يكفروا به .. وان تؤمنوا بربكم وتطيعوه يرضى شكركم له بذلك ، ولا تؤاخذ نفس بذنب غيرها ، ثم الى ربكم مصيركم بعد وفاتكم ؛ فيخبركم بما كنتم تعملون ، فيجازيكم على ذلك : المحسن منكم باحسانه ، والمسىء بما يستحقه .. فهو تعالى لا يخفى عليه شىء ؛ فاتقوه فى سر أموركم وعلانيتها ..

وشأن الانسان — دائما — أنه اذا مسه بلاء فى جسده أو ماله — فكان فى جهد وضيق — أن يستغيث بربه الذى خلقه ويرغب اليه فى كشف ما نزل به ، تائبا اليه مما كان عليه ، راجعا الى طاعته .. ثم اذا كشف عنه ضره ، فأبدله بالسقم صحة ، وبالشدة رخاء .. ترك دعاءه الذى كان فى حال الضر .. وجعل لله تعالى أمثالا وأشباها ، وأطاع الشيطان فى عبادة الأنداد والشفعاء .. ليزيل من أراد أن يوحد الله عن توحيده ، والدخول فى عبادته والايمان به وحده ..

ثم يقول تعالى متوعدا أولئكم الذين يتخذون من دون الله الأولياء والشفعاء : تمتعوا بكفركم بالله قليلا ، الى أن تستوفى آجالكم وتأتيكم منيتكم ، فانكم من أهل النار الماكثين فيها أبدا .. فمهما تمتعتم بهذه الدنيا الفانية ، وتلذذتم بنعيمها الزائل ، فمصيركم الى نار جهنم ..

ويعقد تعالى المقارنة بين المؤمنين الذين يقضون ليلهم ، متعبدين لربهم ، ساجدين وقائمين ، وبين الذين يشركون به تعالى ويتخذون لـه الأنداد والشفعاء .. فيقـول : هل الذى جعل لله أندادا وشفعاء ، كهذا القائم لله تعالى ، مطيعا له ساعات الليل ، ساجدا أحيانا وأحيانا قائما ، يحذر عذاب الله فى الآخرة ، ويرجو أن يرحمه تعالى فيدخله جنته ؟ ..

هل يستوى الذين يعلمون ما لهم فى طاعتهم من الثواب ، وما عليهم فى معصيتهم من العقاب مع الذين لا يعلمون ذلك ، فهم يخبطون فى عشـواء ؟ !

ما هذان بمتساويين ، وانما يعتبر بحجج الله ويتدبرها ، أهل العقول والحجى ، لا أهل الجهل ونقص العقول ..

* * *

الفصل التاسع

فى مسألة التوسل والوسيلة

التوسل ـــ لغة ـــ من وسل يسل ـــ من باب وعد ـــ أى : رغب وتقرب ، ومنه جاء اشتقاق « الوسيلة » .. وهى ما يتقرب به الى الشيء .. توسل اليه بوسيلة ، أى تقرب اليه بعمل ..

يقول ابن منظور : « الوسيلة : هى المنزلة عند الملك ، وهى الدرجة ، والقربة .. وسل فلان الى الله وسيلة : اذا عمل عملا تقرب به اليه ، والواسل : الراغب الى الله ..

قال لبيد :

أرى النـــاس لا يدرون ما قدر لهم

على كل ذى رأى الى الله واســل

وتوسل اليه بوسيلة : اذا تقرب اليه بعمل ، وتوسل اليه بكذا : تقرب اليه بحرمة آصرة فعطف عليه .. والوسيلة : الوصلى والقربى ، وجمعها : وسائل »[1] .

ويتفق المعنى الشرعى للوســـيلة مع المعنى اللغوى لهـــا .. يقول تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة** »[2] .

أى : أجيبوا الله بطاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، واطلبوا القربة اليه بالعمل الصالح الذى يرتضيه ..

وعن قتادة : « تقربوا اليه بطاعته » ..

وروى الحاكم بسنده ، عن حذيفة أنه سمع قارئا يقرأ هذه الآية فقال : القربة .. ثم قال : « لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد من أقربهم الى الله وسيلة » ..

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور ، مادة (و س ل) .

(٢) المائدة : ٣٥

ويقول جل شأنه : « **أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه** »(٢) .

أى : يطلبون الزلفة والقربة من الله ، ويرجون بطاعتهم وعبادتهم رحمته ، ويخافون من عذابه ..

وقد تكون الوسيلة : منزلة خاصة وعلامة مميزة لقرب خاص ، هو أعلى أنواع القرب .

فعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هـذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته .. حلت له شفاعتى يوم القيامة » .

ويبين الحديث الاخر الذى رواه مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو .. أن الوسيلة فى هذا الحديث هى قوله ﷺ : « منزلة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباده ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت الشفاعة » ..

والتوسل الى الله تعالى .. يكون باسم من أسمائه ، أو بصفة من صفاته .. وهـذا هو التوسل المطلوب ..

ويكون بعمل صالح قام به الداعى .. وهو جائز مشروع ومرغوب فيه .. بل منه الواجب الذى لا يتم الايمان الا به .

كما يجوز أن يكون بطلب الدعاء من رجل صالح يدعو له ، وهو نوع من الاستشفاع بأحد الأحياء فيما يطلبه العبد من ربه .. وهو جائز اتفاقاً ..

أما التوسل الى مقبور انقطع عمله وانتهى أمره ، أو الاقسام على الله تعالى بذاته أو بجاهه فهو الممنوع شرعا ، لأنه نوع من الشرك .. لأن التوسل هو التقرب الى الله تعالى بما يحب مطلقا ، أو التماسا لحاجة ما ، نتيجة حتمية للتقوى ، وثمرة طيبة للايمان ..

وسنتحدث عن الأنواع الثلاثة الأخيرة للتوسل ، فى حينه ..

* * *

---

(٢) الاسراء : ٥٧

● **الوجه الآخر للعملة :**

يعتقدالصوفيون بجواز التوسل والتشفع والاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، فى حياتهم وبعد مماتهم .. كما يعتقدون بجواز التبرك بآثارهم وقبورهم ، والتمسح بها وتقبيلها التماسا لبركة ساكنيها وتعظيما لهم !!

ويرون أن التوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد .. وليس لها فى قلوب المؤمنين معنى الا التبرك بذكر أحباب الله تعالى .. لما ثبت — عندهم — أن الله يرحم العباد بسببهم ، سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً !!

ويقولون : ان المؤثر الموجد وان كان فى الحقيقة هو الله تعالى .. فان هؤلاء — الموتى — سبب عادى فى ذلك لا تأثير لهم فى ذواتهم ، وذلك مثل السبب العادى ، فانه لا تأثير له !!

ولهذا : لا وجه — عندهم — لمنع التوسل مطلقاً !! (٤)

ويقول الأستاذ موسى محمد على : « وهو — أى التوسل — على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أن التوسل — أى بالنبى ﷺ — بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعالى به ، أو بجاهه ، أو ببركته .. ولا فرق فى هذا النوع بين أن يتوسل بذى القدر الرفيع قبل وجوده ، وبعد وجوده .. فى حياته الدنيا ، أو فى حياته الأخرى .. فيجوز ذلك فى الأمور الثلاثة(٥) ..

والنوع الثانى : التوسل به — صلى الله عليه وسلم — بمعنى طلب الدعاء منه فى حياته ، وبعد موته فى عرصات القيامة بالشفاعة منه ، وفى حياته المتوسطة فى مدة البرزخ(٦) .

---

(٤) انظر : حقيقة التوسل والوسيلة على ضوء الكتاب والسنة ، للأستاذ موسى محمد على — ط دار التراث العربى ، ص ١١١ ، ١١٢
(٥) المرجع السابق ص ٣٢ (٦) نفس المرجع ص ٤٢

أما النوع الثالث من أنواع التوسل : فأن يطلب منه ذلك الأمر المقصود ، • بمعنى أنه — صلى الله عليه وسلم — قادر على التسبب فيه بسؤاله ربه وشفاعته اليه ، فيعود الى النوع الثانى من المعنى وان كانت العبارة مختلفة »[٧] •

وينتهى — فضيلته — الى أن : « المراد من الاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، والتوسل بهم هو أنهم أسباب ووسائل لنيل المقصود •• وأن الله تعالى هو الفاعل كرامة لهم ، لا أنهم هم الفاعلون — كما هو المعتقد فى سائر الأفعال — فان السكين لا يقطع بنفسه ، بل القاطع هو الله تعالى ، والسكين سبب عادى خلق الله تعالى القطع عنده »[٨] •

وعلى هذا •• فالمدار عندهم فى صحة التوسل : « أنه لا يشترط كونه — أى المتوسل به — حيا فى دار الدنيا •• وأن القول بأن التوسل لا يصلح بأحد الا وقت حياته فى دار الدنيا قول من اتبع هواه بغير هدى من الله تعالى •• فالتوسل بسيدنا رسول الله ﷺ والتوسل بسائر الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — والتوسل بالصالحين من عباد الله سبحانه ، والاستغاثة بهم جميعا — على النحو الذى عليه الأمة — من اعتقاد أنهم عباد مكرمون ، مقبولو الشفاعة عند الله تعالى بفضله ، هو مما أجمعت عليه الأمة (؟) ودل عليه الكتاب (!؟) ونطقت به صحاح السنة وأقوال العلماء(!؟)ولم يتوقف فى جوازه ولا فى استحبابه ولا فى سنيته أحد من أهل العلم والفضل من عهد الصحابة رضى الله عنهم » (!؟) [٩] •

* * *

● الحصاد المرذول :

تعالوا بنا الى مسجد من المساجد التى بنيت فوق الأضرحة فى

---

(٧) المرجع السابق ص ٤٧ (٨) نفس المرجع ص ٤٩

(٩) المرجع السابق ص ٣١ — وعلامات الاستفهام والتعجب وضعناها بمعرفتنا ، لأن فضيلة المؤلف يخرج المنكرين للتوسل بالمقبورين من عداد الأمة ، وينكر عليهم استدلالهم فى انكارهم له بالكتاب والسنة .. وكأنما أهل الفضل والعلم هم الصوفيون وحدهم !!

القاهرة أو فى أى مدينة أو قرية ، لكى نرى ما يفعله الناس عند زيارتهم لهذه الأضرحة .. ولنعرف الثمرة التى أنضجتها دعوى الصوفية بجواز الاستغاثة بساكنى القبور والأضرحة ..

أول ما يصدمك تسمية المسجد .. فهو مسجد الولى الفلانى بعد أن جردوه من صفته كبيت من بيوت الله .. وبدلا من أن تكون المساجد لله فلا ندعو مع الله أحدا .. أصبحت أماكن للدعاء لكل واحد سوى الله !!

وسوف نرى فى هذه المساجد البدعية ما يذهب بأحلام ذوى الأحلام والعقول !!

هذه طائفة من الناس .. تطوف بالضريح مستلمة لأركانه ، ملتمسة البركة من ساكنه !!

وطائفة أخرى تقبل الأعتاب ، وتتمسح بالضريح !!

وهذا واحد يتجه الى صاحب الضريح بالسؤال والتضرع ، متذللا متخشعا !!

وهذه أخرى تستعين بصاحب الضريح علي ضرتها أو جارتها التى ظلمتها !!

وثالث يطلب من ساكن الضريح الشفاعة له ، ورابع يطلب النجاح وخامس يطلب الشفاء من العلل والأسقام ، وسادس يطلب الزواج والربح لتجارته ... و .... و .. !!!

بل ان الأمر قد يصل بالبعض من الناس الى كتابة العرائض التى يخطون فيها شكاواهم وحاجاتهم ، ثم يسقطونها فى المقصورة المحيطة بالضريح !!

والبعض الآخر .. يرسل شكواه وحاجته بالبريد ، ويحرص الحرص كله على لصق طابع التمغة بأعلاها ، ثم يوجه العنوان الى شخص ساكن الضريح مقرونا بألقاب التعظيم والتفخيم اللازمة !!

والأدهى من ذلك .. أن يعنون البعض رسائلهم — أى يكتبون العناوين — الى الله تعالى أو رسوله ﷺ عن طريق ساكن الضريح !!

ونتمالك بعض الأنفاس وتجيل النظر في المتوسلين والضارعين والخاشعين ، فترى أحدهم يدير ظهره للضريح ويستقبل القبلة رافعا يديه بالدعاء .. فتتوسم فيه الخير فما زال في بعض الناس بقية من سلامة العقيدة .. وتدنو منه لتصغى لما يقول حتى يستقر في نفسك الاطمئنان واذا به يصك سمعك بما يصدمك .. اذ يقول : « اللهم بحق ساكن الضريح أن تفعل كذا وكذا » !!

وتسأل الناس : ما هذا الذي تصنعون ؟ !

وسرعان ما يأتيك الجواب : اننا نضرع الى الله ، ونتوسل اليه بهؤلاء الصالحين .. عسى أن يتقبل منا الدعاء !!

وينبرى لك أحدهم قائلا : ألم تسمع قول الله تعالى : « **وابتغوا اليه الوسيلة** » ؟ !

فاذا قلت : ليس هكذا يكون التوسل ، وليست هذه هي الوسيلة التي يطلبها الله من عباده ..

فيأتيك الجواب : كيف تريد منا الوقوف أمام الله تعالى وتوجيه الدعاء له مباشرة ، ونحن ننوء بأثقالنا .. اننا مهما فعلنا من حسنات فان ذنوبنا ومعاصينا أكثر .. اننا نقصر في أداء حق الله تعالى بارتكاب المعاصي ، ولهذا نستشفع اليه بهؤلاء الصالحين الأطهار ، عسى أن يتقبل منا الدعاء !!

تماما كما قال أسلافهم من قبل حين طافوا بالكعبة عرايا : « لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها » !!

وتقول : أأنتم أشد عصيانا لله تعالى من ابليس ؟ ! لقد عصى ابليس ربه وتمرد على أمره .. فلما أحس بخطورة موقفه اتجه الى الله تعالى مباشرة بالدعاء فقال : « **رب فأنظرني الى يوم يبعثون** »(١٠) ، ولم يقل بجاه جبريل أو بحق ميكائيل .. ولهذا استجاب الله لدعائه فقال : « **فانك من المنظرين** »(١١) .

---

(١٠) الحجر : ٣٦ ، وسورة ص : ٧٩

(١١) الحجر : ٣٧ ؛ وسورة ص : ٨٠.

اذا قلت هذا! •• فان الجواب سوف يأتيك سريعا : أفصح عن نفسك ، فأنت عدو لأولياء الله مبغض لأهله الصالحين !!

ويهم الجمع بالفتك بك •• ولا ينقذك من بين أيديهم الا تدخل رجل وقور بقوله : ياأخى ، دع الناس وعقيدتهم فهى بحمد الله سليمة •• انهم لا يسألون الا الله تعالى ، وان اتخذوا هذا السبيل آدبا مع الله واستصغارا لأنفسهم •• ألم تسمع الدعاء : « اللهم ارزقنا ايمانا كايمان العوام » •• دعوا الناس وشأنهم !!

فتفهم على الفور أن الرجل واحد من سدنة الأضرحة يدافع عن منصبه •• ولا تجد أمامك من حيلة الا أن تغادر المسجد آسفا حزينا ، حتى تنجو بنفسك ، ولسانك يقول : لا حول ولا قوة الا بالله ••

* * *

● وحوار آخر صريح :

ترى الواحد منهم •• عاكفا على الضريح ، لائذا به ، متوجها الى ساكنه بالدعاء والتذلل والخشوع •• فتريد ارشاده الى ما يصحح عقيدته فتقول : خفف ياأخى من غلوائك •• فأن ما تفعله هو الشرك الذى يأباه الله تعالى ، ألم يقل جل شـأنه : « **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا** »(١٢) ؟

ألم يقل جل وعلا : « **له دعوة الحـق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء** »(١٣) ؟

فيلتفت اليك غاضبا •• ويصيح فى وجهك قائلا : فأين أنت من قوله تعالى : « **ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** »(١٤) ؟ !

أليس فى هذه الآية الدليل كل الدليل ، على أن الشفاعة حق ، وأن لأولئك الأولياء والصالحين جاها عند الله تعالى ؟

---

(١٢) الجن : ١٨
(١٣) الرعد : ١٤
(١٤) يونس : ٦٢

ثم يقول : نحن لا نشرك بالله ، بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر الا الله وحده لا شريك له •• وأن محمدا ﷺ لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا — فضلا عن أولئك الأولياء والصالحين — ولكن أنا مذنب ، والصالحون لهم جاه عند الله ، وأنا أطلب من الله بهم ، ولا أطلب منهم !!

فنقول له : لقد كان المشركون — أيضا — يشهدون أن الله تعالى هو الخالق الرازق وحـــده لا شريك له •• وأنه لا يرزق الا هو ، ولا يحيي ولا يميت الا هو ، ولا يدبر الأمر الا هو •• وأن جميـــع السموات السبع ومن فيهن ، والأرضين ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره ••

واقرأ ان شئت قوله تعالى : « **قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون** »[١٥] •

وقوله جل شأنه : « **قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون • قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم • سيقولون لله ، قل أفلا تتقون • قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون • سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون** »[١٦] •

لقد أقر المشركون بهذا كله ، ولكن اقرارهم لم يدخلهم فى التوحيد الذى دعا اليه الرسول ﷺ ، لأنهم جحدوا توحيد العبادة الذى تسمونه اليوم « الاعتقاد » •

لقد كان المشركون يتعبدون ، ويحجون ، ويتصدقون ، ويذكرون الله كثيرا •• ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وســـائط بينهم وبين الله تعـــالى — مثل الملائكة وعيسى ومريم وغيرهم من الصالحين —

---

(١٥) يونس : ٣١ — (١٦) المؤمنون : ٨٤ — ٨٩

ويقولون : نريد منهم التقرب الى الله ونريد شفاعتهم عنده .. فبعث الله اليهم محمدا ﷺ ؛ ليجدد لهم دين أبيهم ابراهيم عليه السلام ، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق لله ، لا يصلح منه شيء ، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلا عن غيرهما ..

ولقد قاتلهم الرسول ﷺ على هذا الشرك ، ودعاهم الى اخلاص العبادة لله وحده ؛ وليكون الدعاء كله لله ، والذبح كله لله ، والنذر كله لله ، والاستعانة كلها بالله .. وجميع أنواع العبادة كلها له تعالى ..

فاقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الاسلام .. وقصدهم الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب الى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم وأموالهم ..

فيقول لك : هؤلاء الآيات — التي ذكرت — نزلت فيمن يعبد الأصنام .. فكيف تجعل الصالحين مثل الأصنام .. أم كيف تجعل الأنبياء أصناما ؟ !

وتقول : لقد كان من الكفار من يدعو الأصنام .. ومنهم من كان يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم : « **أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه** »[17] .

ويدعون عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام .. وقد قال تعالى : « **ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون . قل أتعبـدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم** »[18] .

ويقول تعالى : « **ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانـوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون** »[19] .

(١٧) الاسراء : ٥٧
(١٨) المـائدة : ٧٥ ، ٧٦
(١٩) سبأ : ٤٠ ، ٤١

ويقول جل شـــأنه : « **وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب** »(٢٠) .

أعرفت بعد هذا .. أن الله تعالى قد كفر من قصد الأصنام ، وكفر أيضا من قصد الصالحين .. كما قاتلهم رسول الله ﷺ ؟ .

فيقول لك : الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله تعالى هو النافع الضار المدبر ، لا أريد الا منه ، وأعرف أن الصالحين ليس لهم من الأمر شىء ، ولكنى أقصدهم وأرجو من الله شفاعتهم ..

وتقول له : ان هذا هو نفس قول الكفار .. اقرأ قوله تعالى : « **والذين اتخـــذوا من دونه أولياء ما نعبـــدهم الا ليقربونا الى الله زلفى** »(٢١) .

وقوله جل شأنه : « **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** »(٢٢) ..

فما الفرق بين ما تقوله الآن ، وبين ما قالوه ونعاه عليهم القرآن ؟ !

فيقول لك : أنا لا أعبد الا الله ، وهذا الالتجاء اليهم ودعاؤهم ليس بعبادة ..

ثم يدور بينكما الحوار التالى .. تقول له : أتقر بأن الله افترض عليك اخلاص العبادة له ؟ فيجيب بالايجاب ..

وتقول : لقد قال تعالى : « **ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، انه لا يحب المعتدين** »(٢٣) .. فهل علمت هـــذا عبادة لله ؟ .. فيقول : نعم !! ، والدعاء مخ العبادة ..

وتقول : اذا أقررت أنه عبادة ، ثم دعوت الله ليلا ونهارا ، خوفا وطمعا .. ثم دعوت فى تلك الحاجة نبيا أو غيره ، هل أشركت فى عبادة الله غيره ؟ .. فلا يسعه ألا اقرارك على ما تقول ..

---

(٢٠) المـــائدة : ١١٦ — (٢١) الزمر : ٣

(٢٢) يونس : ١٨ — (٢٣) الأعراف : ٥٥

وتقول : فاذا عملت بقول الله تعالى : « **فصل لربك وانحر** »[٢٤] ، وأطعت الله ونحرت له .. هل هذا عبادة ؟ .. فيقرك على ما تذهب اليه..

وتقول : فان نحرت لمخلوق ، أو نبى أو ولى ، أو غيرهما .. هل أشركت فى هذه العباده غير الله ؟ .. فيجيب بالايجاب ..

وتقول : المشركون الذين نزل فيهم القرآن ، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك ؟ .. فلا يسعه الا أن يوافقك على ذلك ..

وتريد أن تنهى الحوار معه بقولك : وهل كانت عبادتهم ايـاهم الا فى الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك ؟ .. والا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره تعالى .. وأن الله وحـده هو الذى يدبر الأمر ، ولكنهم دعوهم والتجأوا اليهم للجاه والشفاعة ..

ولكنه يستأنف الحوار قائلا : أتنكر شفاعة رسـول الله ﷺ وتبرأ منها ؟ !

فتجيبه : لا أنكرها ولا أتبرأ منها .. بل هو ﷺ الشافع المشفع ، وأرجو شفاعته .. ولكن الشفاعة كلها لله تعالى كما قال جل شـأنه : « **قل لله الشفاعة جميعا** »[٢٥] .. ولا تكون الا من بعد اذن الله كما قال تعالى : « **من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه** »[٢٦] .. ولا يشفع فى أحد الا بعـد أن يأذن الله فيه كما قال تعالى : « **ولا يشـفعون الا لمن ارتضى** »[٢٧] .. وهو سـبحانه لا يرضى الا التوحيد كمـا قال تعالى : « **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه** »[٢٨] ..

فاذا كانت الشفاعة كلها لله تعالى ، ولا تكون الا من بعد اذنه ، ولا يشفع النبى ﷺ ولا غيره فى أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن الله تعـالى الا لأهل التوحيـد .. تبين لك أن الشـفاعة كلها لله .. وأنا أطلبها منه فأقول : اللهم لا تحرمنى شفاعته ، اللهم شفعه فى ، وأمثال ذلك ..

---

(٢٤) الكوثر : ٢
(٢٥) الزمر : ٤٤
(٢٦) البقرة : ٢٥٥
(٢٧) الأنبياء : ٢٨
(٢٨) آل عمران : ٨٥

فيقول : النبى ﷺ أعطى الشفاعة ، وأنا أطلبها منه مما أعطاه الله..

وتقول : ان الله أعطاه الشـفاعة ونهاك عن هـذا .. فقال : « فلا تدعوا مع الله أحدا »[٢٩] .. فاذا كنت تدعو الله أن يشفع نبيه فيك فأطعه فى قوله : « فلا تدعوا مع الله أحدا » ، وأيضا فان الشفاعة أعطيها غير النبى ﷺ ، فصح أن الملائكة يشفعون ، والأفراد يشفعون ، والأولياء يشفعون .. أتقول : ان الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم ؟ .. فان قلت هذا ، رجعت الى التعبد للصالحين التى ذكرها الله فى كتابه ، وان قلت لا ، بطل قولك : أعطاه الله الشـفاعة وأنا أطلبها منه مما أعطاه الله ..

فيقول لك : أنا لا أشرك بالله شيئا ، حاشا وكلا .. ولكن الالتجاء الى الصالحين ليس بشرك !!

وتقول : اذا كنت تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا ، وتقر أن الله لا يغفره .. فما هذا الأمر الذى حرمه الله وذكر أنه لا يغفره ؟ .

فيقول : الشرك عبادة الأصنام ، ونحن لا نعبد الأصنام !!

وتقول : ما معنى عبادة الأصنام ؟ .. أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار ترزق وتدبر أمر من دعاها ؟ .. فهذا يكذبه القرآن ..

فيقول : لعله أن يكون من قصد خشبة أو حجرا أو بنية على قبر أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له ، ويقولون انه يقربنا الى الله زلفى ، ويدفع الله عنا ببركته أو يعطينا ببركته !!

فتقول : صدقت .. وهذا هو فعلكم عند الأحجار والأبنية التى على القبور وغيرها .. فان كان مرادك من قولك « ان الشرك عبـادة الأصنام » أن الشرك مخصوص بهذا ، وأن الاعتماد على الصالحـين ودعاءهم لا يدخل فى ذلك ، فهذا يرد ما ذكره الله فى كتابه من كفر من تعلق على الملائكة أو عيسى عليه السلام أو الصالحين ..

---

(٢٩) الجن : ١٨

فيعود الى قوله : ألم يقل الله تعالى : « **الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » ؟ ..

فنقول له : هذا هو الحق ، ولكن لا يعبدون ، ونحن لم نذكر الا عبادتهم مع الله وشركهم معه .. والا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والاقرار بكرامتهم .. ولا يجحد كرامات الأولياء الا أهل البدع والضلال .. ودين الله وسط بين طرفين ، وهدى بين ضلالتين ، وحق بين باطلين ..

واعلم يا أخى : أن التوحيد الذى يأمرنا الله به ، هو افراده وحده بالعبادة .. وأن لا تكون العبادة والطاعة الا لله وحده ، خالصة له ، ولا شريك لأحد معه فيها .. ولابد أن يكون هذا التوحيد بالقلب واللسان والعمل .. فان اختل شىء من هذا لم يكن الرجل مسلما ، فان من عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند ، كفرعون وابليس وأمثالهما ، أعاذنا الله من ذلك ..

ولقد وعدنا تعالى .. أنه سيفصل يوم القيامة بين أولئكم الذين اتخذوا الأولياء من دونه ، وبين الذين أفردوه وحده بالعبادة والطاعة .. وسيحكم تعالى فيما كانوا فيه يختلفون فيجزى كل بعمله وعقيدته .. نسأل الله أن يهدينا واياك الى سواء السبيل[٣٠] ..

* * *

ويصف لنا فضيلة الشيخ محمد الغزالى هذه الحالة المفزعة التى تردى المسلمون اليها فيقول : « ومما وقع فيه العوام : الاتجاه الى قبور بعض الصالحين ، يطلبون من أصحابها ما لا يطلب الا من الله عز وجل ..

« لعل سر هذا الشرود .. أن الناس يرون فى أنفسهم ضعة تقصر بهم عن مناجاة الله مباشرة .. فهم يذهبون بحاجاتهم الى قوم أزكى حالا ليرفعوا عنهم ما لا يمكنهم رفعه بأفئدتهم وألسنتهم !!

---

(٣٠) عن كتاب « كشف الشبهات فى التوحيد » ، للامام محمد بن عبد الوهاب ، بتصرف كثير ..

« وهـذه العلة .. هى سر الانصراف عن الله الحق الى عبيده الذين يسـمعون ، والذين لا يسـمعون .. بل الذين يعقلون والذين لا يعقلون !!

« وكم من علة ظاهرها زيادة توقير الله بانتهاك حرمات الله !! ألا ترى أن المشركين كانوا يطوفون بالكعبة عرايا ، نسـاء ورجالا ، محتجين بأنه لا ينبغى أن يطوفوا فى ثياب عصوا الله فيها !!

« فالتحرج من الاتصال بالله دون وساطة .. كان جريمة الوثنية القديمة التى صـور القرآن الكـريم اعتذارها عن شركها بقـوله : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »(٣١) .

« وهذا الاعتذار نفسه .. هو ما يردده سدنة الجاهلية الحديثة فى دفاعهم عن قصاد القبور طلبا للشفاء والفلاح ، والتماسا للنجدة والعون!!

« وبدهى أن لا مكان فى الاسلام لوسطاء بين الله وخلقه .. فان كل مسلم مكلف أن يقف بين يدى الله مهما كانت حالته ، وهو موقن بأن دعاءه ينتهى الى سمع الرحمن من غير تدخل بشر آخر أياً كان شـأنه ..

« والعبادة الأولى فى الاسلام — وهى الصلاة المقسمة على أجزاء النهار والليل — قوامها هذه الحقيقة المؤكدة التى لا ريب فيها ..

« فكيف يوجب الله على عباده أن يترددوا على ساحته ، ويسألوه — حتما — الهداية الى الصراط المستقيم ، ويسجدوا بين يديه ضارعين طالبين .. وكيف يعتبر التخلف عن هذه الصلوات كفراً به أو اهداراً لحقه ، ثم يسوغ لأحد من الناس بعد أن يقول : أنا محتاج لوسيط يحمل عنى الى الله ما أريد ؟ !

« أن هذا لا تفسير له الا الرغبة فى الشرك الخفى أو الجلى !!

« وتسأل طالب الوساطة : من تختار يكلم لك الله ؟ .. فلو أنه

---

(٣١) الزمر : ٣

اختار من الأحياء رجلا يتوسم فيه الصلاح ليدعو الله له ، لهان الخطب .. بيد أن العجيب قصده الى الأموات الذين انقطعت بالدنيا صلاتهم ، وأفضوا الى ما قدموا من عمل !! ولا شعور لهم بهذا القاصد المجهول الذى جاء .. لم ؟ .. ليطلب منهم أو يستشفع بهم » !!

ثم يقول فضيلته : « ان التفكير الاسلامى .. سقط فى هــذه الوهدة الشائنة من أمد بعيد ، فدارت حول الولاية والأولياء خرافات شتى ، وجاءت على الناس أيام ظنوا فيها أن مقاليد الكون أصبحت بأيدى نفر من هؤلاء الهلكى : يصرفونها — بدلالهم على اللــه — كما يشاءون !!

« وزاد الطين بلة .. أن أولئك الأولياء المقصودين تجاوزت أقدارهم قوانين الأسباب والمسببات المعروفة .. فاضطربت — تبعا لذلك — نظرة المسلمين الى سنن الله الكونية ، وحسبوها تلين لكل من واظب على شىء من العبادة !!

« وانتهى أمر هذه الأمة المنكودة .. الى أن فقدت مكانتها العالية فى دنيا تعتمد على المعرفة الحقة بأسرار الطبيعة وقوانين الحياة .. بعد أن فقدت أيضا منزلتها عند الله مذ أشركت معه من لا يملك لنفسه أو لغيره ضرا ولا نفعا !!

« أفحسب الذين كفــروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ، انا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا »[٣٢] .

ثم يقــول فضيلته : « لمــاذا يكون من الدين الاعتراف بحــق « أناس ما » فى التوسط بين الله وخلقه ؟ !

« ولمــاذا يكون من الدين الاعتراف بقدرة هؤلاء على اختراق نواميس الطبيعة وصنع الخوارق الباهرة ؟ !

« ولمــاذا يعد من شعب الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، أن نقر بحقوق هذه الولايات وطاقتها الواسعة فى تصريف الشــئون وبعث الشجون ؟ !

---

(٣٢) الكهف : ١٠٢.

« الحق أن هذا كله تخليط سمج .. وأن اللجاجة فيه نزعة جاهلية .. ولن تعدم دعيا فى الاسلام يخاصم عن هذه الأوهام ، ويحاول تعكير التوحيد الخالص — وهو روح الاسلام ومادته — بلغط لا عقل فيه ولا اخلاص ، زاعما أن اتخاذ الوسطاء لا ينافى تعاليم الدين ..

« ولا غرابة .. فان النصـارى يرون التثليث توحيـدا !! ..

« وكان الانسان أكثر شىء جدلا »[٣٣] ..

* * *

تحدث هـذه الأمور وغيرها .. فيراها المسلم وغير المسلم .. ويسجلها المستشرقون ليرموا بها المسلمين جميعا ، ويحملوا الاسـلام أوزارها .. فلا فرق عندهم بين صوفى وغير صوفى ، فالكل عندهم مسلمون .. والهدف الذى يهدفون اليه هو تشـويه الاسلام والكيد للمسلمين .. لذا نراهم يرمون المسلمين جميعا بالحماقة والغباء وعبادة الأسـاطير !!

ولقد أساءت هذه الأفكار الدخيلة على الاسـلام اليه بأكثر مما أساء أعداؤه !!

يقول المستشرق الانجليزى « لين » : « يزور المصريون الأضرحة معتقدين أنهم سينزلون عليهم البركات ، واما بقصد التماس البرء من مرض ، أو طلب النسل .. ويعتبر المسلمون أولياءهم المتوفين شفعاء لهم عند الله ، ويقدمون لهم النذور » !!

ويقول : « وقد جرت العادة .. أن يقوم المسلمون كما كان يفعل اليهود بتجديد بناء قبور أوليائهم وتبييضها وزخرفتها ، وتغطية التركيبة أو التابوت أحيانا بغطاء جديد .. وأكثر هؤلاء يفعلون ذلك رياء كما كان يفعله اليهود » !! [٣٤]

ويقول جولدزيهر : « بقى كثير من عناصر الديانات السـابقة

---

(٣٣) ليس من السلام ، مرجع سابق ، ص ١٦٤ — ١٦٦ ، والآية من سورة الكهف : ٥٤

(٣٤) المصريون المحدثون ، للمستشرق لين ، ص ١٦٧ وما بعدها ..

للاسلام ، واستأنفت حياتها فى المظاهر العديدة الخاصـة بتقـديس الأولياء .. وفى الحق ليس من شىء أشد خروجا على السنة القديمة من هذا التقديس المبتدع المفسد لجوهر الاسلام والماسخ لحقيقته ، وان السنى الصادق الحريص على اتباع السنة لابد أن يعده من قبيل الشرك الذى يستثير كراهيته واشمئزازه » !!

وعندما يتحدث عن تقديس العامة للأولياء ، نراه يقول : « وأضرحة الأولياء والأماكن المقدسة الأخرى .. هى موضع عبادتهم التى يرتبط بها أحيانا ما يظهره العامة من تقديس وثنى غليظ لبعض الآثار والمخلفات ، بل ان العامة تخص الأضرحة ذاتها بما لا يقل عن العبادة المحضة » !!

ويتحدث عن الولى المحلى ، فيقول : « ويخشى الواحد منهم أن يحنث فى يمين حلف فيه باسم الولى أكثر مما يحمر خجلا عندما يحلف بالله باطلا » !! (٣٥) .

ويقول رونلدسن : « بالرغم من التوحيد المصرح به فى القرآن .. فان الأمم الاســلامية لا زالت تحتفظ بكثير من العادات الوثنية .. فان من أهم الصفات فى الحياة الدينية للعوام فى جميع الأمم الاسلامية هو تقديسهم لقبور الصالحين .. وفى هاتين القضيتينساير العلماء المحدثون اندفاع الرأى العام ، وقد أصبح لكل قوم أئمة محليون يزورون قبــورهم وآثارهم ، فيفرح ذلك الامام ويشــفع لهم وينجيهم من الفقر والمرض » !! (٣٦)

ويقول جوتييه : « وتقديس الأولياء الى درجة قد تقرب من العبادة الذى نراه انتشر بعد فى جميع الأقطار الاسلامية ، يشير فى الحقيقة الى رد فعل من الأمم والشعوب التى فتحها الاسلام ضد العقلية الاسلامية التى لا تسلم بوسطاء أو شفعاء لدى الله ، انه لم يترصد اجلال الأولياء والرسول الى ما يقرب من العبادة — أى ضد هذا التغيير الخطير فى العقلية الاسلامية الأولى — الا الطائفة الوهابية » !! (٣٧)

---

(٣٥) العقيدة والشريعة ، لجولدزيهر ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٤ .

(٣٦) عقيدة الشيعة ، لرونلدسن ، ص ٢٦٦

(٣٧) المدخل ، لجوتييه ، ص ١٥٨

أرأيت كيف أساءت هذه الأفكار الدخيلة على الاسلام اليه بأكثر مما يسىء اليه أعداؤه ؟ !

فما الذى قاد الناس الى هذه الأفكار المنكرة ؟ ؟

ان الله تعالى يقول : **« وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا »**(٣٨) .

ويحذرنا الرسول ﷺ من اقامة المساجد فوق القبور ، وينهى عن ذلك ويلعن فاعله ..

ولكن الناس أعرضوا عن أمر ربهم ، وعصوا سنة نبيهم .. فأصبح هذا حالهم !!

ولو سلمنا — جدلا — للصوفية أن اقامة هذه المساجد فوق القبور ليس مظهرا من مظاهر الشرك — بالرغم من تحذير الرسول ﷺ ونهيه عنه ولعن فاعله — فهل نستطيع التسليم بأن هذا الأمر ليس من الأبواب التى تؤدى الى الشرك .. والعياذ بالله ؟ !

* * *

لم تكن عقيدة « الوسيلة » — بمفهومها لدى الصوفية — احدى العقائد التى قام عليها الاسلام ، فكيف أدخلت هذه العقيدة على الفكر الاسلامى ؟ !

يحدثنا المرحوم الدكتور محمد البهى عن أصل هذه العقيدة وادخالها على الفكر الاسلامى فيقول :

« نشأت عقيدة « الوسيلة » فى الفكر الاسلامى من اعتقاد الشيعة بعصمة الامام ، والقول بالتقية والوسيلة ..

« والوسيلة — عند الشيعة — هى اتخاذ الامام واسطة عن طريق تلقى تعاليمه واتباع رأيه فى الوصول الى الآخرة .. وهى القربى من الله سبحانه تعالى ..

« وقد جاءت الوسيلة — على هذا النحو — الى الجماعة الاسلامية عن طريق مدرسة الأفلاطونية الحديثة .. فقد حددت هذه المدرسة

---

(٣٨) الجن : ١٨

العالم الرفيع فى الوجود الرفيع فى القيمة — من أجل كونه أصلا لما عداه ، ومشرفا ومدبرا لغيره وراعيا لتوجيهه — بثلاثة من الموجودات هى : الأول ، والعقل ، والنفس الكلية ..

« ولم تقتصر هذه العقيدة على غلاة الشيعة .. لأنا نراها توجد عند الصوفية المتأخرة .. ويلعب الدور الأول فيهـا : « المريد » — أو « صاحب الفراسة » — كما توجد عند عوام الفرق الأخرى تقليدا والفاً وعادة .. ويمثل هذا الدور فى نظرهم « الأولياء » — وهم أصحاب الكرامات ..

« والاســلام — فى تحديده للأولياء — لم يعرف ذلك التحديد العرفى .. فالولى لم يزل فى القرآن الكريم هو المتبع لكتاب الله ورسالاته ..

« وأولياء الله — الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون — هم أصحاب الايمان القوى .. بحيث لا يزعجهم فى حياتهم نقص فى الأموال والأنفس والثمرات .. ولا تزعجهم هزيمة ولا طغيان صاحب سلطان ..

« لهذا يحارب الفكر الاسلامى السليم الصوفية المتأخرة لقولها بالاتحاد والحلول .. وبرفع التكاليف بناء على فهمها الخاص فى القرآن من أن له ظاهرا وباطنا ، كمـا يحارب وجوب شد الرحال الى قبور الصالحين أو الأولياء واتخاذهم وسائط بين الله تعالى وعباده »[٣٩] .

* * *

● **ما هو التوسل ، وما هى الوسيلة ؟**

لقد غاب المعنى الشرعى واللغوى للتوسل — وهو التقرب الى الله تعالى بالعمل الصالح — عن أولئكم الذين اتخذوا الأولياء والصالحين وسطاء وشفعاء .. يتجهون بهم الى الله تعالى ، وفى ظنهم أنهم بفعلهم هذا يمتثلون لتوجيه القرآن الكريم فى قوله تعـالى : « **وابتغوا اليه**

---

(٣٩) الفكر الاسلامى فى تطوره ، للدكتور محمد البهى ، نشر مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى : ص ٧٧ ، ٧٨ بتصرف يسير ..

الوسيلة » •• وظنوا أن الوسيلة المطلوبة هى فى التوجه الى المقبورين بالدعاء والاستغاثة وطلب العون والنصرة !!

وسبق أن قلنا : ان التوسل الى الله تعالى يكون بعمل صالح قام به الداعى ، وهو نوع من التقرب اليه تعالى •• وهو أمر جائز ومشروع ومرغوب فيه •• بل منه الواجب الذى لا يتم الايمان الا به ••

يقول الله تعالى فى وصف أولى الألباب : **« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار • ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار • ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار »**[(٤٠)] •

أى هم الذين يذكرون الله قياما فى صلاتهم •• وقعودا فى مجالسهم •• ومضطجعين على جنوبهم •• فلا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم • بألسنتهم ، وسرائرهم ، وضمائرهم •• فى الصلاة ، وفى غير الصلاة ، وفى قراءة القرآن ••

هم الذين يتفكرون فى الأمور الدالة على عظمة الخالق ، ويعتبرون بصنعة صانع ذلك الخلق ، وأنه ليس كمثله شىء •• قائلين : انك يارب لم تخلق هذا الخلق عبثاً ولا لعباً ، وانما خلقته لأمر عظيم •• ننزهك يارب عن أن تفعل شيئاً عبثاً •• فقنا ياربنا من عذاب الجحيم ، فان من أدخلته النار من عبادك فقد أهنته غاية الاهانة ، وليس للظالمين من ناصر ينصرهم أو ينقذهم من عذاب الله ••

ويقولون : ربنا اننا سمعنا داعياً يدعو الى الايمان — وهو الرسول ﷺ أو القرآن — فصدقنا بذلك ياربنا ، فاستر عنا خطايانا ، ولا تفضحنا بها يوم القيامة ، وامح بفضلك ورحمتك سيئات أعمالنا ، واقبضنا اليك ، واحشرنا فى زمرة الأبرار الذين رضيت عنهم ••

---

(٤٠) آل عمران : ١٩١ — ١٩٣

ويقول جل شأنه في وصف المؤمنين « **انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين** »[٤١]

أى أن أهل الايمان يقولون فى الدنيا : ربنا آمنا بك وبرسولك ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وارحمنا ولا تعذبنا بعذابك ..

والمقصود .. أن هؤلاء وهؤلاء .. قد قدموا التوسل بالعمل الصالح — وهو الايمان — على طلب المغفرة والرحمة .. رجاء الاجابة ..

وفى الحديث الشريف الذى يرويه عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — ما يدل على هذا المعنى .. حيث يقول : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت الى غار[٤٢] فدخلوه .. فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : انه لا ينجيكم من هذه الصخرة الا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم ..

« قال رجل منهم . اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران .. وكنت لا أغبق[٤٣] قبلهما أهلا ولا مالا .. فنآى بى طلب الشجر[٤٤] يوما فلم أرح عليهما حتى ناما .. فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين ، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا .. فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون[٤٥] عند قدمى .. فاستيقظا فشربا غبوقهما .. اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة .. فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه ..

« وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس الى — وفى رواية : « كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء » — فأردتها على نفسها فامتنعت منى ، حتى ألمت بها سنة من السنين[٤٦] فجاءتنى

---

(٤١) المؤمنون : ١٠٩ (٤٢) اى : لجئوا الى كهف فى الجبل .
(٤٣) الغبوق : شراب العشى ، والصبوح شراب الصبح ..
(٤٤) اى : بعد به طلب الشجر الذى ترعى فيه الماشية ..
(٤٥) اى : يصيحون من الجوع .
(٤٦) اى : اصابها سنة مقحطة مجدبة لا تنبت فيها الأرض .

فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت .. حتى اذا قدرت عليها — وفى رواية : « فلما قعدت بين رجليها » — قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم الا بحقه[٤٧] .. فانصرفت عنها وهى أحب الناس الى وتركت الذهب الذى أعطيتها .. اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه .. فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ..

« وقال الثالث : اللهم انى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب .. فثمرت أجره[٤٨] حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين وقال : ياعبد الله ، أد الى أجرى . فقلت له : كل ما ترى من أجرك من الابل والبقـر والغنم والرقيق . فقـال : ياعبد الله ، لا تستهزىء بى .. فقلت : لا أستهزىء بك ، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شـيئا .. اللهم ان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه .. فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون »[٤٩] .

هؤلاء النفر الثلاثة .. لم يتوسلوا الى الله تعالى بنبى أو ولى ، ولم يستشفعوا بميت أو حى .. انما توسلوا بصالح أعمالهم ..

والرسول ﷺ .. لم يقص علينا نبأ أولئك النفر لنتسامر بحديثهم ونسلى أنفسـنا برواية سيرتهم .. انما أراد تعليمنا أن التوسل الى الله تعالى لا يكون الا بالعمل الصالح .

والصحابة رضوان الله عليهم .. فهموا الدرس ووعوه تماما .. فلم يتوسلوا الى الله تعالى الا بالأعمال الصالحة .. فهل نفهم نحن أيضا الدرس ونعيه ؟ ؟

● كما يجوز أن يكون التوسل بطلب الدعاء من رجل صالح يدعو له .. وهو نوع من الاستشفاع بأحد الأحياء فيما يطلبه العبد من ربه .. وهو جائز اتفاقاً ..

---

(٤٧) كناية عن فض البكارة ، وحقه هو التزويج المشروع .

(٤٨) أى : نماه له بالاتجار فيه .

(٤٩) الحديث متفق عليه ..

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه — فيما رواه أنس بن مالك — يستسقى بالعباس بن عبد المطلب — رضى الله عنه — اذا قحطوا .. ويقول : « اللهم انا كنا نتوسل اليك بنبينا ﷺ ، فتسقينا .. واننا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا » ..

والعباس رضى الله عنه قائم بينهم يتوسل معهم .. فيسقيهم الله ..

ويروى : أنه بعد أن فرغ عمر رضى الله عنه قام العباس وقال : « اللهم انه لم ينزل بلاء من السماء الا بذنب ، ولم يكشف الا بتوبة .. قد توجه بى القوم اليك لمكانى من نبيك ﷺ ، وهذه أيدينا اليك بالذنوب ، ونواصينا بالتوبة ، وانت الراعى لا تهمل الضالة ، ولا تدع الكسير بدار مضيعة ، فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى .. اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .. قال : فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال .

والمقصود : استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح ، وأهل بيت النبوة — ماداموا أحياء ويدعون مع الداعين — ولو كان التوسل بالموتى جائزا ، لما ترك عمر رضى الله عنه التوسل بالرسول ﷺ بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، فى حين أنه كان يتوسل به عندما كان حيا بينهم .. فلماذا يدع عمر قبر الرسول ويلجأ الى العباس متوسلا به اذا كان التوسل بالموتى جائزا ؟ !

ولا شك أن رسول الله ﷺ .. أعلى مقاما وأرفع منزلة من جميع الأنبياء والأولياء والصالحين .. فاذا جاز لعمر رضى الله عنه ترك الدعاء عند قبره ﷺ والتوسل به ، فان ترك الدعاء والتوسل بغيره من الأنبياء والصالحين أولى ..

ويروى أن معاوية بن أبى سفيان .. خرج يوما يستسقى ، فلما جلس على المنبر قال : أين يزيد بن الأسود الجرشى ؟ .. فقام يزيد ودعاه معاوية فأجلسه أمامه ، ثم قال : « اللهم انا نستشفع اليك بخيرنا

وأفضلنا يزيد بن الأسود .. يايزيد ، ارفع يديك » .. فرفع يزيد يديه ودعا الله تعالى .. فثارت في الغرب سحابة مثل الترس ، وهب لها ريح فسقوا حتى كادوا لا يبلغون منازلهم !!

فلماذا لم يتوسل معاوية بالرسول ﷺ أو بأبى بكر ، أو بعمر ، أو بعثمان ، أو بعلى رضى الله عنهم اذا كان التوسل بالموتى جائزا ؟!

في استسقاء عمر .. كان العباس بن عبد المطلب حيا ، وكان يستسقى معهم ..

وكان يزيد بن الأسـود حيا حين استسقى به معاوية ، وكان يستسقى معهم ..

لقد كان التوسل الذى جرى عليـه السلف الصالح .. أن يدعو المتوسل به ربه ويدعون معه .. فهو من هذه الناحية شفيع لهم ، وسائل لا مسئول .. اذ المسئول والمقصود هو الله تعالى وحده ..

فالتوسل اذن .. يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين .. الأول : هو أصل الايمان والاسلام — وهو التوسل الى الله تعالى بالايمان بالرسول ﷺ وبطاعته ، والثانى : هو التوسل بدعاء الرسول ﷺ وشفاعته .. وهما جائزان باجماع المسلمين ..

● أما المعنى الثالث للتوسل — الذى جرى عليه الناس فى الأزمنة المتأخرة — وهو التوسل الى الله تعالى بالاقسام عليه بأحد من خلقه .. فهو ممنوع عند الجمهور .. لأنه لم يقع من الصحابة رضوان الله عليهم .. لا فى حياة الرسول ﷺ ، ولا بعد موته .. ولم يثبت فى دعاء من الأدعية الصحيحة ..

يقول ابن تيمية : « ... ويراد بالتوسل معنى ثالث لم ترد به سنة ، وهو الاقسام على الله تعالى بذات الرسول ﷺ والسؤال بذاته .. فهذا هو الذى لم تكن الصحابة تفعله لا فى الاستسقاء ولا فى غيره .. لا فى حياته — ﷺ — ولا بعد مماته .. لا عند قبره ولا غير قبره .. ولا يعرف هذا فى شيء من الأدعية المشهورة بينهم »[٥٠] ..

---

(٥٠) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ، لابن تيمية ، ط المنار ، ١٣٥٤ هـ ، ص ٤٤

فهذا الاقسام على الله تعالى بذات الرسول ﷺ .. أو بغيره من المخلوقات ، لا يجوز شرعا لقول الرسول ﷺ : « ألا ان الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله ، أو ليصمت »[٥١] .. فاذا كان هذا فى القسم بغير الله على أحد من المخلوقين ، فكيف بالقسم على الله تعالى بأحد مخلوقاته ؟!

هل يتفق هذا مع الأدب مع الله سبحانه حيث يؤكد المقسم طلبه بالقسم ؟!

وهل يتناسب مع ما ينبغى من الخضوع التام لله جل شأنه ، والتذلل والافتقار له فى كل حين .. فضلا عن حال الرجاء ؟!

● ويقول الدكتور يوسف القرضاوى[٥٢] : « من الشرك الأكبر نوع خفى .. يخفى على كثير من الناس .. ومنه دعاء الموتى والمقبورين من أصحاب الأضرحة والمقامات ، والاستعانة بهم وطلب قضاء الحوائج منهم من شفاء المرضى ، وتفريج الكربات ، واغاثة الملهوف ، والنصر على العدو — مما لا يقدر عليه الا الله — واعتقاداتهم بأنهم يضرون وينفعون .. وهذا أصل الشرك العام كما قال ابن القيم ..

« وسبب خفاء هذا الشرك أمران ، الأمر الأول : أن الناس لا يسمون هذا الدعاء والاستعانة والاستغاثة بأصحاب القبور عبادة ، ويظنون أن العبادة انما تنحصر فى الركوع والسجود والصلاة والصيام ونحوها .

« والأمر الثانى : أنهم يقولون : نحن لا نعتقد أن هؤلاء الأموات الذين ندعوهم ونستغيث بهم آلهة أو ارباب لنا .. بل نعتقد أنهم مخلوقون مثلنا ، ولكنهم وسائط بيننا وبين الله وشفعاء لنا عنده ..

« وهذا من جهلهم بالله جل جلاله .. فقد حسبوه مثل الملوك الجبارين والحكام المستبدين .. لا يستطاع الوصول اليهم الا بوسطاء وشفعاء .. وهو نفس الوهم الذى سقط فيه المشركون قديما حين قالوا

---

(٥١) رواه البخارى ..

(٥٢) فى كتابه : « حقيقة التوحيد » ، مرجع سابق ، ص ٤٠ — ٤٢

عن آلهتهم وأصنامهم : « **ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى** »(٥٣) .

« يقول تعالى : « **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** »(٥٤) .

« ولم يعتقدوا يوما أن آلهتهم وأصنامهم تخلق أو ترزق ، أو تحيي أو تميت .. كما قال تعالى : « **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** »(٥٥) .

« وقوله تعالى : « **قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون** »(٥٦) .

« ومع هذا الاعتقاد فى الله تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه الرزاق المدبر ، المحيى المميت .. والاعتقاد فى الأصنام أنها مجرد وسائط وشفعاء لهم عند الله .. مع هذا كله رماهم القرآن بالشرك وسماهم المشركين ، وأمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويقولوا : « لا اله الا الله » .. فمن قالها فقد عصم دمه وماله الا بحق الاسلام ..

« ان الله تعالى غنى عن الوسائط والشفعاء .. وهو أقرب الى عبده من حبل الوريد ، كما قال تعالى : « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب** »(٥٧) .

« وقال : « **وقال ربكم ادعونى أستجب لكم** »(٥٨) .

« وبابه تعالى مفتوح لكل من أراد الدخول .. ليس عليه حاجب ولا بواب » اهـ .

* * *

غير أن البعض .. يتعللون لجواز هذا النوع من التوسل بحديث عثمان بن حنيف — رضى الله عنه — الذى أخرجه أحمد والنسائى

---

(٥٣) الزمر : ٣
(٥٤) يونس : ١٨
(٥٥) الزخرف : ٩
(٥٦) يونس : ٣١
(٥٧) البقرة : ١٨٦
(٥٨) غافر : ٦٠

وابن ماجه : « أن رجلا ضريرا أتى النبـــى ﷺ فقال : ادع الله أن يعافينى •• فقال ﷺ : « ان شئت دعوت ، وان شئت صبرت فهـــو خير لك » •• قال : فادعه •• فأمره ﷺ أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم انى أسألك وأتوجه اليـــك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يامحمد : انى قد توجهت بك الى ربى فى حاجتى هـــذه لتقضى ، اللهم فشفعه فى » •• وزاد الحاكم : « فدعا بهذا الدعاء فقام وقد أبصر » ••

لهذا أفتى العز بن عبد السلام بمنعه فى غير النبى ﷺ ، ويعلق عليه الشوكانى فى « تحفة الذاكرين » بقوله : « الحديث صحيح ، وصححه أيضا ابن خزيمة ، وفيه دليل على جواز التوسل برسول الله ﷺ الى الله عز وجل ، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله تعالى ، وأنه المعطى المـــانع •• ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن •• فقوله فى الحديث : « أسألك وأتوجه اليك بنبيك ••• الخ » •• سؤال بالذات وقسم » ••

هذا ما يقوله الشوكانى •• ولكن ابن تيمية وغيره من الحنابلة — يمنعونه مطلقاً •• ويقولون : ان « الباء » فى قوله : « أتوجه اليك بنبيك » للسببية لا للقسم •• والمعنى : أسألك وأتوجه اليك بسبب محمد ﷺ •• فهو من التوسل بمعنى الشفاعة ••

ونضيف : ان الواقعة انما حدثت فى حياة الرسول ﷺ •• وهو الذى أمره بهذا الدعاء •• ولم تحدث بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، فهو من قبيل الاستشفاع به ﷺ ••

ويقول فضيلة الشيخ أمين محمود خطاب — رحمه الله : « التوسل المشروع بالاتفاق هو التوسل بالعمل الصالح ، وبالغير على أنه شفيع ، وسائل لا مسئول •• بل المسئول هو الله تعالى لأنه هو الضار النافع •• المعطى المـــانع ••

« وأما ما يقع من العوام وأشباههم مخالفا لذلك فغير مشروع •• ترى أحدهم اذا نزل به أمر خطير ، ترك دعاء الله تعالى ودعا غيره ••

فينادى بعض الأولياء كالسيد والدسوقى والسيدة زينب والشافعى والرفاعى والبيومى ... الخ !!

« ومنه قول بعض العامة : « العارف لا يعرف والشكوى لأهل البصيرة عيب » !!

« وقولهم : « سقت فلانا عليك يارب » !! ، و « توسلت اليك بجاه الولى فلان أو بمقامه » !!

« فهذا عمل مذموم يجب البعد عنه ، وهو لا يبلغ حد الكفر ..

« أما اذا كان المتوسل يعتقد أنه لا يحصل المطلوب الا به ، ولا يجيب الله دعاء العبد الا اذا طلب ذلك من المتوسل بهم : كان كفرا والعياذ بالله ..

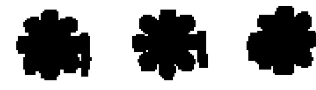
« قال الشوكانى فى « الدر النضيد » : « فان قلت ان هؤلاء القبوريين يعتقدون أن الله تعالى هو الضار النافع ، والخير والشر بيده ، وأنهم ان استغاثوا بالأموات قصدوا انجاز ما يطلبونه من الله .. قلت : وهكذا كانت الجاهلية ، فانهم كانوا يعلمون أن الله هو الضار النافع ، وانما عبدوا أصنامهم لتقربهم الى الله زلفى .. ومن زعم أنه لم يقع منه الا مجرد التوسل ، وهو يعتقد من تعظيم ذلك الميت ما لا يجوز اعتقاده فى أحد من المخلوقين ، ويتقرب الى الأموات بالذبائح والنذور ، ويناديهم مستغيثا بهم عند الحاجة ، فهذا كاذب فى دعواه أنه متوسل فقط » ا هـ .

« وأما حديث : « توسلوا بجاهى فان جاهى عند الله عظيم » .. فقد تعرض له ابن تيمية بروايات أخرى قال : « وروى بعض الجهال عن النبى ﷺ أنه قال : « اذا سألتم الله فأسلوه بجاهى فان جاهى عند الله عظيم » .. وهذا الحديث كذب ليس فى شىء من كتب المسلمين التى يعتمد عليها أهل الحديث .. مع أن جاهه ﷺ عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين » ..

وقال : « وقد تقدم أن ما يذكره بعض العامة من قوله ﷺ :

« اذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهى » •• حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم ، ولا هو فى شىء من كتب الحديث » ••

وقال : « وأما ما يروى عن النبـى ﷺ : « اذا أعيتكم الامور فعليكم بأهل القبور ، فاستعينوا بأهل القبور » •• فهو حديث كذب مفترى على النبى ﷺ باجماع العارفين بحديثه ، ولم يروه أحد من العلماء ، ولا يوجد فى شىء من كتب الحديث المعتمدة »[٥٩] .



● ويقول البعض : صحيح أنه لم يثبت فى السنة ما يدل على استحباب التوسل بذوات الأنبياء والصالحين •• ولكن ما المـانع منه اذا فعلناه على طريق الاباحة ، لأنه لم يأت نهى عنه ؟ ••

ويرد فضيلة الشـيخ محمد ناصر الدين الألبـانى على هـذه الشـبهة قائلا :

« هذه شبهة طالمـا سمعناها ممن يريد أن يتخذ موقفا وسطا بين الفريقين لكى يرضى كلا منهما ، وينجو من حملاتهما عليه •• والجواب : يجب أن لا ننسى فى هذا المقام معنى الوسيلة •• اذ هى التى يتوصل بها الى تحصيل المقصود ••

« ولا يخفى أن الذى يراد التوصل اليه ، اما أن يكون دينيا ، أو دنيويا ••

« وعلى الأول ، لا يمكن معرفة الوسيلة التى توصل الى الأمر الدينى الا من طريق شرعى ، فلو ادعى رجل أن توسله الى الله تعالى بآية من آياته الكونية العظيمة كالليل والنهار — مثلا — سبب لاستجابة الدعاء •• لرد عليه ذلك الا أن يأتى بدليل ••

« ولا يمكن أن يقال حينئذ باباحة هذا التوسل ، لأنه كلام ينقض بعضه بعضا •• اذ أنك تسميه توسلا ، وهذا لم يثبت شرعا ، وليس له طريق آخر فى اثباته ••

---

(٥٩) الفتاوى الأمينية ، للشيخ أمين محمود خطاب ، ص ٢٣ — ٢٨ بتصرف .

« وهذا بخلاف القسم الثانى من القسمين المذكورين فهو الدنيوى ، فان أسبابه يمكن أن تعرف بالعقل أو بالعلم أو بالتجربة ونحو ذلك .. مثل الرجل يتاجر ببيع الخمر ، فهذا سبب معروف للحصول على المـال ، فهو وسيلة لتحقيق المقصود وهو المـال .. ولكن هذه الوسيلة نهى الله عنها ، فلا يجوز اتباعها بخلاف ما لو تاجر بسبب لم يحرمه الله عز وجل ، فهو مباح ..

« أما السبب المدعى أنه يقرب الى الله، وأنه أرجى فى قبـول الدعاء ، فهذا سبب لا يعرف الا بطريق الشرع ، فحين يقال : بأن الشرع لم يرد بذلك ، لم تجز تسميته وسيلة حتى يمكن أن يقال انه مباح التوسل به ..

« وشىء ثان .. وهو أن التوسل ــ الذى سلمنا بعدم وروده ــ قد جاء فى الشرع ما يغنى عنه[٦٠] ..

« فما الذى يحمل المسلم على اختيار هذا التوسل الذى لم يرد ، والاعراض عن التوسل الذى ورد ؟ .. وقد اتفق العلماء على أن البدعة اذا صادمت سنة فهى بدعة ضلالة اتفاقا .. وهذا التوسل من هذا القبيل ، فلم يجز التوسل به ، ولو على طريق الاباحة دون الاستحباب !!

« وأمر ثالث .. وهو أن التوسل بالذوات ، يشبه توسل الناس ببعض المقربين الى الملوك والحكام ، والله تبارك وتعالى ليس كمثله شىء باعتراف المتوسلين بذلك ، فاذا توسل المسلم اليه تعالى بالأشخاص ، فقد شبهه عملا بأولئك الملوك والحكام .. وهذا غير جائز »[٦١] .

فالتوسل بغير أسماء الله تعالى وصفاته ، أو بغير العمل الصالح الذى يقوم به المتوسل ، أو التوسل بغير دعاء رجل صالح يدعو له .. غير جائز ولا مشروع ، لأنه لم يرد فيه دليل فتقوم به الحجة ..

---

(٦٠) وهو التوسل باسم من أسماء الله تعالى ، أو بصفة من صفاته ، والتوسل بعمل صالح قام به الداعى ، أو بدعاء رجل صالح يدعو للمتوسل .

(٦١) انظر : التوسل : « أنواعه وأحكامه » ، للشيخ ناصر الدين الألبانى ، ط بيروت ، ١٣٩٧ هـ ، ص ١٣٦ وما بعدها .

وقد أنكره العلماء المحققون فى العصور الاسلامية المتعاقبة .. وان كان الامام أحمد يجيز التوسل بالرسول ﷺ وحده فقط ، كما يجيز الشوكانى التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين .. فان أبا حنيفة يمنع ذلك .. فقد جاء فى « الدر المختار » [٦٢] ما نصه : عن أبى حنيفة : لا ينبغى لأحد أن يدعو الله الا به ، والدعاء المأذون فيه ، المأمور به ما استفيد من قوله تعالى : « **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** » [٦٣] .

ويقول الزبيدى فى « شرح الاحياء » [٦٤] : « كره أبو حنيفة وصاحباه أن يقول الرجل : أسألك بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، أو بحق البيت الحرام والمشعر الحرام ، ونحو ذلك .. اذ ليس لأحد على الله حق .. وكذلك كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الداعى : اللهم انى أسألك بمعاقد العز من عرشك ، وأجازه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه » .

ويقول بشر بن الوليد : حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة : « لا ينبغى لأحد أن يدعو الله الا به ، وأكره أن يقول : بمعاقد العز من عرشك ، أو بحق خلقك » ، وهو قول أبى يوسف .. قال أبو يوسف : « معقد العز من عرشه هو الله ، فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول : بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام » ..

ويقول القدورى : « المسألة بخلقه لا تجوز ، لأنه لا حق للخلق على الخالق ، فلا تجوز وفاقاً » .

● وسئل صاحب « الفتاوى الأمينية » عن حكم نداء الرسول ﷺ والأولياء والمشايخ .. كأن يقول الانسان : يارسول الله أنت المعتمد ، ياسيد يابدوى مدد ، نظرة ياست .. ونحو ذلك ..

---

(٦٢) الدر المختار جـ ٢ ، ص ٦٣٠ . (٦٣) الأعراف : ١٨٠ .
(٦٤) شرح الاحياء ، جـ ٢ ص ٢٨٥

فأجاب رحمه الله : « ان من نادى غير الله بالصيغة المذكورة فى السؤال ونحوها .. ان اعتقد بأن غير الله تعالى يضر وينفع ، فهو شرك ؛

« وان اعتقد التبرك بهم فقط .. فهو حرام وليس بشرك ..

« قال الله تعالى للنبى ﷺ : «قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرا»(٦٥)

« كما قال : « قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا »(٦٦) .

« واذا كان النبى ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا .. فغيره من النبيين والأولياء من باب أولى .. فالمطلوب سؤال الله تعالى فى كل الأحوال ..

« قال تعالى : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »(٦٧) .

« وفى حديث ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبى ﷺ قال : « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » (٦٨) .

ثم يقول فضيلته : « ويجوز سؤال الصالحين الأحياء فيما يقدرون عليه كطلب الدعاء منهم .. لا ما لا يقدرون عليه كشفاء المريض وطلب الرزق ونحو ذلك .. فان الله تعالى يقول : « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله »(٦٩) .

« ويقول تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذورا »(٧٠) اهـ .

* * *

---

(٦٥) الأعراف : ١٨٨
(٦٦) الجن : ٢١
(٦٧) البقرة : ١٨٦
(٦٨) أخرجه أحمد والترمذى .
(٦٩) يونس : ١٠٧
(٧٠) الفتاوى الأمينية ، للشيخ أمين محمود خطاب السبكى ، ج ١ ، ص ٢٢ ، ٢٣ — والآية : من سورة الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

● ويقول فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى : « ومن الخداع من تراهم يقصدون الى تلك الأماكن ويذكرون لك أننا لا نقول « مدد » ، ولا نقبل الأعتاب ، ولا نتمسح ، ولا نفعل شيئا من البدع التى ذكرتها ..

« ونقول له : « يا أخى ، لقد علق الله الخير لهذه الأمة على أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا » .. فأين أنت من أمر المبتدعين بالمعروف ونهيهم عن المنكر ؟

« بل انا نراك مقرا لما يفعله هؤلاء بركونك اليهم وسلامك عليهم وابتسامك لهم .. والله يقول : « **ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار** »(٧١) .. والقاعدة الفقهية : « أزل المنكر ، فان لم يزل فزل » ..

« وان من علامات الساعة رجالا يرون المنكر ولا ينكرونه ، وهم من شرار القوم عند الله ، لأن الساكت على المعصية مشترك فيها ، وكاتم الحق شيطان أخرس ..

« وبما أن قبور معظم من نسبه الناس الى الولاية مملوءة بالبدع والخرافات ، وأنواع الشرك ، والاستغاثة بغير الله ، والتوسل الى الولى فيما لا يطلب الا من الله ، والاستشفاع به وشد الرحال اليه ، وكل هذا منعه الاسلام .. فلأجل ذلك ينبغى البعد عن غشيان هذه المساجد والأماكن منعا لتوجه المسئولية والتقصير فيها ..

« وأخيرا ، لزم التنويه بأن زيارة المقابر الخالية من البدع بغرض أن ينفع الزائر نفسه بالعبرة ، وأن ينفع الميت بالدعاء له والاستغفار مطلوب .. وقد قال تعالى : « **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان** »(٧٢) .

« وانما سنت الزيارة للمقابر لأخذ العبرة والعظة ، وحتى يرى الانسان مصيره الذى لا مفر منه .. لذا وجب أن يكون مكان العبرة

---

(٧١) هود : ١١٣ — (٧٢) الحشر : ١٠

هذا متسما بالهدوء ، ومتحليا بالتجرد من أعمال الدنيا الفانية »[٧٣] ا هـ .

* * *

ولله در الامام ابن القيم حيث يقول : « نزح بحرين بغربالين ، وحفر بئرين بابرتين ، وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين : أهون على من أن أقف على باب غير الله يضيع فيه ماء وجهى » ..

ويقول الشاعر :

لا تسألن بنى آدم حاجة   وسل الذى أبوابه لا تحجب
الله يغضب ان تركت سؤاله   وبنى آدم حين يسئل يغضب

وفى الحديث الشريف .. قال رسول الله ﷺ : « من لم يسأل الله يغضب عليه » ..

● كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوسل الى ربه ؟

التوسل الى الله تعالى هو التقرب اليه بعمل يرضاه .. وليس مثل الصلاة والدعاء قربى من الله ..

فالدعاء والتضرع ، والاستعانة والاستغاثة .. كلها من القرب التى تقرب العبد من ربه ، وتدخل كلها فى معنى التوسل ..

لذا كان رسول الله ﷺ اذا حزبه أمر يفزع الى الصلاة ، ويقول : « أرحنا بها يابلال » ..

وكان ﷺ يعرف مقام ربه وقدره ، ولهذا كان يدعوه بأسمائه تعالى وصفاته .. يتوسل اليه ويتضرع ، ويستغيث به ويستنصره ، خاشعا متذللا ويقول فى دعائه : « أنت رب المستضعفين وأنت ربى » ، ويقول : « اللهم أنت ربى وأنا عبدك » ..

---

(٧٣) هذه دعوتنا ، مرجع سابق ، ص ٢٠٦

لم يقل بحقى عليك يارب ، أو بجاهى عندك .. ولم يتوسل — ﷺ — بالحقيقة المحمدية التى زعموها .. انما كان دعاؤه كله ، دعاء من يعرف قدره الى جانب قدر الله وعظمته ..

وقدر الرسول ﷺ أرفع الأقدار كلها ، ومنزلته عند الله أعظم المنازل .. انه — ﷺ أرفع قدرا وأعظم منزلة من جميع المخلوقات .. أرفع قدرا وأعظم منزلة من الملائكة ، والانس والجن .. ولكنه ﷺ عرف قدره الى جانب قدر الله وعظمته ، فلم يتجاوز فى دعائه الى ما ليس له ..

فصلى الله وسلم وبارك عليك ياسيدى يارسول الله ، فقد بعثت معلما ..

ماتت خديجة رضى الله عنها ، وأبو طالب فى عام واحد ..

ولما مات أبو طالب .. نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياة عمه أبى طالب .. فخرج رسول الله ﷺ الى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج اليهم وحده ..

ويحدثنا ابن هشام عن هذا فيقول : « لما انتهى رسول الله ﷺ الى الطائف .. عمد الى نفر من ثقيف .. هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم اخوة ثلاثة : عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير .... وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح .. فجلس اليهم رسول الله ﷺ ، فدعاهم الى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الاسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ..

فقال له أحدهم : أنا أمرط ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك !!

وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ !

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي لى أن أكلمك !!

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم — فيما ذكر لى — : اذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى .. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم(٧٤) ذلك عليه(٧٥) ..

قال ابن هشام : قال عبيد بن الأبرص :

ولقــد أتانى عن تميم أنهم   ذئروا لقتلى عامر وتعصبوا

لم تفعل تثقيف ما كان يرجوه الرسول ﷺ من النصرة والمنعة .. ولكنهم أغروا به سفهاءهم وعبيــدهم ، يســبونه ويصيــحون به .. حتى اجتمع عليــه الناس ، والجأوه الى حائط(٧٦) لعتبة بن ربيعــة وشيبة بن ربيعــة ، وهما فيه .. ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد الى ظل حبلة من عنب(٧٧) فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف ، وقد لقى رسول الله ﷺ — فيما ذكر لى — المرأة التى من بنى جمح فقــال لها : ماذا لقينا من أحمائك ؟

يقول ابن هشام : « فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال — فيما ذكر لى : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ .. ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى .. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك »(٧٨) .

ويحدثنا ابن هشام عن موقف آخر .. وقف فيه الرسول ﷺ يناشد ربه النصر الذى وعده .. عندما خرجت قريش لمقاتلة المسلمين

---

(٧٤) أى يثيرهم ويجرئهم ..   (٧٥) الحائط : البستان .
(٧٦) أى شجرة عنب .   (٧٧) الأحماء : اقارب الزوج .
(٧٨) الســيرة النبوية ، لابن هشــام ، ط دار التراث العربى ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥

فى غزوة بدر .. فبعد أن عدل — ﷺ — صفوف المسلمين ، رجع الى العريش الذى أقاموه له فدخله ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ليس معه فيه غيره .. يقول ابن هشام :

« ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : « اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد » . وأبو بكر يقول : يانبى الله ، بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ما وعدك ..

وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع »[79] .

لقد استنجد الرسول — ﷺ — بالله مباشرة .. وظل يضرع اليه تعالى حتى سقط — فيما يروى — رداءه عن منكبيه ، وأبو بكره رضى الله عنه خلفه يناشده أن يهدأ بالا ، فان الله تعالى سوف ينجز له وعده بالنصر .. لم يتخذ الرسول بينه وبين الله واسطة ، بل التجأ اليه وحده بالدعاء والتضرع .. ولهذا جاءه المدد ملائكة السـماء يقودهم جبريل — عليه السلام — آخذا بعنان فرسه يقوده وعلى ثناياه النقع ..

لم يقل بحقى عليك يارب ، أو بجاهى عندك ، ولم يتوسل اليه — ﷺ بغير أسمائه وصفاته ..

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعثنى العباس الى رسول الله ﷺ ، فأتيته ممسيا وهو فى بيت خالتى ميمونة .. فقام يصلى من الليل ، فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح قال : « اللهم انى أسالك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها شملى ، وتلم بها شعثى ، وترد بها الفتن عنى ، وتصلح بها دينى ، وتحفظ بها غائبى ، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى ، وتبيض بها وجهى ، وتلهمنى بهـا رشدى ، وتعصمنى بها من كل سوء ..

« اللهم أعطنى ايمانا صادقا ، ويقينا ليس بعده كفر ، ورحمـة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة ..

---

(٧٩) المرجع السابق ، ص ٤١٦

« اللهم انى أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء ..

« اللهم انى أنزل بك حاجتى وان ضعف رأيى وقلت حيلتى وقصر عملى وافتقرت الى رحمتك .. فأسألك ياكافى الأمور ، وياشافى الصدور ، كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة القبور .

« اللهم ما قصر عنه رأيى ، وضعف عنه عملى ، ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك ، أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك ، فانى أرغب اليك فيه ، وأسألكه يارب العالمين ..

« اللهم اجعلنا هادين مهتدين ، غير ضالين ولا مضلين ، حربا لأعدائك ، وسلما لأوليائك ، نحب بحبك من أطاعك من خلقك ، ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك ..

« اللهم هــذا الدعاء وعليك الاجابة ، وهــذا الجهد وعليك التكلان ، وانا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، ذى الحبل الشديد ، والأمر الرشــيد .. أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ، انك رحيم ودود ، وأنت تفعل ما تريد ..

« سبحان الذى لبس العز وقال به .. سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به .. سبحان الذى لا ينبغى التسبيح الا له .. سبحان ذى الفضل والنعم .. سبحان ذى العزة والكرم .. سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه ..

« اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ، ونورا فى قبرى ، ونورا فى سمعى ، ونورا فى بصرى ، ونورا فى شعرى ، ونورا فى بشرى ، ونورا فى لحمى ، ونورا فى دمى ، ونورا فى عظامى ، ونورا من بين يدى ، ونورا من خلفى ، ونورا عن يمنى ، ونورا عن شمالى ، ونورا من فوقى ، ونورا من تحتى ..

« اللهم زدنى نورا ، وأعطنى نوراً ، واجعل لى نوراً »[٨٠] .

هكذا كان الرسول ﷺ يضرع الى ربه .. يتوسل اليه ويستغيث به .. بالخشوع كله ، وبالتواضع كله ، فقد عرف مقام ربه .. فصلى الله وسلم وبارك عليه ، فقد بعثه تعالى للناس معلما ومرشدا ..

وهكذا كان شأن المسلمين فى الصدر الأول للاسلام .. يتضرعون الى الله تعالى بالخشية والخضوع ، والسكون والهدوء ، وحسن الأدب مع الحق تبارك وتعالى .. رغبة رهبة .. فهو سبحانه رب العالمين ، خالق الخلق ورازقه .. وهو القائل : **« ادعوا ربكم تضرعا وخفية »**[٨١] والقائل : **« انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا»**[٨٢] .

* * *

● الدعاء .. فى الاسلام :

يقول الله تعالى : **« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون »**[٨٣] .

سأل بعضهم الرسول ﷺ : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه .. فقال جل شأنه : اذا سألك — يامحمد — عبادى أين أنا ؟ فانى قريب منهم ، أسمع دعاءهم ، وأجيب دعاء الداعى منهم اذا دعانى ، فليستجيبوا لى بالطاعة ، وليصدقوا أنى أجزل لهم الثواب والكرامة .. وبهذا يهتدوا الى طريق الرشاد ..

وقال جل وعلا : **« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »**[٨٤] .

فالله تعالى يقول : اعبدونى وأخلصوا لى العبادة ، أجب دعاءكم .. فان الذين يتعظمون عن افرادى بالعبادة والألوهية سأدخلهم جهنم صاغرين ..

---

(٨٠) رواه الطبرانى ..
(٨١) الأعراف : ٥٥
(٨٢) الأنبياء : ٩٠
(٨٣) البقرة : ١٨٦
(٨٤) غافر : ٦٠

وهو تعالى يسمى الدعاء عبادة •• ولهذا قال رسول الله ﷺ فيما يرويه النعمان بن بشير رضى الله عنه : « ان الدعاء هو العبادة » — ثم قرأ الآية(٨٥) •

وقال ﷺ : « الدعاء مخ العبادة »(٨٦) •

ويقول الله تعـالى : **« ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، انه لا يحب المعتدين »**(٨٧) •

أى أخلصوا الدعاء لربكم ، تذللا واستكانة لطاعته ، لا جهاراً ومراءاة ، فهو تعالى — لا يحب المجاوزين الحد فى الدعاء ، برفع الصوت والصياح •• ولهـذا يقول النبى ﷺ : « أيها الناس ، ارفقوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصماً ولا غائبا ، انكم تدعون سميعا بصيرا ، وهو معكم ، والذى تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » ••

ويقول جل شأنه : **« قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سـبيلا »**(٨٨) •

سمع أبو جهل الرسول ﷺ يدعو فى صلاته : ياالله ، يارحمن •• فقال : ان محمدا ينهانا أن نعبد الهين وهو يدعو الهاً آخر •• فنزلت هـذه الآية •• فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ : قل — يامحمد — لهؤلاء المشركين ، المنكرين لاسم الرحمن : ادعوا الله — أيها القوم — أو ادعوا الرحمن بأى أسمائه جل وعلا تدعوا ربكم فانما تدعون الهاً واحدا ، له الأسماء الحسنى ، ولا تجهر — يامحمد — بقراءتك فى صلاتك فيؤذيك المشركون ، ولا تخفض صوتك حتى لا يسمع أصحابك •• واطلب طريقا وسطا بين الخفض والاعلان • يقول ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة ، فاذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله •• فنزلت هـذه الآية ••

---

(٨٥) رواه أصحاب السنن •
(٨٦) رواه انس •
(٨٧) الأعراف : ٥٥
(٨٨) الاسراء : ١١٠ •

والمقصود •• أن يكون الدعاء •• وأن تكون الصلاة والعبادات كلها بأدب وخشية وخضوع ، وسكون وهدوء ، ورغبة ورهبة ••

● ومن شروط الدعاء •• افراد الله وحده به •• فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف النبى ﷺ يوما فقال : « ياغلام ، انى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك •• اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله •• واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك •• رفعت الأقلام وجفت الصحف »(٨٩) •

● وأن يخلص فى دعائه لله تعالى •• لقوله جل شأنه : « **فادعوا الله مخلصين له الدين** »(٩٠) •• فانعدام الاخلاص ، أو دخول الرياء على النفس يفسد الدعاء على صاحبه ولا يستجيب الله له •

● وأن يقدم بين يدى دعائه عمل صالح •• ليكون فى ذلك وسيلة الى الاجابة ••

● وأن يتجنب الحرام فى مأكله ومشربه وملبسه •• لأن ملابسة المعصية مقتضية لعـدم الاجابة •• يقول تعـالى : « **انما يتقبل الله من المتقين** »(٩١) •

ويروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : تليت هـذه الآية عند رسـول الله ﷺ : « **يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا** »(٩٢) ، فقام سعد ابن أبى وقاص — رضى الله عنه — فقال : يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال له النبى ﷺ : « ياسعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده : ان العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » ••

---

(٨٩) رواه الترمذى •
(٩٠) غافر : ١٤
(٩١) المـائدة : ٢٧
(٩٢) البقرة : ١٦٨

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « ان الله طيب لا يقبل الا طيبـا ، وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : « **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ، انى بما تعملون عليم** »(٩٣) وقـال : « **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** »(٩٤) .. ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر يمد يديه الى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له » ؟ !(٩٥)

● وأن لا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم .. يقول رسول الله ﷺ : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل » قيل : يارسول الله ، ما الاستعجال ؟ قال : « يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء »(٩٦) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، انه اذا مات أحدكم انقطع عمله ، وانه لا يزيد المؤمن عمره الا خيرا»(٩٧) .

وعن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد خفت [أى ضعف] فصار مثل الفرخ [أى ولد الطائر] فقال له رسول الله ﷺ : « هل كنت تدعو بشىء — أو تسأله اياه » ؟ ، قال : نعم ، كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا .. فقال رسول الله ﷺ : « سبحان الله ، لا تطيقه — أو لا تستطيعه — أفلا قلت : اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ؟ .. قال : فدعا الله له فشفاه(٩٨) ..

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدعوا

---

(٩٣) المؤمنون : ٥١ (٩٤) البقرة : ١٧٢
(٩٥) رواه مسلم والترمذى .
(٩٦) رواه مسلم ، ويستحسر : أى ينقطع عن الدعاء .
(٩٧) رواه مسلم . (٩٨) رواه مسلم .

على أنفســكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسئل فيها عطاء فيستجيب لكم »(٩٩) .

● ويبشرنا أبو الدرداء رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان يقول : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة ، عند رأسه ملك موكل ، كلمــا دعا لأخيه بخــير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل »(١٠٠) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : « ان العبد لا يخطئه من الدعاء الا احدى ثلاث : اما ذنب يغفر له ، واما خير يعجل له ، واما خير يدخر له » ..

ويقول ابن مسعود : « سلوا الله تعالى من فضله ، فان الله تعالى يحب أن يسئل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج » ..

وفى الحديث القدسى الذى يرويه أبو ذر الغفارى رضى الله عنه يقول تعالى : « ياعبادى انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا ..

« ياعبادى ، كلكم ضال الا من هديته ، فاستهدونى آهدكم ..

« ياعبادى ، كلكم جائع الا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم ..

« ياعبادى ، كلكم عار الا من كسوته ، فاستكسونى آكسكم ..

« ياعبادى ، انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم ..

« ياعبادى ، انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ..

« ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم : كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ..

« ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئا ..

---

(٩٩) رواه مسلم .

(١٠٠) رواه مسلم .

« ياعبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى ، الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر ..

« ياعبادى ، انما هى أعمالكم ، أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه »(١٠١)

* * *

« ويحدثنا الامام الغزالى عن آداب الدعاء(١٠٢) فيقول : « آداب الدعاء ، وهى عشرة :

● الأول : « أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة ، كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل .. قال تعالى : « **وبالأسحار هم يستغفرون** »(١٠٣) .. وقال ﷺ : « ينزل الله تعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل : من يدعونى فأستجيب له ؟ ، من يسألنى فأعطيه ؟ ، من يستغفرنى فأغفر له » .

« وقيل ان يعقوب عليه السلام انما قال : « **سوف أستغفر لكم ربى ، انه هو الغفور الرحيم** »(١٠٤) ليدعو فى وقت السحر ، فقيل انه قام فى وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه ، فأوحى الله عز وجل اليه : أنى قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء » ..

● الثانى « أن يغتنم الأحوال الشريفة .. قال أبو هريرة رضى الله عنه : « ان أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف فى سبيل الله تعالى ، وعند نزول الغيث ، وعند اقامة الصلوات المكتوبة ، فاغتنموا الدعاء فيها » ..

---

(١٠١) رواه مسلم .

(١٠٢) احياء علوم الدين : لأبى حامد الغـزالى ، ط . الشعب ، جـ ٣ ص ٥٤٩ — ٥٥٧ بتصرف ..

(١٠٣) الذاريات : ١٨ (١٠٤) يوسف : ٩٨

« وقال مجاهد : « ان الصلاة جعلت في خير الساعات ، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات » •

« وقال ﷺ : « الدعاء بين الأذان والاقامة لا يرد » ••

« وقال ﷺ أيضا : « الصائم لا ترد دعوته » ••

« وبالحقيقة ، يرجع شرف الأوقات الى شرف الحالات أيضا •• اذ وقت السحر وقت صفاء القلب واخلاصه ، وفراغه من المشوشات ، ويوم عرفة ويوم الجمعـــة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل ، فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها ، وحالة الســجود أيضا أجدر بالاجابة •• قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « أقرب مايكون العبد من ربه عز وجل وهو ســاجد ، فأكثروا فيه من الدعاء » ••

« وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « انى نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب تعالى ، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء ، فانه قمن أن يستجاب لكم » ••

● الثالث : « أن يدعو مستقبلا القبلة ، ويرفع يديه بحيث يــرى بياض ابطيه •• روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ : أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس » ••

« وقال سلمان رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ان ربكم حيى كريم يستحى من عبيده اذا رفعوا أيديهم اليه أن يردها صفرا » •

« وروى أنس رضى الله عنه « أنه ﷺ : كان يرفع يديه حتى يرى بياض أبطيه فى الدعاء ولا يشير بأصبعيه » ••

« وروى أبو هريرة رضى الله عنه « أنه ﷺ مر على انسان يدعو ويشير بأصبعيه السبابتين ، فقال ﷺ : « أحد أحد » — أى اقتصر على الواحدة ••

« وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : « ارفعوا هـذه الأيدى قبل أن تغل بالأغلال » ..

« ثم ينبغى أن يمسح بهما على وجهه فى آخر الدعاء .. قال عمر رضى الله عنه : « كان رسول الله ﷺ اذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه » ..

« وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « كان ﷺ : اذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه » .

« فهذه هيآت اليد ، ولا يرفع بصره الى السماء .. قال ﷺ : « لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم الى السماء عند الدعاء ، أو لتخطفن أبصارهم » ..

● الرابع : « خفض الصوت بين المخافتة والجهر .. لما روى أن أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قدمت مع رسول الله ﷺ فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم .. فقال النبى ﷺ : « يا أيها الناس ، ان الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب ، ان الذى تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم » ..

« قالت عائشـة رضى الله عنها فى قوله عز وجل : « **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا**»[١٠٥] « أى بدعائك » ..

« وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكريا عليه السـلام قال : « **اذ نادى ربه نداء خفيا** »[١٠٦] .

« وقال عز وجل : « **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** »[١٠٧] .

● الخامس : « أن لا يتكلف السجع فى الدعاء .. فان حال الداعى ينبغى أن يكون حال متضرع ، والتكلف لا يناسبه .. قال ﷺ : « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء » ..

« وقد قال عز وجل : « **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** » : قيل معناه التكلف للاسجاع ، والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة ، فانه قد يعتدى

---

(١٠٥) الاسراء : ١١٠ (١٠٦) مريم : ٣
(١٠٧) الأعراف : ٥٥

في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته .. فما كل أحد يحسن الدعاء .. ولذلك روى عن معاذ رضى الله عنه أن العلماء يحتاج اليهم في الجنة ، اذ يقال لأهـل الجنة : تمنوا ، فلا يدرون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلمـاء .

« وقد قال ﷺ : « اياكم والسجع فى الدعاء .. حسب أحدكم أن يقول : اللهم انى أسألك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل » ..

« وفى الخبر : « سيأتى قوم يعتدون فى الدعاء والطهور » ..

« ومر بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له : أعلى الله تبالغ ؟ ، أشهد لقد رأيت حبيباً العجمى يدعو وما يزيد على قوله : « اللهم اجعلنا جيدين ، اللهم لا تفضحنا يوم القيامة ، اللهم وفقنا للخير » ، والناس يدعون من كل ناحية وراءه ، وكان يعرف بركة دعائه .

« وقال بعضهم : ادع بلسان الذلة والافتقار ، لا بلسان الفصاحة والانطلاق ....

« واعلم أن المراد بالسجع ، هو المتكلف من الكلام ، فان ذلك لا يلائم الضراعة والذلة .. والا ففى الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة ، كقوله ﷺ : « أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركع السجود ، الموفين بالعهود ، انك رحيم ودود ، وأنك تفعل ما تريد » .. وأمثال ذلك ..

« فليقتصر على المأثور من الدعوات ، أو ليلتمس بلسان التضرع والخشـوع من غير سجع وتكلف .. فالتضرع هو المحبوب عند الله عز وجل » ..

● السادس : « التضرع والخشوع ، والرغبة والرهبة .. قال الله تعالى : « **انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشـعين**»(١٠٨) .. وقال عز وجل : « **ادعوا ربكم تضرعا وخفية ، انه لا يحب المعتدين** »(١٠٩) .

---

(١٠٨) الأنبياء : ٩٠ (١٠٩) الأعراف : ٥٥

« وقال ﷺ : « اذا أحب الله عبدا ابتلاه حتى يسمع تضرعه » ..

● السابع : « أن يجزم الدعاء ، ويوقن بالاجابة ، ويصدق رجاءه فيه .. قال ﷺ : « لا يقل أحدكم اذا دعا : اللهم اغفرلى ان شئت ، اللهم ارحمنى ان شئت ، ليعزم المسألة فانه لا مكره له » ..

« وقال ﷺ : « اذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة ، فان الله لا يتعاظمه شيء » ..

« وقال ﷺ : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة ، واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل » ..

« وقال سفيان بن عيينة رضى الله عنه : « لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه ، فان الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق « ابليس » — لعنــه الله — اذ قال : « **أنظرنى الى يوم يبعثون • قال انك من المنظرين** »(١١٠) •

● الثامن : « أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا .. قال ابن مسعود رضى الله عنه : « كان عليه الصلاة والسلام اذا دعا دعا ثلاثا ، واذا سأل سأل ثلاثا » ..

« وينبغى ألا يستبطىء الاجابة ، لقوله ﷺ : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، فيقول قد دعوت فلم يستجب لى ، فاذا دعوت فاسأل الله كثيرا فانك تدعو كريما » ..

« وقال بعضهم : « انى أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة حاجة وما أجابنى ، وأنا أرجو الاجابة .. سألت الله تعالى أن يوفقنى لترك ما لا يعنينى » ..

« وقال ﷺ : « اذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الاجابة ، فليقل : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، ومن أبطأ عنه شيء من ذلك فليقل : الحمد لله على كل حال » ..

● التاسع : « أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل ، فلا يبــدأ بالسؤال .. قال سلمة بن الأكوع رضى الله عنه : ما سمعت رسول الله

---

(١١٠) رواه أبو طالب المكى — والآية من سورة الأعراف : ١٤ ، ١٥

ﷺ يستفتح الدعاء الا استفتحه يقول : « سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » ..

وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : « من أراد أن يسأل الله حاجة ، فليبدأ بالصلاة على النبى ﷺ ، ثم يسأله حاجته ، ثم يختتم بالصلاة على النبى ﷺ .. فان الله عز وجل يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما » ..

وروى فى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اذا سألتم الله عز وجل حاجة فابدأوا بالصلاة على ، فان الله تعالى أكرم من أن يسئل حاجتين ، فيقضى احداهما ويرد الأخرى »(١١٠) .

● العاشر : « وهو الأدب الباطن ، وهو الأصل فى الاجابة : التوبة ، ورد المظالم ، والاقبال على الله عز وجل بكنه الهمة .. فذلك هو السبب القريب فى الاجابة » ا هـ .

* * *

سئل ابراهيم بن أدهم : لم ندعوا فلا يستجاب لنا ؟

فقال : « ماتت القلوب فى عشرة أشياء : عرفتم الله ولم تؤدوا حقه ، وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به ، وادعيتم حب الرسول وتركتم سنته ، وادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه ، وقلتم : نحب الجنة . ولم تعملوا لها ، وقلتم : نخاف النار . ورهنتم أنفسكم بها ، وقلتم : ان الموت حق . ولم تستعدوا له ، واشتغلتم بعيوب اخوانكم ونبذتم عيوبكم ، وأكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها ، ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم .. فأنى يستجاب لكم » ؟ !

* * *

وبعد .. يقول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام :

« استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . ما لكم لا ترجون لله وقارا »(١١١) .

---

(١١٠) رواه أبو طالب المكى .

(١١١) نوح : ١٠ — ١٣

يقول نوح عليه السلام ناصحا قومه : « ياقوم ، اطلبوا من ربكم مغفرته على كفركم وعصيانكم •• فهو تعالى الغفور ، ومن شأن الغفور غفران الذنوب لمن يرجع اليه ••

انكم ان فعلتم ، يبارك لكم فى أرزاقكم وأولادكم •• فيرسل السماء عليكم بالمطر الغزير ، والخير الوفير •• ويمددكم بالأموال والبنين ، وهما زينة الحياة الدنيا ••

وان من بركة رضاه تعالى عليكم — التى تجدونها باستغفاركم — أن يمتعكم فى حياتكم الدنيا ، فيجعل لكم البساتين الوارفة ، تنعمون بجمالها وثمارها •• ويجعل من تحتكم الأنهـار تشربون من مياهها ، وتسقون منها زروعكم ومواشيكم ••

وانكم ان لم تفعلوا ما أقوله لكم — من طلب المغفرة من الله تعالى — فانكم لا تكونون قد عظمتم الله حق تعظيمه •• أو تؤدوا واجب الشكر على نعمته ••

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « واللـه انى لأستغفر اللـه وأتوب اليـه فى اليـوم أكثر من سبعين مرة »(١١٢) •

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه : عن النبى ﷺ قال : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربى لا اله الا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت •• أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى : اغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت ••

قال : « ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة »(١١٣) •

والاستغفار •• يجب أن يكون مسبوقا بالاقلاع عن المعاصى ، والرجوع الى الله تعالى بالتوبة والندم ••

---

(١١٢) رواه البخارى •　　(١١٣) رواه البخارى •

فالتوبة والندم ، والاقلاع عن الذنوب والمعاصى ، ثم الاستغفار الى الله تعالى برجاء التوبة وطمعا فى المغفرة •• هو من أفضل الدعاء ••

وقد أخبرنا — تعالى — أن رضاه ومغفرته مصدران من مصادر البركة فى الأموال والبنين •• وعاملان من عوامل الاستقرار فى المعيشة ، والتمتع بطيبات الحيـاة الدنيا •• فضلا عن الرضا والرضوان فى الحياة الأخرى ••

وعلى النقيض من ذلك •• نقرأ قوله تعالى : **« فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى • ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى • قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا • قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى • وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربـه ، ولعذاب الآخـرة أشد وأبقى »**(١١٤) •

لقـد وعد الله عباده المؤمنين •• بأن يمدهم بالهدى والرشاد ، فمن اتبع منهم هداه وامتثل لأمره ، فلا يقع فى المآثم فى الدنيا ، فانه لا يشقى بالعذاب فى الآخرة ، فضلا عن رعاية الله وحمايته له من الشرور فى الدنيا ••

أما من أعرض عن هديه تعالى وطاعته •• فانه يحيا فى الدنيا حياة لا سعادة فيها •• فتراه لا يقنع بما قسم الله له ، ولا يستسلم الى قضاء الله تعالى وقدره فيها •• حتى اذا كان يوم القيامة جاء الى موقف الحساب مأخوذا بذنوبه ، عاجزا عن الحجة التى يعتذر الى ربه بها •• وكما كان فى دنياه أعمى البصيرة عن النظر فى آيات الله ، فان الله تعالى يعميه عن الحجة التى يعتذر بها فى الآخرة •• جزاء وفاقا على تعاميه عن أحكام ربه فى حياته الدنيا ••

ويسأل هذا الشقى ربه — فى ذلك الموقف العصيب ، وكله فزع ورعب — : يارب ، كيف أنسـيتنى حجتى ، وأعجزتنى عن المعذرة ،

---

(١١٤) طه : ١٢٣ — ١٢٧

ووقفتنى أمامك كالأعمى وقد كنت فى الدنيا أبصر ما حولى ، وأجادل وأدافع ؟ !

فيجيبه تعالى : بأن الأمر فى شأنك كما وقع : جاءتك دلائلنا ورسلنا فى الدنيا فنسيتها ، وتعاميت عنها ، ولم تؤمن بها •• وكذلك اليوم تترك منسيا فى العذاب والهوان ••

هذا الجزاء السىء ، يجزى الله به فى الدنيا المقبلين على المعصية ، المكذبين بالله وآياته ، ولعذاب الآخرة أشد ألمـا ، وأدوم مما كان فى الدنيا ••

« ربنا آتنا فى الدنيا حسـنة وفى الآخرة حسـنة وقنا عذاب النـار »(١١٥) •

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، انك أنت الوهاب »(١١٦) •

« ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنـا للمتقين اماما »(١١٧) •

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفـر لنا وارحمنـا ، أنت مولانا فانصرنا على القـوم الكافرين »(١١٨) •

« ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار • ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، انك لا تخلف الميعاد »(١١٩) •

فاللهم ياربنا •• أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا الى أنفسنا طرفة عين ، وأصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح دنيانا التى فيها

---

(١١٥) البقرة : ٢٠١ (١١٦) آل عمران : ٨
(١١٧) الفرقان : ٧٤ (١١٨) البقرة : ٢٨٦
(١١٩) آل عمران : ١٩٣ ، ١٩٤

معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى فيهـا معادنا .. وألهمنا رشدنا ، وأعذنا من شر أنفســنا ، واكفنا بحلالك عن حرامك ، وأغننا بفضلك عمن سواك ..

اللهم لا سهل الا ما جعلته سهلا .. وأنت تجعل الحزن ان شئت سهلا ، فنعوذ بك ياربنا من الكفر والفقر ، ونعوذ بك من الهم والحزن ، ونعوذ بك من العجز والكسل ، ونعوذ بك من الجبن والبخل ، ومن غلبة الدين وقهر الرجال ..

* * *

الفصل العاشر

حلقات للذكر .. أم حفلات للزار ؟ !

من الأمور التى لا يستطيع العقل التسليم بها : الطريقة التى يؤدى بها الصوفيون الذكر !!

والذكر — كما يقول الامام القشيرى — « ركن قوى فى طريق الحق سبحانه وتعالى .. بل هو العمدة فى هذا الطريق ، ولا يصل أحد الى الله تعالى الا بدوام الذكر ..

« وهو على ضربين : ذكر باللسان ، وذكر بالقلب ..

« فذكر اللسان .. يصل به العبد الى استدامة ذكر القلب — والتأثير لذكر القلب — فاذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه ، فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه »[1] اهـ .

ولا شك أن الاجتماع لذكر الله ، والاستماع لكتابه ، والتوجه اليه بالدعاء .. عمل صالح ، وهو من أفضل القربات والعبادات فى جميع الأوقات ..

ولا شك أيضا .. أن ذكر الله هو من أشرف العبادات ، وأنفس ما يجرى على اللسان من كلمات ، وأزكى ما يمر بالخاطر من صور ، وما يثبت فى القلوب من معان .. كما أنه مفتاح الصلة المباشرة بالله الكبير المتعال .. ما ان يشرق معناه فى نفس العبد وتتحرك به شفتاه حتى يذكره الله تعالى ببره ولطفه ، ويصحبه بتأييده وعونه[2] .

فالله تعالى يقول فى محكم التنزيل ، فى أسلوب آمر : **« يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا »[3].**

---

(1) الرسالة القشيرية — مرجع سابق ، ص ١٠١

(٢) كما يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالى ، فى كتابه « الجانب العاطفى من الاسلام » .

(٣) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢

أى : اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ، فلا تخلو أبدانكم عن ذكره فى حال من الأحوال ، وسبحوه فى الصباح والمساء : بالتهليل ، والتحميد ، والتمجيد ، والتقديس ..

ويقول جل شأنه حاثا عباده المؤمنين على الذكر : **« فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم »**(٤) .

أى : فاذا فرغتم من صلاتكم : فاذكروا الله على كل أحوالكم — قياما وقعودا ومضطجعين على جنوبكم — اذكروه بالتعظيم والدعاء ..

ويقول ابن عباس — رضى الله عنهما — : ما فرض الله على عباده فريضة ، الا جعل لها حدا معلوما غير الذكر فقال : **« فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم »** .. بالليل والنهار ، وفى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصحة والسقم ، والسر والعلانية .. وعلى كل حال ..

كما يقول تعالى مذكرا عباده ومعلما لهم : **« فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون »**(٥) .

أى : اذكرونى بطاعتى ، أذكركم برحمتى ومغفرتى ، واشكروا لى — أيها المؤمنون — فيما أنعمت به عليكم من الاسلام والهداية للدين الحق ، ولا تجحدوا احسانى اليكم فأسلبكم نعمتى ..

ويقول جل شأنه **« واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون . واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والاصال ولا تكن من الغافلين »**(٦) .

أى : اذا قرىء عليكم — أيها المؤمنون — القرآن ، فاصغوا لتلاوته لتتفهموا آياته ، وتعتبروا بمواعظه — يأمرهم تعالى بالانصات والسكوت عند تلاوة القرآن ، اعظاما له واحتراما ، ومخالفة للمشركين الذين قالوا : **« لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه »**(٧) — واسكتوا ولا

---

(٤) النساء : ١٠٣
(٥) البقرة : ١٥٢
(٦) الأعراف : ٢٠٤ ، ٢٠٥
(٧) فصلت : ٢٦

تلغوا عند تلاوته ، ليرحمكم ربكم بتأدبكم بآدابه ، واذكر ربك — أيها السامع للقرآن — فى سرك ، تخشعا وتواضعا لله ، وخوفا من عقابه ، وليكن دعاؤك باللسان فى سر وخفاء ، لا جهارا ، ولا تكن من السامعين اللاهين عن عبر القرآن وعظاته ..

وقد ورد فى صحف ابراهيم — عليه السلام — قول الحق سبحانه : « عبدى ، انظر الى السماء وارتفاعها ، والأرض واتساعها ، والأفلاك ومدارها ، والشمس وشعاعها ، وما هو ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن ، وما غاب وما حضر ، وما خفى وما ظهر .. الكل يشهد بجلالى ، ويقر بكمالى ، ويعلن بذكرى ، ولا يغفل عن شكرى » ..

وفى الحديث القدسى : « من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » ..

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت شفتاه بى » .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه : سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : « أن تموت ولسانك رطب بذكر الله عز وجل » ..

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل » ، قالوا : يارسول الله ، ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله الا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع »(٨) ..

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من اعطاء الورق والذهب ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ ، قالوا : وما ذاك يارسول الله ؟ قال : « ذكر الله عز وجل دائما » ..

---

(٨) رواه ابى شيبة فى المصنف والطبرانى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ قال : « أربع من أعطيهن فقد أعطى خيرى الدنيا والآخرة : قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا ، وزوجا لا تبغيه حوبا فى نفسها وماله »(٩) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : « ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله عز وجل الا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » ..

وعن أنس رضى الله عنه : « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى ، لا يريدون بذلك الا وجهه ، الا ناداهم مناد من السماء : قوموا مغفورا لكم ، قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات » ..

بل ان الله تعالى يبشر عباده الذاكرين بأنه يذكرهم فى الملأ الأعلى ، وفى ملأ خير من ملئهم .. فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى .. ان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ هم خير منهم ، وان تقرب منى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا تقربت منه باعا ، وان أتانى يمشى أتيته هرولة »(١٠) .

يقول النووى : قوله عز وجل : « أنا عند ظن عبدى بى » ، قال القاضى : قيل معناه : بالغفران له اذا استغفر ، والقبول اذا تاب ، والاجابة اذا دعا ، والكفاية اذا طلب الكفاية ..

« وقيل المراد به الرجاء وتأميل العفو ، وهذا أصح ..

« وقوله تعالى : « وأنا معه حين يذكرنى » ، أى معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية .. وأما قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم »(١١) ، فمعناه : بالعلم والاحاطة ..

« وقوله تعالى : « ان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى » ، قال المازرى : النفس تطلق فى اللغة على معان ، منها : الدم ، ومنها :

---

(٩) رواه الطبرانى .
(١٠) رواه مسلم .
(١١) الحديد : ٤ .

نفس الحيوان وهما مستحيلان فى حق الله تعالى •• ومنها : الذات ، والله تعالى له ذات حقيقة ، وهو المراد بقوله تعالى : « فى نفسى » ، ومنها « الغيب » وهو أحـد الأقوال فى قوله : « **تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك** » (١٢) ، أى : ما فى غيبى ، فيجوز أن يكون مراد الحديث : أى « اذا ذكرنى خاليا » أثابه الله وجازاه عما عمل بما لا يطلع عليه أحد ••

« وقوله تعالى : « وان ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم » ، هذا مما استدلت به المعتزلة ومن وافقهم على تفضيل الملائكة على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، واحتجوا أيضا بقوله تعـالى : « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** »(١٣) •• فالتقييد « بالكثير » احتراز من الملائكة ، ومذهب أصحابنا وغيرهم أن الأنبياء أفضل من الملائكة ، لقوله تعالى فى بنى اسرائيل : « **وفضلناهم على العالمين** »(١٤) ، والملائكة من العالمين •• ويتأول هـذا الحديث على أن الذاكرين غالبا يكونون طائفة لا نبى فيهم ، فاذا ذكرهم الله تعالى فى خلائق من الملائكة كانوا خيرا من تلك الطائفة ••

« وقوله تعالى : « وان تقرب منى شبرا تقربت اليه ذراعا ، وان تقرب الى ذراعا تقربت منه باعا ، وان أتانى يمشى أتيته هرولة » ، هذا الحديث من أحاديث الصفات ويستحيل ارادة ظاهره •• ومعناه : من تقرب الى بطاعتى تقربت اليه برحمتى ، والتوفيق والاعانة ، وان زاد زدت •• فان أتانى يمشى وأسرع فى طاعتى ، أتيته هرولة ، أى صببت عليه الرحمة وسبقته بها ، ولم أحوجه الى المشى الكثير فى الوصول الى المقصود •• والمراد أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه » اهـ (١٥) .

---

(١٢) المـائدة : ١١٦ (١٣) الاسراء : ٧٠ (١٤) الجاثية : ١٦

(١٥) صحيح مسـلم بشرح النـووى ، ط الشـعب ، ج ٥ ، ص ٥٣٣ ، ٥٣٤

ولهذا يروى مسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قوله : « مثل البيت الذى يذكر الله فيه ، والبيت الذى لا يذكر الله فيه : مثل الحى والميت » ..

وعند البخارى عنه : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره مثل الحى والميت » ..

* * *

والذكر — فى حقيقته — ليس باللسان وحده ، بل لابد أن ينشأ أولا فى القلب والوجدان ، ثم يفيض على اللسان : حمدا ، وتسبيحا ، وتنزيها لله تعالى ..

وايمان المؤمن ، وصدق يقينه .. يجعلانه يذكر ربه فى كل وقت ، ويراه فى كل شىء .. فى أحداث الحياة ، وفى مشاهد الطبيعة .. فيأنس به ، ويثق فى قدرته ، ويرجو رحمته ..

ولا ينبغى للمسلم — الحق — أن ينسى ربه أو يغفل عنه .. والا فماذا يذكر ان نسى ربه ، وبماذا يشتغل ان غفل عنه ؟ !

والذاكر لربه .. يذكره ربه فى ملأ خير من ملأه .. والغافل عن ذكره تعالى كالميت تماما ، لما ينشئه ذكر الله فى نفس المسلم من قوة وحياة ، وما يمده به من زاد ..

وما أعظم أن يقف العبد مع ربه فى جميع أحواله .. يستعينه ويلجأ اليه حين تحوطه المكاره ، لأن مقاليد الأمور بيده تعالى وحده ، وهو سبحانه لا يرد أحدا يقف ببابه ..

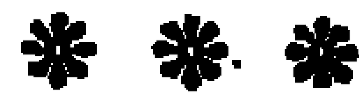
وما أعظم أن يطلب العبد من ربه الهداية والتوفيق .. وأن يسأله العفو ويطلب منه المغفرة .. فهو تعالى القائل فى الحديث القدسى : « يا عبادى ، انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم » ..

وأداء الصلاة ، وتلاوة القرآن ، والدعاء والتضرع الى الله ، والاستغفار ، وغيرها من العبادات .. من ذكر الله سبحانه ..

كما أن السعى فى الأرض لابتغاء الرزق .. وتحرى كسبه من الحلال ، ومراقبة الله تعالى فى كل حال .. أيضا نوع من ذكره تعالى .

ويقول الامام الشهيد حسن البنا :
« واعلم يا أخى أن الذكر ليس المقصود به الذكر القولى فحسب ، بل ان التوبة ذكر ، والتفكر من أعلى أنواع الذكر ، وطلب العلم ذكر ، وطلب الرزق اذا حسنت فيه النية ذكر ، وكل أمر راقبت فيه ربك وتذكرت نظره اليك ورقابته فيه عليك ذكر ..

ولهذا .. كان العارف ذاكرا على كل حالاته ، ولابد ليكون للذكر أثره فى القلب من مراعاة آدابه ، والا كان مجرد ألفاظ لا تأثير فيها » .



● **الرسول — صلى الله عليه وسلم — يعلمنا كيفية الذكر :**

لقد علمنا الرسول ﷺ كيف يكون الذكر .. كما رغبنا فيه ، وذكر أن من أوتيه فقد أوتى خيراً كثيرا ..

أخرج البخارى فى باب « الصلاة » ، وكذا مسلم والنسائى فى « عمل اليوم والليلة » عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله : ذهب أهل الدثور[١٦] بالدرجات العلا والنعيم المقيم .. يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل من أموال : يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون ..
فقال : « ألا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم الا من صنع مثل ما صنعتم » ؟
قالوا : بلى يارسول الله ..
قال : « تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين » ..

---

(١٦) أى الأموال الكثيرة ...

يقول أبو صالح — راوى الحديث — : لما سئل عن كيفية ذكرهن قال : « يقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر حتى يكون منهن كلهن ثلاثا وثلاثين » ..

وزاد مسلم فى روايته : « فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع اخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله .. فقال ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » ..

وقال ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »(١٧) .

وكان ﷺ يقول دبر كل صلاة حين يسلم : « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا اله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون »(١٨) .

وقال : « سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربى ، لا اله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، فانه لا يغفر الذنوب الا أنت »(١٩) .

وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول اذا قام الى الصلاة من جوف الليل : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ، ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت

---

(١٧) متفق عليه . (١٨) رواه مسلم .
(١٩) رواه البخارى .

وما أسررت وما أعلنت ، أنت الهي لا اله الا أنت ، ولا حول ولا قوة الا بك » ..

ويقول أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « سبق المفردون » .. قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ .. قال : « الذاكرين الله كثيرا والذاكرات »[20] .

ويقول الامام ابن كثير فى الذكر :

ذكرتك لا لأنى نسـيتك لمحة ... وأيسر ما فى الذكر ذكر اللسـان
وكدت بلا وجد أموت من الهوى ... وهان على القلب بالخفقـان
فلما أرانى الوجـد أنك حاضر ... شـهدتك موجودا بكل مـكان
فخاطبتك موجـودا بغـير تكلم ... ولاحظت معلوما بكل عيـان

* * *

● رقص .. وطبل .. ومزمار !!

هذا قليل من كثير مما ورد فى فضل الذكر والتسبيح والتحميد والتهليل .. مما لا يستطيع المسلم له انكارا ، أو يجد عليه فى قلبه اعتراضا . غير أن بعض الناس « حسبوا أن الذكر آثر عند الله تعالى وأدنى لرضاه من أى عمل آخر .. أو ربما حسبوا أن درجة الاحسان لا تنال الا بطول الذكر ، سواء فى الصوامع المعزولة ، أو المجالس الحافلة ..

فكان الاستكثار من الأوراد وأنواع التلاوات .. وانتشرت المسابح فى الأيدى تعد الأصابع على حباتها ما يمكن عده من أسـماء الله الحسنى »[21] .

وغاب عن القوم أن الذكر لا يقتصر على التسـبيح والتحميد والتهليل .. فقد قال تعالى : ((**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**))[22] .. فسمى القرآن ذكرا ..

---

(٢٠) رواه مسلم .
(٢١) للشيخ محمد الغزالى فى كتابه : «الجانب العاطفى من الاسلام» .
(٢٢) الحجر : ٩

كما غاب عنهم أن مدارسة العلم ، والتفقه فى الدين من الذكر ..
فعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال له :
« يا أبا ذر ، لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير لك من أن تصلى ألف ركعة » ..

وروى أن رسول الله ﷺ ، دخل المسجد يوما .. فوجد فئتين من الناس ، احداهما تسبح الله تعالى ، والأخرى تتدارس العلم ..
فقال عليه الصلاة والسلام : « أما الأولى .. فانها تسبح الله ، ان شاء قبل وان شاء لم يقبل » وعدل وجلس مع الثانية قائلا :
« انما بعثت معلما »[٢٣] .

لقد غاب عن القوم ، أن التفكر فى النعم التى أنعم الله بها على عباده نوع من الذكر .. وأن السعى على المعاش ، وتحرى الحلال فيه .. من الذكر أيضا .. يقول تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »**[٢٤] .

فسمى — تعالى — الصلاة والسعى اليها ذكرا ، وسمى الانتشار فى الأرض عقيبها وابتغاء فضل الله ذكرا كثيرا ..

ولقد رأينا كيف كان الرسول ﷺ يذكر ربه ، وكيف كان ذكره — ﷺ — تضرعا الى الله تعالى ، ضراعة النبوة والعبودية الخالصة التى تتفتح لها أبواب السماء ..

فلم يذكره — تعالى — باسم مفرد .. ولا ضرب صدره بذقنه ، ولا هز رأسه الى أخمص قدمه !!

ولم يتراوح — ﷺ — برأسه يمنة ويسرة ، ولم ينتج من سرته الى قلبه ، كما يفعل الصوفية !!

---

(٢٣) رواه الترمذى وصححه . (٢٤) الجمعة : ٩ ، ١٠

ليس فى ذكره منشد ، ولا دف ، ولا شبابة .. ولم ينصب دائرة يقف فى مركزها كالنصب يرقص الذاكرين بتصديته ..

انما كان ذكره — ﷺ — صادرا عن قلب مؤمن ضارع .. ملأه حب الله خشية ورهبة وتقوى .. يتوجه به الى خالقه الأعظم ، مالك الملك كله فى ايمان صادق وتوحيد خالص ..

لقد بعث — ﷺ — للناس معلما ، وهاديا ومرشدا .. فكان فى جميع أحواله الأسوة الحسنة التى يجب أن يتأسى بها المسلمون .. منذ مبعثه الى أن تقوم الساعة ..

والآن .. تعالوا الى ذكر الصوفية ، لنرى كيف يذكرون الله تعالى ؟ ؟ ..

يقول فضيلة الشيخ عبد الرحمن الوكيل : « يوجب الصوفية على الذاكر . « أن يستحضر شيخه ، وأن يستمد منه عند الشروع فيه فيقول : مددك يا أستاذى : وأن يرى استمداده منه عين استمداده من الرسول ﷺ ، فانه الواسطة اليه .. وأن يستأذن شيخه بقلبه فيقول : دستور يا أستاذى .. وأن يستأذن أصحاب الطريق والقدم — وهم أصحاب السلسلة — فيقول : دستور يا أصحاب الطريق والقدم ..

« وهكذا توجب الصوفية على « الدرويش » أن يتلطخ بهذه الوثنية قبل أن يذكر الله .. وأن يستأذن كل هذه « الأصنام » ليتقبل الله ذكره ويغمره برضاه !!

« حجب صماء تمور حولها الدياجير ، وتقصف الأعاصير .. تضعها الصوفية فى طريق السالك حتى لا يرى شعاعة من نور » !! (٢٥)

ويقول فضيلته عن كيفية الذكر : « أن يهتز من فوق رأسه الى أصل قدميه .. وأن يبدأ بـ « لا » يمينا ، ويرجع بـ « اله » فيتوسط ، ويختم « الا الله » يسارا قبلة القلب .. فان ذكر اسما مفردا كـ « الله » ، و « هو » ضرب بذقنه على صدره .. وأن يذكر مع جماعة مع رفع الصوت ، وينتع الكلمة من سرته الى قلبه !!

---

(٢٥) هذه هى الصوفية ، للأستاذ عبد الرحمن الوكيل — مرجع سابق ، ص ١٤٣ ، ١٤٤

« هذه البهلوانية الرعناء هى صورة الذكر الصوفى •• ترى هل كان رسول الله — وهو يذكر ربه — يهتز من فوق رأسه الى أصل قدميه ؟ •• أو كان يضرب بذقنه الى صدره ؟ •• أو كان يميل يمنة ويسره ؟ !

« لم يفعل شيئا من ذلك ، لأنه نبى •• ولأنه رجل أبى الرجولية •• أما رفع الصوت ، فالله تعالى يقول : « **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** »(٢٦) .

ثم يحدثنا فضيلته عن صيغ الذكر الصوفى ، فيقول : « من آداب المريد مع شيخه أن يذكر ما لقنه له أستاذه ، فلا يتجاوزه الى غيره ••

« ولهذا تعددت صيغ الذكر الصوفى تبعا لتعدد الطرائق وتباين الشـــيوخ •• فمنهم من يذكر بالاســـم المفرد ، ومنهم من يذكر بـ « هو •• هو » •• ومنهم من يذكر بـ « آه •• آه » •• وكل طاغوت صوفى يحرم على عبدته أن يذكروا بغير ما أذن لهم فيه •• أو أن يذكروا بما ترقص به الطرق الأخرى ، لاعتقادهم أن بعض أسماء الله تعالى قد يضر ذكرها هـــذا وينفع ذاك ، أو تضر فى حال وتنفع فى حال أخرى •• والخبير بما ينفع الذاكر أو يضره انما هو الشـــيخ ، لهذا لا يستطيع « الدرويش » أن يذكر « لا اله الا الله » الا اذا أمره بها شيخه ، ولا ينادى ربه بـ « يالطيف » والا أصابه مس أو خبال ، أو كما يسمونه « لطف » !

« اسمع الى القديس الصوفى « ابن عطاء الله السكندرى » يفترى الاثم الأكبر فيقول : « اسمه تعالى « العفو » يليق بأذكار العوام لأنـــه يصلحهم ، وليس من شأن السالكين الى الله ذكره •• واسمه تعالى « الباعث » يذكره أهل الغفلة ، ولا يذكره أهل طلب الفناء •• واسمه تعالى « الغافر » يلقن لعوام التلاميذ وهم الخائفون من عقوبة الذنب ، وأما من يصلح الحضرة ، فذكر مغفرة الذنب عندهم يورث الوحشة ••

---

(٢٦) المرجع السابق ، ص ١٤٤ ، والآية من سورة الاسراء : ١١٠

واسمه تعالى « المتين » يضر أرباب الخلوة ، وينفع أهل الاســتهزاء بالدين » اهـ[٢٧] .

« ويستمر « ابن عطاء الله » فى سرد هذا البهتان حتى يستوفى أكثر أسماء الله .. والله تعالى يقول : « **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى** »[٢٨] .

« ويقول : « **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون** » [٢٩] .

« اسمه « الغافر » لا يصلح الا للعوام ؟ !

« كأنما أولئك الطواغيت معصومون من الذنب ، أو آلهة !! .. على حين كان يستغفر الرسول — صلى الله عليه وسلم — ربه فى اليوم مائة مرة ! .. فهل تجد رحماً بين حق القرآن ، وبين باطل الصوفية ؟ ![٣٠]

ويعقب فضيلته على ذلك بقوله : « ذلك هو التصوف العملى فى شعيرتيه : الزهد ، والذكر .. فما العبادة فيه ؟

« أهى تلك الركعات أو السجدات التى لا يقر فيها قلب ولا جسد ، ولا تسلم فيها لله خاطرة واحدة ، ولا يخشع فيها شعور ، ولا يضرع دعاء ؟ .. فانما هى لأصنام القبور سجود وتسابيح ، ولجلاميدها الصم عبودية تطفح بالخشية منها والتقوى لها ، واللياذ بها والذهول المستغرق الا عنها !!

« ألا ترى مساجد الله خرابا ، ومعابد القبور تمور بالحشــود المحشودة فيها من كل صوب وحدب ؟

« ألا ترى مساجد الله التى طهرها الله من أوثان الأضرحة خاوية على عروشها ، أما المعابد التى جثم على صدرها قبر ميت ، وثوت فيهــا رمته أو وهمه ، فتضيق — على رحابها الفساح — بالأمين لها رجاء

---

(٢٧) نقلا عن « مفتاح الفلاح » لابن عطاء الله ، ص ٢٣ وما بعدها .. والنص منقول من « هذه هى الصوفية » .

(٢٨) الاسراء : ١١٠ (٢٩) الأعراف : ١٨٠

(٣٠) هذه هى الصوفية ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ ، ١٤٥

بركات القبر والرمة البالية ، أو الوهم الخرافي المشيد عليه القبر ، أو العظام المنوعة من حيوانات شتى .. لتنصب النذور على السدنة ؟ !

« ألا ترى تلك المعابد ينفق على فرشها واضاءتها وتبخيرها الألوف ؟! .. أما مساجد الله فتترك للغربان تسلح عليها ، وللبوم ينعب فيها » !!(٣١)

* * *

● ويقول فضيلة الشيخ عبد اللطيف مشتهرى : « سمعت بنفسى — رغم أنفى — من المهرجين الصاخبين فى مولد الرفاعى وهم ينشدون ويذكرون بأصوات ليس فيها أسماء ولا ضمائر .. انما هى مجرد حناجر مبحوحة تخرج الفحيح منبحا .. ثم تسمع من المنشد يضرع الى من تخيلهم أولياء . ويعدهم بالاسم ما بين ذكور واناث ، ويطلب منهم فى ذلة وخشوع وميوعة واهتزاز ما لا يطلبه الا من الواحد القهار سبحانه !!

« بل دمى قلبى بعد نفاد دمع عينى ، حينما سمعتهم يقلدون فى أناشيدهم صوت المطربات فى حلبة الرقص بالموسيقى التوقيعية .. وهنا تتهيج الأصوات وتثور الغرائز ويتمايل الراقصون . أماماً وخلفاً ، وعن اليمين والشمال .. وخلفهم وأمامهم النساء يزغردن ويرقصن ويصفقن مشجعات مدغدغات لهذه الشهوات !!

« ووالله لقد منعوا النوم من انحى كله بصخبهم وضجيجهم حتى بعد الفجر .. وصدق من قال فى أمثالهم :

وينبحون النبح كالكــــلاب ... طريقهم ليس على الصواب
وليس فيهم من غنى مطيــــع ... فلعنـــة الله على الجميــــع

« ولو أنهم قضوا عشر هذا الوقت الصاخب فى تلاوة كتاب الله ، أو قيام الليل ، أو تعلم أحكام دينه ، أو ذكر سليم خاشع ، لكان خيرا لهم وأهدى سبيلا ، ولما كانوا عنوانا سيئاً لهذا الاسلام الحائر بـــين ظلم أعدائه وضلالة أدعيائه: « **ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** »(٣٢) .

* * *

---

(٣١) نفس المرجع السابق : ص ١٤٧

(٣٢) هذه دعوتنا . للشيخ عبد اللطيف مشتهرى ، مرجع سابق ، ص ٤٢ . والآية من سورة الكهف : ١٧

● ويحدثنا فضيلة الشيخ محمد الغزالى — جزاه الله عن الاسلام خيرا — عن واقعة حدثت أمامه فى زيارته لقطر شقيق •• فما كاد المصلون ينتهون من صلاة الجمعة — فى ذلك القطر الشقيق — الا وهرعت الجماهير الغفيرة من أتباع الطرق الصوفية الى معالجة الذكر معالجة بعيدة عن مضمونه ومعناه •• وذلك بما أسماه — فضيلته — طقوسا خرافية •• ويعنى بها « الرقص الدينى » أو ما يعرف بحلقات الذكر ••

رآهم — فضيلته — يؤدون « رقصهم الدينى » باجلال واستغراق•• شيبا وشبانا •• والعرق يقطر من جباههم وأجسامهم لطول ما يقفزون ويهتزون يمنة ويسرة ، وينعقون بألفاظ يحسبونها ذكرا لله ، وما هى الا النسيان التام ، والحجاب الغليظ !!

فلما خرج — فضيلته — من المسجد تاركا وراءه هذه الصورة المنكرة ، واحتوته ميادين العاصمة ، شاهد الأجانب — فى ذلك القطر الشقيق — مقبلين على الحياة فى عزم وأمل •• يديرون المتاجر السامقة ، وتسيل الثروة والقوة والجمال من بين أيديهم ومن خلفهم •

ويحدثنا فضيلته عن الانطباع الذى خرج به ، فيقول : « فهززت رأسى أسفا واستحياء •• وتذكرت ما قيل من أن الفقر العربى يمشى على أرض من ذهب !!

« وتساءلت : ماذا كان على هؤلاء المصلين — بعد ما فرغوا من الجمعة — لو خرجوا لينتشروا فى الأرض ، ويبتغوا من فضل الله كما أمرهم الله ؟

« ان الذين ابتدعوا هذه « الأذكار » أضلوا المسلمين ضلالا مزدوجاً !!

« أضلوهم اذ أضافوا الى ما شرع الله هذه الزيادات المتخمة السامة ••

« وأضلوهم اذ صرفوا الهمم عن أعمال أخرى كان الاقبال عليها أرجى فى دين الله ، وأدنى الى نفع الناس »[٣٣] •

---

(٣٣) ليس من الاسلام ، للشيخ محمد الغزالى ، ص ١٨٥ ، ١٨٦

ثم يقول فضيلته : « والحق أن عوام المسلمين وخاصتهم ، لهم فى ذكر الله أساليب تتفاوت بعداً وقرباً عن المعروف من كتاب الله وسـنة رسـوله !!

« فالذكر » يقابل النسيان .. أى أنه وصف للقلب لا وصف للسان .

« والمرء قد يتذكر الشىء تذكرا جليا واضحا يملأ عليه أقطـار نفسـه ، دون أن تتحرك شفتاه أو تختلج فى جسمه عضلة .. بل ان سكون بدنه أعون له على الاستذكار ، وكلما هدأ واستغرق اكتملت فى ذهنه الصور التى يريد أن يتمثلها . وحركة اللسان ــ عندئذ ــ انما تأتى نتيجة ــ غير محتومة ــ لاستفاضة الوجدان بما فيه ..

« ورب ساكت لا تسمع منه حرفا ، وقلبه عامر بذكر الله . ورب متحدث عن الله بلسانه ، وفؤاده عن الله مشغول أو معزول .. فهو أشبه « بالأشرطة » المسجلة للقرآن الكريم ، تردده كما أنزل وليس عليها من حساب فى ثواب أو عقاب !!

« ولا أنكر أن الاسلام قد شرعت فيه أذكار شتى .. يقولها مؤمن بلسانه ولا يختفى فيها بجنانه .. ولكن هذا الذكر باللسان لا يتم ويرتفع الا اذا كان اللسان مفتاحا للقلب ، ومحركا له من خمود ..

« وهناك عبارات خاصة ذكرتها السنن الثابتة ، وقرنت بتردادها ثوابا جزيلا ، او رتبت على تكرارها أجرا رفيعا .. غير أن هذه الجمل المأثورة لا تعدو فى غاياتها الأناشيد الحماسية التى تصنعها الأمم فى عصرنا هذا ، كى تمجد الأوطان وتحبب الى النفوس البذل فى سبيلها ..

« فجماهير الطلاب والعمال ــ حين يرفعون عقائرهم بهذه الأناشيد، وحين تبرق أعينهم وتهتز أذرعتهم ــ يظهرون بهذه المشاعر الفائرة لونا من الحب لبلادهم يستحق التقدير .. لكن أحدا من أولئك المنشدين لا يفهم أن خدمة بلاده تنتهى بهذا الصياح مهما قارنه من اخلاص !!

« فدراسة العلم والانتظام فى فصوله ، والادمان على كتبه :

هو واجب التلميذ نحو أمته .. واتقان العمل والاستقرار فى مصانعه ، والعكوف على اجادته : هو الواجب الأول للعامل نحو أمته ..

« وتلاوة النشيد القومى ، لا صلة لها البتة بهـذه الواجبات المحتومة .. بل قد ترجأ الى أوقات الراحة بعد استفراغ الجهد من القيام بالحقوق المقررة .. ولو أن تلميذا اكتفى من حب بلاده بغناء النشـيد القومى مثنى وثلاث .. ما اعتبره الناس الا شخصا أحمق » !![٣٤]

ثم يقول فضيلته : « كذلك شرعت — فى دين الله — طائفة من الأدعية والأوراد المأثورة .. تضمنت معانى جليلة من تسـبيح الله وتمجيده وتقديسه .. يهتز لها ضمير المسلم وينشرح بها صدره ..

« والحكمة من شرع هذه الأذكار ، ربط القلوب بالله على نحو مباشر ، وبطريقة حارة .. وجميل بالمسلم أن يواظب على هذه المأثورات ، وأن يدع آثارها الكريمة تنطبع فى نفسه ..

« بيد أن من الغلط البالغ ، أن يعدو بها قدرها فيحسب أن تردادها يغنى عن الأعمال التى نيطت بحياته ووزعت على أوقاته ..

« أجل .. قد يسمح من المسلم أن يذكر الله بلسانه على شريطة ألا ينساه فى أعماله وأحواله .. فالذكر الأصيل المفروض : أن يعرف المرء ربه وقت النفقة فيكرم ، وحين البأس فيقدم ..

« فاذا نسيه فى هذه أو تلك ، فهو خاسر .. كما قال تعالى فى كتابه الكريم : « **لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** »[٣٥] .

« نعم .. هم خاسرون ولو صاحوا بذكر الله حتى شقوا أجواز الفضـاء !!

« ثم ان الذكر — لكى يصحبه فقه وتدبر — لا يكون بألفاظ مفردة يكررها الانسان مئات وألوفا .. فان الذكر كلام ، والكلام لابد — ليستفاد منه معنى معقول — أن يتكون من جملة كاملة ..

---

(٣٤) ليس من الاسلام : مرجع سابق ، ص ١٨٧ — ١٨٨

(٣٥) المنافقون : ٩

« هبك أردت أن تذكر شخصا اسمه عمر ، فهل يحلو ذكره بأن تقول : عمر •• عمر •• عمر •• الخ ؟ !.

« وهل اذا قال الله عز وجل : « **يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم** »(٣٦) ، كان تنفيذ هـذا الأمر بترديد بعض النعم التى نعرفها فنقول : خبز •• خبز •• خبز ، أو لحم •• لحم •• لحم !!

« ان فهم كلام الناس على هذا النحو السمج سقوط فى التفكير •• فكيف تسلط هـذه الأفهام على كلام رب الناس فتنزل به بدل أن يرتفع بهـا ؟ !

« ومع ذلك ، وجد من العوام جمهور غفير يرقص بكلمات مبتورة ، ويزعم هوسه هـذا ذكراً لله !!

« على أننا لا نعطى أحدا من البشر — مهما علا شأنه — أدنى حق فى اختلاق صيغ لذكر الله والزام قوم — قليل أو كثير — بهـا •• بل لا يجوز فى الصيغ الواردة نفسها أن ترسم لها أوقات مخصوصة أو أعداد معينة ، مادام الشارع قد أطلقها من هذه القيود ••

« واذا ساغ لأى من الناس أن يضع لنفسه منهاجا فى القراءة والدعاء والذكر — وفق حاجاته الخاصة — فليس له أن يعتبر ذلك شرعا عاما ، وأن يفرض على الناس اتباعه •• ان ذلك لم يحدث فى الشعر •• فكيف يحدث فى الدين ؟ !

« حدث أن ألف المعرى ديوانا أسماه « لزوم ما لا يلزم » ، جعل رويه على عدة أحرف •• والعرب — فى قصائدها الطوال والقصار — لا توجب ذلك •• فكان صنيع المعرى — هذا — موقوفا عليه ، ولم ير الشعراء مدعاة لاتباعه فيه ••

« الا أن العقل العام فى ميدان الشعر تحول الى حماقة فى ميدان الدين •• فوجد من أرباب الطرق من صنع للصباح والمساء أورادا حافلة ، وضمها الى الصلوات الموقوتة دينا مع الدين !!

---

(٣٦) فاطر : ٣

« ولا تقولن : الذكر خير ؛ والاستكثار منه ليس شناعة تستحق النكير •• فان الذكر خير حقا ، والاستكثار منه — فى حدود ما شرع الله — أمر ندعو اليه ، ولا يتصور أن يعترض مسلم عليه ••

« وما شرع الله من ذكر ، أوسع من أن يكون حديث لسان أو ترديد كلام •• ان الذكر الذى ارتضاه الله دينا ، وقبله من عباده قربة ، أعمق أثرا وأرفع أجرا من هذه الطقوس الذى اصطنعها أرباب الطرق فقطعوا بها الطريق ••

« وحكمة الله فى تشريعه ، تجعل العبادات المرسومة على قدر مرسوم •• لا تصلح النفوس بما دونه ولا بما فوقه •• ومن التهور أن تحسب الاستكثار من شىء ما — لأنه دواء — أمراً محموداً !!

« ألا ترى أن تناول قرص أو قرصين من « الاسبرين » شفاء من الصداع •• فاذا أردت الانتحار تناولت جملة فاحشة من هذا الدواء ؟ !

« لقد رأينا مدمنى « الأوراد والوظائف » ضائعين فى ميدان العلم والتربية •• ورأينا الاسلام قد تأخر بهم فى ميادين الكفايات والانتاج •• والعلة فى هذا الارتكاس ، أن القوم ضلوا عن هدى رسول الله ﷺ ، فزاغوا عن الصراط المستقيم »[٣٧] •

ويقول فضيلته : « لقد كان من أسباب انهيار الحضارة الاسلامية سوء الموقف من الدنيا وعلومها ، وبناء التربية الدينية على أفكار غيبية شاعت بين فريق من المتصوفة والزهاد والفقهاء الصغار !!

« ولنفرق بين النوعين فى التذكر والتفكر •• فان الشائع بين جماهير العابدين الذكر العددى •• وهو ذكر تافه لا يفتح أغلاق القلب ، ولا يوسع آفاق النظر •• وصورته أن يردد اللسان اسماً من أسماء الله الحسنى عشرات أو مئات أو ألوف المرات •• وقد تضاحك الظرفاء لأن الذاكر الذى يصيح : « ياللطيف » أعداداً متتابعة تتحول الكلمة على لسانه « فلطى فلطى » •• وهى كلمة تشبه بغام الدواب ، ولا تعنى شيئاً !!

---

(٣٧) ليس من الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ — ١٩١

« ان هذا الذكر قليل الغناء .. وقد استحسنه العباد من عند أنفسهم ، لا من عند الله .. فان الفكر الانسانى المتعرف على ربه أشرف من ذاك وأجل .. ..

« اذا قال الله تعالى : « انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »[٣٨] .. فهل هذا الأمر يعنى النظر الحالم ؟ ، أو النظر القاصر ؟ ، أو النظر العقيم ؟ !

« وهل تكرار هذا النظر التافه ، يفيد يقظة أو ثقافة .. أو يفتق أمام العقل منفذاً يصله بعظمة الله وآياته ؟ ؟

« والواقع أنه ما يوجد فى كتاب دين أمر بالنظر فى الكون كالقرآن الكريم .. وما يوجد ناس فى قرونهم الأخيرة عموا عن النظر فى الكون كجمهور المسلمين » اهـ [٣٩] ..

* * *

ونقول : ولهذا لم ير الرسول ﷺ العدد — قل أو كثر — قيمة فى الذكر .. روت أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضى الله عنها ، أن النبى ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهى فى مسجدها .. ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة ، فقال : « ما زلت على الحال التى فارقتك عليها » ؟ . قالت : نعم .. فقال ﷺ : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »[٤٠] .

وعن عمرو بن يحيى قال : سمعت أبى يحدث عن أبيه قال : كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة ، فاذا خرج

---

(٣٨) الانعام : ٩٩

(٣٩) الدعوة الاسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، مرجع سابق ، ص ٦٦ . ٦٧

(٤٠) رواه مسلم

مشينا الى المسجد •• فجاءنا أبو موسى الأشعرى فقال : أخرج اليكم أبو عبد الرحمن بعد ؟ قلنا : لا •• فجلس معنا حتى خرج ••

فلما خرج قمنا اليه جميعا ، فقال له ابو موسى : يا أبا عبد الرحمن ، انى رأيت فى المسجد آنفا أمرا نكرته •• ولم أر — والحمد لله — الا خيرا •• قال : فما هو ؟ •• قال : ان عشت فستراه ، رأيت فى المسجد قوما جلوسا ينتظرون الصلاة ، فى كل حلقة رجل وفى أيديهم حصى ، فيقول الرجل : كبروا مائة •• فيكبرون مائة ، فيقول : هللوا مائة •• فيهللون مائة ، ويقول : سبحوا مائة •• فيسبحون مائة !!

قال : فماذا قلت لهم ؟ •• قال : ما قلت لهم شيئا انتظار رأيك ، وانتظار أمرك •• قال : أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم ، وضمنت لهم ألا يضيع من حسناتهم شىء ؟

ثم مضى ومضينا معه •• حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليها فقال : ما هذا الذى أراكم تصنعون ؟ !

قالوا : يا أبا عبد الرحمن ، حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح ••

قال : فعدوا سيئاتكم ، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شىء !! ويحكم يا أمة محمد !! ما أسرع هلكتكم !! صحابة نبيكم متوفرون ، وهذه ثيابه لم تبل ، وآنيته لم تكسر !! والذى نفسى بيده انكم لعلى ملة هى أهدى من ملة محمد ، أو مفتتحو باب ضلالة !!

قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا الا الخير !!

قال : وكم من مريد للخير لم يصبه •• ان رسول الله ﷺ حدثنا : أن قوما يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، وأيم الله ما أدرى لعل أكثرهم منكم ••

ثم تولى عنهم !!

يقول عمرو بن سلمة : رأيت عامة أولئك الخلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج !!

ولهـذا يقول عبد الله بن مسـعود رضى الله عنه : « اتبعوا ولا تبتدعوا ، فقد كفيتم » ..

والبدعة — كما قدمنا — هى الطريقة فى الدين مخترعة ، تضاهى الطريقة الشرعية ، ويقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالشرعية .. أو يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله تعالى ..

وما قامت العبادات ، الا على الاتباع المحض لما أمر الله تعالى به ، وسنه رسوله ﷺ .. وانما الابتداع فى العبادات هو الجور والضلال ..

لقد زعم المشركون حين أرادوا تسويغ عبادة الأصنام أنها وسائط الى الله تعالى .. وحين طافوا بالكعبـة عرايا احتجوا لذلك بأنهم لا يبغون الطواف بملابس عصوا الله تعالى فيها !!

ولهذا نرى الرسول ﷺ يقول — فيما يرويه مسلم — : « ان خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد — ﷺ — وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » ..

* * *

● سئل « ابن تيمية » عن اجتماع الناس للذكر والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والحوقلة ، والصلاة على النبى ﷺ وما يصحب ذلك من تصفيق وتمايل وانشاد .. فأجاب رحمه الله :

« الاجتماع لذكر الله تعالى ، واسـتماع كتابه والدعاء : عمل صالح ، وهو من أفضل القربات والعبادات فى الأوقات ..

ففى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « ان لله ملائكة سيارة فضلا ، يتبعون مجالس الذكر ، فاذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا .. فاذا افترقوا عرجوا وصعدوا الى السماء .. فيسألهم الله عز وجل — وهو أعلم — من أين جئتم ؟ .. فيقولون : جئنا من عند عباد لك فى

الأرض : يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك .. قال : وماذا يسألوني ؟ .. قالوا : يسألونك جنتك .. قال : وهل رأوا جنتي ؟ قالوا : لا ، أي رب .. قال : فكيف لو رأوا جنتي ؟

قالوا : ويستجيرونك .. قال : ومم يستجيروني ؟ قالوا : من نارك يارب .. قال : وهل رأوا ناري ؟ .. قالوا : لا .. قال : فكيف لو رأوا ناري ؟

قالوا : ويستغفرونك . فيقول : قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا ، وأجرتهم مما استجاروا ..

قال : فيقولون : رب ، فيهم فلان — عبد خطاء — انما مر فجلس معهم .. فيقول : وله غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم »[٤١] .

ثم يقول ابن تيمية : « لكن ينبغي أن يكون هذا أحيانا في بعض الأوقات والأمكنة .. فلا يجعل سـنة راتبة يحافظ عليها الا ما سن رسول الله ﷺ المداومة عليه في الجماعات ، من الصلوات الخمس في الجماعات ، ومن الجمع والأعياد ونحو ذلك ..

« وأما محافظة الانســان على أوراد له من الصلاة أو القراءة أو الذكر أو الدعاء طرفي النهار وزلفاً من الليل ، وغير ذلك .. فهذا سنة رسول الله ﷺ والصالحين من عباد الله قديما وحديثا .. فما سن عمله على وجــه الاجتماع كالمكتوبات فعل كذلك ، وما سن المداومة عليه على وجه الانفراد من الأوراد ، عمل كذلك ..

« كما كان الصحابة رضي الله عنهم يجتمعون أحيانا ، يأمرون أحدهم يقرأ والباقون يستمعون .. وكان عمر بن الخطاب — رضي الله عنــه — يقول : « يا أبا موسى ، ذكرنا ربنا » .. فيقرأ وهم يستمعون .. وكان من الصحابة من يقول : « اجلسوا بنا نؤمن ساعة » ..

---

(٤١) كيف لا ؟ وقد اجتمعوا في مجلس علم يتذاكرون الجنة والنار ، ويرجون رحمة الله ويخافون عذابه ، والحديث رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

« وصلى النبى ﷺ بأصحابه التطوع فى جماعة مرات .. وخرج على الصحابة من أهل الصفة وفيهم قارىء يقرأ فجلس معهم يستمع ..

« وما يحصل عند السماع والذكر المشروع من وجل القلب ، ودمع العين ، واقشعرار الجسوم .. فهذا أفضل الأحوال التى نطق بها الكتاب والسنة ..

« وأما الاضطراب الشديد ، والغشى ، والموت ، والصيحات .. فهذا ان كان صاحبه مغلوبا عليه لم يلم عليه — كما قد كان يكون فى التابعين من بعدهم — فان منشأه قوة الوارد على القلب مع ضعف القلب ، والقوة والتمكن أفضل كما هو حال النبى ﷺ والصحابة .. وأما السكون قسوة وجفاء فهذا مذموم لا خير فيه ..

« وأما ما ذكر من السماع .. فالمشروع الذى تصلح به القلوب ويكون وسيلتها الى ربها بصلة ما بينه وبينها .. هو سماع كتاب الله الذى هو سماع خيار هذه الأمة .. لاسيما وقد قال ﷺ : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » .. وقال : « زينوا القرآن بأصواتكم » .. وهو السماع الممدوح فى الكتاب والسنة .

« لكن ، لما نسى بعض الأمة حظاً من هذا السماع الذى ذكروا به .. ألقى الشيطان بينهم العداوة والبغضاء .. فأحدث قوم سماع القصائد والتصفيق والغناء .. مضاهاة لما ذمه الله من المكاء والتصدية ، والمشابهة لما ابتدعه النصارى ..

« وقابلهم قوم قست قلوبهم عن ذكر الله وما نزل من الحق ، وقست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، مضاهاة لما عابه الله على اليهود ..

« والدين الوسط .. ما عليه خيار هذه الأمة قديما وحديثا ، والله أعلم »[٤٢] .

* * *

● ويقول ابن القيم عن الرقص والتمايل ، وما يصحبه من غناء

---

(٤٢) الفتاوى الكبرى ، لابن تيمية ، ط دار المعرفة ببيروت ، جـ ١ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

وانشاد ، وسماع وتصفيق ، وضرب بالدفوف وقرع بالطبول ، وعزف بالمزامير .. تلك الطقوس التى ابتدعها القوم عند الذكر :

« ومن مكايد عدو الله ومصايده ، التى كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين : سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحـرمة ، الذى يصد القلوب عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان ..

« فهو قرآن الشيطان ، والحجاب الكثيف عن الرحمن .. وهو رقية اللواط والزنا ، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى ..

« كاد به الشيطان النفوس المبطلة ، وحسنه لها مكرا منه وغرورا .. وأوحى اليها الشبه الباطلة على حسنه ، فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجورا !!

« فلو رأيتهم عند ذياك السماع ، وقد خشعت منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت انصبابة واحدة اليه .. فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان ، وتكسروا فى حركاتهم ورقصهم أرأيت تكسر المخانيث والنسوان !!

« ويحق لهم ذلك وقد خالط خماره النفوس ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حميا الكؤوس .. فلغير الله — بل للشيطان — قلوب تمزق ، وأثواب تشقق ، وأموال فى غير طاعة الله تنفق !!

« حتى اذا عمل السكر فيهم عمله ، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله .. واستفزهم بصوته وحيله ، وأجلب عليهم برجله وخيله .. وخز فى صدورهم وخزاً ، وأزهم الى ضرب الأرض بالأقدام أزاً !!

« فطورا يجعلهم كالحمير حول المدار ، وتارة كالدباب ترقص وسط الديار !!

« فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام .. ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام .. ويا شماتة أعـداء الاسلام بالذين يزعمون أنهم خواص الاسلام »(٤٣) ا هـ .

(٤٣) اغاثة اللهفان من مصايد الشـيطان ، لابن قيم الجوزية ، ط دار التراث العربى ، ص ١٩٣ ، ١٩٤

[ونقول : وهل ما يفعله جهال الصوفية اليوم من التحلق والرقص ، والتمايل على أنغام الغنــاء والصياح ، والاهتزاز والتصفيق بالأيدى والدبيب بالأرجل — مما يطلقون عليه زورا أنه ذكر لله !! — هل ما يفعله هؤلاء الأغرار المفتونين الا الفسوق والعصيان ، وذكر الشيطان من دون الرحمن] ؟ !

ثم يقول ابن القيم — رحمه الله — واصفا حال هؤلاء القوم :

« قضوا حياتهم لذة وطربا ، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا .. مزامير الشيطان أحب اليهم من استماع سور القرآن !!

« لو سمع أحدهم القرآن من أوله الى آخره ، لمـا حرك له ساكنا ، ولا أزعج له قاطنا ، ولا أثار فيه وجدا ، ولا قدح فيه من لواعج الشوق الى الله زندا !!

« حتى اذا تلى عليه قرآن الشيطان ، وولج مزموره سمعه تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت ، وعلى أقدامه فرقصت ، وعلى يديه فصفقت ، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زفراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت !!

« فيا أيها الفاتن المفتون ، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون .. هلا كانت هذه الأشجان ، عند سماع القرآن ؟ .. وهذه الأذواق والمواجيد ، عند قراءة القرآن المجيد ؟ .. وهذه الأحوال السنيات ، عند تلاوة السور والآيات ؟ !

« ولكن كل امرىء يصبو الى ما يناسبه ، ويميل الى ما يشاكله .. والجنسية علة الضم قدرا وشرعا ، والمشاكلة سبب الميل عقلا وطبعا !!

« فمن أين هذا الاخاء والنسب ، لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب .. ومن أين هــذه المصالحة التى أوقعت فى عقد الايمان وعهد الرحمن خللا ؟ ؟

« أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عـدو ، بئس للظالمين بدلا »(٤٤) .

---

(٤٤) الكهف : ٥٠ .

وقد أحسن القائل :

تلى الكتاب ، فأطرقوا ، لا خيفة ... لكنه اطراق ساه لاهى
وأتى الغناء ، فكالحمير تناهقوا ... والله ما رقصوا لأهل الله
دف ومزمار ، ونغمة شادن ... فمتى رأيت عبادة بملاهى ؟
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهى
سمعوا له رعدا، وبرقا، اذ هوى ... زجرا وتخويفا بفعل مناهى
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتها ، ياويحها المتناهى
وأتى السماع موافقا أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوى من قاطع ... أسبابه ، عند الجهول الساهى ؟
ان لم يكن خمر الجسوم ، فانه ... خمر العقول مماثل ومضاهى
فانظر الى النشوان عند شرابه ... وانظر الى النسوان عند ملاهى
وانظر الى تمزيق ذا أثوابه ... من بعد تمزيق الفؤاد اللاهى
واحكم فأى الخمرتين أحق بالتحريم ، والتأثيم عند الله ؟ »[45]

ويعقب ابن القيم على هذا بقوله :

« وقد تواتر عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال : « خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة — يسمونه التغبير — يصدون به الناس عن القرآن » ..

« فاذا كان هذا قوله فى التغبير ، وتعليله أنه يصد عن القرآن .. وهو شعر يزهد فى الدنيا ، يغنى به مغن فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو مخدة على توقيع غنائه — فليت شعرى ، ما يقول فى سماع « التغبير » عنده كتفلة فى بحر ، فقد اشتمل على كل مفسدة ، وجمع كل محرم .. فالله بين دينه وبين كل متعلم مفتون ، وعابد جاهل ..

« قال سفيان بن عيينة : « كان يقال : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل .. فان فتنتهما فتنة لكل مفتون » ..

---

(٤٥) اغاثة اللهفان ، مرجع سابق ، ص ١٩٤ ، ١٩٥

« ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة ، وجده من هذين المفتونين »[٤٦] .

ويقول ابن القيم فى قصيدة طويلة :

«ذهب الرجال وحال دون مجالهم — زمر من الأوباش والأنذال
زعموا بأنهم على آثارهم — ساروا ، ولكن سيرة البطال
لبسوا الدروق مرقعاً ، وتقشفوا — كتقشف الأقطاب والأبدال
قطعوا طريق السالكين وغوروا — سبل الهدى ، بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى — وحشوا بواطنهم من الأدغال
ان قلت : قال الله ، قال رسوله — همزوك همز المنكر المتغالى
أو قلت : قد قال الصحابة والألى — تبعوهم فى القول والأعمال
أو قلت : قال الآل ، آل المصطفى — صلى عليه الله ، أفضل آل
أو قلت : قال الشافعى ، وأحمد — وأبو حنيفة ، والامام العالى
أو قلت : قال صحابهم من بعدهم — فالكل عندهم كشبه خيال
ويقول : قلبى قال لى ، عن سره — عن سر سرى ، عن صفا أحوالى
عن حضرتى ، عن فكرتى ، عن خلوتى — عن شاهدى ، عن واردى ، عن حالى
عن صفو وقتى ، عن حقيقة مشهدى — عن سر ذاتى ، عن صفات فعالى
دعوى ، اذا حققتها ألفيتها — ألقاب زور ، لفقت بمحال

* * *

تركوا الحقائق والشرائع ، واقتدوا — بظواهر الجهال والضلال
جعلوا المرا فتحا ، وألفاظ الخنا — شطحا ، وصالوا صولة الادلال
نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم — نبذ المسافر فضلة الأكال
جعلوا السماع مطية لهواهم — وغلوا ، فقالوا فيه كل محال :
هو طاعة ، هو قربة ، هو سنة — صدقوا ، لذاك الشيخ ذى الاضلال
شيخ قديم ، صادهم بتحيل — حتى أجابوا دعوة المحتال
هجروا له القرآن والأخبار والآ — ثار ، اذ شهدت لهم بضلال
ورأوا سماع الشعر أنفع للفتى — من أوجه سبع لهم بتوالى

* * *

---

(٤٦) اغاثة اللهفان ، مرجع سابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

تالله ما ظفر العدو بمثلها … من مثلهم ، واخيبة الآمال
نصب الحبال لهم ، فلم يقعوا بها … فأتى بذا الشرك المحيط الغالي
فاذا بهم وسط العرين مخرقى الأ … ثواب ، والأديان ، والأحوال
لا يسمعون سوى الذى يهوونه … شغلا به عن سائر الأشغال
ودعوا الى ذات اليمين ، فأعرضوا … عنها ، وسار القوم ذات شمال
خروا على القرآن عند سماعه … صما وعميانا ، ذوى اهمال
واذا تلا القارئ عليهم سورة … فأطالها ، عدوه من الأثقال
ويقول قائلهم : أطلت وليس ذا … عشر ، خفف ، أنت ذو املال
هذا ، وكم لغو ، وكم صخب لهم … ضحك بلا أدب ، ولا اجمال

* * *

حتى اذا قام السماع لديهم … خشعت له الأصوات بالاجلال
وامتدت الأعناق ، تسمع وحى ذا … ك الشيخ من مترنم قوال
وتحركت تلك الرؤوس ، وهزها … طرب ، وأشواق لنيل وصال
فهنالك الأشواق والأشجان والأ … حوال ، لا أهلا بذى الأحوال
تالله لو كانوا صحاة أبصروا … ماذا دهاهم من قبيح فعال
لكنما سكر السماع أشد من … سكر المدام ، وذا بلا اشكال
فاذا هما اجتمعا لنفس مرة … نالت من الخسران كل منال

* * *

يا أمة لعبت بدين نبيها … كتلاعب الصبيان فى الأوحال
أشمتموا أهل الكتاب بدينكم … والله لن يرضوا بذى الأفعال
كم ذا نعير منهم بفريقكم … سرا وجهلا عند كل جدال
قالوا لنا : دين عبادة أهله … هذا السماع ، فذاك دين محال
بل لا تجىء شريعة بجوازه … فسلوا الشرائع تكتفوا بسؤال
لو قلتموا فسق ، ومعصية وتز … يين من الشيطان للأنذال
ليصد عن وحى الاله ودينه … وينال فيه حيلة المحتال
كنا شهدنا أن ذا دين أتى … بالحق ، دين الرسل ، لا بضلال
والله منهم قد سمعنا ذا الى الآ … ذان من أفواههم بمقال

. . . . (٤٧)

---

(٤٧) اغاثة اللهفان جـ ١ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

وهى قصيدة طويلة •• اكتفينا منها بهذه الأبيات ، لكي ندلل على فساد عقيدة القوم فى الانشاد والسماع — اللذين ينسبونهما زورا وبهتانا الى الذكر والمديح — وما هما من ذكر الله أو مديح رسوله ﷺ ، والاسلام منه براء !!

لقد ذم الله تعالى أهل الكتاب بابتداعهم الرهبانية فى دينهم •• فقال : « **ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون** »(٤٨) •

فلماذا نبتدع فى دين الله ما لم ينزل به سلطانا ؟ !

لماذا ننسب الى الرسول ﷺ التقصير فى البلاغ ، فندخل فى عبادتنا ما لم يأتنا به ؟ !

لماذا لا نعود الى كتاب ربنا ، وسنة نبينا •• لنأخذ منهما لديننا ودنيانا ؟ !

لماذا يتمسك البعض منا بهذه البدع المنكرة •• فى حين نرى بعض شيوخ الصوفية نفسها ينكر هذه البدع على أصحابها ويعدها من الدخيل والدسيس الذى تسلل الى الصوفية فأفسدها وأساء اليها ؟ !

سئل فضيلة الشيخ محمد زكي ابراهيم(٤٩) : عن استخدام الرقص والطبل والزمر والغناء ، وغيرها من الحركات غير اللائقة فى كثير من حلقات الذكر !!

كما سئل : عن تحريف أسماء الله تعالى باصدار الأصوات الساذجة غير المفهومة !!

فأجاب فضيلته : « أما استخدام الرقص ، والطبل ، والزمر ، والغناء — فيما يسمى حلقات الذكر — فليس من دين الله — قولا واحدا — سواء عند أئمة الصوفية أو غير الصوفية •• وانما هو من الدخيل والدسيس الذى تسلل الى التصوف فأفسده وأساء اليه •

---

(٤٨) الحديد : ٢٧

(٤٩) شيخ الطريقة المحمدية الشاذلية ، ورائد العشيرة المحمدية .•.

« ينقل الشيخ « ابن الحاج » فى « مدخل الشرع الشريف » :

« قلنا : وقد عاب الله نحو ذلك على المشركين من قبل فقال : **« وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية »**(٥٠) ــ يعنى تصفيرا وتصفيقا ــ وهما من لوازم الطبل والزمر والرقص !!

« ان الرقص والطبل والزمر ، لا شك هو لهو ولعب ، فاذا اتخذناه دينا كان افتراء على الله ، وهو تعالى يقول : **« وذر الذين اتخـذوا دينهم لعبا ولهواً »**(٥١) .

« ويقول : **« الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون »**(٥٢) .

« والله تعالى .. لا يأمرك بترك شىء هو قربة اليه .. فاذا كرر الأمر كان معنى ذلك أنه شىء يغضب له غضبا مضاعفا ، لمـا فيه من تعد عن حدوده تعالى ، وعلى حدوده ..

« يقول شاعر الصوفية :

ياعصـبة ، ما ضر أمة أحمـد وسـعى على افسـادها الا هى
طار ، ومزمار ، ونغمـة شادن أتكون قط عبـادة بملاهى !!

« وانما يعبد الله بما شرع ، وفيما شرع الله تعالى سعة وكفاية ، ومتعة روحية بغير حدود .. والعبادة جد كلها ، وهو تعـالى يقول : **« لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون »**(٥٣) ومن شاء لهواً مباحاً ، فليبتعد به عن العبادة وعن التصوف »(٥٤) .

ثم يقول ــ جزاه الله خيرا ــ : « أما تحريف أسماء الله الحسنى فى حلقات الذكر .. فاجماع أئمة التصوف على أنه حرام موبق .. وحسبك فيه قوله تعالى : **« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا**

---

(٥٠) الأنفال : ٣٥ (٥١) الأنعام : ٧٠
(٥٢) الأعراف : ٥١ (٥٣) الأنبياء : ١٧ ، ١٨
(٥٤) راجع مجلة التصوف الاسلامى ــ العدد ٧٢ ــ جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ (فبراير سنة ١٩٨٥ م) ، ص ٢٨ ، ٢٩

الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون »(٥٥) .. فهذا أمر بالذكر مع نهى شديد عن تحريفه والتحذير من الصلة بمن يحرفونه — أى يلحدون فيه — واعلان أنهم سيجزون بسوء عملهم ، فيكون هذا الاعلان بمثابة انذار ونهى شديد مكرر حتى ندع من يحرفون أسماءه تعالى .. فكيف بحكم المحرفين أنفسهم ؟ !

« وهذا الالحاد يشمل نحو قولهم « ها .. ها » أو « هى .. هى » أو « آه .. آه » ، وغير ذلك من الأصوات الساذجة الحمقاء ، التى لا تكون أبدا من كرام الناس ولا أفاضلهم .. لا أسلوبا ولا أداء — لكن المأخوذ عن نفسه لا يؤاخذ لأنه ممن رفع عنه القلم (!!) — ولهذا وجبت التفرقة الشرعية بين هذا وذلك ..

« وفى هذا يقول الشيخ « الأخضرى » فى أرجوزية الصوفية :

أبقوا من اسم الله حرف الهاء فألحدوا فى أعظم الأسماء
لقد أتوا ، والله ، شيئا ادآ تخر منه الشامخات هدآ

« ويلحق بهذا ، نطقهم باسم الله على غير وصفه الشريف .. من نحو ضم ألفه الأولى ، أو كسرها ، مع قصر ألفه الوسطى ، ومع تخفيف لامه أو تغليظها مما يخرجه عن منطوقه القرآنى الى منطوق سوقى محرم .. وخصوصا مع ما يسمونه « الدوكة » — أى تغليظ الصوت » اه(٥٦) .

* * *

وبعد .. لقد سمى الله تعالى الامتثال لهديه وطاعته فى الحياة الدنيا ذكرا .. واعتبر من أعرض عن الهداية ونبذ الطاعة معرضا عن ذكره ، وكما كان الانسان غافلا فى دنياه ، متعاميا عن تعاليم الله وهدى رسوله ، فسوف يكون يوم العرض فاقدا للحجة ، عاجزا عن المدافعة ..

لقد تعامى فى الدنيا ، لذا يعميه الله فى الآخرة .. وسيجد أمامه

---

(٥٥) الأعراف : ١٨٠

(٥٦) مجلة التصوف الاسلامى — مرجع سابق ص ٢٩ .

من العذاب والصغار والهوان ، ما يهون الى جانبه كل عنت وضيق وشدة مرت به فى حياته الدنيا .. جزاء وفاقا لتغافله وتعاميه عن هدى الله ورسوله ..

يقول تعالى : « **ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى** »[٥٧] .

ولقد سمى الله تعالى القرآن ذكرا فقال : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** »[٥٨] .

وسمى الصلاة ذكرا فقال : « **وأقم الصلاة لذكرى** » [٥٩] .

وسمى السعى فى سبيل الرزق الحلال بعد أداء الصلاة ذكرا فقال : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » [٦٠] .

واعتبر — تعالى — الاعراض عن اتباع هداه اعراضا عن ذكره .. فهل ما نراه اليوم .. من رقص وتمايل وتصفيق وتطبيل وتزمير ، والحاد فى أسمائه تعالى : هو ذلك الذكر الذى يريده الله منا ؟ !

أليس ما نشاهده اليوم من بدع فى الدين هو الاسراف بعينه ؟ !

ألم يتوعد الله المسرفين الغافلين عن آيات ربهم ، المبتدعين فى دينهم بقوله جل شأنه : « **وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** »[٦١] ؟ .

هل ما نراه اليوم من هذه البدع المنكرة ، هو الوقار المطلوب منا لله تعالى ؟ !

اللهم انا نعوذ بك من الزيغ والضلال ، ونسألك الهدى والتقى والرشاد ..

---

(٥٧) طه : ١٢٤ — ١٢٦
(٥٨) الحجر : ٩
(٥٩) طه : ١٤
(٦٠) الجمعة : ١٠
(٦١) طه : ١٢٧

ولا نجد ما نقوله للاخوة الذين أزاغهم الشيطان ، فأبعدهم عن الطريق الواضح للاسلام الا أن تقول كما قال الرسول ﷺ لأهل الكتاب ، امتثالا لأمر ربه : « **تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله** »(٦٢) .

تعالوا بنا الى طريق الاسلام الواضح البين .. فلا نعبد غير الله ، ولا ندعو غير الله ، ولا نأمل فى غير الله ، وأن نبرأ من كل معبود ســواه .. ولا نشرك فى عبادتنا له تعالى وثنا أو صنما أو صليبا أو شيخا أو طاغوتا .. وألا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فى معصــية الله .. فلا نعظم ولا نطوف ولا نتوسل بحى أو ميت .. انما نتوسل الى الله تعالى بأسمائه وصفاته ، ونتخذ من أعمالنا الصالحة الوسيلة الى التقرب اليه تعالى بطاعته وامتثال أوامره ..

هذا ما نقوله لاخوتنا الذين ضلوا السبيل .. فان هم أعرضوا عما ندعوهم اليه من الكلمة السواء التى أمر الله نبيه ﷺ باعلانها واضحة جلية .. فما علينا الا أن نقــول لهم ــ كما أمرنا الله تعالى من قبل : « **اشهدوا بأنا مسلمون** » .. آمنا بالله وحده ربا .. وبالرسول ﷺ نبيا ، ومعلما وهاديا ومرشدا .. ولنا فى ســنته ﷺ الأســوة كل الأسوة .. وفى سيرته وحياته ومماته القدوة كل القدوة .. وانا لله وانا اليه راجعون ..

* * *

---

(٦٢) آل عمران : ٦٤

الفصل الحادى عشر

ضلالات .. وانحرافات

يقول الله تعالى : « **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتـــاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشــابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقــولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الألباب** »[1] .

فالله تعالى .. أنزل القرآن على رســوله ﷺ .. فيه آيات واضحات بينات ، قد أحكمن بالبيان والتفصيل : فى الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، والحلال والحرام ، والعظات والعبر .. هذه الآيــات هن أصل الكتــاب الذى فيه عماد الدين ، من الفرائض والحــدود ، والأحكام ، وسائر الأمور الضرورية ..

والى جانب هذه الآيات المحكمات .. آيات أخر متشابهات فى التلاوة ، مختلفات فى المعانى ..

والمحكم .. هو ما عرف العلماء تأويله ، وفهموا معناه وتفسيره ..

والمتشابه .. ما لم يكن لأحد الى علمه سبيل ، مما استأثر الله عز وجل بعلمه دون خلقه ، كوقت خروج عيسى عليه السلام ، ووقت طلوع الشمس من مغــربها ، وقيام الســاعة ، وفناء الدنيــا .. وما أشــبه ذلك ..

ونحن نرى الذين فى قلوبهم ميل عن الحــق وانحراف عنه ، يتبعون من آى الكتاب ما تشابهت ألفاظه ، ارادة اللبس ، وطلبا لتفسيره على أهوائهم الباطلة ، دون الحق الذى أبانه الله تعــالى فأوضحه بالمحكم من آياته ..

---

(1) آل عمران : ٧

ولا يعلم معنى المتشابه الا الله وحده ..

ولهذا نرى العلماء المتمكنون فى العلم يقولون : صدقنا بالمتشابه من الكتاب وان لم نعلم تأويله .. فان كلا من المحكم والمتشابه منزل من عنـــد الله تعـــالى .. وما يتذكر ويتعظ الا أصـــحاب العقول ، ولهذا يقولون : « **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، انك أنت الوهاب . ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، ان الله لا يخلف الميعاد** »(٢) .

أى يقولون : الهنا وربنا .. لا تمل قلوبنا فتصرفنا عن هداك بعد اذ هديتنا فوفقتنا للايمان ، وامنحنا يارب من عندك رحمة ، وتوفيقا وثباتا على الحق ، فانك أنت المعطى عبادك التوفيق والسداد .. ربنا انك جامع الناس فى يوم القيامة — الذى لا شك فيه — فاغفر لنا ياربنا فى ذلك اليوم وارحمنا ، فانك لا تخلف وعدك لمن آمن بك واتبع رسولك ..

وهكذا .. نرى الناس ينقسمون فى عقائدهم الى ثلاثة أنواع ..

أولوا الألباب .. وهم الذين يتمسكون بالكتاب والسنة ..

والذين فى قلوبهم زيغ .. وهم الذين يجرون خلف كل شبهة ..

أما الفريق الثالث .. الذين لا عقيدة لهم ، ولا رأى عندهم .. المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء .. فلا قيمة لهم ولا وزن .. يعيشون على هامش الحياة ، يأتون الى الدنيا ويمضون عنها ، وما يحس بهم من أحد .. فكأنهم ما كانوا !!

***

وليس أخطر على العقائد الدينية من الغموض وعدم الوضوح .. اذ أنهما يحملان فى طياتهما عوامل الهدم لهذه العقائد .. تماما كالسوس ينخر فى أساس البناء الى أن يحيله أنقاضا دارسة ، سرعان ما تزول وتتلاشى !!

ولهذا كان الاسلام واضحا كل الوضوح .. والمسلم الذى ينتسب

---

(٢) آل عمران : ٨ ، ٩

الى عقيدة الاسلام يعرف كل ما يهمه — فى أمر الدين الذى انتسب اليه — بوضوح وجلاء ..

وحين يقول تعالى : « **اليوم أكملت لكم دينكم** »[٣] .. فان الوضوح والجلاء من عوامل الكمال لهذا الدين ..

ولذا ، لم يكتم الرسول ﷺ من أمر الدين شيئا ، ولم يحطه بهالات من الغموض والأساطير والغيبيات التى يعجز العقل عن تفسيرها .. بل تركنا على المحجة البيضاء .. ليلها واضح جلى فى وضوح وجلاء نهارها ..

ولكن الصوفية تقول : ان علمها لا يقرأ فى الكتب ولكنه معانى يقذفها الله تعالى فى قلوب المريدين .. ومن هنا فتحت الباب واسعا لادعاء المدعين ، وباطل المبطلين !!

وفى كل عصر ، لا يعدم الناس أدعياء .. بدءا من فرعون الذى ادعى الألوهية ، ومرورا بكذاب اليمامة الذى ادعى النبوة .. وانتهاء الى كل دعى كذاب ، يدعى لنفسه ما ليس لها .. فهكذا حال الدنيا !!

* * *

● **شيخ طريقة .. يدعى النبوة :**

فى صبيحة أحد الأيام[٤] .. طالعتنا صحف الصباح باكتشاف تنظيم دينى يتعارض مع أحكام الشريعة الاسلامية .. بعد أن ادعى طبيب من الاسكندرية يدعى « صلاح فهيم بريقع » النبوة واتخذ من مسكن أحد أتباعه — من الأطباء — مركزا لعقد ندواته مساء الخميس من كل أسبوع .. الى أن ألقى القبض عليه وثلاثين من أتباعه — الذين آمنوا به — من الرجال والنساء !!

وكانت بداية الخيط الذى قاد الى اكتشاف هذا التنظيم .. بلاغا تقدم به زوج ابنة الطبيب الدجال الى أحد أقسام الشرطة بالاسكندرية ضد صهره قال فيه : ان الدكتور — الداعى — يتزعم جماعة يؤمنون بأنه نبى .. بعد تجسد شخصية النبى محمد — ﷺ — فى شخصه !!

---

(٣) المائدة : ٣

(٤) يوم الاثنين ١٨ من فبراير سنة ١٩٨٥

وقال صاحب البلاغ : بأن صهره يقيم جلسات لأتباعه أسبوعيا بمنزل أحد الأطباء من مريديه •• يقوم خلالها بتفسير القرآن الكريم تفسيرا خاطئا •• ويقدم بعضا من الأحاديث المزعومة وعبارات ركيكة أخرى •• يقول عنها انها تنزيلات ووحي أنزل عليه أثناء الصلاة !!

وقال المبلغ : انه واظب على حضور هذه الجلسات لعدة أشهر ، وأنه صدم فى نهايتها بهذه الأفكار الخبيثة التى تشوه الاسـلام •• ثم قدم مجمـوعة من الأشرطة التى تؤكد كلامه ، ومسـجل عليها جلسات الجماعة !!

كان هذا هو الخيط الأول الذى قاد أجهزة الأمن الى حقيقة هؤلاء الناس وضبطهم ••

بدأ الطبيب الدجال — الذى يبلغ من العمر ٦٦ عاما — ممارسة نشاطه الهدام لأركان الدين الاسلامى فى الستينات على أساس أنه يدعو لاقامة جماعة صوفية •• فأعلن لمجموعة من أصدقائه بأنه من أولياء الله الصالحين •• الذين اصطفاهم الله لهداية المسلمين والدعوة لفعل الخير بينهم من خلال طريقة صوفية باسم « الطريقة القاسمية الشاذلية » •• ولكن بعض المواطنين الذين كانوا على وعى دينى رفضوا فكـره وأبلغوا عنه ، فجمد نشاطه !!

ثم عاود الكرة فى السبعينات ، وانصرف عنها مرة أخرى •• الى أن بدأ يزاول نشـاطه ويدعو لطريقة صـوفية جديدة أسماها : « الطريقة الصلاحية الشاذلية المحمدية الزينبية » !!

وفى هذه المرة •• انخدع بعض المحيطين به ، وصدقوا ادعاءاته الكاذبة بأنه من أولياء الله المتصلين بالأنبياء والرسل ، وأن الله اصطفاه داعيا للخير بين المسلمين ، واتصاله أيضا بالسيدة زينب رضى الله عنها !!

ومن هنا بدأت الأفكار المسمومة تظهر على السطح •• حيث أصبحت لقاءاته مع أتباعه ومريديه منتظمة ، فادعى نزول الوحى عليه أثناء الصلاة •• وقال بقدرته على غفران الذنوب •• وما زال يروج هذه

الأفكار حتـى أعلن أن النبـى محمـداً ﷺ قد عاد متجسداً فـى شخصه •• ثم قسم أتباعه الى قسمين : ملوك ، وهؤلاء يؤمنون بنبوته •• وصعاليك ، وهؤلاء الذين لم يصلوا بعد الى مرتبة الايمان بنبوته !!

ظل هذا الطبيب الدجال يعقد الندوات كل يوم خميس بمسـكنه •• الى أن استضافته طبيبة من أعوانه منذ عام ١٩٨٣ •• وخصصت له حجرة فى شقتها حيث كان يرتدى جلبابا أبيض ، وينام على سرير بجواره مرآة بطول الحائط ، وحوله أجهزة تصـوير الفيديو وأشرطة الكاسيت •• ليأخذ عنه مريدوه من أحاديثه !!

وكان يفسر فى هذه الجلسات الأسبوعية القرآن ويؤوله حسب مزاجه الخاص وأفكاره المسمومة •• حيث حرم على أتباعه الحج الى مكة ، لأن الناس أصبحوا لا يذهبون الا للتجارة •• والحج يكون له هو •• وحرم عليهم الزكاة ، وأداء صلاة الجمعة ، لعدم وجود امام من قريش فى هذا الزمان !!

وعند مداهمة أجهزة الأمن لمقر ذلك الطبيب الدجال •• عثرت على ١١٧ شريط كاسيت ، و ١١ شريط فيديو •• مسجلا عليها لقاءاته مع أتباعه الذين اقتنعوا بعقيدته الفاسدة •• كما تم العثور على زجاجـة خمر بجوار سريره ، ومستندات شـهادات استثمار على أحد البنوك بالاسكندرية تزيد قيمتها عن المليون جنيه !!

وقد تمكن — النبى الدجال — من السيطرة على أتباعه •• والغريب فى الأمر أن بينهم صـفوة من الأطباء والمثقفين ، وأصحاب الوظائف الحساسة •• الذين قسمهم الى ملوك وصعاليك (!!) وكان الملوك — وهم الخاصة المقربون منه — يجلسون على « الفوتيهات » •• أما أتباعه الآخرون من الصعاليك فيجب أن يجلسوا على الكراسى ، لأنهم فى مرتبة أدنى من الملوك !!

ويجىء على رأس هؤلاء الملوك « سيدى عبد العزيز » •• الذى ادعى الدجال أنه ينزل عليه الوحى فى منامه ، ويأتيه بالأحاديث الباطلة

الكاذبة ، التى يراها فى منامه ثم ينشرها بين أتباعه ويدعوهم فيها الى حفظها بدلا من القرآن الكريم ؛ لأنه يصعب عليهم حفظه !!

كما تأتى على رأس الملكات .. زوجته التى أسماها « الملكة المعظمة نجاح » ، والملكة « نجوانا » — الطبيبة التى استضافته فى بيتها — وقد كتب فيها حديثا ادعى الدجال نسبه الى النبى ﷺ وقال فيه : « لأن فى قلب « نجوانا » عقيدة لا تنتهى ولا تلين ، ولأن حب « نجوانا » لنا هو اليقين ، ولأن من خلق « نجوانا » لا تأخذ الا ما هو فل وما هو ريحان وما هو ياسمين ، ولأن « نجوانا » فى عطائها لنا لا تبخل علينا بالغـالى ولا بالثمين .. فانا « لنجوانا » لمحبين ، وانا « لنجوانا » محافظين ، وانها حقا لأم للمؤمنين ، وامام للمحبين ، وملكة على عرش قوى متين ، فوالله انها لمن الصابرين ، فوالله انها لمن الصادقين ، فوالله انها لمن المتقين ، فوالله انها لبشراى لها انها ستكون يومئذ من الصالحين فى أعلى عليين »(٥) !!

وكان — شيخ الطريقة الدجال — يقبل الرجل من أتباعه فى فمه ثلاث قبلات .. أما المرأة أو الفتاة فيقبلها فى فمها عشر قبلات .. ومن يرضى عنها يقبلها ٢١ قبلة ، ويسمنها « العدد الأقدس » وهى منتهى رضاه عن أتباعه !!

وتبدأ طقوس الجلسات الأسبوعية .. بأن يبدأ المريدون بخلع أحذيتهم قبل الدخول عليه ، ليقوموا بتقبيل قدمه ويده .. ثم تقرأ الفاتحة قراءة جماعية ، ثم التسبيح ، فالصلاة على النبى ﷺ !!

ثم يبدأ « سيدى عبد العزيز » فى التحدث عن الرؤيا التى رآهـا فى منامه .. وعادة ما يصف شيخه الدجال بأوصاف الرسول ﷺ .. ثم يقوم كل عضو من الأتباع بعرض الأحلام التى شاهدها فى نومه طوال الأسبوع .. ليقوم شـيخ الطريقة مدعى النبوة بتفسيرها ..

---

(٥) راجع جريدة الأهرام القاهرية الصادرة صبيحة الاثنين ٢٨ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ (١٩٨٥/٢/١٨ م) ومجلة اللواء الاسلامى — العدد ٢١٠ — ١٩ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦/١/٣٠ م) .

وهو يقسم الرؤيا أو الأحلام الى نوعين .. الأولى : الرؤيا الرحمانية ؛ وهي التي يرى فيها المريد الرسول ﷺ في الحلم .. والثانية : الرؤيـا الشيطانية ، وهي ما دون ذلك !!

ثم يبدأ — شيخ الطريقة الدجال — في تفسير آيات من القرآن الكريم .. لا تمت الى آية تفسيرات سابقة عليها بصلة .. وكلها دجل يخدم فكر الطبيب المنحرف !!

وتنبرى واحدة من الجالسات .. وتقص عليه حلما شاهدته فيه نائما والى جواره الملكـة « نجوانا » فيعظم لها أجرها ويستدعيها ليقبلها عشر قبلات !!

وحدث أن رفضت واحدة — حضرت مع زوجها — أن يقوم الدجال بتقبيلها ، فيأمر الزوج بتطليقها قائلا : « النساء خلقن من ضلع أعوج لا يعدلهن الا الطلاق » .. ولم يجد الزوج أمامه الا الاتفاق مع زوجته على ادعاء الطلاق ، فيعود الشيخ ويأمر بتغريمه خمسـمائة جنيه ، لكن الرجل لا يجد ما يسد به هذه الغرامة ، فيحاول بيع مصاغ زوجتـه التي ترفض ، ويتوجه الزوج الواقع تحت تأثير الشيخ الدجال ليعلن فشله في ضم زوجته واقناعها بأن القبلة « نعمة » ، فيشن الشيخ حملة في كل مجالسه على الزوجة بأفظع السباب !!

وفي احدى الجلسات المسجلة بصوت الدجال .. قال بالحرف الواحد ليوهم أتباعه أنه نبي : « الملاكة « ألفت » — قاصدا واحدة من أتباعه — رأتني كتلة من النور ، وقالت لي : أنت حضرة النبي ، لأنـه لا توجد كتلة من النور الا في حضرة النبي » !!

ويضيف : « كان فضل الله على عظيما يوم أن جعلني ملكاً في طريق الله ، وأكثر من ذلك الكرم كرما ، وأعظم من ذلك الفضل فضلا : أن نفحني رؤيا حضرة النبي عليه الصلاة والسلام وآل بيته الكـرام ؛ في اليقظة والمنام ، فضمنت الدنيا والآخرة » !!

ويقول الدجال في أحد أتباعه : « الناس الذين لديهم استعداد طيب للعقيـدة ، هم الذين يستعملون قلوبهم ، أما الذين يستعملون

عقولهم ، فالشيطان شريك لهم بنسبة تسعة من عشرة •• ويتساءل الناس : لماذا تتنزل التنزيلات على «سيدى عبد العزيز» دون سواه •• وأرد عليهم بأن له قلبا صافيا شفافا ، ولا تتنزل التنزيلات على كل الناس » !!

عرضت قضية الطبيب الدجال الذى اتخذ التصوف عباءة يتستر وراءها على المحكمة •• التى تقدمت بطلب الى الأزهر بتشكيل لجنة من كبار العلماء لمناقشة هذه الأفكار المسمومة •• وتكونت هذه اللجنة برئاسة مدير عام البحوث والنشر بمجمع البحوث الاسلامية •• وقامت اللجنة بسماع ومشاهدة الأشرطة المضبوطة •• ثم قالت فى تقريرها : «ان اللجنة فزعت مما رأت وسمعت •• وهى – أى اللجنة – تبدى أسفها وألمها لما رددته فى هذا التقرير من ألفاظ وردت على لسان «الدكتور صلاح بريقع» وتابعيه •• وتبرأ الى الله من أفكاره وألفاظه حيث قام بالتطاول على رب العزة ، وسلب بعض اختصاصه ، وتحريف الآيات القرآنية تأويلا فاسدا بما يتفق مع أهدافه التى لا تتفق مع دين الله ، وقام بادعاء النبوة بالاضافة الى الطعن فى الأنبياء ونفى العصمة عنهم والادعاء بكذب بعضهم ، وعدم اكتمال ايمان بعض هؤلاء الأنبياء •• بل وجعل مكانة مريديه فوق الأنبياء ، ثم طعن فى صحابة رسول الله ﷺ وعرض بأمهات المؤمنين » !!

وقال تقرير اللجنة أيضا : « ان فكر هذه الجماعة الضالة •• جعل قائدها « بريقع » على كل شىء قديرا ، يعطى ويمنع ، ويحيى ويميت ، ويحل ويحرم ، يغفر الذنوب ويضاعف الحسنات ، بل انه جعل من زوجة صديقه المسماة بـ « نجوى » الجديرة الوحيدة بلقب أم المؤمنين •• وأعطى لنفسه فقط حق تقبيل النساء بدعوى أنها « قبلات محمدية » •• بل لقد وصلت سموم فكره الى أن جعل الرؤيا والأحلام التى يراها أتباعه بمنزلة الوحى ، وتنزيلا كالقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، ونسب الى النبى ﷺ كذبا لم يقله »!!

* * *

● **ثلاثة مهديون .. فى وقت واحد :**

كشف وقوع هذه الجماعة فى يد أجهزة الأمن .. أن هناك جماعات منحرفة أخرى .. تتستــتر بالعباءة الصوفية ، وتنشر أفكارها الغريبة تحت ستار الدعاوى الاسلامية ..

والمثير أن قائد كل جماعة — من الجماعات الجديدة التى كشف الستار عنها — كان يزعم أنه المهدى المنتظر — بعد أن سقط مدعى النبوة الكاذب فى الاسكندرية وحكم عليه بالسجن خمسة أعوام — وكان كل منهم يدعى أنه يتلقى الوحى ، ثم يستغل ذلك فى اعفاء أتباعه من أركان الاسلام ، والقيام بممارسات غير مشروعة لا تتفق مع مبـــادىء الدين الاسلامى .. أو أى دين آخر !!

وبينما كانت قضية الطبيب الدجال تنظر فى ساحة القضاء .. طالعتنا الصحف[٦] بنبأ مؤداه ســقوط ثلاث مجموعات أخرى تضم ٤١ عضوا .. اثنتان منها فى القاهرة ، والثالثة فى أسوان !!

ومثلما حدث مع مجموعة الاسكندرية .. ضبطت أجهــزة الأمن لدى هذه المجموعات كميات كبيرة من شرائط الكاسيت مســجل عليها معتقدات وأفكار هــذه الجماعات الضالة .. بالاضافة الى عدة كتيبات ونشرات وتعليمات تتضمن تفسيرها للقرآن والسنة ، ومعدة للتوزيــع على الجماهير !!

● المجموعة الأولى : يرأسها شخص اسمه « حسين محمد على حامد عشرى » — وشهرته « عبد الله الكاسى » — من مواليد ادفو بأسوان عام ١٩٢٧ .. وكان يعمل مخبرا فى مباحث الآداب بالقاهرة منــذ عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦٣ .. ثم استقال وعمل ملاحظـــا للأمن بشركة النصر للتليفزيون .. ويعمل حالياً « كومسيونجى » فى تجارة الورق » !!

وكما فعل دجال الاسكندرية .. ادعى « حسين عشرى » أنه ينتسب الى الطريقة الصوفية المعروفة « بالعزمية » — بعد أن وجد

---

(٦) صبيحة يوم الأربعاء ١٥ من يناير سنة ١٩٨٦

فى التستر وراء عباءة الصوفية الفضفاضة وعلمها — الذى لا يؤخذ من الكتب — خير وسيلة لممارسة دجله ..

وشيخ هذه الطريقة الجديدة — سبق اتهامه عام ١٩٨١ فى قضية مماثلة .. حيث كان يدعى أنه « المهدى المنتظر » .. فقد كان أقل طموحا من « الدكتور بريقع » فلم يدع النبوة .. الا أنه أفرخ عنه حيث عاود مباشرة أنشطة جماهيرية واسعة النطاق فى اتجاه ايهام النــاس بأنه « المهـــدى المنتظــر » وأنـــه يتلقى الوحـــى عن الرســول ﷺ فى علوم دينية وروحية .. حتى نجح فى استقطاب مجموعة تعتنق أفكاره وتسعى لترويجها فى القطاعات الجماهيرية !!

اتخذ شيخ هذه الطريقة من محل اقامته « برملة بولاق » مقرا يعقد فيه لقاءات دورية .. تضم أتباعه ومريديه — ممن ينتمون الى قطاعات جماهيرية مختلفة — يجرى خلالها الاستماع الى دروسه وتفسيراته ، وتداول المواد المسجلة على شرائط كاسيت ، التى تتضمن منهجه وأفكاره .. وتشمل طرح نظرية مؤداها : أن الكون عبارة عن دورات متعاقبة ، وبموجب هذه الدورات ، فان الله تعالى خلق آدم عليه السلام نبيا ، فظهر فى صورة موسى ومحمد عليهما السلام .. ثم يخلص من ذلك الى أن الرسول ﷺ هو نفسه المهدى المنتظر (!!) ، وأنه فى الدورة الحالية للكون يكون هو شخصيا « عبد الله المهدى » — أى أنه حاليا ، ومنذ بضعة وخمسين ســـنة فى الدورة الحالية — هو المهدى المنتظــر !!

يقول « حسين عشرى » : أن هناك عملية تتم ، هى تناسخ الأرواح ، بحيث يولد الانسان أكثر من مرة فى أكثر من فترة زمنية (!!) .. ويقول : ان أول دورة له كانت فى آدم نفسه ، ثم الدورة الثانية فى نوح ، والثالثة فى ابراهيم الخليل ، ثم يوسف عليه السلام ، ثم موسى ، ثم داوود .. الى أن وصل من جميع الأنبياء الى سيدنا محمد ﷺ !!

أى أنه هو الروح الواحدة المكررة فى جميع أجساد الأنبيـــاء ،

وأنه مات وبعث ١١٢٩ مرة !! ويفسر قول الله تعالى : « **أن الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد** »[٧] .. أن المعاد هو الدورة — المزعومة — وأنها تبشر به شخصيا !! ويقول : « اننى بعثت قبل ذلك فى صورة أبدان أخرى ، وأن البعث المشـــار اليه فى قوله تعالى : « **وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث** »[٨] : فهذا يوم البعث ولكنكم لا تعلمون .. هو البعث الدنيوى الجسدى ، أى عودة الانسان فى دورته الجديدة !!

ويزعم أنه هو المقصود بكلمة « الســـاعة » فى قوله تعـــالى : « **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** »[٩] .. أى يوم يأتى هو فى دورة جديدة !!

كما يفسر قوله تعالى : « **فقد جاء أشراطها** »[١٠] .. على أنهـــا الشرائط التى يسجلها هو بصوته !!

وطرح المهدى المزعوم .. تفسيرا عجيبا للقرآن الكريم يعتمد على تقسيم آياته الى قسمين .. قسما « زابوريا » وهو ما أنزل مرتين ، الأولى على الرسول ﷺ ، والثانية على « عبد الله الكاسى » نفسه .. والقســـم الثانى « الغير زابورى » ، وهو ما أنزل على الرســـول ﷺ فقط !!

وانتهى شيخ الطريقة الدجال من تفسيره الى حذف بعض آيات القرآن الكريم بزعم أنها « غير زابورية » .. بل والى تعطيل أركان الاسلام باعتبار أنه لم يشملها القرآن « الزابورى » الذى أنزل عليه !!

وكان يقول : « أنا لا أتحدث من خلال فكر أو مذهب معين .. وانما كل ما أقوله أتلقاه وآخذه من الله تعالى عن طريق رسوله الموجود الآن فى شخصى والذى هو المهدى المنتظر .. الذى اذا ظهر للناس كافة لا يظهر الا بصفة الساعة ، وكل الذى يقال عليه هو علم الساعة » !!

ويزعم المهدى المزعوم .. أنه رأى النبى ﷺ ، وأنه رأى النبى

---

(٧) القصص : ٨٥ — (٨) الروم : ٥٦

(٩) الدخان : ١٠ — (١٠) محمد : ١٨

ومعه الأنبياء كلهم •• ثم رأى جبريل يملأ آفاق السماء •• ثم استيقظ من النوم ، فرأى جبريل واقفا أمامه وأخذه الى الملكوت !! •• هذا فى حين أنه يقر بأنه كان يحب قراءة المجلات والصحف ، ولم يحدث أن قرأ كتابا دينيا واحدا •• لأن هذه الكتب معقدة بالنسبة له !!

كما يزعم هذا الدجال •• أنه كان يرى فى منامه آل البيت ، وأنهم كانوا يعظمونه ، وأن الامامين الحسن والحسين — رضى الله عنهما — جاءاه فى المنام وقبلا قدميه •• ولما حاول أن يمنعهما أبديا الخضوع له !!

وحين يتناول مسألة المسيخ الدجال والمهدى المنتظر •• يقول : ان المسيخ قائم وموجود ، وان يأجوج ومأجوج يعيشون فى باطن الأرض (١١) !!

وقد نجح المهدى المزعوم فى السيطرة على أتباعه وسلبهم ارادتهم تماما •• حيث أمكن ابتزازهم ماليا •• كما نجح فى تعطيل أركان الاسلام بالنسبة لهم بعد ايمانهم به ايمانا غريبا لا يصدقه عقل — الأمر الذى دعا أحد أتباعه — وهو مدرس غير متفرغ للترجمة بالجامعة الأمريكية — الى القول بأن شيخه « لم يتحدث عن علم الدورة الانسانية الا ابتداء من عام ١٩٨١ — تقريبا — بكشف من حضرة رسول الله ﷺ •• باعتباره المتلقى » !!

والمتلقى — الذى يزعمه هذا التابع — لم يدرس أى دراسة لعلوم القرآن أو الحديث الشريف •• ولكنه يعايش — على حد زعمه — من حضرة الرسول الكريم محمد عليه الصلاة والسلام تأويل القرآن بمعناه الحقيقى !!

ويضيف : « لقد اختتمت دوائر الولاية الجزئية بسيدى أحمد

---

(١١) راجع جريدة « الأخبار » القاهرية الصادرة صبيحة الأربعاء ٣ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦/١/١٥ م) ومجلة « اللواء الاسلامى » — العدد ٢٠٩ — فى ١٢ من جمادى الأولى سنة ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦/١/٢٣ م) .

الدرديرى ، بمعنى أنه فى كل عصر هناك قطب للزمان يعتبر خليفة عن رسول الله ﷺ .. أما فى آخر الزمان ، فيكون ختم ذات الولاية الكلية بمن اختتمت به النبوة كلها بنبى الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام .. والولاية الكلية فى وقتنا هـذا هى للامام « عبد الله محمد المهدى » عليه الصلاة والسلام .. فلا ولى غيره »[١٢] !!

وفى ليلة ١٩ ديسمبر ١٩٨٥ .. تم القبض على المهدى المزعوم .. أثناء عقد أحد اللقاءات الدورية لعناصر مجموعته فى منزله برملة بولاق .. ثم ضبطت هذه العناصر التى بلغ عددها ٢١ شخصا (١٠ من الذكور ، ١١ من الاناث) وأمرت النيابة بحبس الذكور حبسـا مطلقا وأفرجت عن الاناث !!

وضبط لديه ٩٧ شريط كاسيت ، مسجلا عليها محاضرات تتناول أفكار ومناهج المجموعة ، بالاضـافة الى أشرطة أخـرى كانت معدة للتوزيع ، ومجموعة كبيرة من المؤلفات والبيانات ، أعدها ويطرح خلالها ملامح منهجه الفكرى .. ومجموعات من الصور الفوتغرافية له ولعناصر مجموعته ، معظمها التقط له فى منزله ، وحرص على ظهور صورته بحيث تبدو فى خلفية الصورة لوحة عليها اسم « محمد » ﷺ ، والى جانبها صورة السيد المسيح عليه السلام !!

كما ضبطت كميات كبيرة من المذكرات والمخطوطات ــ أعدها شيخ الطريقة ــ وتتناول العديد من الموضوعات المرتبطة بالمجموعة ، أبرزها مذكرة بعنوان : « بيان موجز عمن لهم دور فى صحبة مع رسول الله ﷺ » .. وتحوى أسماء ٣٥ شخصا وأمام كل منهم كنيته ، و ٣٠ ورقة تحوى بيانا الى « كافة البشر فى جميـع أرجاء الأرض » نقلا عن شيخ الطريقة !!

وضبط أيضا خطاب من أحد أتباعه ــ وهو المتحدث الرسمى باسمه ــ يؤكد من خلاله « التزامه حتى السجود الى النار وراء شيخه اذا ما أمره بذلك » .. وخطابا مذيلا بتوقيع « من العابدة لك (....) » ،

---

(١٢) مجلة اللواء الاسلامى ــ المرجع السابق .

ويحوى عبارات غزلية وسردا لبعض الرؤى التى تؤكد علاقـة كاتبـة الرسالة عاطفيا بالمهدى المزعوم •• وخطابات أخرى تحوى موضوعات بممارسات غير مشروعة ، وعلاقات عاطفية موجهة الى شيخ الطريقة بصفته رسول الهدى وسيد العالمين(١٣) !!

● والمجموعة الثانية •• يتزعمها « محمـد أحمد عبـد الباسط القاضى » — ويبلغ من العمر ستة وأربعين عاما — وهو من أبناء محافظة الاسكندرية ، ويقيم فى فيلا بالمعـادى •• وكان يدرس بكلية طب الأسنان ، لكنـه عندما حان موعد التحاقه بالتجنيد بالقوات المسـلحة سافر الى ألمـانيا ، وتمكن من أن يمتلك عددا من المحلات التجارية ••

زعم هـذا الشخص أنه أوحى اليه بأنه المهدى من قبل شيخه المرحوم « محمد عثمان عبده البرهان » شيخ الطريقة البرهانية الصوفية ومركزها السودان ولها فرع بمصر ••

وقال انه تمكن من اقناع عدد من الألمـان باعتناق الاسلام ، ومن بينهم ثلاث ألمانيات تزوجهن وعشن معه فى شقة واحدة •• ثم اشترى فيلا فى حى المعادى وجاء بزوجاته الى مصر منذ ثلاث سنوات ••

وبدأ المهدى المزعوم يحاول ضم المريدين اليه عن طريق الادعاء بقدرته على مكاشفتهم ببعض أمور المستقبل •• كما أقنعهم بأنه يمتلك قوة خفية اسمها « سيف الشيخ البرهان » ، تعطى لحاملها القدرة على تحقيـق طلباته ، ومن خلال ذلك بدأ يجرى معاشرة مع أية سـيدة تقتنع بفكره !!

واستطاع — مهدى المعادى المزعوم — أن يستقطب مجموعة كبيرة من أتباعه ، استغلهم ماليا ، الى حد أنهم كانوا ينفقون فى الليـلة الواحدة أكثر من ١٥٠٠ جنيه !! ، كما استغل زوجاته الألمـانيات فى كسب المـال !!

كان المهدى المزعوم ، ينكر تأدية الصلاة وبعض العبادات •• ويبيح معاشرة مريديه لزوجات بعضهم البعض •• وزعم أنه لن يموت

---

(١٣) انظر جريدة الأهرام الصادرة فى ١٩٨٦/١/١٥

أبدا ، وأن هناك تحديا شخصيا بينه وبين « عزرائيل » !! ، وأنه موجود على الأرض للقضاء على « عزرائيل » ، وسيتمكن من التخلص منه ، وبذلك لن يتم قبض الأرواح ، وسوف يهيمن على الكون !!

وكشفت التحريات عن غرابة وانحراف فكر « المهدى المزعوم » .. فقد كان يزعم لمريديه أن روح السيد المسيح ـ عليه السلام ـ داخله ، وما دام المسيح لم يمت ، ولن يموت حتى يوم القيامة ، فانه سيظل حيا حتى تقوم الساعة !!

وعن القيامة ، زعم أن علاماتها بدأت ، مثل الفيضانات ، وحالات الجفاف ، وقتل المسلمين بعضهم البعض ، وأنه عندما تقوم القيامة ستفنى كل البشرية ما عدا الأردن بسبب المسجد الأقصا ، وأنه لذلك كان يفكر فى عمل مشروعات تجارية بالأردن !!

ومن مزاعمه وأفكاره الغريبة : أن الأنثى شيطانة ، لأنها خرجت من ضلع أعوج ، ولأنها أخرجت آدم من الجنة .. وأن جميع الذكور متشابهون فى النصف الأسفل ، والاختلاف فقط فى النصف الأعلى !!

ويزعم أن لديه القدرة على تغيير ذات أى شخص وتحـويله الى شخص آخر ، وذلك لتجنيبه الحوادث والكوارث !!

كما يزعم أنه سوف يظهر نجم مذنب يؤكد أنه المهدى المنتظر !! .. وقد سافر الى سانت كاترين وظل هناك أربعة شهور ينتظر ظهور هذا النجم المذنب ، ولكنه لم يظهر !!

وكان يدعو الى تحريم الصلاة ، بزعم أن الله تعالى ليس فى حاجة الى صلاة البشر ، وأنه خلق الملائكة ليصلوا له !!

وعندما هاجمت أجهزة الأمن فيلا المهدى المزعوم فى المعادى ، وألقوا القبض عليه وعلى أفراد جماعته (٩ رجال ، ٦ سيدات) عثروا على ٢٢٠ شريطا من شرائط الفيديو ، و ١٥ شريط كاسيت تشمل بعض الأفكار والممارسات ، وأوراق ومذكرات ، وصور للمهدى المزعوم وأعوانه فى أوضاع شاذة .. كما عثر على كمية من المخدرات مع اثنين من أفراد المجموعة !!

وقررت نيابة أمن الدولة العليا حبس أفراد المجموعة ، وتحويل أوراق القضية الى النيابة العامة »[١٤] ..

● أما المجموعة الثالثة .. فيرأسها شخص اسمه « محمد سليمان محمود — بدون عمل — ويبلغ من العمر ٦٣ عاما ، ويقيم بناحية منيحة مركز كوم أمبو بأسوان .. ومعه سبعة من معاونيه ..

ويتناول منهجه الدينى : اباحة أنماط دينية منحرفة تحت دعاوى اسلامية .. تنتهى الى اعفاء المنخرطين فى المجموعة من تأدية الفرائض الدينية المقررة ، كالصلاة والصوم ، بدعوى انتمائهم لطائفة «الجعافرة» الذين ينتسبون الى آل البيت (!!) . وادعاء شيخ الطريقة — رئيس المجموعة — أنه المهدى المنتظر ، ومحاولته اثبات ذلك عن طريق مكاشفة مريديه ببعض الأمور المستقبلية التى تتعلق بأوجه حياتهم !!

وأخذ شيخ الطريقة يسوق دعاوى عديدة لتبرير هذا المسلك المنحرف .. أبرزها بأن هذه التصرفات تبدو فى ظاهرها كفرا ، بينما هى فى باطنها تمثل ايمانا خالصا !!

وأخذ يطلق على هذه النظرية « لغز الايمان » ، الى جانب استثماره انتشار الطريقة فى أوساط قبائل الجعافرة فى أسوان .. والتى يروج بين أبنائها الاعتقاد بأنهم من نسل الامام على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — لينتهى من ذلك الى أنه : ما دام المريد ينتسب الى الأشراف — وهم آل البيت — فانه لا تحتسب عليه أية معاصى مهما ارتكب من محرمات !!

وتبين أن لهذه الجماعة فرعا فى القاهرة — ويقع فى حى الزمالك — حيث كان يقوم باستغلال أحد المساكن فى اقامة لقاءات لعناصر الطريقة بالقاهرة .. يجرى خلالها نفس الأنماط السلوكية . ويشارك فيها شيخ الطريقة نفسه ..

وباذن من نيابة أمن الدولة .. قامت أجهزة مباحث أمن الدولة بضبط وتفتيش هذه العناصر أثناء اقامة المجموعة سرادقا تحت اشراف

---

(١٤) انظر جريدة « أخبار اليوم » الصادرة فى ١٩٨٦/١/١٨

زعيمها بنجع القوز مركز كوم امبو — وكان يحضر الاجتماع نحو ١٥٠٠ شخص من أتباعها من بينهم حوالى ٣٠٠ سيدة — وعثر على مجموعة من شرائط الكاسيت مسجل عليها « الحضرات » التى ينظمها شيخ الطريقة .. كما ضبط أحد أعوانه — بالزمالك — أثناء عقد لقاء بعناصر المجموعة بالقـاهرة !!

وادعى — شيخ الطريقة — أنه وجماعته ينتسبون للطريقة الصوفية المعروفة « بالنقشبندية » — فى الوقت الذى أكدت فيه المشيخة العامة للطرق الصوفية أن هذه الطريقة لا علاقة لها بالمشيخة ، وأنها خارجة عن المفاهيم الصوفية الصحيحة !!

وقد وجهت النيابة — الى هذه المجموعات الأربع — تهمة استغلال الدين فى الترويج لأفكار متطرفة .. بقصد اثارة الفتنة ، وتحقير أحد الأديان السماوية ، والاضرار بالوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى .. وأمرت بحبس الرجال حبسا مطلقا !!

* * *

● رأى مشيخة الطرق الصوفية :

يؤكد الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى — شيخ مشايخ الطرق الصوفية — فى حديثه مع مجلة اللواء الاسلامى على أنه مما يؤسف له ظهور هذه الحركات فى هذا الوقت .. وأن الاسلام دين واضح .. محدد المعالم ، محدد الأحكام .. ومع ذلك تظهر هذه النزعات والتيارات التى أقل ما توصف به : هو الخروج عن كل ما دعا اليه الاسلام .. والخروج عن كل فضيلة أخلاقية ، ذلك أن هذه الجماعات تدعى أول ما تدعى أنها على حق ، وأنها تأخذ من معين هو معين النبوة .. فيدعى أصحابها الأخذ عن الله .. ويدعى أصحابها المهدية ، هذه أمور كلها تخالف ما دعا اليه الشرع ..

« ولذلك أعتقد أن هذه التيارات مخالفة تماما للكتاب والسنة ..

ولست أشك فى أن وراء هذه التيارات فى المجتمع المصرى دوافع خاصة : منها حب السيطرة ، والظهور والنفوذ والجاه .. هذا الى جانب أن بعض المنتمين الى هذه الجماعات يتجهون الى اباحة الجنس ، ويتجهون الى جمـع المـال .. وكل هـذا يبين لماذا تنشـأ ، ولماذا تنتشر .. فان اباحة الجنس مثلا تستهوى بعض الشباب ، وجمع المال يستهوى بعض الناس .. فهذه ليست حركات خاصة لوجه الله ..

« ولذلك فان هذه الحركات لا يمكن أن تنتمى للتصوف ، أو الى الاسلام .. لأن التصوف اذا أردنا أن نعبر عنه : التصـوف خلق وسـلوك ، ولا شك أن التصوف يهذب الخلق ويربى السـلوك .. ويمكن القول بان التصوف منهج فى التربية الاسلامية الصحيحة .. وهذه الجماعات مما تدعيه تخالف الاسلام من حيث التربية الاسلامية .. فالقرابة لأهل البيت لا يترتب عليها أى مزية أو أى وضع خاص .. ذلك لان القرابة لأهل البيت تعنى أن نعمل بعمل أهل البيت .. وأهـل البيت كانوا قدوة فى العلم والعمل .. ونتذكر هنا قول رسول الله ﷺ : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .. فهذا يدل على أن أهل البيت ليس لهم ادعاء الخروج عن الشرعية ، وبذلك يخضـعون لمـا يخضع له سائر المسلمين من أحكام ..

« وليس هناك شك .. فى أن هذه الحركات مريبة .. ادعاء أنها تنتسب الى أهل البيت ادعاء لا أساس له من الصحة ، ولما ينطبق عليهم ما ينطبق على المسلمين من أن يخضعوا لأحكام الكتـاب والسنة .. ولا صلة اطلاقا بين هذه الجماعات والصوفية ، ولذلك فان ادعاءهم بأنهم ينتمون الى الطرق ادعاء باطل .. والحقيقة أن الطرق الصوفية تبرأ من هذا السلوك ..

« صحيح أن بعضهم يدعى الانتماء الى طرق .. وهذا لم يثبت ، والطرق الصوفية تلتزم أساسا بمنهج التصوف الذى حددنا أنه تربية وسلوك يستمد من الكتاب والسنة النبوية ..

« ويجوز أن يكون سبق لهم الانتماء للطرق الصوفية ، ثم انحرفوا

عنها أو أبعدوا عنها .. يجوز لهؤلاء الناس أو بعض هؤلاء أن يندسوا فى هذه الادعاءات والجماعات .. ولكن من الثابت أن هذه الجماعات التى ظهرت لم تنتسب للطرق الصوفية المعروفة ، وهذا مقطوع به » .

ويقول فضيلته :

« لا أشك لحظة فى أن الهدف الأساسى لهذه الجماعات .. هو تحقيق مآرب ذاتية أياً كانت هذه المآرب .. قد يكون المنتسبون لهذه الجماعات من الجهلة بأحكام الدين الاسلامى .. لكن ثبت أن البعض المنتسب اليها من أهل العلم .. فان بعضهم خريجو دار العلــوم ، والبعض الآخر خريج الجامعات .. لأن انضمام بعض المثقفين الى هذه الجماعات شىء غريب ، وربما لا يكون اذا عرفنا أن لهم مآرب ذاتية كما قلت ، مثل اباحة الجنس فيجذب بعض الشباب المنحرف ، أو جمع المال والجرى وراء الثروة أو الثروات .. قد يبرر هذا لنا انضمام المثقفين الى هذه الجماعات . والقول بأنهم يدعون المهدية .. ادعــاء المهدية أمر كان موجودا على مراحل مختلفة من عصور الاسلام ، وكثير من ادعى المهدية ، لكن هذا لتحقيق منافع شخصية » ..

وعن دور أجهزة الاعــلام لمواجهة هذه الظاهرة .. يقـــول فضيلته :

« وعلى أجهزة الاعلام دور كبير فى ايصال الفكرة الاســلامية الصحيحة الى الناس .. كذلك من واجب رجال الدين أيــاً كان المجــال الذى يعملون فيه التصدى لهذه الجماعات ، ولكن الصعوبة أن هــذه الجماعات غالبا ما تكون متحفظة فى نشر التعاليم ، أو جذب الأعضاء فى نوع من السرية بدليل أنها لم تكتشف بســهولة .. أو لا بد من مواجهة هذه الأفكار بنشر الدعوة الاسلامية الصحيحة عن طريق رجال الدين ، وعن طريق أجهزة الاعلام .. لا أستطيع أن أحدد أسبابا معينة لظهور هذه الدعوات ، ولكن أقول : ان ما يكتنف هذه التجمعات من اباحة الجنس وجمع الأموال ، أقول ان هذا جعل بعض ضعفاء النفوس يقبل عليها ويمارس نشاطها » .

ويتحـــدث فضيلته عن ضرورة تعليم الدين بالجامعـــــات ، • فيقـــول :

« لا شك أن هذا يرجع أيضا •• الى أن الدعوة الاسلامية الصحيحة لا تصل الى الناس بسهولة •• يجب علينا فى هذه الظروف أن نعنى بموجهى الدعوة ، وأن يكون لنا ممارسة سليمة للأحكام •• وهـــذا كله لن يتأتى الا عن طريق غرس تعاليم الدين فى الناشئة ، والعناية بالتعليم الدينى فى المدارس والجـــامعات • • لو أن التعليم الدينى يدرس بصورة فعالة ، ولو أن القيم الاسلامية وجـــدت طريقها الى الشباب فى المدارس والجامعات ، لما وجـــدنا انضماما منهم لهـــذه الجماعات ••

« وهذه الجماعات تجمع الناس أولا على مبادىء قد تكون براقة •• ثم بعد ذلك يبثون حقيقة تعاليمهم •• أو بعد مدة يحسنون الانخلاع من القيم • • يحسنون الاتجاه الى ممارسة الجنس بعد فترة • • فهى تجذب أولا الناس كالجماعات السرية فى العصور الوسطى ، دائماً كانت تتخذ هذا الأسلوب • • تجعل درجات للمنتسب ، فيبدأون بتعاليم الدين ثم ينتقلون به الى التعاليم الخاصة •

« كان هذا موجودا فى الدعوة الفاطمية ، وموجودا فى الدعـــوة التى كانت تعرف بالحشاشين •• فى جذب الناس •• كانت تعرف فى المذاهب الانحلالية التى ظهرت فى الاسلام ، والتى قاومها العلمـــاء على مختلف العصور •• فهذه ليست المرة الأولى فى تاريخ الاســـلام حين تظهر دعوات سرية ، أو من هذا النوع •• بل كان دائما وأبدا ، وفى أوقات مختلفة تظهر هذه الادعاءات فكان يتصدى لها علماء الاسلام ، ويفندونها ويثبتون بطلانها ••

« أنا لا أقول انها ظاهرة •• فعدد المنتمين اليها محدود مهما كان •• « فالخير فى ومن تبعنى الى يوم القيامة » •• ولا ينبغى أبدا أن ننزعج لهم ولهذه الظاهرة أو هذه الحركات •• لأنها أشبه بنقاط بسيطة أو بقطرات فى بحر الاسلام ، لكن فى نفس الوقت : يجب أن نكـــون

منتبهين لخطورتها ، والى مدى انتشارها لاحتمال أن تنتشر بشكل أكبر فى المستقبل .

« وأقول ان من واجبنا دائما : أن نوعى الشباب لخطورة هـذه الحركات ولمخالفتها لأحكام الكتاب والسنة فى الاسلام .. واذا عرفنا الشباب بالاسلام ، لما وجدنا الانضمام لهذه الجماعات والادعاءات » ..

ثم يقول فضيلته : « كيف أن شبابا مثقفا متعلما فى الجامعة يقبل على هذه الجماعات ؟

« لو أن الدين درس فى الجامعة بحيث يتفهم شباب الجامعة حقيقة الاسـلام .. فى هذه الحالة يحجمون عن الانضمام لهـذه الجماعات والادعاءات ..

« الاسلام خلق .. حتى أن جميع أحكام الشريعة الاسلامية ، سواء أكانت أحكام العقائد ، أو أحكام العبادات ، أو الأحكام الأخرى فى الدين الاسلامى .. فكل حكم شرعى فى الاسلام يقوم على أساس أخلاقى .. فالاسلام حين ينحرف به أصحابه ، ينحرفون به الى شىء آخر يختلف تماما عن القيم الصحيحة .. وفى هذا لا يكون الاسـلام اسلاما ، انما يصبح شيئا آخر يقصد به مآرب أو منافع ذاتية لا تمت الى الاسلام بأى صلة ..

« فمثلا من أخلاق الاسلام التواضع .. ونجد القائمين على هذه الدعوة لا ينتمون الى التواضع ، لأنهم يقومون بأعمال غريبة .. منها أنهم أصحاب دعوة خاصـة ، وأنهم يوحى اليهم ، أو أنهم زعماء لهم مميزات خاصة تجعل الناس يحترمونهم بأكثر من اللازم لأنهم أصحاب مميزات .. فنجد أن رسول الله ﷺ كان يعيش فى وسط قومه كمـا يعيشون ، ولا يدعى هذه الادعاءات الا أنه يوحى اليه — وهذا حق — أما فى حياته فكاد يكون كما كان فى حياة الناس ..

« ومثل آخر ، التراحم والتواد والمحبة بين الناس .. كل هذه ليست موجودة بين الناس فى هذه التجمعات التى تفتقد كل هذه القيم الأخلاقية .. مما يقطع بأن قلوب القائمين على هذه الدعوة قد جفت تماما ولم يعد فيها شىء من مبادىء الاسلام الحقيقية .. هذه ملاحظة

نلاحظها على هذه الجماعات ، فلهذا يجب أن نكون محاذرين جدا من انتشار هذه الدعوات » ..

ويختتم فضيلته الحديث مع المجلة بقوله :

« وما خفي كان أعظم .. هذا الانفصام بين الواقع الذي يمارسون حياتهم فيه ، وتعاليم الدين الاسلامي ، هذا يدل دلالة واضحة على أن القائمين على هذه الجماعات لا يبحثون الا عن مآربهم الذاتية . . أعمال شاذة ، أو جمع أموال ، والزعامة كما يتوهمون .. وهذه قد ظهرت بوضوح في القيادات التى تقود هؤلاء الناس ، فهذه القيادات تدعى لنفسها الألوهية ، أو أنها يوحى اليها ، أو تدعى المهدية ، أو تدعى مجرد الزعامة .. فهذا يدل على أن جو هذه الجماعات جو غير اسلامى .. لأنهـا لو كانت تدعو الى الله ، فانها تدعو على بصيرة .. وكان رسـول الله ﷺ يقول : « أدعو على بصيرة انا ومن اتبعنى » فالبصيرة هنـا غير موجودة لمخالفتهم كثيرا من تعاليم الدين الاسلامى ..

« فهـذا يدعو الى التأمل . . ويدعو الى النظر . . وندعو الله أن يؤمننا من هذه الادعاءات .. وهذه الجماعات لا أساس لها حين تقول انها تجمعات صوفية .. لأن التصوف الصحيح هو كما يقول ابن القيم : واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق ..

ويقول الكتانى : ان التصوف خلق ، ومن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء . . وهو صفاء النفس ..

فانظر الى التصوف بأنه صفاء للنفس .. أين هو مما نجده عنـد هذه الجماعات الضالة .. فان نفوسهم ضالة ولهذا قال الامام الغزالى معرفا التصوف : تخلى وتجلى وتحلى .. تخلى عن الخلق المذموم ، وتحلى بالخلق الحميد .. فان حصل التخلى والتحلى ، حصل التجلى .. وهو معرفة الله سبحانه وتعالى .. فهذا هو التصـوف كما نفهمه ، وليس هذا من التصوف فى شىء »[١٥] .

* * *

(١٥) مجلة اللواء الاسلامى العدد ٢١٠ ، مرجع سبقت الاشارة اليـه وقد آثرنا أن نثبت نص الحديث الذى أدلى به فضيلته للمجلة بالكامل — برغم اختلافنا معه فى كثير مما جاء فيه — لأنه يحمل وجهة نظر المشيخة .

● من ثمارهم .. تعرفونهم :

يقول المسيح عليه السلام — فيما يرويه الانجيل الموجود بين أيدينا : « احترزوا من الأنبياء الكذبة ، الذين يأتونكم بثياب الحملان ، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة . من ثمارهم تعرفونهم : هل يجتنـــون من الشوك عنبا ، أو من الحسك تينا ؟ . هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة . وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية . لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا ردية ، ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارا جيدة . كل شجره لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النـــار ، فاذن : من ثمارهم تعرفونهم »(١٦) .

هذه الثمار الرديئة التى تتساقط يوما بعد يوم ، من شجرة عجفاء تستمد عصارتها من جذور عفنة تمتد وتتشعب فى تربة الصوفية !!

هذه القلوب الزائغة ، والعقول الضالة .. ثمرة طبيعية لأفكار ابن مسرة ، وابن سبعين ، وابن عربى ، وابن الفارض .. وأشباههم !!

ألم تتبسم مجموعة الاسكندرية « بالطريقة الصـــلاحية الشاذلية المحمدية الزينبية » ؟ !

ألم تنتسب مجموعة بولاق الى الطريقة « العزمية » ، ومجموعة المعادى الى الطريقة « البرهانية » ، ومجموعة أسوان الى الطريقـــة « النقشبندية » ؟ !

ألم تخرج هذه المجموعات من تحت عباءة الصوفية . . مستغلة ما يحوط التصوف الاسلامى فى أفكاره وفلسفته من غموض ؟ !

ولا يعفى مشيخة الطرق الصوفية « تأكيدها بأنه لا علاقة لها بهذه الطرق المنحرفة لخروجها عن المفاهيم الصوفيـــة الصحيحة » . . لأن المشيخة لم تبين للناس ما هى المفاهيم الصوفية التى تحب أن يســـير الناس عليها .. ولم تجرد الطرق الكثيرة المنتسبة اليهـــا من البدع

(١٦) انجيل متى : ٧ : ١٥ — ٢٠ .

والخرافات التى يتمسك بها البعض واهمين أنها من صميم الدين • • والاسلام برىء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب ! !

وليس غريبا أن تجد مثل هذه الأفكار الشاذة لها رواجا بين العامة والبسطاء •• ولكن الغريب حقا : أن يؤمن بها الطبيب ، والمهندس ، والمحامى ، وأستاذ الجامعة ، والمعيد بها ، والمدرس بالثانوى ، والأخصائى الاجتماعى ، وموظف البنك ، والمدير المالى ، والموظف بالمعاش ، وبالحكومة ، وبالشركات ، وطالب الجامعة والطالب بالثانوى •• وغيرهم وهم الذين بلغوا من العلم والثقافة درجة عالية تحميهم من التردى فى هاوية هذه الأفكار الشاذة والمضللة •• لا فرق فى ذلك بين الذكور والاناث •• ولولا مظنة التشهير لأوردنا قائمة بأسماء ومناصب أعضاء هذه المجموعات الأربع !!

ولهذا قلنا ان شجرة الأفكار المنحرفة ، قد استمدت عصارتها من الجذور العفنة التى تمتد وتتشعب فى تربة الصوفية • •

تعالوا ننبش هذه التربة ، لنفتش فيها عن هذه الجذور التى تمد الثمار الرديئة بعصارة الحياة ••

لم يجد الدفاع عن الدكتور « بريقع » الا أن يقول : « ان بعض ما جاء فى أحاديث موكله من كلمات وأفكار — قد تستنكر من العامة — يمكن أخذها على أنها شطحات صوفية لا يجوز مؤاخذته عليها » !!

أى تصوف هذا الذى يتحدث عنه الدفاع ! ؟ انه — بالقطع — ليس التصوف الذى يعرفه الناس ، ولكنه تصوف الملاحدة الذى انحرف اليه التصوف الاسلامى فى عصوره المتأخرة •• ذلك الذى ينتسب الى كل نحلة مارقة ، ينتهب منها أخبث ما تدين به ، ثم يفتريه لنفسه مؤمنا به ، ويحمل على الايمان به كل من انتسب اليه !!

تصوف الملاحدة •• الذى يدين بوحدة الوجود ، وخرافة وحدة الأديان !!

ذلك الذى يزعم أن الله سبحانه عين خلقه ، عينهم فى الذات

والصفات والأفعال .. ويزعم أن واهب الحياة ، وخالق الوجود عين الصخر الأصم والرمة العفنة !!

تصوف الملاحدة .. الذى يزعم أن كفر الكافر وخطيئة الفاجر ، عين ايمان المؤمن وصالحة الناسك !!

ذلك الذى يزعم أن دين الخليل هو دين أبيه آزر ، وأن ايمان موسى عين كفر فرعون ، وأن وثنية أبى جهل عين توحيد محمد ﷺ !! ، فكل رب الدين ورسوله ، كل تعين للذات الالهية غير أنها سميت فى تعين بمحمد ﷺ ، وفى آخر بأبى جهل .. وهى هى فى مظهريها أو اسميها !!

تصوف الملاحدة .. الذى يزعم أن دين ابليس وايمانه ، عين دين أمين الوحى وروح ايمانه .. بل يزيد الخطيئة فجورا فيزعم أن ابليس — اللعين — أعظم معرفة بآداب الحضرة الالهية من أمين الوحى وأسمى مقاما !!

تصوف الملاحدة .. الذى يزعم أن النبـوة كسبية ، وأن الوحى مصـدره النفس ، وآلته قوة المخيلة ، وكلاهما مصدر داخلى فـى الانسان !!

تصوف الملاحدة . . الذى يدين بالحقيقة المحمدية ، وأنها هى الذات مع التعين الأول ، ولها الأسماء الحسنى ، وهى اسم الله الأعظم .. والذى يقول بأن صـور الحق هو محمد ﷺ لتحققه بالحقيقة والواحدية .. والذى يؤمن بأن الواحدية هى مجلى ظهور الذات فيها صفة . والصفة فيها ذات ، والفرق بينها وبين الأحدية أن الأحدية لا يظهر فيها شىء من الأسماء والصفات ، أما الواحدية فتظهر فيهـا الذات والصفات !!

تصوف الملاحدة .. الذى يزعم أن المهاجر من مكة الى المدينة كان الله ، ولم يكن معه شىء ثان !! .. والذى يزعم أن شأن الرسول ﷺ هو شأن الله ، ويقول كاهنه : « شأن محمد فى جميع تصرفاته شأن الله ، فما فى الوجود الا محمد » !!

تصوف الملاحدة .. الذى يدين بأن الأولياء أفضـل من الأنبياء ، وأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، لأنه يأخذ عن الله مباشرة ، فى حين أن خاتم الأنبياء يأخذ عن الله بواسطة ملك الوحى !!

ألم يقل أحد كهان ذلك التصوف المنحرف : « القرآن كله شرك ، وانما التوحيد فى كلامنا » ؟ !

ألم تتقدهم عقيدتهم — الزائغة — فى صدور العالم عن الله تعالى بطريق الفيض ، وعن حب الله لنفسه الى اسقاط التكاليف الشرعية .. وأنه ليس هناك مكان للقدرة والارادة فى هذا الصدد ، فالتكليف الشرعى صورة لارادة الله ، فاذا انعدمت الارادة انعدم التكليف ؟ !

ألم يقدهم الاعتقاد بالاتحاد وعدم التمايز بين الانسان الكامـل وبين الله ، الى سقوط التكاليف الشرعية — لأنه ليس هناك جانبان وطرفان ، أحدهما يكلف والآخر يقوم بالتكليف — فلماذا التكليف وقد تمت الغاية ؟ وما التكليف الا وسيلة لغاية ، هو رسم طريق يوصل الى غاية خاصة .. فاذا بلغ الانسان هذه الغاية ، فلا معنى لرسم الطريق وطلب سلوكه ؟ !

ألم يقل ابن عربى : « فاذا وقع الجدار ، وانهدم الصـــور ، وامتزجت الأنهار ، والتقى البحران ، وعدم البرزخ ، صار العـذاب نعيما ، وجهنم جنة ، ولا عذاب ولا عقاب ، الا نعيم وأمان بمشاهدة العيان » (!!) .. فلماذا التكاليف الشرعية ما دام العذاب سيصير نعيما .. وجهنم سوف تصير جنة ، ولا عذاب ولا عقاب !!

ألم يقل ابن عربى فى تقديسه العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة أن « الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره فطهره بالغسل ، ليرجع بالنظر اليه فيمن غنى فيه ، اذ لا يكون الا ذلك (!!) .. فاذا شاهد الحق — أى الله تعالى — فى المرأة كان شهودا منفعلا ، واذا شاهده فى نفسه من حيث ظهور المرأة عنه ، شاهده فى فاعل .. واذا شاهده فى نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه كان شهوده فى منفعل عن الحق بلا واسطة ، فشهوده للحق فى المرأة أتم وأكمل ، لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل ، ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة »؟!

ألم يزعم ابن عربى — أيضا — أن الرسول ﷺ أعطاه كتـاب « الفصوص » وقال له : « اخرج به الى الناس ينتفعون به » ، فحقق الأمنية كما حده رسول الله بلا زيادة ولا نقصان .. ثم يقول :

فمن الله ، فاسـمعوا   والى الله فارجعوا ؟ !

ألم يقل الدسوقى أن نشأته فى الحب كانت من قبل آدم ، وأنه كان فى العلياء مع نور أحمد ، وكان فى رؤيا اسماعيل ومع ادريس وعيسى ونوح .. وأنه هو القطب الكبير ، شيخ الوقت ، وشيخ الطريقة ، الذى قامت به الأنبياء فى كل أمة ، وأنه لا يوجد مسجد الا وله فيه منبر ، ثم يقـول :

وما شهدت عينى سوى عين ذاتها   وأن سواها لا يلم بفكرتـى
بذاتى تقوم الذات فى كل ذروة   أجـدد فيهـا حلة بعد حلة ؟ !

ألم يطلب منا الآلوسى : ألا نصطدم بهذه الأفكار ، وأن نسلمها لهم بالمعنى الذى أرادوه مما لا نعلمه — لا بالمعنى الذى ينقدح فى عقولنا المشوبة بالأوهام — لأن أقوالهم — فى زعمه — محمولة على معنى صحيح لا يعرفه الا أهل الذوق ؟ !

فلا عجب ، اذن ، أن يطلب منا الدفاع عن «الدكتور بريقع» أخذ هذه الأفكار على أنها شطحات صوفية لا يجوز مؤاخذة أصحابها عليها ، وان اصطدمت بالشرع واستنكرها الدين !!

وأين العجب فى ذلك اذا كان مستند شيوخهم : « حدثنى قلبى عن ربى ، قال .... » !!

* * *

ونقول لأجهزة الأمن.. التى ضبطت هذه الطرق المنحرفة، والتى حققت مع شيوخها الأربعة : « لقد أديتم واجبكم كاملا — نحو حماية المجتمع حين قدمتم هـذه الطرق الضالة الى المحاكمة .. وعليكم — الآن — مأجورين من الله ، أن تحاكموا أفكار ابن مسرة ، وابن سـبعين ، وابن عربى ، وابن الفارض .. تلك الأفكار التى استوحوها من وثنية اليونان ، وفكر بوذا وزرادشت !!

حاكموا تصوف الملاحدة .. قبل أن يخرج اليكم من محضنه كل يوم العشرات والمئات من أمثال : صــلاح بريقع ، وحسين عشرى ، ومحمد عبد الباسط ، ومحمد سليمان !!

ونهيب بمشيخة الطرق الصوفية ـــ ان كانت حريصه على ما يسمى بالتصوف الاسلامى ـــ أن تدين مظاهر الشرك والوثنية فى تصوف الملاحدة .. ذلك التصوف الذى نشـــأ وترعرع فى حديقة أرســطو وأفلاطون وأفلوطين !!

ونقول للمشيخة : وأنتم تدينون الطرق الصلاحية ، والعزميــة ، والبرهانية ، والنقشبندية .. أدينوا أيضا تصوف الملاحدة الذى أساء الى تصوفكم باكثر مما أساء الى الاسلام نفسه !!

فاللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .. وجنبنا ـــ يارب ـــ الشهوات والشبهات ..

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعـد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، انك أنت الوهاب »(١٧) .

* * *

---

(١٧) آل عمران : ٨

الفصل الثاني عشر

والآن .. تعالوا الى الكلمة السواء !!

يقول الله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[1] .

الخطاب فى هذه الآية .. موجه الى الرسول ﷺ ، يأمره فيه تعالى بأن يوجه خطابه الى أهل الكتاب .. يدعوهم : أن هلموا الى كلمة عدل بيننا وبينكم .. بأن لا نعبد غير الله تعالى ، وأن نبرأ من كل معبود ســواه .. وأن لا نشرك فى عبادته شيئا .. لا وثنا ولا صنما .. ولا صليبا ولا طاغوتا .. ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فى معصية الله تعالى فيعظمه بالسجود له كما يسجد لربه .. ولا يطيعه فيما يطيع الله تعالى فيه ..

ثم يقول تعالى لنبيه ﷺ · فان هم أعرضوا عما دعوتهم اليه من الكلمة العدل .. فقولوا أنتم أيها المؤمنون : اشهدوا علينا بأننا مسلمون ، خاضعون لله تعالى .. متذللون له بقلوبنا وألسنتنا ..

وأهل الكتاب .. هم اليهود والنصارى .

والعبادة ، لغة : هى الطاعة مع الخضوع والانقيــاد والتذلل وهى شرعا : الخضوع الكامل الممتزج بالحب الكامل ، وافراد الله تعالى وحده بالسؤال والدعاء ، واقامة الشعائر الدينية التى أمر بها ، والانقياد والاذعان التامين لمــا شرع من أحكام ..

والشرك : هو أن يعدل بالله غيره ، فيجعل له شريكا فى ربوبيته أو فى ملكه ..

* * *

---

(١) آل عمران : ٦٤

● **معنى العبـــادة :**

العبودة .. والعبودية .. والعبدية ، معناها اللغوى : الخضوع والتذلل .. أى استسلام المرء وانقياده لأحد غيره انقياداً لا مقاومة معه . ولا عدول عنه ، ولا عصيان له .. حتى يستـــخدمه هو حسب ما يرضى وكيف يشاء ..

يقول ابن فارس فى مادة (عبد) : « العين والباء أصلان صحيحان .. كأنهما متضادان .. والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل ، والآخر على شدة وغلظة »[٢] .

ويقول ابن سيده : « أصل العبادة فى اللغة التذليل .. والعبادة الخضوع والتذلل والاستكانة قرائب فى المعانى .. وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة .. طاعة كان للمعبود أو غير طاعة »[٣] .

وكل طاعة على جهة الخضوع والتذلل فهى عبادة .. والعبادة نوع من الخضوع لا يســـتحقه الا المنعم بأعلى أجناس النعم .. كالحياة والفهم . والسمع والبصر .. والشكر والعبادة لا تستحق الا بالنعمة .. لأن أقل القليل من العبادة يكبر عن أن يستحقه الا من كان له أعلا جنس من النعمة — وهو الله سبحانه — فلذلك لا يستحق العبادة الا الله تعالى ..

وتقول العــــرب : « بعير معبد » : للبعير السلس المنقـــاد . و « طريق معبد » : للطريق المهد الوطء ..

ومن هذا الأصل اللغوى .. نشأت فى مادة هذه الكلمة معانى العبودية والاطاعة والتأله والخدمة والقيد والمنع . .

ويقول ابن منظور : « العبد » : المملوك خلاف الحر .. تقول : « تعبد الرجل » : اتخذه عبدا أى مملوكا ، أو عامله معاملة العبد .. وكذلك : عبد الرجل وأعبده واعتبده[٤] ..

---

(٢) مقاييس اللغة . لابن فارس ، ج ٥ ، ص ٢٠٥

(٣) المخصص . لابن سيده ، ج ١٣ ص ٩٦

(٤) لسان العرب ، لابن منظور ، ج ٤ مادة (عبد) .

وقد جاء فى الحديث الشريف : « ثلاثة لا يقبل الله منهم صلاة : من تقدم قوما وهم له كارهون •• ورجل أتى الصلاة دبارا — أى بعد أن تفوته — •• ورجل اعتبد محررا »[٥] •

ويقول تعالى : **« ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين • الى فرعون وملأه فاستكبروا وكانوا قوما عالين • فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون »**[٦] •

فالله تعالى أرسل موسى وهارون عليهما السلام بحججه وبرهانه الواضح على توحيد الله الى فرعون وأشراف قومه من القبط ، فاستكبروا عن اتباعها ، وكانوا قوما عالين قاهرين على من فى بلادهم بالظلم ، فقال فرعون وملؤه : أنتبع بشرين مثلنا وقومهما من بنى اسرائيل مطيعون لنا متذللون •• يأتمرون لأمرنا ويدينون لنا ؟ ••

والعرب تسمى كل من دان للملك عابدا له ••

ويقول جل شأنه : **« وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل »**[٧] •

لما امتن فرعون على موسى عليه السلام قائلا : ألم نربك صغيرا فى بيتنا وعلى فراشنا ، ومكثت عندنا مدة من السنين ، ثم قتلت النفس من القبط وأنت من الكافرين — أى الجاحدين — نعمتنا عليك واحساننا اليك ، فهذا الذى كافأتنا به أن قتلت منا نفسه ، وجحدت نعمتنا •• رد عليه موسى قائلا : وهل هذه نعمة تمن بها على ، أن اتخذت بنى اسرائيل عبيدا لك ، وتركتنى فلم تستعبدنى ؟ ! •• وكان غرض موسى عليه السلام التهكم والاستهزاء بفرعون •• يقول له : تجعل بنى اسرائيل عبيدا لك ، ثم تمتن على بذلك ؟ •• فهذه نقمة وليست نعمة !!

وفيه عن مجاهد : أى قهرتهم واستعملتهم ، وعن ابن جريج : أى قهرت وغلبت واستعملت بنى اسرائيل ••

---

(٥) رواه أبو داوود وابن ماجة والبيهقى .

(٦) المؤمنون : ٤٥ — ٤٧

(٧) الشعراء : ٢٢

والمراد بالعبادة فى هاتين الآيتين : هو العبودية والاطاعة ..
فقال فرعون : أن قوم موسى وهارون عابدون لنا — أى عبيد لنا خاضعون لأمرنا .. وقال موسى عليه السلام : انك عبدت بنى اسرائيل — أى اتخذتهم وتستخدمهم حسبما تشاء وترضى ..

● والمعنى الثانى للعبادة : أنها الطاعة مع الخضوع .. يقول ابن الانبارى : « فلان عابد » .. وهو الخاضع لربه المستسلم المنقـــاد لأمره ..

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون »[8] .

أى : ان كنتم منقادين لأمره سامعين مطيعين .. فكلوا مما آباح لكم أكله وحلله وطيبه لكم .. ودعوا فى تحريمه خطوات الشيطان .. وهو الذى ندبهم الى أكله ونهاهم عن اعتقاد تحريمه ، اذ كان تحريمهم اياه فى الجاهلية طاعة منهم للشيطان واتباعا لأهل الكفر منهم بالله من الآباء والأسلاف ..

وقيل : ان المناسبة التى أنزلت فيها هذه الآية ، أن العرب قبل الاسلام كانوا يتعبدون بأنواع من القيود فى المآكل والمشارب امتثالا لأوامر أئمتهم الدينيين ، واتباعا لأوهام آبائهم الأولين .. فلما أسلموا قال الله تعالى : ان كنتم تعبدوننى فعليكم أن تحطموا جميع تلك القيود .. وتأكلوا ما أحللته لكم هنيئا مريئا ..

ويعنى ذلك .. أنكم ان لم تكونوا عبادا لأحباركم وأئمتكم ، بل لله وحده .. وان كنتم قد هجرتم طاعتهم الى طاعته .. فقد وجب عليكم أن تتبعوا ما وضعه لكم من الحدود ، لا ما وضعوه فى الحلال والحرام .. ومن هنا جاءت كلمة العبادة فى هــذا الموضع بمعانى العبودية والاطاعة ..

● ويقال « عبد الطاغوت » .. أى أطاعه ..

---

(٨) البقرة : ١٧٢

يقول تعـالى : « **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ، من لعنـه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل** » (٩) •

أى : هل أخبركم بشر مما تعيبون به علينا من الايمـان بالله والتصديق بكتبه ورسله جزاء وثوابا عند الله ؟ — فوضع المثوبة موضع العقوبة للتهكم والسخرية — أولئك الذين أبعدهم الله وطردهم من رحمتـه ، وسخط عليهم فعجل لهم الخزى والنكال فى الدنيا ومسخ بعضهم قردة ، وبعضهم خنازير •• وجعل منهم من عبد الشـيطان والأوثان •• هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الشنيعة ، شر منزلة ممن نقمتم عليهم يامعشر اليهود ، وأبعد عن سبيل الرشد والهدى ••

وفى الآية تعريض باليهود باخبارهم بقبيح فعالهم وذميم أخلاقهم •• كأنه يقـول لهم : أهؤلاء المؤمنون الذين تستهزئون منهم شر ، أم من لعنه الله ؟

ويقول جل شأنه : « **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** »(١٠) •

أى : ولقد أرسلنا لكل أمة سلفت رسولا ، بأن اعبدوا الله وحده ، وابتعدوا عن الشيطان واحذروا أن يصدكم عن سبيل الله •• فمن هؤلاء الأمم من هداه الله ووفقه للايمان ففاز وأفلح •• ومنهم من كفر وكذب ، واتبع الطاغوت فهلك •• فسيروا — أيها المكذبون — فى البلاد التى كانوا يسكنونها فانظروا ماذا حل بهم من سخط الله وعقابه • والغرض هو الاعتبار بما حل بالسابقين من الأمم الكافرة ، وتحقق صحة ما أخبرهم به الرسول ﷺ •

ويقول جل وعلا : « **والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا**

---

(٩) المـائدة : ٦٠

(١٠) النحل : ٣٦

الى الله لهم البشرى ، فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب »(١١) .

أى : أن الذين اجتنبوا عبادة كل ما عبد من دون الله من شىء ، وتابوا الى الله ، ورجعوا الى الاقرار بتوحيده والعمل بطاعته .. لهم البشرى فى الدنيا بالجنة .. فبشر — يامحمد — عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون ارشده وأهداه الى الحق ، وأدله على توحيد الله ، ويتركون ما سوى ذلك .. أولئك الناس هم الذين وفقهم الله للرشاد واصابة الصواب ، وأولئك هم أولوا العقول لا الذين يعرضون عن سماع الحق . ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع .. والله تعالى فى هذه الآية يثنى على المؤمنين بنفوذ بصائرهم ، وتمييزهم بين الأحسن من كل شىء ، وانما وضع الظاهر « فبشر عباد » بدل الضمير « فبشرهم » تشريفا لهم وتكريما باضافتهم الى نفسه ..

فالمراد بعبادة الطاغوت فى كل من هذه الآيات الثلاث .. هو العبودية للطاغوت واطاعته .. ومعنى الطاغوت فى اصطلاح القرآن الكريم ، كل دولة أو سلطة وكل امامة أو قيادة تبغى على الله وتتمرد ، ثم تنفذ حكمها فى أرضه وتحمل عباده على طاعتها بالاكراه أو بالاغراء أو بالتعليم الفاسد ..

فاستسلام المرء لمثل تلك السلطة وتلك الامامة والزعامة ، وتعبده لها ثم طاعته اياها : كل ذلك منه عبادة ولا شك للطاغوت ..

● ولقد جاءت كلمة « العبادة » فى القرآن الكريم بمعنى الطاعة وحدها ..

يقول تعالى : « **ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، انه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى ، هذا صراط مستقيم »**(١٢) .

أى : ألم أوصكم وآمركم فى الدنيا أن لا تطيعوا الشيطان فى معصية الله ؟ لأن الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة ، فقد غرر أباكم حتى أخرجه وزوجه من الجنة .. وألم أوصكم بأن تعبدونى دون سواى

---

(١١) الزمر : ١٧ ، ١٨ (١٢) يس : ٦٠ ، ٦١ .

من الآلهة والأنداد ؟ ان اخلاص عبادتى ، وافراد طاعتى هو الدين الصحيح والطريق المستقيم ..

والواضح أنه لا يتأله أحد للشيطان فى هذه الدنيا .. بل الكل يلعنه ويطرده من نفسه .. لذلك فان الجريمة التى يصم بها الله تعالى بنى آدم يوم القيامة ليست تأليه الشيطان فى الحياة الدنيا..بل اطاعتهم لأمره ، واتباعهم لحكمه ، وتسربهم الى السبل التى أراهم اياها . .

ويقول جل شأنه : **« احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون • من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم »(١٣)** .

أى : اجمعوا الذين كفروا بالله فى الدنيا ، وأشياعهم على الكفر — وليس المراد بالأزواج هنا الزوجات ، انما المراد بهم آشباههم من المجرمين العصاة — احشروهم وآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، فوجهوهم الى طريق النار الموقدة ..

ثم يقول جـلا وعلا : **« وأقبـل بعضهم على بعض يتساءلون • قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمـين • قالوا بل لم تكونوا مؤمنـين • وما كان لنا عليكم من سلطان ، بل كنتم قوما طاغين »(١٤)** .

أى : أقبل الأتباع على الرؤساء يلوم بعضهم بعضا ويتخاصمون ويتنازعون .. يقول الأتباع : انكم كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق فتخدعوننا بأقوى الوجوه .. فيقول الرؤساء : بل لم تكونوا بتوحيد الله مقرين ، وكنتم لغيره عابدين ، وما كان لنا عليكم من حجة فنصدكم بها عن الايمان ؛ بل كنتم أنتم معتدين الى ما ليس لكم التعدية اليه من معصية الله ومخالفة أمره ..

فاذا ما أنعمنا النظر فى هـذه المحاورة التى حكاها القرآن بين العابدين وبين ما كانوا يعبدون .. فانه سوف يتضح لنا أن ليس المراد بالمعبودين فى هذا المقام الآلهة والأصنام التى كان يتأله لها القوم .. بل المراد أولئك الأئمة والهداة الذين أضلوا الخلق متظاهرين بالنصح ..

---

(١٣) الصافات : ٢٢ ، ٢٣ (١٤) الصافات : ٢٧ — ٣٠

وتمثلوا للناس فى لبوس القديسين المطهرين •• فخدعوهم بسبحاتهم وجبابهم وجعلوهم تبعاً لهم •• والذين أشاعوا فيهم الشر والفســاد باسم النصح والاصلاح ••

فالتقليد الأعمى لأولئك الخداعين •• والاتباع لأحكامهم هو الذى عبر عنه الله تعــالى بكلمة العبــادة فى قوله : « **اتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الهاً واحداً ، لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون** »(١٥) •

لقد اتخذ اليهود علماءهم ، واتخذ النصارى رهبانهم أربابا من دون الله ، يطيعونهم فيما يحللون ويحرمون •• كما اتخذ النصارى المسيح ابن مريم ربا •• وما أمر اليهود والنصارى الا أن يعبدوا ويطيعوا ربا واحدا •• لا اله الا هو ، لا أربابا شتى •• وهو الله المستحق على جميع خلقه الاقرار له بالوحدانية والربوبية •• تنزه الله عما يشرك به هؤلاء وهؤلاء ••

فالمراد فى هذه الآية •• باتخاذ العلماء والأحبار أربابا من دون الله ، ثم عبادتهم •• هو الايمان بكونهم مالكى الأمر والنهى ، والاطاعة لأحكامهم بدون سند من عند الله أو رسوله •• وقد صرح بهذا المعنى رسول الله ﷺ نفسه فى الأحاديث الصحيحة •• فلما قيل له : اننا لم نعبــد علماءنا وأحبارنا •• قال : ألم تحلوا ما أحلوه •• وتحرموا ما حرموه ؟ ••

عن عدى بن حاتم قال : أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب — وكان عدى حديث عهد بالاســلام — فقال : « ياعدى ، اطرح هذا الوثن من عنقك » •• فطرحته وانتهيت اليه وهو يقرأ فى سورة براءة •• فقرأ هذه الآية : « **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** » •• فقلت : يارســول الله ، انا لا نعبدهم •• فقال : « أليس يحرمون ما أحــل الله فتحرمونه •• ويحلون ما حــرم الله فتحلونه » ••• قلت : بلى ، قال : « فتلك عبادتهم » ••

---

(١٥) التوبة : ٣١

● أما المعنى الثالث للعبادة : فهو التأله والتنسك والتعظيم ..
والعبادة بهذا المعنى تشتمل على أمرين اثنين حسبما يدل عليه القرآن الكريم ..

الأمر الأول : أن يؤدى المرء لأحد من الشعائر كالسجود والركوع والقيام والطواف وتقبيل عتبة الباب أو الضريح أو النذر والنسك .. ما يؤديه عادة بقصد التأله والتنسك .. ولا عبرة بأن يكون المرء يعتقده الهاً أعلا مستقلا بذاته .. أو يأتى بكل ذلك اياه وسيلة للشفاعة والزلفى اليه ، أو مؤمنا بكونه شريكا للاله الأعلى وتابعا له فى تدبيره أمر هذا العالم ..

أما الأمر الثانى : فهو أن يظن المرء أحداً مسيطراً على نظام الأسباب فى هذا العالم .. ثم يدعوه فى حاجته ويستغيث به فى ضره وآفته ، ويعوذ به عند نزول الأهوال ونقض الأنفس والأموال ..

فهذان الأمران من عمل المرء ، كلاهما داخل فى معانى التأله ..

والشاهد لذلك قوله الله تعالى : « قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين »[١٦] .

هذه الآية .. جاءت بعد قوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين . الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا اله الا هو ، فأنى تؤفكون . كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون . الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين . هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين »[١٧] .

---

(١٦) غافر : ٦٦

(١٧) غافر : ٦٠ — ٦٥

الله تعالى يقول لنا : اعبدونى وأخلصوا لى العبادة ، أجب دعاءكم ، ويتوعد الذين يتكبرون عن افراده بالعبادة والألوهية بدخولهم النـار صاغرين •• ثم يصف تعالى نعمه علينا فيقول : ان الاله الذى لا تنبغى العبادة أو توجيه الدعاء لغيره هو الذى جعل الليل لتهدأوا فيه من التصرف والاضطراب للمعاش •• وجعل النهار لطلب المعاش والحاجات ، نعمة منه وفضلا : فانه تعالى المتفضل عليكم — أيها الناس — بما لا مثيل له من الفضـل ، ولكن أكثر الناس لا يشكرونه بالطاعة له واخـلاص الألوهية والعبادة •• الذى فعل هذه الأشياء هو الله خالقكم وخالق كل شىء •• لا معبود تصلح له العبادة غيره فأين تذهبون عنه وتعبدون سواه ؟ •• تذهابكم عن الحق الى الباطل ، والرشد الى الضلال ذهب الذين كذبوا بحجج الله وآياته •• فالله تعالى هو الذى جعل لكم الأرض ممهدة لتستقروا عليها وتسكنوا فوقها •• ورفع السماء فوقكم لمصالحكم وقوام دنياكم •• وهو الذى خلقكم فأحسن خلقكم ، ورزقكم من حلال الرزق ولذيذات المطاعم والمشارب •• الذى فعل هذه الأفعال هو الله ربكم الذى لا تصلح الربوبية لغيره •• فتبارك الله مالك جميع الخلق •• هو الحى الذى لا يموت ، ولا معبود بحق سواه •• فادعوه مخلصين له الطاعة ، ولا تشركوا فى عبادته شيئا سواه ، فالثناء التام الكامل لله مالك كل شىء ••

ثم يقول لنبيه : قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعـونهم من دون الله من آلهة وأوثان •• فقد جاءنى من آيات كتاب الله الواضحات الذى أنزله الله على ، وأمرنى ربى أن أذل وأخضع له بالطاعة دون غيره •

ويقول جل شأنه على لسان ابراهيم عليه السلام : « **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا • فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيا** »[18] •

يقول ابراهيم عليه السلام : وأجتنبكم وما تعبدون من دون الله ،

---

(١٨) مريم : ٤٨ ، ٤٩

من الأوثان والأصنام •• وأدعوا ربى مخلصا له العبادة ، عسى أن لا أشقى بدعائى فيعطينى ما أسأله •• فلما اعتزل ابراهيم قومه ، وعبادة ما كانوا يعبدون من دون الله •• آنس الله وحشته من فراق قومه ، ووهب له ابنه اسحاق وابن ابنه يعقوب •• وجعلهم — كلهم — ابراهيم واسحاق ويعقوب — أنبياء ••

ويقول جل وعلا : « **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون • واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** »(١٩) •

والمعنى — والله أعلم — أى عبد أضل ممن عبد حجرا أو خشبا وجعلها آلهة ، وهى لا تجيب دعاءه أبدا الى يوم القيامة ؟ — وهذا توبيخ من الله تعالى للمشركين فى سوء رأيهم وقبح اختيارهم ، وفى عبادتهم من لا يعقل ولا يفهم ، وتركهم عبادة الاله القادر ، السميع البصير — فان هذه الآلهة المدعاة فى غفلة عن دعائهم واستغاثتهم عند المصائب ، فهى لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل •• ويوم القيامة حين يجمع الناس لموقف الحساب ستكون هذه الآلهة أعداء لم ، لأنهم يتبرأون منهم وسيكونون جاحدين بعبادتهم لأنهم يقولون : يا ربنا ، ما أمرناهم بعبادتنا ، تبرأنا اليك منهم ، فيتبرأون من عبادتهم ويقولون : « **تبرأنا اليك ، ما كانوا ايانا يعبدون** »(٢٠) •

ففى هذه الآيات الثلاث •• يصرح القرآن نفسه بأن المراد بالعبادة فيها هو الدعاء والاستغاثة •• وبدهى أن الأحجار والأخشاب لن تنطق فهى لا تعقل •• انما الذين يتبرأون من عبادة المشركين لهم هم الأسلاف من الصالحين الذين قدسهم المشركون واتخذوهم وسائط لدى الله يتجهون اليهم بالدعاء والاستغاثة فيعكفون على قبورهم يطوفون ويتمسحون بها فى ذلة وصغار •• طامعين فى شفاعتهم ووساطتهم •

ويقول تعالى : « **بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون** »(٢١) •

---

(١٩) الأحقاف : ٥ ، ٦ (٢٠) القصص : ٦٣

(٢١) سبأ : ٤١

والمراد بعبادة الجن والايمان بهم فى هذه الآية .. يفصله قوله تعالى فى سورة الجن : « **وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا** » (٢٢) .

فان أولئك الرجال من الانس ، كانوا يستجيرون برجال من الجن فى أسفارهم ، فيقولون : « نعوذ بعزيز هذا الوادى من شر سفهاء قومه » .. فزاد الانس والجن بفعلهم ذلك اثما ، واستحلالا لمحارم الله ، فالرهق فى كلام العرب : الاثم وغشيان المحارم ..

ويتبين لنا أن المراد بعبادة الجن هو العياذ بهم واللجوء اليهم فى الأهوال ، ونقص الأموال والأنفس .. كما أن المراد بالايمان بهم هو الاعتقاد بقدرتهم على الاعاذة والمحافظة .

كما يقول تعالى : « **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا** »(٢٣) .

أى أنه تعالى فى يوم القيامة سوف يحشر العابدين للأوثان ، وما كانوا يعبدون من دون الله ، من الملائكة والانس والجن .. ثم يقول تعالى للمعبودين : أأنتم أزللتم عبادى عن طريق الهدى ، ودعوتموهم الى الغى والضلالة حتى تاهوا ؟ أم عبادى هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحق ؟ . فيقول المعبودون : ننزهك يا ربنا ، ونبرئك مما أضاف اليك هؤلاء المشركون ، ما يصح لنا أن نتخذ من دونك من نواليه ، أنت ولينا من دونهم ، ولكن متعتهم يا ربنا بالمال والصحة ، حتى نسوا ذكرك ، وكانوا قوما هلكى قد غلب عليهم الشقاء ..

ثم يقول تعالى : « **فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ، ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا** »(٢٤) .

---

(٢٢) الجن : ٦
(٢٣) الفرقان : ١٧ ، ١٨
(٢٤) الفرقان : ١٩

لقد كذبهم الذين زعموا أنهم أضلوهم فى دعواهم أنهم آلهة ..
فما يستطيع أولئك الكفار صرف العذاب عن أنفسهم ولا نصرها من الله .. ويتوعد تعالى من يشرك به بأنه سوف يذيقه العذاب الشديد فى جهنم .

ويتجلى لنا من هذه الآيات .. أن المقصود بالمعبودين فيها هم الأولياء والأنبياء والصلحاء .. والمراد بعبادتهم هو الاعتقاد بكونهم أجل ، وأرفع من خصائص العبدية ، والظن بكونهم متصفين بصفات الألوهية وقادرين على الاعانة الغيبية ، وكشف الضر والاغاثة .. ثم القيام بين أيديهم بشعائر التكريم والتعظيم ، مما يكاد يكون تألهـا وقنوتا ..

ويقول جل شأنه : **« ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون »**(٢٥) .

أى أنه تعالى سوف يحشر الكفار جميعا ، ثم يقـول للملائكة : أهؤلاء كانوا يعبدونكم من دوننا ؟ ، فيتبرأ منهم الملائكة ويقولون : ننزهك يا رب مما أضاف اليك هؤلاء من الأنداد ، لا نتخـذ وليا من دونك .. بل كانوا يعبدون الشياطين ، أكثرهم يصدقون بأن الجن بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .. فاليوم لا تملك الملائكة للذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا نفعا ينفعونهم به ، ولا ضرا ينالونهم به ، ويقول تعالى للذين عبدوا غير الله : ذوقوا عذاب جهنم التى كنتم بها فى الدنيا تكذبون .. وهو قوله تعالى فى الآية بعدها : **« فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون »**(٢٦) .

والمقصود هنا بعبادة الملائكة .. هو التأله والخضـوع لهياكلهم وتماثيلهم الخيالية ، كما كان يفعله أهل الجاهلية .. وكان غرضهم من وراء ذلك أن يرضوهم فيستعطفونهم ويستعينوا بهم فى شئون حياتهم الدنيـا ..

---

(٢٥) سبأ : ٤٠ ، ٤١ (٢٦) سبأ : ٤٢

ويقول جل شأنه : **« ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون »**(٢٧) .

فالمشركون يعبدون الأصنام التى يعبدونها ، وهى لاتضر ولا تنفع ، ويقولون : انمــا نعبدها رجاء شــفاعتها لنا عند الله •• فقــل لهم ــ يا محمد ــ : أتخبرون الله بما لا يكون فى السموات ولا فى الأرض؟ تنزه الله تعالى عن شركهم وكفرهم ••

كما يقول جل وعلا : **« ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون ، ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار »**(٢٨) .

العبادة والطاعة لا تكون الا لله وحده ، خالصة لا شريك لأحد معه فيها •• أما الذين عبدوا من دون الله الأوثان ، فانهم يقولون لأوثانهم : ما نعبدكم الا لتقربونا الى الله منزلة ، وتشفعوا لنا عنده فى حاجتنا •• وسيفصل الله بين هؤلاء الأحزاب الذين اتخذوا أولياء من دون الله ، سيفصل تعالى فيما يختلفون فيه بأن يصليهم جميعا نار جهنم ، الا من أخلص الدين لله فوحده ، والله تعالى لا يرشد الى الحق من هو مفتر على الله : يقول عليه الباطل ، كافر لنعمه ، جاحد لربوبيته .

المراد ــ اذن ــ فى هاتين الآيتين •• هو التأله ، وقد فصــل فيهما الغرض الذى كانوا لأجله يقدسونهم •• فهم لم يعتقدوا فيهم الخلق والايجاد ؛ ولكنهم اتخذوهم وسائط وشفعاء لدى الله ••

ويتضح لنا من جميع ما تقدم •• أن كلمة « العبادة » فى القرآن الكريم قد استعملت فى بعض المواقع بمعنى العبودية والاطاعة • • وفى أخرى بمعنى الاطاعة فحسب ، وفى الثالثة بمعنى التأله وحده •• كما جاءت شاملة لجميع هذه المعانى الثلاثة • • يقول تعــالى : **« ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم**

---

(٢٧) يونس : ١٨ (٢٨) الزمر : ٣

ان كنتم صادقين • ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون »(٢٩) •

يقول تعالى : ان الذين تعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام مخلوقات مثلكم بل أنتم أكمل منها ، فالأصنام لا تسمع دعاء من دعاها وسواء لديها من دعاها ومن دحاها . بل الانسان أكمل منها وأشرف لأنه يسمع ويبصر ويعقل •• وهذه دمى لا يرجى منها شىء من الخير فكيف تكون آلهة مع الله ؟ •• ويتحداهم قائلا : ادعوهم لجلب نفع أو دفع ضر ان كنتم صادقين فى دعوى أنها آلهة ، ألهذه الأصنام أرجل يمشون بها فى حوائجكم ؟ •• أم لهم أيد يدفعون بها عنكم من يقصدكم بشر أو مكروه ؟ •• أم لهم أعين يبصرون بها فيعرفونكم ما يغيب عنكم ؟•• أم لهم آذان فيخبرونكم ما لم تسمعوه ؟ •• فاذا كانت آلهتكم ليس فيها شىء من هذه الآلات ، فما وجه عبادتكم لها ؟ •• فقل — يا محمد — لهؤلاء المشركين : ادعوا آلهتكم واستنصروا بها على فــلا تؤخرونى بالكيد والمكر طرفة عين ، فان الله تعالى قد عصمنى منكم ••

ثم يقول تعالى : « **والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون »(٣٠)** •

أى : أن الذين تعبدونهم من الآلهة ، لايقدرون على نصركم ولا على نصر أنفسهم •• فأى هذين أحق بالعبادة ؟ من ينصر وليه ، أم من لا يقدر على نصر نفسه أو وليه ؟ ؟

ويقول جل شأنه : « **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه ، بل عباد مكرمون • لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون • يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون »(٣١)** •

أى : وقال الكافرون اتخذ الرحمن ولدا من الملائكة — تنزه الله عن ذلك — ما الملائكة الا عباد أكرمهم الله ، لا يتكلمون الا بما يأمرهم

---

(٢٩) الاعراف : ١٩٤ ، ١٩٥ (٣٠) الاعراف : ١٩٧
(٣١) الأنبياء : ٢٦ — ٢٨

به ربهم ، ولا يعملون عملا الا بأمره •• يعلم ما بين أيدى ملائكته مما هم فيه قائلون وعاملون ، ويعلم ما مضى من الأزمان وما عملوا فيه ، لا يخفى عليه شيء •• ولا تشفع الملائكة الا لمن رضى الله عنه ، وهم من خوفه تعالى حذرون أن يعصوه ، ويخالفوا أمره ونهيه ••

ويقول جل وعلا : « **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسئلون • وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يخرصون** »(٣٢) •

أى : أن المشركين قد جعلوا الملائكة — الذين هم خلق الله وعباده بناتا لله فأنثوهم ، أشهد أولئك المشركون خلق ملائكة الله اناثا فوصفوهم بذلك لرؤيتهم اياهم ؟ ستكتب شهادة هـؤلاء القائلين ، ويسئلون عن شهادتهم فى الآخرة •• وقال المشركون : لو شاء الرحمن ما عبـدنا أوثاننا ، فالله راض عنا لعبادتنا اياها •• ما لهم بحقيقة ما يقولون من علم • وانما يقولونه تخرصا(٣٣) وكذبا ••

ويقول جل شأنه : « **ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا • لقد أحصاهم وعدهم عدا • وكلهم آتيه يوم القيـامة فردا** »(٣٤) •

أى : أن جميع من فى السموات من الملائكة ، ومن فى الأرض من الانس والجن •• سوف يأتون ربهم مقرين له بالعبودية •• لقد أحصى الرحمن خلقه كلهم ، وعدهم عدا فلا يخفى عليه منهم أحد •• وجميع خلقه سوف يرد عليه يوم القيامة وحيدا لا ناصر له ، فيقضى الله فيه ما هو قاض ••

ويقول جل وعلا : « **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير • تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج**

---

(٣٢) الزخرف : ١٩ ، ٢٠

(٣٣) التخرص : هو الكذب الذى لا يستند على دليل •

(٣٤) مريم : ٩٣ — ٩٥

الحى من الميت وتخـــرج الميت من الحى ، وترزق من تشـــاء بغـــير حساب »(٣٥) .

يأمر الله نبيه — ويأمرنا معه — أن نقول: يا الله ، يا مالك الملك ، يا من له ملك الدنيا والآخرة .. تعطى الملك من تشاء فتملكه وتسلطه على من تشاء ، وتسلب الملك ممن تشاء أن تسلبه منه .. وتعز من تشاء باعطائه الملك والسلطان .. وتذل من تشاء بسلب ملكه وتسليط عدوه عليه .. كل ذلك بيدك واليك لا الى غيرك .. ولا يقدر على ذلك أحد ســـواك .. فأنت — يارب — تدخل ما نقصت من ساعات الليل فى ساعات النهار ، وبالعكس ، فما أنقصته من النهار تجعله فى الليل ، وما أنقصته من الليل تجعله فى النهار .. وتخرج الانسان الحى من النطفة الميتة ، وتخرج النطفة الميتة من الانسان الحى ، وكذلك الأنعام والبهائم . [فالنطفة ميتة ثم ينشىء الله منها انسانا حيا ، ومن الانســـان الحى تخرج النطفة الميتة ، ويخرج النخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض .. والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن] .. وتجود — يا رب على من تشاء من خلقك ، بغير محاسبة لمن أعطيته لأن خزائنك لا تنقص ..

فالقرآن الكريم .. يعد جميع أولئك المعبودين باطلا .. ويجعل عبادتهم خطأ عظيما سواء تعبدهم الناس أو أطاعوهم أم تألهوا لهم .

ويقول : ان جميع من طفقتم تعبدونهم .. عباد لله وعبيده .. فلا يستحقون أن يعبدوا ، ولا أنتم مكتسبون من عبادتهم غير الخيبة والمذلة والخزى ..

وأن مالكهم فى الحقيقة .. ومالك جميع ما فى السموات والأرض هو الله الواحد .. وبيده وحده كل الأمر وجميع السلطات والصلاحيات .. ولأجل ذلك لا يجدر بالعبادة الا هو وحده ..

وبعد أن يقيم القرآن الكريم البرهان على كون جميع من عبدهم الناس بوجه من الوجوه عبيدا لله وعاجزين أمامه .. يدعو جميع الانس

---

(٣٥) آل عمران : ٢٦ ، ٢٧

والجن الى أن يعبدوا الله تعالى وحده بكل معنى من معانى العبادة المختلفة .. فلا تكن العبدية الا له .. ولا يطاع الا هو .. ولا يتأله المرء الا له .. ولا تكن حبة خردل من أى تلك الأنواع للعبادة لوجه غير الله ..

يقول تعالى : ((**ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . أن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير**))(٣٦) .

بعد أن عدد تعالى نعمه على خلقه فى الآيات السابقة على هذه الآية .. يقول : هذا هو معبودكم الذى يستحق العبادة .. وهو الله ربكم ، له الملك التام ، الذى لا شىء الا وهو فى ملكه وسلطانه . . والذين تعبدون من دونه ما يملكون قشر النواة .. ان تدعوا الآلهة التى تعبدونها لا يسمعوا دعاءكم لأنها جماد لا تفهم ما تقولون ، ولو سمعوا دعاءكم وفهموا قولكم بأن جعل لهم سمع يسمعون به ، ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة ، ويوم القيامة تبرأ الآلهة التى تعبدونها من أن تكون فى الدنيا شريكا لله .. ولا يخبرك — يا محمد — عن الحقيقة مثل الله ذى الخبرة ، الذى لا يخفى عليه شىء ..

ويقول جل شأنه : ((**قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم**))(٣٧) .

يأمر الله تعالى نبيه أن يقول لأولئك الكفرة الذين اتخذوا آلهة غير الله .. أتعبدون من لا يقدر على دفع ضر عنكم ، ولا جلب نفع لكم .. وتتركون القادر على كل شىء ؟ .. السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم !!

فالعبادة .. لا تكون الا لله وحده ..

والطاعة .. لا تكون الا لله تعالى وحده ..

والتأله .. لا يجوز الا لله وحده ..

---

(٣٦) فاطر : ١٣ ، ١٤ (٣٧) المائدة : ٧٦

وليست العبادة قاصرة على معنى التأله وحـده •• أو بمعنى العبدية والاطاعة فحسب •• بل الحق ان القرآن الكريم يعرض دعوته باكملها •• ومن الواضح أنه ليست دعوة القرآن الا أن تكون العبدية والاطاعة والتأله •• كل اولئك خالصا لوجه الله تعالى ••

ولعله قد وضح لنا — الآن — أن مفهوم « العبادة » الأساسى هو أن يذعن المرء لعلاء أحد وغلبته •• ثم ينزل له عن حريته واستقلاله ، ويترك ازاءه كل المقاومة والعصيان وينقاد له انقيادا تاما •• وهذه هى حقيقة العبدية والعبودية ••

ومن ذلك أن أول ما يتمثل فى ذهن العربى لمجرد سماعه كلمـة « العبد » ، و « العبادة » •• هو تصور العبدية والعبودية ••

وبما أن وظيفة العبد الحقيقية هى اطاعة سيده وامتثال آمره •• فمن الحتمى أن يتبعه تصور الاطاعة •

ثم اذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللا •• بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ويعترف بعلو شأنه ، وكان قلبه مفعما بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه •• فانه يبالغ فى تمجيده وتعظيمه ، ويتفنن فى ابداء الشكر على آلائه ، وفى أداء شعائر العبدية له •• وكل ذلك اسمه التأله والتنسك ••

وهذا التصور لا ينضم الى معنى العبدية الا اذا كان العبـد لا يخضع لسيده رأسه فحسب •• بل يخضع معه قلبه أيضا ••

وهكذا يتضح لنا •• أن حصر معانى كلمة العبادة فى معنى بعينه •• انما هو فى الحقيقة حصر لدعوة القرآن الكريم فى معان ضيقة •• ومن نتائجه المحتومة أن من آمن بدين الله وهو يتصور دعوة القرآن هذا التصور الضيق المحدود •• فانه لن يتبع تعاليمه الا اتباعا ناقصا محدودا ••

يقول تعالى : **« قل يا أيها الناس ان كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين »**(٣٨) •

---

(٣٨) يونس : ١٠٤

أى : ان كنتم — أيها المشركون فى شك من دينى الذى أدعوكم اليه •• فانى لا أعبد الالهة والأوثان التى تعبدونها من دون الله •• والتى لا تسمع ولا تبصر ، ولكن أعبد الله الذى يقبض أرواحكم ، فيميتكم عند انتهاء آجالكم •• وأمرنى ربى أن أكون من المصدقين بما جاءنى من عنده ••

ويقول جل شأنه : « **ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** »(٣٩) .

أى : ما تعبــدون — أيها المشركون — من دون الله من الأوثان والأصنام •• الا مسميات لا تستحق الألوهية سميتموها أربابا وآلهة •• ما أنزل الله بها من حجة ، ولكنها اختلاق منكم وافتراء •• وما الحكم والتصرف الا لله وحده •• أمر عباده بألا يعبدوا الا اياه •• هــذا هو الدين القويم الذى لا اعوجاج فيه •• ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك فلا يعلمون حقيقته ••

ويقول جل وعلا : « **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما الهكم اله واحد ، فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبــادة ربه أحدا** »(٤٠) .

يأمر الله رسوله ﷺ •• أن يقول للمشركين : إنما أنا بشر من بنى آدم ، لا علم لى الا ما علمنى الله •• وقد أوحى الى أن معبودكم الذى يجب أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا ، معبود واحد •• فمن كان يخاف ربه يوم لقائه ، ويراقبه ويرجو ثوابه ، فليخلص له العبادة ، ولا يجعل له شريكا فى عبادته (٤١) .

هذا هو المفهوم الاسلامى السليم لكلمة « العبادة » •• ويقول الدكتور يوسف القرضاوى — جزاه الله عن الاسلام خيرا — فى معنى العبادة التى هى من حق الله وحده :

---

(٣٩) يوسف : ٤٠ . (٤٠) الكهف : ١١٠

(٤١) وانظــر مبحث « العبادة » لأبى الأعلى المودودى فى كتابه : « المصطلحات الأربعة » — نشر دار التراث العربى ، عام ١٩٨٦ ففيه المزيد .

« العبادة » كلمة تتضمن معنيين .. امتزج أحدهما بالآخر فصارا شيئا واحدا .. هما نهاية الخضوع مع نهاية الحب ..

فالخضوع الكامل ، الممتزج بالحب الكامل .. هو معنى العبادة ..

فأما حب بلا خضوع ، أو خضوع بلا حب .. فلا يحقق معنى العبادة ، وكذلك بعض الخضوع مع بعض الحب ، فانه لا يحقق العبادة .. بل لا بد من كل الخضوع ، مع كل الحب ..

والعبادة .. ليست مقصورة على صورة واحدة ، كما يخيل لكثير من الناس .. بل لها أنواع وصور عديدة ..

فمنها .. الدعاء : أى الاتجاه الى الله تعالى بطلب نفع ، أو دفع ضر ، أو رفع بلاء ، أو طلب نصرة على العدو ، أو نحو ذلك ..

فهذا الاتجاه بالسؤال المنبعث من القلب لله تعالى هو مخ العبادة وروحها ، كما فى الحديث الشريف : « الدعاء هو العبادة » (٤٢) .

ومنها : اقامة الشعائر الدينية مثل الصلاة ، والصيام ، والصدقة ، والحج ، والنذر ، والذبح ، وما شابه ذلك .. فلا يجوز أن توجه هذه الشعائر الا لله ..

فلا يجوز الصلاة لغير الله ، ولا الصيام ، والصدقة ، والنذر ، والذبح ، وغيرها من الشعائر ..

ومنها : الانقياد والاذعان الدينى لما شرع الله من أحكام .. أحل بها الحلال ، وحرم الحرام ، وحد الحدود ، ونظم شئون الحياة ..

فلا يجوز لمن آمن بالله ربا أن يأخذ عن البشر النظم والأحكام والقيم والقوانين .. يخضع لها ويحكمها فى حياته بغير سلطان من الله .. فهذا ضرب من العبادة »(٤٣) .

* * *

---

(٤٢) رواه الترمذى

(٤٣) انظر « حقيقة التوحيد » للدكتور يوسف القرضاوى : نشر مكتبة وهبة ص ٢٢ ، ٢٣

● **الشرك ، والكفر ، والالحاد :**

بسطنا فى الصفحات السابقة معنى كلمة « العبادة » .. ونعرض فى ايجاز معنى كلمات : « الشرك » و « الكفر » .. و « الالحاد » .. اتماما للفائدة .. فنقول وبالله العون :

● يقول ابن منظور فى « لسان العرب » تعريفا للشرك : أشرك بالله ، جعل له شريكا فى ملكه — تعالى الله عن ذلك — والاسم « الشرك » .. قال الله تعالى حكاية عن عبده لقمان ، أنه قال لابنه : « **يا بنى لا تشرك بالله ، ان الشرك لظلم عظيم** »(٤٤) .

والشرك : أن يجعل لله شريكا فى ربوبيته — تعالى الله عن الشركاء ، والأنداد — وانما دخلت التاء فى قوله : « **لا تشرك بالله** » لأن معناه : لا تعدل به غير فتجعله شريكا له ..

وكذلك قوله تعالى : « **وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا** »(٤٥) لأن معناه : عدلوا به .. ومن عدل به شيئا من خلقه فهو كافر مشرك .. لأن الله وحده لا شريك له ، ولأنه لا ند له ولا نديد ..

قال أبو العباس فى قوله تعالى : « **والذين هم به مشركون** »(٤٦) معناه : الذين هم صاروا مشركين بطاعتهم للشيطان ..

وليس المعنى أنهم آمنوا بالله وأشركوا بالشيطان .. ولكن عبدوا الله وعبدوا معه الشيطان — بطاعته — فصاروا بذلك مشركين ..

قال الجوهرى : الشرك ، الكفر .. وقد أشرك فلان بالله ، فهو مشرك ..

وفى الحديث الشريف : « الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل » .. قال ابن الأثير : يريد به الرياء فى العمل ، فكأنه أشرك فى عمله غير الله تعالى .. ومنه قوله تعالى : « **ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** »(٤٧) .

---

(٤٤) لقمان : ١٣
(٤٥) الاعراف : ٣٣
(٤٦) النحل : ١٠٠
(٤٧) الكهف : ١١٠

وفى الحديث أيضا : « من حلف بغير الله فقد أشرك » •• حيث جعل مالا يحلف به محلوفا به كاسم الله الذى يكون به القسم ••

● والكفر : نقيض الايمان •• والكفر أيضا : كفر النعمة وجحودها ، وهو نقيض الشكر ••

وكفر النعمة : جحدها وسترها •• قال تعالى : « **انا بكل كافرون** »(٤٨) •• أى جاحدون •• ورجل كافر : جاحد لأنعم الله ، وهو مشتق من الستر ••

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « قتال المسلم كفر ، وسبابه فسوق ، ومن رغب عن أبيه فقد كفر » ••

وقال بعض أهل العلم : الكفر على أربعة أنحاء : كفر انكار ، بأن لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به •• وكفر جحود •• وكفر معاندة •• وكفر نفاق ، ومن لقى ربه بشىء من ذلك لم يغفر له ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ••

فأما كفر الانكار : فهو أن يكفر بقلبه ولسانه ، ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد •• وكذلك روى فى قوله تعالى : « **ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** »(٤٩) •• أى الذين كفروا بتوحيد الله ••

وأما كفر الجحود : فأن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه ، فهو كافر جاحد •• ككفر ابليس وكفر أمية بن أبى الصلت •• ومنه قوله تعالى : « **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** » (٥٠) •• يعنى كفر الجحود ••

وأما كفر المعاندة : فهو أن يعرف الله بقلبه ، ويقر بلسانه •• ولكنه لا يدين به حسدا وبغيا ككفر أبى جهل وأضرابه •• وفى « التهذيب » : يعترف بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل •• كأبى طالب حيث يقول :

---

(٤٨) القصص : ٤٨ — (٤٩) البقرة : ٦

(٥٠) البقرة : ٨٩

ولقـــد علمت بأن دين محمـــد من خـــير أديان البرية دينـــا
لولا الملامـــة أو حـــذار مسـبة لوجـــدتنى ســـمحا بذاك مبينـــا

وأما عن كفر النفاق : فأن يقر بلسانه ، ويكفر قلبه ، ولا يعتقد بقلبه ..

كتب عبد الملك بن مروان الى سعيد بن جبير يسأله عن الكفر فقال : « الكفر على وجوه : فكفر هو شرك ، يتخذ مع الله الها آخر .. وكفر بكتاب الله ورسوله .. وكفر بادعاء ولد لله .. وكفر مدعى الاسلام ، وهو أن يعمل أعمالا بغير ما أنزل الله ، ويسعى فى الأرض فسادا ، ويقتل نفسا محرمة بغير حق » ..

وقوله ســبحانه : « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هــم الكافرون** » [٥١] .. معناه : أن من زعم أن حكما من أحكام الله الذى أتت به الأنبياء — عليهم السلام — باطل .. فهو كافر .

وسئل ابن عباس — رضى الله عنهما — عن هذه الآية فقال : « وليسوا كمن كفر بالله واليوم الآخر » ..

وقد أجمع الفقهاء .. أن من قال : ان المحصنين لا يجب أن يرجما اذا زنيا وكانا حرين ، كافر .. وانما كفر من رد حكما من أحـــكام النبى ﷺ لأنه مكذب كافر ..

وفى الحديث : أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع : « لاترجعن بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وقال ﷺ : « من قال لأخيه : يا كافر .. فقد باء به أحدهما » .. لأنه اما أن يصدق عليه أو يكذب ، فان صدق فهو كافر ، وان كذب عاد الكفر اليه بتكفيره أخاه المسلم .

ومن أنكر فرضية أحد أركان الاسلام .. كان كافرا بالاجماع .. ومن أنكر شيئا معلوما من الدين بالضرورة ، كان كافرا — أعاذنا الله من ذلك ..

---

(٥١) المائدة : ٤٤

● أما معنى الالحاد : فالالحاد هو الميل ، والعدول ، والجور • يقال : لحد فى الدين وألحد : أى مال وعدل •• ويقال : مال وجاز ••

ويقول ابن السكيت : الملحد : العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس فيه •• يقال : قد ألحد فى الدين ولحد : أى حاد عنه •• وألحد الرجل : أى ظلم فى الحرم ، وأصله قوله تعالى : « **ومن يرد فيه بالحاد بظلم** »(٥٢) •• أى الحادا بظلم ••

ومعنى الالحاد فى اللغة : الميل عن القصد •• ولحد على من شهادته ، يلحد لحدا : أثم •• ولحد اليه بلسانه : مال ••

ويقول الأزهرى فى قوله تعالى : « **لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** »(٥٣) •

•• قال الفراء : قرىء يلحدون — بفتح الياء والحاء مع تسكين اللام — أراد يميلون اليه •• ويلحدون — بضم الياء وكسر الحاء — : يعترضون •• قال : وقوله سبحانه : « **ومن يرد فيه بالحاد بظلم** » •• أى باعتراض ••

وفى الحديث الشريف : « احتكار الطعام فى الحرم الحاد فيه » أى ظلم وعدوان •• وأصل الالحاد •• الميل والعدول عن الشىء (٥٤) •

* * *

● **عقيدة أهل التوحيد فى الاله المعبود ، وفى الرسول الخاتم :**

يقول الله تعالى : « **هو الله الذى لا اله الا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم • هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون • هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم** »(٥٥) •

---

(٥٢) الحج : ٢٥ (٥٣) النحل : ١٠٣

(٥٤) انظر : « منهاج الصالحين ... من احاديث وسنة خاتم الانبياء والمرسلين » للاستاذ عز الدين بليق ، ص ٩٤ — ٩٨ بتصرف •

(٥٥) الحشر : ٢٢ — ٢٤

فالله تعالى : هو المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية الا له ..

هو عالم غيب السموات والأرض ، وشاهد ما فيهما مما يرى ويحس ..

هو رحمن الدنيا والآخرة .. رحيم بأهل الايمان به ..

هو المعبود الذى لا تصلح العبادة الا له .. الملك الذى لا ملك فوقه ..

هو الطاهر من كل ما يضيف اليه المشركون ، ويصفونه مما ليس من صفاته ..

هو — تعالى — الذى يسلم خلقه من ظلمه .. والذى يؤمن خلقه من ظلمه .. الرقيب الحافظ لكل شىء .. الشديد فى انتقامه ممن انتقم من أعدائه .. المصلح أمور خلقه ، يصرفهم فيما فيه صلاحهم .. الذى تكبر عن كل شىء .. تنزه تعالى عن شرك المشركين ..

وهو المصدق لرسله باظهار المعجزات على أيديهم .. القهار العالى الجناب الذى يذل له من دونه ..

هو تعالى — المعبود الخالق الذى لا معبود تصلح له العبادة غيره ، ولا خالق سواه .. الذى برأ الخلق فأوجدهم بقدرته ، والذى صور خلقه كيف شاء ..

له تعالى الأسماء الحسنى .. يسبح له جميع ما فى السموات والأرض ، ويسجد له طوعا وكرها .. وهو — تعالى — الشديد الانتقام من أعدائه .. الحكيم فى تدبيره خلقه ، وتصريفهم فيما فيه صلاحهم.

هذه الأسماء الحسنى .. التى ذكرها تعالى وغيرها توقيفية .. ويجب الاقتصار على ما ورد فى الكتاب والسنة ، مما سمى الله به نفسه فى كتابه ، أو سماه بها رسوله ﷺ .. فلا يجوز أن نخترع له أسماء كأن نقول : الله « مهندس الكون » .. أو « طبيب القلوب » .. الخ .

وأهل التوحيد .. يؤمنون بأن الله تعالى : « واحد لا شريك له ، فرد لا مثيل له ، صمد لا ضد له ، منفرد لا ند له ، واحد قديم لا أول له ،

أزلى لا بداية له ، مستمر الوجود لا آخر له : أبدى لا نهاية له ، قيوم لا انقطاع له ، دائم لا انصرام له .. لم يزل ولا يزال موصوفا بنعوت الجلال ، لا يقضى عليه بالانقضاء وتصرم الآباد ، وانقراض الآجال ، بل هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم »(٥٦) .

يؤمن أهل التوحيد : بأنه تعالى : « ليس بجسم مصور ، ولا جوهر محدود مقدر ، فانه لا يماثل الأجسام لا فى التقدير ولا قبول الانقسام ، فانه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، ولا بعرض ، بل لا يماثل موجودا ولا يماثله موجود ، ليس كمثله شىء ، ، وأنه لا يحده المقدار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا تحويه الجهات ، ولا تكتنفه السموات ، وأنه مستو على العرش ، على الوجه الذى قاله ، وبالمعنى الذى أراده ، استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار ، والتمكن والحلول والانتقال ، لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون فى قبضته ، وهو فوق العرش ، وفوق كل شىء الى تخوم الثرى ، فوقية لا تزيده قربا الى العرش والسماء ، بل هو رفيع الدرجات على العرش .

كما أنه رفيع الدرجات على الثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب الى العبيد من حبل الوريد ، فهو على كل شىء شهيد ، اذ لا يماثل قربه قرب الأجسـام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسـام ..

وأنه لا يحل فى شىء ، ولا يحل فيه شىء ، تعالى أن يحويه مكان ، كما تقدس عن أن يحده زمان ، بل كان قبل أن يخلق الزمان والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان ..

وأنه — تعالى — بائن عن خلقه بصفاته ، ليس فى ذاته سواه ، ولا فى سواه ذاته ..

وأنه مقدس عن التغيير والانتقال ، ولا تحله الحوادث ولا تعتريـه العوارض ، بل لم يزل ولا يزال فى نعوت جلاله منزهاً عن الزوال ، وفى صفات كماله مستغنيا عن زيادة الاستكمال ..

---

(٥٦) بداية الهداية ، لأبى حامد الغزالى ، نشر دار التراث العربى ، ١٩٨٦ ، ص ١٩ .

وأنه فى ذاته معلوم الوجود بالعقول ، مرئى الذات بالأبصار ، نعمة منه ولطفاً بالأبرار فى دار القرار ، واتماما للنعيم بالنظر الى وجهه الكريم »(٥٧) .

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعـالى : « حى قادر ، جبار قاهر ، لا يعتريه قصور ولا عجز ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعارضه فناء ولا موت ، انه ذو الملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، له السلطان والقهر ، والخلق والأمر ، والسـموات مطويات بيمينه ، والخلائق مقهورون فى قبضته ..

وأنه — تعـالى — منفرد بالخلق والاختراع ، متوحد بالايجاد والابداع ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، لا يشذ عن قبضته مقدور ، ولا تعزب عن ارادته تصاريف الأمور ، لا تحصى مقدوراته ، ولا تتناهى معلوماته »(٥٨) .

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعالى : « عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجرى من تخوم الأرض الى أعلى السموات ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليـلة الظلماء ، يدرك حركة الذر فى الهواء ، يعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلى ، لم يزل موصوفا به فى أزل الآزل ، لا بعلم مجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال »(٥٩) .

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعالى : « مريد للكائنات ، مريد للحادثات ، فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل ولا كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، ايمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسر ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان ، كفر أو ايمان ، الا بقضائه وقدره ، وحكمه ومشيئته ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدئ المعيد ، والفعال لـما يريد ،

(٥٧) بداية الهداية ، مرجع سابق ، ص ١٩ ، ٢٠ .
(٥٨) المرجع نفسه ص ٢١ . (٥٩) نفس المرجع ص ٢١ .

لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته الا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة له على طاعته الا بمحبته وارادته ، لو اجتمع الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها عجزوا عنه ..

وأن ارادته قائمة بذاته ، فى جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفا مريدا فى أزله ، سبقت ارادته وجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها ، فوجدت فى أوقاتها كما أراده فى أزله ، من غير تقدم أو تأخر ، ووقعت على وفق علمه وارادته ، من غير تبدل ولا تغير ، دبر الأمور لا بترتيب أفكار وتريض زمان ، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن »(٦٠) ..

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعالى : « سميع بصير ، يسمع ويرى ، لا يعزب عن سمعه مسموع وان خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وان دق ، ولا يحجب سمعه بعد ، ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان ، كما يعلم بغير قلب ، ويبطش بغير جارحة ، ويخلق بغير آلة ، اذ لا تشبه صفاته صفات الخلق ، كما لا تشبه ذاته ذات الخلق »(٦١) .

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعالى : « متكلم آمر ناه ، واعد متوعد ، بكلام أزلى قديم ، قائم بذاته ، لا يشبه كلام الخلق ، وليس بصوت يحدث من انسلال هواء ، ولا حرف ينقطع باطباق شفة أو تحريك لسان ، والقرآن والتوراة والانجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله .. وأن القرآن مقروء بالألسنة ، مكتوب فى المصاحف ، محفوظ فى القلوب ، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله ، لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال الى القلوب أو الأوراق ، وأن موسى سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله — يوم القيامة — من غير جوهر ولا عرض ، واذ كانت له هذه الصفات كان حيا عالما ، قديرا مريدا ، سميعا بصيرا ، متكلما بالحياة والقدرة ، والعلم والارادة ، والسمع والبصر ، والكلام لا بمجرد الذات »(٦٢) .

---

(٦٠) بداية الهداية ، المرجع السابق ص ٢٢ .

(٦١) المرجع نفسه ص ٢٢ ، ٢٣ (٦٢) نفس المرجع ص ٢٣

يؤمن أهل التوحيد بأنه تعالى : « لا موجود سواه الا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه ، وأكملها وأتمها وأعدلها ، وأنه حكيم فى أفعاله ، عادل فى أقضيته ، لا يقاس عدله بعدل العباد ، اذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره ، ولا يتصور الظلم من الله ، فانه لا يصادف لغيره ملكا حتى لا يكون تصرفه فيه ظلما ، وكل ما سواه من جن وانس ، وشيطان وملك ، وسماء وأرض ، وحيوان ونبات ، وجوهر وعرض ومدر ، هو محسوس حادث ، اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا ، وأنشأه بعد أن لم يكن شيئا ، اذ كان فى الأزل موجودا وحده ، ولم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق بعد أن لم يكن اظهارا لقدرته ، وأنشأه بعد أن لم يكن شيئا ..

وأنه — تعالى — متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتصف بالانعام والاصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والاحسان ، والنعمة والامتنان ، اذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب ، ولو فعل ذلك لكان ذلك منه عدلا . ولم يكن قبيحا ولا ظلما ، وأنه يثيب عباده على الطاعات بحكم الكرم والوعد ، لا بحكم الاستحقاق واللزوم ، اذ لا يجب عليه فعل ، ولا يتصور منه ظلم ، ولا يجب عليه لأحد حق ، فان حقه فى الطاعات واجب على الخلق بايجابه على لسان أنبيائه لا بمجرد العقل ، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة ، بلغوا أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، فأوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به »(٦٣) .

* * *

● الله تعالى فى عقيدة الاسلام : « **ليس كمثله شىء** »(٦٤) ..

ومما يقتضيه العقل : أن خالق العالم لا يشبه خلقه ، فالصانع لا يشبه

---

(٦٣) بداية الهداية ، المرجع السابق ص ٢٣ ، ٢٤

(٦٤) الشورى : ١١

الصنعة ، والتكيف والتحديد لا يكونان الا فى المخلوق لأنهما صفتان للمحدث[٦٥] .

ولهذا يعتقد أهل التوحيد : أن الله تبارك وتعالى متصف بصفات الجلال والكمال من الحياة ، والقدرة ، والعلم والارادة : « **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** »[٦٦] .

وأنه تعالى هو المخترع لجميع المخلوقات : العرش وما حوى .. والسموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ..

وأنه خلق الخلق من غير احتياج اليهم .. ولم يدركه تعالى نصب فى ايجاده لهم .. قال تعــالى : « **ولقد خلقنا الســموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب** »[٦٧] .. أى تعب ونصب .

وأنه ليس فى خلقه علة لمعلول .. وليس تقديم بعضها على بعض لحق واجب ، ولا تأخير متأخر منها لاضطرار لازم ، ولا نفى جمع الضدين لعجز واقع ، ولا تناهى مخلوقاته وانحصارها لضعف لاحق .. بل كان ذلك منه تعالى لاختيار وحكمة يعلمها هو عز وجل .. وأن كل نعمة منه منة وفضل ، وكل محنة وضلالة عدل منه وحكمة ..

وأنه لا يدرك بالعقل .. ولا يتصور بالوهم .. قال تعــالى : « **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** »[٦٨] .. بل السبيل الى معرفته العجز عن ادراكه ، كما قال أبو بكر رضى الله عنه : « سبحان من لا يوصل الى معرفته الا بالعجز عن معرفته » ..

وفى ذلك يقول الامام مالك رضى الله عنه : « كل ما يقع فى القلب فالله بخلافه ، وذلك أن كل ما يقع فى القلب انما هو خلق من خلق الله تعالى .. ولا يشبه الخالق المخلوق » ..

ويقول الشافعى رضى الله عنه : « آمنت بالله كما أمر الله »

---

(٦٥) انظر « اتحاف الكائنات » — لفضيلة الشيخ محمود خطاب السبكى .

(٦٦) الملك : ١٤ — (٦٧) سورة ق : ٣٨

(٦٨) الأنعام : ١٠٣

فهو الواحد الأحد ، الموجود بلا ابتداء ، الباقي بلا انتهاء ، الظاهر بصفاته وأفعاله ، الباطن بكنهه وذاته : **« هو الأول والآخر والظاهر والباطن »**(٦٩) .. وهو الغني عما سواه ، المحتاج اليه كل ما عداه : **« يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغني الحميد »**(٧٠) .. كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان ولا يزال على ما هو عليه .. تنزه عن المكان والجهة وصفات الحوادث والتغيرات والأعراض ..

كما يعتقد أهل التوحيد : أن الله تعالى هو المتصرف في خلقه بمقتضى حكمته وقدرته وارادته .. فكل ما يصدر في العالم من حركات وسكنات وخواطر وغيرها — دق أو عظم — بمحض خلقه تعالى وايجاده .. وتصرفات العباد الاختيارية ليس لهم فيها الا الكسب .. قال تعالى : **« وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى »**(٧١) .. فأثبت الرمي للنبي ﷺ من جهة المباشرة والاختيار .. وحقيقته للرب من حيث الايجاد والاختيار ..

وأيضا .. لو انفرد واحد من العالم بايجاد ذرة لكان شريكا له .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا : **« قل هو الله أحد »**(٧٢) ، **« وإلهكم إله واحد »**(٧٣) ، **« لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا »**(٧٤) ، **« والله خلقكم وما تعملون »**(٧٥) .

ولو لم يكن للعبد كسب ما صح تكليفه ولا خوطب بنحو قوله تعالى : **« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم »**(٧٦) .. وقوله : **« وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون »**(٧٧) .

كما يعتقد أهل التوحيد : أن ترتب الثواب على الطاعات ، والعقاب على المخالفات أمر ثابت بالشرع لا دخل للعقل فيه ..

---

(٦٩) الحديد : ٣ — (٧٠) فاطر : ١٥
(٧١) الأنفال : ١٧ — (٧٢) الاخلاص : ١
(٧٣) البقرة : ١٦٣ — (٧٤) الأنبياء : ٢٢
(٧٥) الصافات : ٩٦ — (٧٦) الشورى : ٣٠
(٧٧) الزخرف : ٧٢

وأن ربط المسببات بأسبابها العادية انما هو لحكمة اقتضتها ارادة الله الأزلية : كوجود الرى عند شرب الماء ..

ولله تعالى خرق العوائد .. فقد يوجد السبب ولا يوجد المسبب وبالعكس .. قال تعالى : « **يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم** »[٧٨] .

وأنه لا مانع لما أراد .. ولا راد لما قضى ..

وأن كلام الله تعالى قديم ليس بحرف ولا صوت ..

وأن القرآن كلامه عز وجل .. أنزله على نبينا محمد ﷺ كما أنزل التوراة على موسى ، والانجيل على عيسى ، والزبور على داوود ، والصحف على ابراهيم وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ..

وأن الله تعالى قد أرسل لعباده أنبياء ورسلا .. مبشرين ومنذرين .. لا يعلم عددهم الا الله تعالى .. قال سبحانه : « **ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك** »[٧٩] .

وأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم خاتم الأنبياء .. أرسله الله تعالى للناس كافة .. قال تعالى : « **ما كان محمد ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** »[٨٠] .

وقال جل شأنه : « **وما أرسلناك الا كافة للناس** »[٨١] .

ويعتقد أهل التوحيد : أن لله تعالى ملائكة : « **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** »[٨٢] .. وهم لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة ..

وأن سؤال القبر ونعيمه للطائعين ، وعذابه للعاصين : حق ..

وأن البعث ، والحساب ، والميزان ، وأخذ الخلق كتبهم بأيديهم ، وغير ذلك مما هو ثابت بالكتاب والسنة : حق ..

وأن الشفاعة العظمى فى فصل القضاء مختصة بسيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ..

---

(٧٨) الانبياء : ٦٩
(٧٩) غافر : ٧٨
(٨٠) الأحزاب : ٤٠
(٨١) سبأ : ٢٨
(٨٢) التحريم : ٦

وأن من مات مسلما يخلد فى الجنة •• ومن مات على غير الاسلام يخلد فى النار ••

وأن مرتكب المعاصى — غير الكفر — ليس بكافر ••

وأن المؤمنين سيرون ربهم فى الجنة بلا كيف ولا انحصار ••

قال تعالى : « **وجوه يومئذ ناضرة • ألى ربها ناظرة** »(٨٣) •

ولأهل السنة — أهل التوحيد — المتمسكون بكتاب ربهم وسنة نبيهم صفات يتصفون بها ••

منها : الصدق ، وقول الحق ، والأمانة ، والوفاء ، واتباع السنة ، وترك الابتداع ، وبذل الجهد فى الطاعة ، والاعتراف بالتقصير ، والتوكل والتسليم ، والرضا بالقضاء والقدر ، والاخلاص فى السر والعلانية ، والاعتدال فى حالتى الرضا والغضب ••

ومنها : كظم الغيظ ، والعفو عن الظالمين ، والاحسان ولو الى المسىء ، وبذل النصيحة من غير غش ، والتواضع بلا ذلة وتماوت ، والتراحم والاشفاق ، وايثار الغير ، والتوادد والتعاطف •• وذلك كما وصفهم الله تعالى بقوله : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله** »(٨٤) •

وقوله سبحانه : « **الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين** »(٨٥) •

وقوله جل شأنه : « **أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** »(٨٦) •

وقوله جل وعلا : « **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** »(٨٧) •

---

(٨٣) القيامة : ٢٢ ، ٢٣

(٨٤) التوبة : ٧١

(٨٥) آل عمران : ١٣٤

(٨٦) الفتح : ٢٩

(٨٧) الحشر : ٩

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد : اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »(٨٨) .

ويقول أبو حامد الغزالي : «بعث الله النبي الأمي القرشي «محمداً» ﷺ برسالته الى كافة العرب والعجم ، والجن والانس .. فنسخ بشريعته الشرائع الا ما قرر ، وفضله على سائر الأنبياء ، وجعله سيد البشر ، ومنع كمال الايمان بشهادة التوحيد — وهي قول : لا اله الا الله — ما لم تقترن به شهادة الرسول وهو قولك : « محمد رسول الله » .. وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمر الدنيا والآخرة ..

« وأنه لا يتقبل ايمان عبد حتى يوقن بما أخبر عنه بعد الموت .. وأوله : سؤال منكر ونكير ، وهما شخصان مهيبان هائلان ، يقعدان الميت في قبره سويا ، ذا روح وجسد . فيسألانه عن التوحيد والرسالة ، ويقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وهما فتانا القبر ، وسؤالهما أول فتنة بعد الموت ..

« وأن تؤمن بعذاب القبر : وأنه حق وحكمة وعدل على الجسم والروح على من يشاء ..

« وتؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان ، وصفته في العظم مثل طباق السموات والأرض ، وتوزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى ، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل ، تحقيقا لتمام العدل ، وتطرح فيه صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة النور ، فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله ، وتطرح صحائف السيئات في كفة الظلمة ، فيخف بها الميزان بعدل الله ..

« وأن تؤمن بأن الصراط حق ، وهو جسر ممدود على متن جهنم ، أحد من السيف ، وأدق من الشعر ، تزل عنه أقدام الكافرين بحكم الله فتهوي بهم الى النار ، وتثبت عليه أقدام المؤمنين فيساقون الى دار القرار ..

---

(٨٨) رواه أحمد ومسلم .

« وأن تؤمن بالحوض المورود .. حوض « محمد » ﷺ ، يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة ، وبعد جواز الصراط ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، عرضه مسيرة شهر ، أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، حوله أباريق عددها نجوم السماء ، فيه ميزابان من الكوثر ..

« وأن تؤمن بالحسنات وتفاوت الخلق فيها : الى مناقش فى الحساب ، والى متسامح فيه ، والى من يدخل الجنة بغير حساب — وهم المقربون — فيسأل من يشاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ، ومن يشاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ، ويسأل المبتدعة عن السنة ، ويسأل المسلمين عن الأعمال ..

« وتؤمن باخراج الموحدين من النار بعد الانتقام ، حتى لا يبقى فى جهنم منهم موحد بفضل الله تعالى ..

« وتؤمن بشفاعة الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، ثم سائر المؤمنين .. كل حسب جاهه ومنزلته عند الله تعالى ، ومن بقى من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله ، فلا يخلد فى النار مؤمن ، بل يخرج منها كل من فى قلبه مثقال ذرة من الايمان ..

« وأن تعتقد فضل الصحابة ورتبتهم ، وأن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على — رضى الله عنهم ، وأن تحسن الظن بجميع الصحابة ، وتثنى عليهم كما أثنى الله عليهم ورسوله أجمعين ..

« فكل ذلك مما وردت به الأخبار ، وشهدت به الآثار .. فمن اعتقد جميع ذلك موقنا به كان من أهل الحق ، وعصابة السنة ، وفارق رهط الضلال ، وحزب البدعة .. فنسأل الله اليقين ، والثبات فى الدين ، لنا ولكافة المسلمين .. انه أرحم الراحمين »[٨٩] ..

* * *

---

(٨٩) بداية الهداية ، مرجع سابق ، ص ٢٥ — ٢٧

ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم .. اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر .. لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد .. حتى جلس الى النبى ﷺ فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه(٩٣) .. وقال : يا محمد ، أخبرنى عن الاسلام ؟

فقال رسول الله ﷺ : « الاسلام : أن تشهد ان لا اله الا الله ، وأن محمـداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصـوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا » .

قال : صدقت . فتعجبنا منه ، يسأله ويصدقه !! (٩٤) .

قال : فأخبرنى عن الايمان ؟

قال : « أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليـوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

قال : صدقت .. فأخبرنى عن الاحسان ؟

قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

قال : فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » ..

قال : فأخبرنى عن أماراتها ؟ . قال : « أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان »(٩٥) .

ثم انطلق ، فلبثت مليا (٩٦) .. ثم قال : « يا عمر ، أتدرى من السائل » ؟ . قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فانه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم »(٩٧) .

---

(٩٣) اى كهيئة الجالس للتشهد فى الصلاة .

(٩٤) وجه العجب ان السؤال يدل على عدم علم السائل ، والتصديق يدل على علمه .

(٩٥) أى تكثر السرارى حتى تلد الامة السرية بنتا لسيدها ، وبنت السيد فى معنى السيد ، والعالة : هم الفقراء ، والرعاء — بكسر أوله وبالمد : جمع راع ، والشاء : الغنم .

(٩٦) اى زمنا طويلا ، وكان ذلك ثلاثة أيام .

(٩٧) رواه مسلم .

ما أحوجنا اليوم — معشر المسلمين — الى الكلمة السواء !!

ما أحوجنا الى كلمة التوحيد ، فلا نعبد الا الله .. ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله !!

ما أحوجنا لأن نقول للأمم كلها : اشهدوا بأنا مسلمون !!

يقول تعالى : **« ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب »**(٩٠) .

فالدين الذى شرعه الله ، وبعث به رسله ، والذى لا يقبل غيره هو الاسلام .. وما اختلف النصارى — الذين أوتوا الانجيل — فى أمر عيسى عليه السلام — الا من بعد ما علموا الحق عن يقين ، تعديا من بعضهم على بعض وطلبا للرياسة والملك والسلطان ..

ويتوعد تعالى من يجحد حججه وبراهينه التى نصبها لمن عقل واعتبر .. بأنه تعالى محص على كل انسان أعماله ، ومجازيه عليها بغير كلفة ولا مؤنة ، ولا معاناة للحساب .

ومعنى « سريع الحساب » — والله أعلم — أنه يحاسب الخلائق قاطبة فى أقرب زمان ، لأنه لا يشغله شأن عن شأن ..

ويقول جل شأنه : **« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »**(٩١) .

يؤكد تعالى .. أن من طلب دينا غير الاسلام — فانه تعالى لن يقبل منه ذلك ، ويكون العبد بذلك قد خسر رحمة الله عز وجل .

ويقول جل وعلا : **« ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين »**(٩٢) .

أى أن من يجحد وحدانية الله ، ونبوة محمد ﷺ ، ويرتد عن الاسلام فقد بطل ثواب عمله ، وهو يوم القيامة من الهالكين .

---

(٩٠) آل عمران : ١٩ (٩١) آل عمران : ٨٥
(٩٢) المائدة : ٥

فالاســـلام : هو شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبــده ورسوله ، واقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا ..

والإيمان : هو الايمان بالله تعالى ، وبملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقضاء خيره وشره ..

والاحسان : أن تعبد الله كأنك تراه .. فانه ان لم تكن تراه فانه سبحانه يراك ..

الايمان اذن : هو التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ..

ولهذا يقول الرسول ﷺ : « ليس الايمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » ..

لذا .. عندما أعلن بعض الأعراب ايمــانهم .. رد الله زعمهم بقوله : **« قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ، وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، ان الله غفور رحيم . انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى ســبيل الله ، أولئــك هــم الصادقون »**(٩٨) .

كان ذلك .. عندما قدم ناس من الأعراب الى المدينة فى ســنة مجدبة .. وامتنوا على الرسول ﷺ باسلامهم .. فقالوا : يا رسول الله ، جئناك مؤمنين ولم نقاتلك كما قاتلك بنو غلان وبنو فلان ..

وأخذوا يمتنون عليه بالايمان وعدم القتال .. فنزلت الآية وفيهــا يقول تعالى : يقول لك الأعراب : صدقنا بالله ورسوله فنحن مؤمنون .. فقل لهم يا محمد : لستم بمؤمنين حقيقة ، فلا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا .. لأن الاسلام قول ، والايمان قول وعمل .. وحتى الآن لم يدخل العلم بشرائع الايمان وحقائق معانيه فى قلوبكم ..

وان تطيعوا الله ورسوله — أيها الأعراب — فتأتمــروا بأمره

---

(٩٨) الحجرات : ١٤ ، ١٥

وتنتهوا عما نهاكم عنــه ، لا يظلمكم الله من أجور أعمــالكم شيئا ، ولا ينقصكم من ثوابها مثقال ذرة •• فهو تعالى غفور لمن تاب من سالف ذنبه وأطاعه ، وهو جل شأنه رحيم بخلقه أن يعاقبهم بعد توبتهم ••

فالمؤمنون — كاملو الايمان — هم الذين صدقوا الله ورسوله •• ثم لم يشكوا فى وحدانيته تعالى ، ولا فى نبوة رسوله ﷺ ، ولا فى الفرائض التى افترضها الله عليهم ••

وتدلنا الآية •• أن الايمان أعلى مرتبة من الاسلام •• فالايمــان اعتقاد وقول وعمل •• أما الاسلام فانه الاستسلام والانقياد الظاهر •

ولهذا نراه تعالى يؤدبهم وينبههم الى أن المؤمن الحقيقى هو من صدق ايمانه بعمله •• لا من انتحل الايمان بالكلام ، وامتن بايمانه على الرسول ﷺ ••

يقول تعالى — بعد هذه الآية : « **يمنون عليك أن أسلموا ، قــل لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين • ان الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصــير بما تعملون** »(٩٩) •

أى : ان هؤلاء الأعراب •• يمنون عليك — أيها الرسول — بأن أسلموا •• فقل لهم : لا تمنوا على اسلامكم ، بل الله تعالى يمن عليكم — أيها القوم — أن وفقكم للايمان به وبرسوله ، هذا ان كنتم صادقين فى قولكم أنكم آمنتم ••

فالله تعالى — يعلم ما غاب عنكم فى خبايا السموات والأرض — لا يخفى عليه الصادق من الكاذب •• يعلم ما تكنه صدوركم وتحدثون به أنفسكم •• وهو — تعالى — بصير بأعمالكم التى تعملونها جهرا كانت أم سرا ، وهو مجازيكم على جميع ذلك ••

وبعد •• فهل نحن مسلمون حقا : فلا نعبد الا الله تعالى ، ولا نطيع الا رسوله ﷺ ؟ ••

---

(٩٩) الحجرات : ١٧ ، ١٨

هل نقوم بالفرائض التي افترضها الله علينا ، تماما كما افترضها علينا ؟

هل نحن مؤمنون حقا بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر •• ونؤمن بالقضاء خيره ، وشره ؟

هل نحن محسنون حقا : فنعبد الله كأننا نراه •• ونؤمن في قرارة أنفسنا أنه ولو أننا لا نراه : فانه تعالى يرانا ! ؟

* * *

● **وقفــة لا بد منهــا :**

هنا •• يجب أن نتوقف قليلا لكي نراجع أنفسنا ، وننظر في أحوالنا ونتدبر أمورنا •• حتى نرى ما اذا كنا نسير على نفس الطريق الذى سلكه أسلافنا في الصدر الأول للاسلام •• أم أننا تنكبنا هذه الطريق ؟ !

لقد جاهد الأسلاف العظام لاقامة الاسلام على نفس الدعائم التي أنزلها الله تعالى والأسس التي وضعها رسوله •• ولهذا تركوا لنا الاسلام قويا ، عزيز الجانب ، يملأ أركان الدنيا بعدله وسماحته ••

فهل حافظنا على هذه الأمانة التي تركها لنا أسلافنا أم ضيعناها ؟

هل تمسكنا بالرسالة التي حملها لنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، أم فرطنا فيها ؟؟

لقد أمر الله تعالى بنى اسرائيل أن يدخلوا الى المدينة المقدسة خاضعين خاشعين ، مقرين بآثامهم ، داعين الله تعالى أن يحط عنهم خطاياهم وأوزارهم •• وأمرهم — تعالى — بأن يقولوا في دعائهم « حطة » •• أى يا رب احطط عنا ذنوبنا ••

ولكن الذين ظلموا منهم بدلوا قولا غير الذى امرهم به ربهم فزادوا عليه حرفا واحدا •• فقالوا « حنطة » — بدلا من « حطة » •• فاستهزأوا بذلك القول من نبيهم ودخلوا المدينة وهم يزحفون على أستاههم !!

يقول تعالى : « **وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث**

شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيآتكم ، سنزيد المحسنين • فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم »(١٠٠) •

فماذا كان جزاؤهم ؟ •• لقد أنزل الله عليهم الرجز من السماء — طاعونا يستأصلهم — جزاء وفاقا لبغيهم وظلمهم وعصيانهم لأمر ربهم وتبديلهم لما طلب منهم • •

يقــول تعالى : « **فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون** »(١٠١) •

ثم يقول جل شأنه : « **واسألهم عن القــرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويــوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون • واذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ، قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون • فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون • فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** »(١٠٢) •

حرم اليهود العمل على أنفسهم فى يوم السبت ، فأقرت الشريعة هــذا التحريم •• وأراد الله تعــالى ابتلائهم واختبارهم •• فكانت الأسماك الضخمة تخرج من البحر — بالقرب من قرية أيلة على بحر القلزم — يوم السبت الذى نهوا عن العمل فيه ، وتظهر قريبة منهــم ثم تغيب فى سائر الأيام •• فاحتال أهل هذه القرية على انتهاك محارم الله • •

ووقفت جماعة منهم تحذرهم وتنهاهم عن معصية الله وانتهاك شريعته •• فتصدت لهــا أخرى قائلة : لم تنصحون قوما ســوف يهلكهم الله فى الدنيا بعصيانهم أمره ، أو يعذبهم فى الآخرة عذابا شديدا ؟ •• فقالت الأولى للثانية : انما نعظهم لنعذر عند الله بأداء ما فرضــه علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكى يتوبوا من معصيتهم وينزعوا عما هم فيه ••

---

(١٠٠) الأعراف : ١٦١ ، ١٦٢ (١٠١) الأعراف : ١٦٢

(١٠٢) الأعراف : ١٦٣ — ١٦٦

فلما ضيعوا أمر الله ، واستحلوا ما حرم عليهم .. أهلك الله تعالى الذين ظلموا بعذاب أليم لعصيانهم وخروجهم عن طاعته ، فمسخهم قردة ذليلين حقيرين مهانين ، جزاء وفاقا على تمردهم عن طاعة الله ، وتكبرهم عما نهوا عنه .. وأنجى تعالى الذين وقفوا ينهون قومهم عن معصية الله ..

هكذا وقع الغضب والسخط على اليهود لتبديلهم فى أوامر الله تعالى وعصيانهم لها ..

كما رأينا — من حديث عدى بن حاتم الذى مر بنا — كيف وصف تعالى طاعة اليهود والنصارى لأحبارهم ورهبانهم فيما حللوه لهم وحرموه عليهم بعبادتهم اياهم ، واتخاذهم أربابا من دونه تعالى ..

فعن عدى بن حاتم — رضى الله عنه — قال : « أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب — وكان عدى حديث عهد بالاسلام — فقال : « ما هذا يا عدى ؟ ! اطرح عنك هذا الوثن » .. وسمعته يقرأ فى سورة براءة : « **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم** »(١٠٣) .. ثم قال : أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكن كانوا اذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، واذا حرموا عليهم شيئا حرموه »(١٠٤) .

وسئل حذيفة — رضى الله عنه — عن هذه الآية : هل عبدوهم ؟ فقال : لا ، ولكن أحلوا لهم الحرام فاستحلوه ، وحرموا عليهم الحلال فحرموه ..

ويقول القرطبى : جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم فى كل شىء ..

والمقصود : أن التشريع والتحليل والتحريم لله وحده .. وليس لمخلوق أيا كان وضعه أن يبدل فى حكم الله أو يغير فيه ..

فما بالنا — نحن المسلمين — نسير على نفس الدرب ، ونستهين بأوامر الله ، فنعرض أنفسنا فى كل لحظة لغضبه وسخطه ؟ !

هل اتخذنا عند الله عهدا أن يخرق لنا السنن التى أجراها على الأمم

---

(١٠٣) التوبة : ٣١ (١٠٤) رواه الترمذى .

التى عصته من قبلنا ، فلا يعذبنا بذنوبنا ، ولا يسلط علينا من لايرحمنا ؟

هل وقع فى وهمنا أن مجرد اقرارنا بكلمة التوحيد دون العمل بمفهومها .. يمنحنا الحق فى مخالفته تعالى وعصيان أوامره ؟ !

يقول تعالى : « **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** »(١٠٥) .

الله تعالى يوجهنا — برحمته وكرمه — الى النظر فى أحوال الأمم السابقة ، والاعتبار بما أنزله عليها من السخط والعذاب حين عتت عن أمره ، وعصت أحكامه وتمردت عليها .. فهل نظرنا .. وتفكرنا .. وأعتبرنا ؟ ؟

اننا — للأسف — لم ننظر .. ولم نتفكر .. ولم نعتبر !!

اذن .. فلنستمع جميعا للنذير يسوقه الله تعالى لنا .. لنعلم جميعا أن الله تعالى لن يخرق من أجلنا السنن التى أجراها على الأمم السابقة حين عصته .. يقول تعالى .. مخاطبا نبينا ﷺ : « **وما أرسلنا فى قرية من نبى الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون . أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون . تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وان وجدنا أكثرهم لفاسقين** »(١٠٦) .

---

(١٠٥) يوسف : ١٠٩ (١٠٦) الأعراف : ٩٤ — ١٠٢

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ : أنه ما أرسل الى أمة من نبى قبله ، الا أخذ المكذبين منهم بالشدة وضيق العيش وسوء الحال .. حتى يتوبوا ويرجعوا ويتضرعوا الى ربهم ، وينيبوا اليه من ذنوبهم ..

فاذا هم فعلوا .. فان الله تعالى يغير حالهم الى السعادة والرخاء مكان الشدة والبلاء .. ليشكروا النعمة التى أنعم الله عليهم ..

هذه سنته تعالى مع جميع الأمم ..

وهو تعالى .. يبدل الأمم العاصية مكان الشدة والبلاء النعمة والرخاء — فى أول الأمر — حتى يكثروا وتكثر أموالهم وأولادهم .. وهذا استدراج منه لهم حتى يقولوا : هذه الأحوال قد أصابت من قبلنا من آبائنا ونالت أسلافنا .. ونحن فى ذلك مثلهم ، يصيبنا ما أصابهم من الشده والرخاء .. فاذا استمر عصيانهم واصرارهم على الكفر والتكذيب .. أخذهم الله بالعذاب بغتة وهم لا يعلمون بميعاد مجيئه ، ولا يدرون أوان حلوله (١٠٧) .

ثم يقول تعالى : **« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض »** ..

أسمعتم اخوتى ؟ !

لو انكم صدقتم بالله ورسوله ، واتقيتم ربكم بفعل الطاعات وترك المحرمات .. لأغدق الله عليكم القطر من السماء ، وأخرج لكم نبات الأرض .. فيجمع لكم بين خيرات السماء والأرض . .

والله تعالى .. يخبرنا أن الأمم السابقة كذبت رسلها ، فأهلكهم الله بذنوبهم ..

ثم يلفتنا الى بدهية لا يجب أن تغيب عنا أبدا ..

هل يأمن المكذبون أن يأتيهم عذاب الله ونكاله وهم نائمون ؟؟

هل يأمنون أن يأتيهم العذاب فى حال شغلهم وغفلتهم وهم لاهون ؟ ؟

---

(١٠٧) مختصر تفسير الطبرى ، اختصار وتعليق الشيخ محمد على الصابونى ، والدكتور صالح أحمد رضا ، نشر دار التراث العربى بالقاهرة ص ٢٧٥ .

هل يأمنون استدراج الله لهم برخاء العيش وصحة الأبدان ؟؟
الحق .. أنه لا يأمن ذلك الا من كتب الله عليهم الهلاك — بكفرهم وعصيانهم وتمردهم عن أوامره تعالى وأحكامه .. فيخسروا بذلك سعادتهم وأنفسهم !!

لماذا لا نتبين .. أن لو يشاء الله تعالى لفعل بنا ما فعله بمن قبلنا .. فيعجل لنا العذاب بعد أن أغلقنا قلوبنا وعطلنا حواسنا .. فلا نستمع لموعظة ، ولا نرتدع بما وقع للأمم السابقة ؟ !

ان لنا في هذه الأمم التي قص الله علينا نبأها في كتابه الكريم .. قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وشعيب .. ان لنا فيهم الدليل القوى على أن النصر دائما يكون لرسل الله على أعدائه . .

لقد جاءتهم رسلهم بالحجج الواضحات .. فما آمنوا بما جاءهم به الرسل .. بل عاندوا وكفروا ، وأصروا على معصية الله وايذاء رسله بالقول والفعل .. ولهذا طبع تعالى على قلوبهم فلا يؤمنوا أبدا !!

وكما طبع الله على قلوبهم بظلمهم ومعصيتهم وكفرهم ، كذلك يطبع على قلب كل ظالم ، وكل عاص ، وكل كافر .. والعدل كل العدل ، هو ما أنزله الله بساحتهم ، فما كان لهم من وفاء بما وصاهم الله به من توحيده والعمل بطاعته .. فكان العدل — اذن — أن ينزل تعالى بهم العذاب والهلاك ، بعد أن اختاروا لأنفسهم طريق الفسق عن أمر ربهم والخروج عن طاعته وترك عهده ووصاياه ..

* * *

لقد ذم الله اليهود فقال : ((**لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون**))(١٠٨) .

فالله تعالى .. قد أبعد اليهود وطردهم من رحمته ولعنهم على لسان أنبيائه ورسله — في الزبور والانجيل — بل لعنوا بكل لسان ..

---

(١٠٨) المائدة : ٧٨ ، ٧٩

فقد لعنوا على عهد موسى فى التوراة .. ولعنوا على عهد داوود فى الزبور .. ولعنوا على عهد عيسى فى الانجيل .. ولعنوا على عهـد محمد ﷺ فى القرآن ..

وذلك اللعن .. كان بسبب عصيانهم لأوامر الله ومجـاوزتهم حدوده .. وكانوا لا ينهى بعضهم بعضا عما يفعلونه من المعاصى وركوب المحارم ، وقتل الأنبياء والرسل ..

فبئس فعلهم وصنيعهم ، وتركهم النهى عن معاصى الله ومحارمه ..

وقد مر بنا .. كيف أنزل الله عذابه بالذين قالوا لأصحابهم من المؤمنين : **« لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا »**(١٠٩) . فنهوا الصالحين عن تقديم النصح لمن يعصون ربهم ، متعللين فى نهيهم بأن العذاب سوف يلحق أولئكم العصاة فى الدنيا ، وأنه واقـع بهم لا محالة فى الآخرة .. فلم الوعظ وتقديم النصح اذا كان الهلاك والعذاب هو مصيرهم ومآلهم ؟ !

منطق معكوس ، وحجة واهية !! ولهـذا استحق أولئك النفر العـذاب والنكال ينزل بهم ويسـويهم بالعاصين والمتكبرين .. لأنهم ارتضوا لأنفسهم النهى عن فعل المعروف والكف عن تقديم النصح ..

فخبرونى بربكم .. أين نحن اليوم من الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ؟ !

لقد أصبحت هذه الفريضة أمرا مستهجنا .. فلا يجد الآمـر بالمعروف الناهى عن المنكر من الناس الا الاعراض والاستهزاء .. فضلا عن الزجر والتوبيخ والعقـاب !!

لقد أسكننا الله تعالى الأرض لعمارتها واستخلفنا فيهـا .. ولم يتركنا وشأننا .. بل أرسل الرسل الينا لهدايتنا والأخذ بأيدينا الى طريق الرشاد ..

وبين تعالى لنا الحلال والحرام .. حتى نسلك طريق الهداية ، ونتجنب طريق الضلال .. يقول تعالى : **« يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحـل لكم الطيبـات »**(١١٠) .

---

(١٠٩) الاعراف : ١٦٤ (١١٠) المائدة : ٤

ويقول عن الحرام : « **قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** »(١١١) .

فما بالنا نستحل الحرام ، ونستبدل الخبيث بالطيب ؟ !

لقد شرع الله لنا الشرائع .. وسن لنا القوانين ، ووجهنا الى الأخذ بها فقال : « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** »(١١٢) .

وقال جل شأنه : « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** »(١١٣) .

وقال جل وعلا : « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** »(١١٤) .

أى أن من ترك حكم الله الذى أنزله فى كتابه مستحلا تركه فهو كافر ، والآية وان نزلت فى اليهود فهى تشمل أيضا غيرهم من الأمم ..

ومن ترك الحكم بما أنزل الله .. فهو ظالم جائر عن حكم الله ..

ومن ترك الحكم بما أنزل الله .. فهو فاسق خارج عن طاعة ربه ..

والله تعالى .. جمع فى هذه الآيات لمن ترك الحكم بما أنزله بين الكفر ، والظلم ، والفسق ..

فمن جحد ما أنزله تعالى فقد كفر .. ومن أقر به ولم يتحاكم اليه فهو ظالم وفاسق ..

فما بالنا نرتضى الكفر على الايمان .. والظلم على العدل .. والفسق على الطاعة ؟ !

لقد أرسل الله تعالى رسوله ﷺ الينا ، رحمة منه وفضلا .. حتى يأخذ بأيدينا الى صراطه المستقيم .. ولم يرسله متحكما فى

---

(١١١) الأعراف : ٣٣
(١١٢) المائدة : ٤٤
(١١٣) المائدة : ٤٥
(١١٤) المائدة : ٤٧

الناس أو مسيطرا عليهم .. ولم يبعثه جبارا فى الأرض .. انما أرسله هاديا ومعلما ومرشدا ..

يقول تعالى : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** »(١١٥) .

ويقول : « **لست عليهم بمسيطر . الا من تولى وكفر** » (١١٦) .

ويقول : « **وما أنت عليهم بجبار** »(١١٧) .

بل انه تعالى .. يقسم بذاته نافيا الايمان الحق عن الناس ما لم يجعلوا الرسول ﷺ حكما فيما يتنازعون أو يختلفون فيه من جميع أمورهم .. ثم لا يجدوا ضيقا فى أنفسهم مما حكم به ، ويسلموا لقضائه وحكمه التسليم المطلق ، مع الاذعان والقبول التامين .. يقول تعالى : « **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** »(١١٨) .

فالذى لا يرجع الى الرسول ﷺ .. ناقص الايمان ..

والذى يجد فى صدره ضيقا فيما تقضى به سنته ﷺ .. ناقص الايمان .

والذى لا يسلم لقضائه وحكمه ﷺ — التسليم الكامل المطلق ، ولا يذعن له الاذعان التام ويقبله عن طيب نفس — ناقص الايمان كذلك..

فهل نحتكم — اليوم — الى الرسول ﷺ فيما نختلف فيه ؟

وهل تقبل قلوبنا حكمه .. فلا نجد فى أنفسنا حرجا مما قضى به ؟

وهل نسلم له — ﷺ — التسليم الذى يطلبه الله منا ؟

أقولها — والأسى يملؤنى — ان الناس اليوم لم يرتضوا بحكم الله وشريعته قانونا يحكم حياتهم .. ولم يحتكموا الى الرسول ﷺ فى أمور دينهم ودنياهم .. بل يحتكمون دائما الى أهوائهم ومصالحهم مكتفين فى جميع الأحوال بالقشور الزائفة تحكم حياتهم .. تاركين سنة نبيهم وراء ظهورهم .. فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم..

يقول تعالى : « **وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من**

---

(١١٥) الأنبياء : ١٠٧
(١١٦) الغاشية : ٢٢ ، ٢٣
(١١٧) سورة ق : ٤٥
(١١٨) النساء : ٦٥

الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون • وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيرا من الناس لفاسقون • افحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »(١١٩) •

لقد أنزل الله القرآن بالصدق الذى لا شك فى أنه من عنده تعالى •• مصدقا لما تقدمه من الكتب المنزلة على رسله وأنبيائه •• وجعله تعالى مؤتمنا على كتب الله المتقدمة عليه ، حاكما وشاهدا عليها ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل ، لأنه مما حرفه وبدله احبار اليهود والنصارى ••

وفى ذلك يقول ابن عباس رضى الله عنهما : « القرآن شاهد على التوراة والانجيل ، وحاكم على ما قبله من الكتب » •

كما يقول ابن كثير : « جمع الله فى القرآن محاسن ما قبله •• وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره ، فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها ، وتكفل تعالى بحفظه » • •

الله تعالى يطلب من رسوله ﷺ — فى هذه الآية — أن يحكم بين أهل الكتاب والمشركين بما أنزله تعالى عليه فى القرآن فى الحدود والجروح وسائر الأحكام •• وأن يعرض عن اتباع أهوائهم فيما يدعونه اليه عن الذى جاءه من عند الله من الحق ، فيترك العمل بكتابه اتباعا لأهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء ••

والله تعالى •• قد جعل لكل أمة شريعة يعملون بها •• وطريقا بينا واضحا يسلكونه ، ولو أراد — جل شأنه — لجعل شرائعهم واحدة ولم يجعل لكل أمة شريعة خاصة ••

وواقع الأمر •• أن شرائع الأنبياء ، اذا كانت مختلفة فان دينهم

---

(١١٩) المائدة : ٤٨ — ٥٠

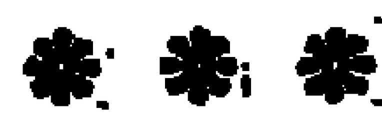
واحد .. لأن الدين عند الله هو الاسلام .. دين التوحيد .. وانما اختلفت هذه الشرائع تيسيرا على العباد ، فان ما يصلح فى عصر قد لا يصلح فى عصر آخر .. ولهذا قال تعالى : « **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** » .. فالله تعالى خالف بين شرائع الأمم ليختبرهم ، فيعرف المطيع من العاصى ، والعامل من المخالف .. أما الدين : فهو واحد .. وأما الهدف فما اختلف أبدا : « **اعبدوا الله ، ما لكم من اله غيره** » (١٢٠) .

يأمرنا تعالى — فى هذه الآيات — أن نتبادر ونتسابق الى فعل الصالحات التى تقربنا من رضوانه .. فاليه سبحانه مصيرنا جميعا ، فيخبرنا بأعمالنا ويفصل بيننا بقضائه العادل .. وحينئذ يتبين المحق من المبطل ، والبر من الفاجر ..

ويطلب تعالى من رسوله أن يحكم بينهم بحكم الله الذى أنزله اليه فى كتابه ، وألا يتبع أهواء اليهود ، وأن يحذرهم أن يصدوه عن العمل بما أنزل الله اليه .. فان هم أعرضوا عن قبول حكمه ، فليعلم أنهم لم يتولوا عن الرضا به الا من أجل شقائهم وتعاستهم بسبب ذنوبهم السالفة .. وان أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم الى معصيته ، فيطلبون حكم الجاهلية من عبدة الأوثان ويتركون حكم الله جل وعلا .. وأى حكم أحسن من حكم الله لمن أيقن بوحدانيته وأقر بربوبيته ..

فلماذا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا .. ونستورد فلسفتنا وأفكارنا من أرسطو وأفلاطون وأفلوطين .. ونقول بوحدة الوجود ، والحقيقة المحمدية ، وخاتم الأولياء ؟ !

اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..



---

(١٢٠) الأعراف : ٥٩

خاتمة

« الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله »[1] .

يقول الله تعالى : **« والعصر . ان الانسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[2] .**

يقسم تعالى بالدهر .. والله هو خالق الدهر ..

ويقول سبحانه فى الحديث القدسى : « يؤذينى ابن آدم : يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار » .. فكأنه تعالى يقسم بذاته .. فالزمن لا يصنع بالناس خيرا ولا شرا ، مما يفرح الناس به أو يحزنون .. وانما يسوق ذلك رب الزمان والمكان ..

ويؤكد لنا جل شأنه بهذا القسم العظيم ، أن الناس جميعا فى هلكة ونقصان ..

ثم استثنى — تعالى — من الهالكين : الذين صدقوا الله ، وأقروا له بالوحدانية ، وأدوا فرائضه ، واجتنبوا معاصيه .. ووصفهم — جل شأنه — بأنهم الذين يوصى بعضهم بعضا بلزوم العمل بكتابه ، واجتناب ما نهى عنه ، وأنهم يتواصون بالصبر على العمل بطاعة الله تعالى ..

لقد حكم — تعالى — بالخسران على جميع أفراد البشر ، الا من اتصف بهذه الخصال الأربع : الايمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالمعروف ، والتواصى بالبر .

ويقول الامام الشافعى رضى الله عنه : « لو لم ينزل الله سوى هذه السورة لكفت الناس » . فقد جمعت خصال الايمان والعمل الصالح ..

وعلى هذا .. أوصى نفسى كما أوصى قومى بالحق ..

والحق .. أن الاسلام دين التوحيد ، وليس الوحدة ..

---

(١) الاعراف : ٤٣   (٢) سورة العصر .

الحق .. أن الله تعالى واحد أحد ، فرد صمد .. خلق الأشياء وليس هو عينها ..

الحق .. أن الله تعالى هو المدبر الحكيم .. يدبر شئون الخلق منذ أوجدهم الى أن يقبضهم اليه .. هو وحده المدبر ، وليس ديوان الصوفية أو مجلس الأقطاب .

« ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »(٣) .

الحق .. أن الرسول ﷺ بشر مثلنا .. اصطفاه الله علينا ، فأكرمه بالنبوة ، واختصه بالرسالة .. وحقيقته — ﷺ — أنه خير خلق الله كلهم .. **« قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي »**(٤) .

وأولياء الله هم **« الذين آمنوا وكانوا يتقون »**(٥) .. آمنوا بالله ربا فعبدوه دون سواه .. واتقوه — تعالى — فالتزموا بالعمل بكتابه وسنة رسوله ، وانتهوا عما نهى عنه ، ولا دخل لهم فى الكرامات التى يجريها الله على أيديهم ، اظهارا منه تعالى لكرامتهم بين الناس ..

الحق .. أن الاستعانة ، والاستغاثة ، والتوجه بالدعاء ، والنذر لغير الله .. كل ذلك من الشرك .

كما أوصى نفسى — امتثالا لأمر الله — بالصبر على ما لقيت من أذى حين ظهر كتابى السابق « من وصايا القرآن الكريم » ، وتحدثت فيه عن بعض جوانب للتصوف فى معرض التدليل على انفراد الله تعالى وحده بمعرفة الغيب .. فما كاد ذلك الكتاب يطرح بين أيدى القراء ، الا وقامت ضجة مفتعلة ، واكبها اتهام ظالم لى بكراهية الأولياء ، والعداء للصوفية !!

فى حين أننى التزمت فى كل ما سطرته — فى ذلك الكتاب — بالحرص على اتخاذ موقف الحياد التام بين أنصار التصوف وخصومه ،

---

(٣) الانعام : ١٠٢ ، ١٠٣ (٤) الكهف : ١١٠

(٥) يونس : ٦٣

فعرضت لكل طرف من الأطراف رأيه ، ثم علقت على ذلك الرأى بما يوضحه للقارىء غير المتخصص !!

قامت تلك الضجة .. على غير أساس — سوى الاختلاف بين وجهات النظر — فى موضوع هو للخرافة والأسطورة أقرب منه الى الحقيقة .. بعد أن ألصق بالاسلام — زورا — الكثير من الخرافات والأساطير التى تنكرت تحت عباءة التصوف الاسلامى .. فأساءت الى التصوف نفسه أكثر مما أساءت الى الاسلام !!

وقد دفعتنى تلك الضجة المفتعلة وما صاحبها من حملة ظالمة .. الى مناقشة بعض المسائل التى حفل بها الفكر الصوفى — فى عصوره المتأخرة — والى الموازنة فى تعرضى لهذه المسائل بين غلو الأنصار ، ومغالاة الخصوم .. فكان هذا الكتاب !!

وأحمد الله تعالى .. على أن تلك الأمور التى واجهتنى عند ظهور كتابى السابق لم تؤثر على آرائى ، أو تغير من اصرارى على الالتزام بالحياد التام ، والموضوعية الكاملة فى كل ما أتعرض له من مسائل فى موضوع التصوف الاسلامى .. ذلك الموضوع الشائك الذى طال من حوله الجدل !!

وماذا يكون التحرش أو التهجم والسباب ، والافتراء بالباطل .. الى جانب ما يلاقيه كل من يدعو الى طريق الله الواضحة من ايذاء ؟ !

ان الأمر لأتفه من أن يعرقل الخطو ، أو أن يعلق بالذاكرة .. وعند الله وحده أحتسب ما لاقيت !!

وواضح — فى هذا الكتاب — اننى لم أنطلق فى كل ما سطرته الا من المنطلق الاسلامى وحده .. ولم أحرص الا على التمسك بافراد الله وحده بالألوهية والربوبية : فى ذاته وصفاته .. فهو تعالى وحده المنفرد فى ذاته ، المتفرد فى صفاته .. وليس كمثله شىء وهو السميع البصير ..

* * *

ومن الظلم لكاتب هذه السطور .. اتهامه بالعداء للأولياء والصالحين .. فقد قرأت ووعيت تماما قول الله تعالى : « ألا ان أولياء

الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم » (٦) .

ولهذا أعرف حق المعرفة خطورة معاداة الأولياء والصالحين .. فليس لعاقل أن يتعرض لمحاربة الله جل شأنه حين يقدم على معاداة صنف من الناس اختصهم الله تعالى بالكرامة والهداية .. ليس لعاقل أبدا أن يعرض نفسه لذلك وهو يعرف الحديث القدسى الذى يقول فيه تعالى : « من آذى لى وليا فقد استحل محاربتى »(٧) .. فليس لى بمحاربة الله تعالى من طاقة ؟ !

ومن الظلم والتجنى — أيضا — اتهام كاتب هذه السطور بمحاربة الصوفية ؛ والعداء للمتصوفين !!

لقد ولد — كاتب هذه السطور — فى بيئة صوفية خالصة .. وكان أبى — يرحمه الله — من أبناء الطريقة الخلوتية .. سلك الطريقة وتتلمذ على يد شيخها الأسبق فضيلة الشيخ « عبد الجواد محمد الدومى » ، وكان الدومى رحمه الله رجلا صالحا من علماء الأزهر الأجلاء ، وكان اماما وخطيبا لمسجد « السباعى » بالسبتية .. وقد تتلمذ بدوره على يد عالم جليل من علماء الصعيد هو فضيلة الشيخ « عبد الجواد المنسفيسى » .. رحمهما الله ورضى عنهما ..

كان الرجلان من أفاضل العلماء تقى وورعاً .. وعليهما تتلمذ أبى وسلك الطريق ..

ولقد قضى أبى حياته كلها يفخر ويعتز بأن « سيدنا الشيخ » هو الذى أطلق على وليده — كاتب هذه السطور — الاسم الذى يحمله منذ ولد الى أن يلقى الله تعالى .. وكان يرى فى مبادرة شيخه الى هذه التسمية علامة من علامات الصلاح والفلاح التى يرتجيها لوليده !!

بل لقد هم — كاتب هذه السطور — فى صدر شبابه ، وللشباب

---

(٦) يونس : ٦٢ — ٦٤

(٧) رواه احمد وابو يعلى والطبرانى وابو نعيم وابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها .

نزوات لعل الله يغفرها ويتجاوز عنها ، هم بأن يسلك الطريق التى سبقه اليها أباه وخاله ، وأن ينتسب الى الصوفيه .. ولكن شاءت عناية الله أن تجنبه خوض هذه التجربة فكان فى ذلك الخير الكثير الذى يحمد الله عليه ..

والطريقة الخلوتية — التى انتسب اليهـا أبى — طريقة مؤيدة بالشريعة الغراء .. وليس فيها تكليف بما لا يطاق .. ولا نعـدو الحقيقة حين نقول انها أفضل الطرق الصوفية ، لأن ذكرها « لا اله الا الله » .. وهو أفضل ما يقول العبد ، كما فى الحديث الشريف ..

ويقول الصوفيون : ان الرسول ﷺ لقن ذلك الذكر لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه .. فعن يوسف الكورانى العجمى بسنده : أن عليا رضى الله عنه وكرم وجهه سأل النبى ﷺ فقال : يارسول الله ، دلنى على أقرب الطرق الى الله وأسهلها على عباده ، وأفضلها عند الله تعالى .. فقال : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا اله الا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين فى كفة ، ولا اله الا الله فى كفة ، لرجحت بهم لا اله الا الله » .. ثم قال ﷺ : « ياعلى ، لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول : لا اله الا الله » ..

ويقولون : ان عليا رضى الله عنه قال : كيف أذكر يارسول الله ؟ .. فقال ﷺ : « أغمض عينيك واسمع منى الذكر ثلاث مرات ، ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع » ..

فقال عليه الصلاة والسلام : « لا اله الا الله » ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته وعلى يسمع ، ثم قال على كرم الله وجهه : « لا اله الا الله » ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صـوته والنبى ﷺ يسمع ..

كما يقولون : ان عليا كرم الله وجهه لقن ذلك الذكر للحسن البصرى، الذى لقنه لتليمذه حبيب العجمى — وهو لقن داوودا بن نصير الطائى ، وهو اقن معروفاً الكرخى ، وهو لقن سرياً السقطى ، وهو لقن أبا القاسم الجنيد .. الذى تفرعت عنه سائر الطرق الصوفية المشهورة ..

والجنيد بن محمد البغدادى — وهو أبو القاسم الخزاز الصوفى (ت ٢٩٧ هـ) — صوفى من العلماء بالدين ، ولد ونشأ ببغداد ، وقد عده العلماء شيخ مذهب التصوف ..

ويقال انه حج الى مكة ثلاثين حجة .. وكان رفيع المقام ، ولكنه كان يأخذ فى يده « مسبحة » ، فقيل له فى ذلك ، فقال : طريق وصلت به الى ربى لا أفارقه ..

ومن كلامه : « طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، ولم يتفقه .. لا يقتدى بنا » ..

لذا عرف بسيد الطائفة ، وطاووس العلماء ..

وتنسب الطريقة الخلوتية الى محمد ميرام الخلوتى ، عن عمر الخلوتى ، عن أخى محمد الخلوتى ، عن ابراهيم الزاهد التكلانى ، عن جمال الدين التبريزى ، عن شهاب الدين محمد الشيرازى ، عن ركن الدين محمد النجاشى ، عن قطب الدين الأبهرى ، عن أبى النجيب السهروردى ، عن عمر البكرى ، عن وجيه الدين القاضى ، عن محمد البكرى ، عن محمد الدينورى ، عن ممشاد الدينورى ، عن الجنيد بن محمد البغدادى — سيد الطائفة الذى انتهت اليه الطرق المشهورة ..

وقد أخذ أبى العهد على يد شيخه عبد الجواد محمد الدومى ، الذى ورث المشيخة عن شيخه عبد الجواد المنسفيسى ، عن أحمد الصاوى ، عن أحمد الدردير ، عن محمد بن سالم الحفناوى ، عن مصطفى البكرى ، عن عبـد اللطيف الحلبى ، عن مصطفى أفنـدى الأدرنوى ، عن على قرا باشا أفندى ، عن اسماعيل الجارومى ، عن عمر الفؤادى ، عن محيى الدين القسطمونى ، عن شعبان القسطمونى ، عن خير الدين التوقادى ، عن جلبى سلطان الاقداى الشهير (بجمال الخلوتى) عن محمد بن بهاء الدين الأرزنجانى ، عن يحيى الباكوبى ، عن صدر الدين الخنانى ، عن الحاج عز الدين ، عن محمد ميرام الخلوتى الذى تنسب اليه الطريقة الخلوتية ..

وشيخ الطريقة — الحالى — هو فضيلة الشيخ عامر عبد الرحيم سعيد ، الذى ورث المشيخة عن الشيخ محمد الطاهر الحامدى ، عن

السيد / محمد أحمد الرملى ، عن الشيخ عبد الجواد محمد الحومى — شيخ أبى ..

ولم يتخذ الخلوتية لهم زياً يميزهم عن غيرهم .. فى حين أن لكل طريقة لوناً خاصا ، فنرى للأحمدية اللون الأحمر ، وللرفاعية اللون الأسمر ، وللبرهمية الأخضر ، وللشاذلية أعلام مختلفة ، وللمرغنية الأبيض ... الخ .

ولهم فى الطريق أصول هى : الجوع وممارسة الصوم ، والعزلة تمهيداً للخلوة ، والصمت ، والسهر للذكر والفكر — وأقله ثلث الليل الأخير حتى طلوع الشمس — ودوام الذكر الذى يلقيه الشيخ الى المريد ..

وأول الذكر بالاسم الأول وهو : « لا اله الا الله » .. فيذكره المريد ويجتهد فيه ويكرره ، ولا ينتقل عنه الى الاسم الثانى الا باشارة شيخه .. ومن هنا قلنا ان هــذه الطريقة هى أفضل الطرق الصوفية المعروفة ..

وللطــريق مهمات : كالتوبة ، والخوف ، والرجاء ، والحزن ، والقناعة ، والزهد ... الخ .

وله لوازم : وهو الشيخ ، ومداومة الذكر ، والاقتصاد فى الحلال ، وحفظ القلب ، وعدم استبطاء الفتح .. الخ ..

والمقصود من روايتى لهــذه السلسلة الطويلة من رجال الطريقة الخلوتية .. واحتفاظ الذاكرة بأسمائهم طيلة هذه المدة .. أن هذه النشــأة وهذه التربية .. تجعلان من الظلم والتجنى اتهامى بالعداء للأولياء أو محاربة التصوف والصوفية !! ولكن الحرص على سلامة العقيدة ، أثمن وأغلى عندى من كل عاطفة ، ولو كانت عاطفة القرابة أو وشيجة الدم !!

وكما قلت من قبل .. نحن لا نعادى الصوفية ولا نحاربها اذا تمسكت بكتاب الله وسنة رســوله ، واذا دعت الى صــفاء النفس ونقاء العقيدة ..

نحن لا نعادى الصوفية ولا نحاربها اذا دعت الى التجرد من علائق الدنيا — دون مقاومتها — وعملت على التفرغ لطلب الآخرة دون القعود عن عمارة الدنيا .

نحن لا نعادى الصوفية اذا كانت تدعو الى الرهبة من الخالق لا من الخلق .. واذا ما جعلت يقينها أن ما يصيبنا لم يكن ليخطئنا ، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا .

نحن لا نعادى الصـــوفية اذا دعت الى ارجاع كل الأمور الى الله تعالى دون خوف من مخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا أذى .

وأخيرا .. أقول : نحن لا نملك معاداة الصوفية أو محاربتها .. اذا كان السالكون طريقها أطهار الذيل ، أعفاء النفوس ، زاهدين فى كل ما فى أيدى الناس ، مطمئنين الى ما عند مسبب الأسباب ..

وحين تحرص الصوفية على التزام هذا النهج .. تصبح حقاً ذروة الايمان فى التقى والجرأة ، والاقدام والاخلاص .. ولا يوجد — فى تقديرنا — عاقل يرغب فى محاربة مثل هذه المبادىء الفاضلة ..

أما حين تحيد الصوفية عن أمر الله ، وحين تعرض عن كتابه وسنة رسوله !!

أما حين تدعو الى وحدة الوجود ، والى الحقيقة المحمدية ، والى خاتم الأولياء !! ، وحين تتمسك بالخرافات والأساطير التى تسىء الى التصوف نفسه بأكثر مما تسىء الى الاسلام !! ، فاننا لا نملك أبدا مسالمتها أو مهادنتها .. ولا نستطيع أبدا السكوت على زيغها وانحرافها ، مهما كان الثمن غاليا ..

ومجمل القول : اننا لا نعادى الا الخرافة والأسطورة فى الدين .. ولا نحارب الا منازعة الله تعالى خصائصه واشراك عباده فيها ..

والله الموفق .. وهو المستعان .

« ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين »(٨) .

وآخر دعوانا : **« أن الحمد لله رب العالمين »**(٩) .

* * *

---

(٨) الأعراف : ٨٩ (٩) يونس : ١٠

مراجع الكتاب

١ — القرآن الكريم .
٢ — الابريز ، للدباغ ، ط ١٢٩٢ هـ (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .
٣ — ابن الفارض : سلطان العاشقين ، د . محمد مصطفى حلمى ، سلسلة أعلام العرب (١٥) ١٩٦٣ م .
٤ — اتحاف الكائنات ، للشيخ محمود خطاب السبكى .
٥ — احياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالى ، نشر دار الشعب .
٦ — أسباب النزول ، للنيسابورى ، نشر دار الكتب العلمية ببيروت .
٧ — اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، لابن القيم ، نشر دار التراث العربى .
٨ — الانسان الكامل فى معرفة الأواخر والأوائل ، لعبد الكريم الجيلانى ، نشر صبيح .
٩ — بداية الهداية ، لأبى حامد الغزالى ، نشر دار التراث العربى .
١٠ — البدعة : تحديدها وموقف الاسلام منها ، د . عزت على عيد عطية ، دار الكتب الحديثة (الاسلامية) .
١١ — تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ، للشيخ ناصر الدين الألبانى ، نشر المكتب الاسلامي ببيروت .
١٢ — التصوف الاسلامي بين الدين والفلسفة ، د . ابراهيم هلال ، نشر مكتبة النهضة العربية .
١٣ — تفسير روح المعانى ، للآلوسى ، ادارة الطباعة المنيرية .
١٤ — التفسير والمفسرون ، د . محمد حسين الذهبى ، نشر مكتبة وهبة .
١٥ — التوسل : أنواعه وأحكامه ، للشيخ ناصر الدين الألبانى ، نشر بيروت ، ١٣٩٧ هـ .
١٦ — جامع الأصول فى الأولياء ، للكمشخانلى ، (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .
١٧ — الجانب العاطفى من الاسلام ، للشيخ محمد الغزالى ، نشر دار الكتب الحديثة (الاسلامية) .
١٨ — جواهر المعانى فى فيض التيجانى ، لعلى بن حرازم (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .
١٩ — حقيقة التوحيد ، د . يوسف القرضاوى ، نشر مكتبة وهبة .
٢٠ — حقيقة التوسل والوسيلة على ضوء الكتاب والسنة ، للأستاذ موسى محمد على ، نشر دار التراث العربى .

٢١ — حقيقة مذهب الاتحاديين ، لابن تيمية (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .

٢٢ — حكمة الاشراق ، للسهروردى ، نشر هنرى كوربانى (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .

٢٣ — حلية الأولياء ، لأبى نعيم الأصفهانى ، نشر مكتبة الخانجى .

٢٤ — الدعوة الاسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ، للشيخ محمد الغزالى ، نشر مكتبة وهبة .

٢٥ — الدين الخالص ، للشيخ محمود محمد خطاب السبكى ، نشر الجمعية الشرعية .

٢٦ — رسالة فى معرفة الحقائق ، لمحمد الدمرداشى (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .

٢٧ — رسالة لأحمد عبد المنعم الحلوانى (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .

٢٨ — الرسالة القشيرية ، للقشيرى ، مطبعة التقدم العلمية ، ١٣٤٦ هـ .

٢٩ — رماح حزب الرحيم ، لعمر بن سعيد الفوتى (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .

٣٠ — زاد المعاد فى هدى خير العباد ، لابن القيم ، نشر المطبعة المصرية ومكتبتها .

٣١ — السيد البدوى : شيخ وطريقة ، د . سعيد عبد الفتاح عاشور ، سلسلة اعلام العرب (٧٨) ، ١٩٦٦ م

٣٢ — السيرة النبوية ، لابن هشام ، نشر دار التراث العربى .

٣٣ — صحيح مسلم بشرح النووى ، نشر دار الشعب .

٣٤ — صحيح البخارى ، للامام البخارى ، نشر دار الشعب .

٣٥ — الصوفية فى نظر الاسلام ، للأستاذ سميح عاطف الزين ، نشر دار الكتاب اللبنانى — بيروت .

٣٦ — طبقات الشاذلية الكبرى ، للكوهنى (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .

٣٧ — الطبقات الكبرى ، للشعرانى ، نشر صبيح .

٣٨ — عقيدة الشيعة ، لرونلدسن (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .

٣٩ — العقيدة والشريعة ، لجولد زيهر (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .

٤٠ — علم الحديث ، لابن تيمية ، نشر دار الكتب الاسلامية .

٤١ — عجائب الآثار ، للجبرتى ، طبع بولاق — القاهرة .

٤٢ — الفتاوى الأمينية ، للشيخ أمين محمود خطاب السبكى ، نشر الجمعية الشرعية .
٤٣ — الفتاوى الكبرى ، لابن تيمية ، نشر دار المعرفة ببيروت .
٤٤ — الفتح الربانى والفيض الرحمانى ، لعبد الغنى النابلسى — نشرته دار التراث العربى سنة ١٩٨٦ باسم « حقائق الاسلام وأسراره » .
٤٥ — الفتوحات المكية ، لابن عربى ، طبع بولاق — القاهرة .
٤٦ — فصوص الحكم ، لابن عربى ، تحقيق د . أبو العلا عفيفى .
٤٧ — الفكر الاسلامى فى تطوره ، د . محمد البهى ، نشر مكتبة وهبة .
٤٨ — فقه السنة ، للشيخ السيد سابق ، نشر دار التراث العربى .
٤٩ — قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة ، لابن تيمية ، طبع المنار ، ١٣٥٤ هـ .
٥٠ — قصص الأنبياء ، لابن كثير ، نشر دار التراث العربى .
٥١ — قوت القلوب ، لأبى طالب المكى (مشار اليه فى : هذه هى الصوفية) .
٥٢ — الكبائر ، للذهبى ، نشر دار التراث العربى .
٥٣ — كشف الوجوه الغر ، للقاشانى (مشار اليه فى : هذه هى الصوفية) .
٥٤ — الكواكب الدرية ، لعبد الرؤوف المناوى (مشار اليه فى : هذه هى الصوفية) .
٥٥ — لسان العرب ، لابن منظور ، نشر دار المعارف بمصر .
٥٦ — اللمع ، للطوسى ، تحقيق د . عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور ، نشر دار الكتب الحديثة (الاسلامية) .
٥٧ — ليس من الاسلام ، للشيخ محمد الغزالى ، نشر دار الكتب الاسلامية .
٥٨ — مختصر تفسير الطبرى ، اختصار وتعليق الشيخ محمد على الصابونى ، و د . صالح أحمد رضا ، نشر دار التراث العربى .
٥٩ — المدخل ، لجوتييه (مشار اليه فى : هذه هى الصوفية) .
٦٠ — مدخل الى التصوف الاسلامى ، د . أبو الوفا التفتازانى ، نشر دار الثقافة .
٦١ — مشكاة الأنوار ، لأبى حامد الغزالى ، تحقيق ونشر الدار القومية .
٦٢ — المصريون المحدثون ، للمستشرق لين (مشار اليه فى : هذه هى الصوفية) .
٦٣ — المصطلحات الأربعة فى الاسلام ، لأبى الأعلى المودودى ، نشر دار التراث العربى .

٦٤ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، نشر دار الشعب .

٦٥ — مفتاح السعادة ، لطاش كبرى زاده (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .

٦٦ — مفتاح الفلاح ، لابن عطاء الله السكندرى .

٦٧ — مقاييس اللغة ، لابن فارس .

٦٨ — منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ، للأستاذ عز الدين بليق — بيروت .

٦٩ — من وصايا القرآن الكريم ، لمحمد الأنور أحمد البلتاجى ، نشر دار التراث العربى .

٧٠ — مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم ، لابن عربى ، ط القاهرة ، ١٣٨٤ هـ .

٧١ — النفحات الأقدسية شرح الصلوات الادريسية ، لمحمد بهاء الدين البيطار (مشار اليه فى : هـذه هى الصوفية) .

٧٢ — هـذه دعوتنا ، للشـيخ عبـد اللطيف مشتهرى ، نشر دار الاعتصـام .

٧٣ — هـذه هى الصوفية ، للأسـتاذ عبد الرحمن الوكيل ، نشر دار الكتب العلمية ببيروت .

٧٤ — الوحى والقرآن الكريم ، د . محمد حسين الذهبى ، نشر مكتبة وهبة .

٧٥ — اليواقيت والجواهر ، للشعرانى ، ط ١٢٧٧ هـ ، القاهرة .

● دوريات :

١ — جريدة الأهرام القاهرية الصادرة فى ١٩٨٥/١/٦

٢ — جريدة الأهرام القاهرية الصادرة فى ١٩٨٥/٢/١٨

٣ — جريدة الأهرام القاهرية الصادرة فى ١٩٨٦/١/٥

٤ — جريدة الأهرام القاهرية الصادرة فى ١٩٨٦/١/١٥

٥ — جريدة أخبار اليوم الصادرة فى ١٩٨٦/٢/١٨

٦ — مجلة الاذاعة المصرية — الصادرة فى ١٩٥٧/٩/٧

٧ — مجلة التصوف الاسـلامى — العدد ٧٠ (ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ — ديسمبر سنة ١٩٨٤ م) .

٨ — مجلة التصوف الاسلامى — العدد ٧٢ (جمادى الأولى سنة ١٤٠٥ هـ — فبراير سنة ١٩٨٥ م) .

٩ — مجلة اللواء الاسلامى — العدد ٢٠٩ فى ١٩٨٦/١/٢٣

١٠ — مجلة اللواء الاسلامى — العدد ٢١٠ فى ١٩٨٦/١/٣٠

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

الفصل الثامن : تعظيم القبور ، وتقديس المقبورين
(٢٤٨ — ٣٣٠)

الفصل التاسع : فى مسألة التوسل والوسيلة
(٣٢١ — ٣٧٣) .

الفصل العاشر : حلقات للذكر ، أم حفلات للزار ؟ !
(٣٧٤ — ٤٠٧)

الصفحة

* * *

رقم الايداع بدار الكتب ٣٥٩٩/٨٦
الترقيم الدولى ٩٧٧-٣٠٧-٠٧٢-٧

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر: ٣٠ حيضان الموصلي
بجوار جامع الدعاء

هــذا الكتــاب

« وإلهكم إلـه واحد ، لا إلـه إلا هو الرحمن الرحيم » . . « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير » .

[قـرآن كـريم]

« . . إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

[حـديث شـريف]

● الأصل الذي جاءت به رسالات الأنبياء جميعا ـ وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ـ هو الإقرار بتوحيد الله تعالى . . بغير وسطاء ولا شركاء ولا شفعاء . .

● وانتشر الإسلام بدعوته الراقية لتحرير الفكر الانسانى من ربقة التذلل والخضوع والخشية ـ إلا لله وحده ـ وظلت هذه الدعوة الصافية تجذب العقل البشرى إلى عقيدة التوحيد التى هى أصل الإسلام . حتى دخلت الفلسفة اليونانية وغيرها من الفلسفات إلى المشتغلين بفلسفة الفكر الاسلامى . فوقع بعضهم فى ربقة هذه الفلسفات الغريبة عن الاسلام . . وجعلوا منها مذاهب أسموها مرة بالإشراق ، وأخرى بأهل الحقيقة ، وأهل المعرفة ، والصوفية . . إلخ . وتطورت من أستاذ ومريد . إلى شيخ عالم بالأسرار ، ثم إلى واسطة بين الله والعباد ، ثم إلى شيخ تجسدت فيه روح الله . إلخ !!

● وفى ظل هذه الأفكار الدخيلة على الإسلام الصحيح . ظهر من ينادى بنظرية « وحدة الوجـود » فى مقابل عقيدة « التوحـيد » التى هى الأساس لجميع الأديان السماوية !!

● وهذا الكتـاب « الله . . توحيد ، وليس وحدة » : يُجلى لنا « عقيدة التوحيد » كما جاء بها الإسلام الحنيف . ويكشف الغطاء عن حقيقة « التصوف الإسلامى » . . نشأته . . وتطوره . وتأثره بالنظريات الغريبة عن الإسلام الصحيح مثل « وحدة الوجود » . . و « الحقيقة المحمدية » و « خاتم الأولياء » . . كما يعرض نظريات الصوفية فى « التفسير الباطنى للقرآن الكريم » . . وعقيدتهم فى « الوحى . والنبوة . . والولاية » . . ومفهومهم « للمعجزة والكرامة » والإدعاء بعلم الغيب . . وتعظيم القبور وتقديس المقبورين .. « التوسل والوسيلة » . . إلخ

● ومن منطلق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . غاص « مؤلف الكتاب » فى بطون الكتب والمراجع لكشف المستور عما أحاط هذه الأمور من بدع وأهواء ، ويناقش هذه الآراء بالنصوص الواردة فى القرآن الكريم . . والسنة النبوية الشريفة .

● ويسر « مكتبة وهبة » أن تقوم بنشر هذا الكتاب ، ليعرف العالم العربى والإسلامى أن « الله . توحيد ، وليس وحدة » وبالله التوفيق .

مكتبة وهبة